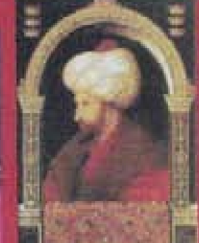









تاريخ الدولة العثمانية

[النشأة - الازدهار]

وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة

تأليف الدكتور

سيد محمد السيد محمود





42 Opera Square - Cairo Tel: (202) 23900868

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت: ٢٣٩٠٠٨٦٨

تاريخ الدولة العثمـــــانية

النشأة والازدهار

" وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة "

دكتور/ سيد محمد السيد محمود

أستاذ التاريخ والحضارة العثمانية المساعد

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

الناشر

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبر ، القاهرة ت. ٣٩٠٠٨٦٨



الناشر

مكتبة الآداب

الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

محمود ، سيد محمد السيد

تاريخ الدولة العثمانية : النشأة والازدهار

وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة - سيد محمد السيد محمود . - القاهرة: مكتبة الآداب ، ٢٠٠٧.

٤٦٤ ص ؛ سم.

تدمك ٢ ٢٥٣ ٤٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الإمبراطورية العثمانية

أ - العنوان

٩٥٣,٠٩

عنوان الكتـــاب: تاريخ الدولة العثمانية

الدكتـــــور: سيد محمد السيد محمود

رقم الإيـــداع: ٢٠٥٧٩ لسنة ٢٠١٠ م

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 978-977-468-253-2

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة

هاتف ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢) -

e-mail: adabook@hotmail. com

الإهــداء

إلى كل من بذل جهداً

لإماطة اللثام عن حقائق التاريخ العثماني

ووضع الجيل الجديد على طريق إجراء دراسات منصفة

حول تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها



تقـــــــــــديم

أن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفـــسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وبعد ...

لقد احتل التاريخ العثمانى مساحة زمانية ومكانية مديدة ربطت بين العـــصرين الوسيط والحديث والجناحين الشرقي والغربي على مدى أكثر من ستة قرون متتالية . فقد شهدت الدولة العثمانية مرحلة المخاض العسير في الانتقال بـــين العـــصرين الوســيط والحديث ، حيث سقطت دول وإمبراطوريات وقامت أخرى ، وزالت أسرات حاكمة وظهرت أخرى ، وأعيد تقسيم مناطق الربع المسكون من العالم من جديد . وخلال هذه المرحلة ، لعبت الدولة العثمانية دوراً هاماً في منطقة امتدت من بلاد فـــارس والخلـــيج العربي شرقاً وحتى بلاد النمسا والمغرب غرباً ، ومن جنوب موسكو والقفقاس وبولنـــدا شمالاً وحتى بلاد الحبش والمحيط الهندي جنوباً ، فكانت العنصر الفعّال في حالات المـــدّ والجذر في تلك المنطقة سواء خلال عصر نشأتها وازدهارهـــا أو في عـــصر الـــضعف والانهيار.

والحقيقة أن هذا التأثير البعيد المدى للتاريخ العثماني امتد حتى عصرنا الحاضر. فقد نتج عن المخاض الأخير للدولة العثمانية مشكلات إقليمية لازالت تلعب دوراً هاماً في السياسة الدولية حتى اليوم ، الأمر الذي يجعلنا في حاجة ماسة لدراسة تاريخ هـــذه الدولة دراسة محايدة بعيدة عن التعصب والإنحياز أو التحامل والتشويه ، وذلك للبحث عن جذور هذه المشكلات ، ومن ثم لإماطة اللثام عن الكثير من الحقائق المغيبة حـــول تاريخ الدولة العثمانية . عندئذ سينجلي أمام القاصي والداني حقيقة الادعـــاءات الـــتي أطلقها البعض حول الإستعمار العثماني ، ومساوئ الحكم العثمـــاني ، ودور الدولـــة العثمانية في تأخر العالم العربي ورجعيته ، وغيرها من القضايا التي لا زالت تلقي بظلالها على الدراسات العثمانية في العالم العربي حتى اليوم .

وقد حاولت في هذا الكتاب تقديم مادة خصبة لدارسي التاريخ العثماني توفر لهم خلفية تاريخية واضحة المعالم عن دولة آل عثمان خلال مرحلتي التأسيس والإزدهار ؛ كما حرصت على الإستعانة بأحدث الدراسات والأبحاث التركية وما توصلت إليه من نتائج ، وحاولت ألا يكون هذا العرض سرداً للوقائع السياسية والعسكرية للدولة فقط ، فقمت بتذييلها بعرض أهم الإنجازات الحضارية التي حققتها الدولة مع التركيز على تشكيلاتها ونظمها الإدارية والمالية والعسكرية .

وقد قسمت الكتاب إلى مدخل وأربعة فصول وخاتمة ، فتعرضت في المدخل لتاريخ الدول التي قام الترك بتأسيسها قبل اعتناقهم الإسلام وبعده ، وفي الفصل الأول تتبعت وقائع الدولة العثمانية خلال مرحلة التأسيس وأهم إنجازاتها الحضارية ؛ أما في الفصل الثاني ، فقد استعرضت وقائع الدولة العثمانية خلال عصر الازدهار ؛ وفي الفصل الثالث تتبعت عوامل الخلل التي أدت إلى ضعف الدولة ؛ أما الفصل الرابع والأخير فقد خصصته لعرض الملامح العامة لنظم الدولة العثمانية وتشكيلاتها العرفية والإدارية والعسكرية . وأخيراً اختتمت هذا العرض بتحليل شامل للمراحل التي مرت بها الدولة خلال مرحلتي التأسيس والازدهار ، وذلك حتى ظهور الملامح الأولى لضعف الدولة واضطراب مؤسساتها .

هذا ، وإنني إذ أرجو أن أكون بهذا العرض السريع لمرحلتي النشأة والازدهار في الدولة العثمانية قد استطعت إماطة اللثام عن كثير من المفاهيم التي هي في أمسّ الحاجة إلى الإيضاح ، لأتمنى أن يفيد منه القارئ والدارس .

والله ولي التوفيق ، ، ،

دكتور

سيد محمد السيد محمود

سوهاج ٢٠٠٧



المحتـــويات

الموضوع	الصفحة

الفصـــل الأول

مرحلة التأسيس (٧٤ – ١٨١)

الفصل الثاني

الدولة العثمانية في عصر الإمبراطورية ، مرحلة الإزدهار (١٨١- ٣٣٥)

الفصـــل الثـــالث

عوامل الخلل وأسباب الإنهيار (٣٣٥- ٣٩٥)

الفصـــل الرابـــع

المظاهر الحضارية للدولة العثمانية في مرحلتي التأسيس والازدهار (٣٩٥ – ٤٥٣)

المــدخل

مكانة الترك في التاريخ الإسلامي

أهم الدول التي أقامها الترك قبل اعتناقهم الإسلام وبعده

الگوكتورك ، القره خانيون

الغزنويون ، سلاجقة إيران والعراق ، سلاجقة الأناضول

(٩٨ ق. هـــ - ٧٠٨هـــ / ٥٢٥- ١٣٠٨م)



مكانة الترك في التاريخ

لقد أكدت الدراسات الحديثة أن الترك قد احتلوا مكانة مرموقة كأحد أقدم شعوب العالم وأكثرها استمراراً وبقاءاً عبر العصور ، حيث أثبتت هذه الدراسات أن تاريخهم راح يضرب بجذوره في أعماق التاريخ إلي ما يقرب من أربعة آلآف عام[1] .

والحقيقة أن حركات الهجرة المستمرة التي بدأت من مواطن الترك في وسط آسيا منذ وقت مبكر ، تبين أن الترك من أعظم الشعوب كثافة سكانية في العالم ، الأمر الذي جعلهم يلعبون دوراً هاماً في التاريخ البشري . إلا أن حالة الترحال الدائم للترك وانتشارهم في محيط مكاني وزماني شاسع ، جعل تتبع أخبارهم وتحرير تاريخهم من الصعوبة بمكان ، حيث يمكننا مشاهدة جماعات تركية مختلفة في أماكن متباينة في كل عصر . ومن ثم فإنه لا يمكن حصر تاريخ الترك في سيرة جماعة بشرية سكنت حدود جغرافية واضحة المعالم ، وإنما يمتد هذا التاريخ فيشمل الدول والحكومات التي أقامها الترك في مناطق مختلفة من العالم سواء تحت اسم الترك أو أي اسم آخر. فبينما نجد أن بعض الجماعات التركية في أحد المواطن كانت تعيش في شكل عشائر بدوية متنقلة ، نجد أن بعضها الآخر عاش في ظل حياة مدنية متطورة ؛ وفي الوقت الذي كانت فيه جماعات تركية تفقد نفوذها السياسي في منطقة ما ، كانت جماعات تركية أخرى تصل في نفس الوقت إلى ذروة السطوة والنفوذ في مناطق أخرى . ولذلك راح التاريخ التركي يتداخل مع تاريخ الكثير من الشعوب الآخرى، في العالم شرقاً وغرباً[2] .

---

[1] Bainbrige M., Dünya'da Türkler, çev. Mehmet Harmancı, s. İstanbul 1995; Dönmez Y., Türk Dünya'sının Beşerî ve İktisadî Coğrafyası, İstanbul 1968. ؛ كذا أنظر و. بارتولد ، تاريخ الترك في آسيا الوسطي ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، القاهرة ١٩٥٨ .

[2] فيما يتعلق بالدول التي أقامها الترك في مناطق مختلفة من العالم ، أنظر: " Özey Ramazan, Tarihte Türk Devletleri ve Hakimiyet Alanları", Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, cilt.I/ 266-276.

وهكذا ، أسس الترك دولاً كثيرة علي مدى تاريخهم الطويل . وقد حصرت بعض المصادر التاريخية تلك الدول التي أسسها الترك ما بين ١١٣-١٨٠ دولة شملت آسيا وقسم كبير من أوروبا والقسم الشمالي من أفريقيا . والحقيقة أن كل هذه الدول لم تكن ذات تأثير مباشر في السياسة العالمية ، إلا أن المؤرخين المتخصصين راحوا يسلطون الضوء نحو ست عشرة دولة تركية استطاعت تحقيق سطوة ونفوذ عالمي عظيم ، حتي أطلق عليها اسم " الدول التركية الكبرى " . وقد ذكر أحد الباحثين هذه الدول علي النحو التالي :

١. دولة الهون : وقد شملت مناطق شاسعة من آسيا ، فامتدت من بحر اليابان وحتي بحر الخزر ، في الفترة ما بين ٢٥٠- ٢١٦ قبل الميلاد .

٢. إمبراطورية الهون الغربية في بلاد التركستان .

٣. دولة الهون في أوروبا في الفترة ما بين ٤٣٤-٤٦٩م .

٤. دولة الهون البيض في خراسان وأفغانستان وإيران ، خلال الفترة ما بين ٣٥٠-٥٥٧م[3] .

٥. **دولة الگوكتورك** في آسيا الوسطي في الفترة ما بين ٥٥٢-٧٤٤م .

---

[3] بخصوص إمبراطورية الهون التي تعد من أعظم الإمبراطوريات التي أسسها الترك عبر تاريخهم الطويل ، أنظر : Nicola Di Cosmo, " Hun İmparatorluğu'nun Kuruluşu ve Yukselişi ", Türkler, I/709-719; Kerimova Risalet, " Hun İmparatorluğu ile Çin Doğu Türkistan Mücadelesi", çev. Nurşen Özsoy, Türkler, I/743-748; Koca Selim, " Hun İmparatorluğu'nun Doğuşu ", Gazi Eğitim Fakültesi Dergisi, sayı VI, (Ankara 1990); Richord Rafe De Crespingy, " Hun Konfedrasyonu'nun Bölünmesi ve Yıkılması ", Türkler, I/ 749-75; Ogel Bahaeddin, Büyük Hun İmparatorluğu Tarihi, Ankara 1981; Kafesoğlu İbrahim, Eski Türk Tarihi, Ankara 1980

٦. خانية الأيغور ، وامتدت حتى السهول جنوبي بحيرة بايكال في الفترة ما بين ٧٤٤-٨٤٠م[4] .

٧. دولة آوار في بلاد المجار ، تفككت خلال القرن التاسع الميلادي .

٨. دولة الخزر ، تأسست في القرن السابع في أوروبا الشرقية .

٩. **دولة القراخانيين** في أواسط أسيا في الفترة ما بين ٨٤٠- ١٢١٢م .

١٠. **الدولة الغزنوية** في بلاد الأفغان والهند ، وهي معاصرة لدولة القراخانيين .

١١. **دولة السلاجقة الكبري** ، وسيطرة على شرق العالم الإسلامي في الفترة ما بين ١٠٤٠- ١١٥٧م .

١٢. دولة الخوارزمشاه ، وهي معاصرة للسلاجقة تأسست جنوبي بحيرة آرال ، وحكمت خلال الفترة ما بين ١٠٩٧-١٢٣١م[5] .

١٣. دولة التيموريين في المناطق الممتدة من بحر إيجه وحتي وسط آسيا والمحيط الهندي في الفترة مابين ١٣٧٠-١٥٠٧م .

١٤. دولة البابور في بلاد الهند خلال الفترة ما بين ١٥٥٦-١٨٥٨م .

١٥. خانية ألتون أوردو في المنطقة ما بين البحر الأسود وبحر الخزر في الفترة ما بين ١٢٢٧-١٥٠٢م .

---

[4] حول العشائر والبطون التركية ودورهم السياسي قبل إعتناقهم الإسلام ، أنظر : Tasağıl Ahmet, Göktürkler, Ankara 1995; aynı mlf. , " İslam öncesi Devrede Orta Asya'da Yaşayan Türk Boyları ", Türkler, II/323-367; Kabulov Karim, " Orhun Türkmenlerinin Aslı ", Türkler, II/118-126; İzgi Ö., Uygurların Siyasî ve Kültürel Tarihi Hukuk Vesikalarına göre, Ankara 1987.

[5] Merçil E. , İlk Müslüman Türk Devletleri, Ankara 1977;

١٦. **الدولة العلية العثمانية** ، وهي دولة عالمية ، تأسست في سكود بالقرب من بورصه، وشملت مناطق شاسعة في القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا ، ووصلت إلي أقصي اتساع لها في أوائل القرن ١٧م (الأناضول ، قفقاسيا ، القـرم ، جنـوب أوكرانيا ، المناطق التي تشملها اليوم دول رومانيا ، يوغسلافيا ، بلغاريا ، اليونان ، المجر سوريا ، الأردن ، لبنان ، فلسطين ، العراق ، المملكة العربية السعودية ، اليمن ، دول وإمارات الخليج العربي ، مصر ، تونس ، ليبيا ، الجزائر ، وجزر البحـر المتوسـط) ، واستمرت حتي سقطت عام ١٩٢٢م[٦] .

وسوف نلقي الضوء بإذن الله تعالي في كتابنا هذا علي الدول التركيـة قبـل اعتناق الإسلام ، حيث نقدم دولة الگوكتورك نموذجاً لها ، ثم نفصل الحديث أكثر حول الدول التركية التي تأسست بعد اعتناق أغلب الترك الإسلام من خلال عرض ملامـح عامة عن نشأة هذه الدول وأهم ملامحها ، كالدولة القره خانية ، والدولة الغزنوية ، ثم نحاول أن نفصل القول أكثر حول دولة السلاجقة ، وذلك قبل البدء في سـرد وقـائع تاريخ الدولة العثمانية .

[6] حول الدول التي أسسها الترك في ظل الإسلام ، أنظر : Merçil Erdoğan, Müslüman Türk Devletleri Tarihi, Ankara 1993, Ramazan Ozey, Tarihte Turk Devletleri ve Hakimiyet Alanlari, Turkler, I/266-276

أولاً

الدول التي أقامها الترك قبل اعتناقهم الإسلام

إن الحقيقة التي ينبغي علينا الإشارة إليها قبل الحديث عن أهم الدول التي أسسها الترك قبل اعتناقهم الدين الإسلامي ، هي أن دولة الكوكتورك تعتبر أولى التشكيلات السياسية التي أسسها الترك بإسمهم . وعلى الرغم من أن الدراسات التركية الحديثة تشير إلى أن هناك بعض الامبراطوريات الأخري التي يعتقد أن شعوباً تركية قامت بتأسيسها مثل إمبراطورية الهون ، فإن امتزاج أجناس أخرى في المنطقة كالصينيين والمغول بالجنس التركي خلال هذه الحقبة الزمنية البعيدة يجعلنا نتردد في اطلاق اسم الترك علي مثل هذه الدول ، ولا نجد سوى دولة الكوكتورك نموذجاً لتلك الدول التي أسسها الترك قبل الإسلام .

دولة الگوكتورك

تعتبر دولة الگوكتورك أول تشكيل سياسي معروف يحمل اسم " الترك " في التاريخ. وقد حكمت هذه الدولة منطقة تمتد من البحر الأسود ومنغوليا وحتى حدود الصين الشمالية خلال الفترة ما بين عامي ٥٢٥ - ٧٤٤م . والحقيقة أن سمات هذه الدولة لم تختلف كثيراً عن مجتمع البدو الرحل الذي كان سائداً من قبل ، غير آن وضع حدود سياسية معلومة للدولة ، واتخاذ عاصمة لها ، وخضوع الحكام المحليين لسلطتها المركزية ، كان أبرز ما يميزها . أما إداريي الدولة فلم يكن لهم مقر ثابت ، بل كانوا يتنقلون مع القبائل هنا وهناك صيفاً وشتاءاً بحثاً عن الماء والكلأ . وقد انحصرت قوانين الدولة في تلك الأوامر التي كان يصدرها رؤساء الگوكتورك وفقاً لمقتضيات الظروف ،

وذلك علاوة علي قواعد الديانة الشامانية التي كانت تنظم الحياة اليوميــة للنــاس في الدولة[7] .

وقد انقسمت **دولة الگوكتورك** بعد تأسيسها بقليل إلي فــرعين أساســين : شرقي وغربي . وقد خضع هذان الفرعان خلال القرن السابع الميلادي لحكــام شمــالي الصين خضوعاً اسمياً. وفي عام ٦٨٢م استطاع الفرع الغربي استعادة استقلاله ، وتمكن من المحافظة علي هذا الإستقلال حتي عام ٧٤٤م. والحقيقة أن ما تم اكتشافه من نماذج للكتابة بالتركية فيما عرف بإسم "**نقوش أورخون** " يعود لهذا العصر ، حيث تأكد من خلال هذه النقوش أنه كان لدولة الگوكتورك علاقات تجارية نشطة مع جيرانهــا مــن الدول المتحضرة ، حتى أنها قامت بعقد اتفاق عسكري مع بيزنطة ضد الساســانيين في إيران[8].

وعقب انهيار دولة الگوكتورك انقسمت ممالكها ، وتوزعت أراضيها في بلاد ما وراء النهر بين العشائر التي عاشت بالقرب منها . وكان من بين هــؤلاء عشــائر الأوغوز والقارلوق الذين سيطروا علي المناطق التي تقع بين جيحون والبراري الشمالية الشرقية. أما عشائر الأيغور فقد سكنوا في حوض نهر ينسي في الفترة ما بــين عــامي ٧٤٥- ٩٤٠م ، حيث استطاع القيرغيز طردهم من تلك المناطق فيما بعد. وإعتباراً من أواخر القرن التاسع وحتى القرن الثاني عشر الميلادي تمكن القپچاق من الاستيلاء علــي

[7] بخصوص العشائر التركية في آسيا الوسطي وبلاد ما وراء النهر قبل الفتح الإسلامي ، والأديان التي كانوا يعتنقونها أنظر : Kabulov Karim, " Orhun Türkmenlerinin Aslı ", Türkler, II/118-126.; Akbulur Dursun Ali, Arap Fütûhâtına kadar Meveraunnehir ve Horasan'da Türkler, basılmamış Doktora Tezi, Erzrum 1984; İnan Abdulkardır, Eski Türk Dini Tarihi, İstanbul 1976.

[8] بخصوص نقوش أورخون ، والمعلومات التي وردت فيها عن العنصر التركي ، انظر : Talar Tekin, Orhon Yazıtları, Ankara 1988;

المنطقة الممتدة من نهر ايركش وحتي نهر جيحون[9] . والحقيقة أنه لم تستطع أي من تلك الدول أن تملأ الفراغ الذي تركته دولة الگوكتورك ، حيث وقعت جميعاً تحت تأثير الحضارة الإسلامية التي كانت تقع على الحدود الجنوبية منها.

وهكذا ، راحت ضفاف نهر جيحون تشهد مرحلة اندماج ثقافي بين حضارة الدولة الإسلامية الراقية وحضارة دولة الگوكتورك ومن جاء بعدها من الدول التركية . الحقيقة أن ملامح هذه العلاقة انحصرت في مظاهر ثلاثة هي :

أ- محاولات القبائل التركية عبور نهر جيحون للإنتقال إلي الإراضي الإسلامية بخرسان ، وتعدياتهم علي مناطق الحدود الشرقية للدولة الإسلامية . وقد أدى، هذا في البداية لإقامة المسلمين القلاع وتشييد الحصون علي طول نهر جيحون. إلا أن الإشتباكات التي لم تنقطع بين الطرفين لأكثر من ثلاثة قرون من الزمان نتج عنها في النهاية دخول بلاد ما وراء النهر في ظل الحضارة الإسلامية .

ب- وجود البلاد التي كانت خاضعة لدولة الگوكتورك والدول التي خلفتها علي طريق القوافل التجارية التي كانت تربط المراكز الحضارية القديمة في الشرق والغرب بعضها ببعض . وقد أدي ذلك إلى الإقتراب أكثر من الحضارة الإسلامية المجاورة ، حيث كان التجار المسلمون يحملون مع بضائعهم إلي بلاد الترك مبادئ الدين الإسلامي وخلق الأمانة والصدق والإيثار ، فكان ذلك من أهم أسباب دخول الترك في الإسلام .

ج- نشاط الدعوة إلي الإسلام الذي راح يمارسه الدعاة المسلمون بين الجماعات البدوية الموجودة علي ضفاف نهر جيحون من الترك . وكان الدعاة يتنقلون من مكان إلى مكان في تلك المناطق ويقيمون الزوايا والتكايا بين العشائر التركية

---

[9] Kurat A.N., IV-XVII. Yüzyıllarda Karadeniz Küzeyindeki Türk Kavimleri ve Devletleri, Ankara 1972; İzgi Ö., Uygurların Siyasî ve Kültürel Tarihi Hukuk Vesikalarına göre, Ankara 1987.

لنشر الدين الإسلامي بينهم ، حيث ارتبط اعتناق هؤلاء الترك للدين الإسلامي بانتقال المظاهر الحضارية للدولة الإسلامية إلى مجتمعات الترك البدوية ، ومنـــذ ذلك الحين بدأت الهجرات الجماعية للإراضي الإسلامية في خراســـان وإيـــران والعراق[١٠] .

[10] لتفصيلات أكثر حول انتشار الإسلام في آسيا الوسطي أنظر : Kitapçi Zekeriya, Orta Asya'da İslamiyetin Yayılışı ve Türkler, Konya 1994.



دول وامارات الترك في ظل الإسلام

لقد أتاح مبدأ المساواة في الدين الإسلامي للترك الذين اعتنقوا الدين الجديد التنقل بين بلدان الدولة الإسلامية بكل حرية ، وتولي المناصب القيادية في مختلف مؤسسات الدولة ، ومن ثم كان لهم دور بارز على الساحة السياسية والعسكرية والحضارية علي مدي التاريخ الإسلامي ، وأمكن لهم تشكيل بعض الإمارات والدول المستقلة خلال فترات الضعف التي أصابت الخلافة العباسية .

اعتناق الترك للإسلام

عقب معارك القادسية (١٤هـ/ ٦٣٥م) ونهاوند (٢٠هـ/٦٤١م) ، انساح المسلمون يفتحون بلاد فارس ، حيث التقوا بالترك لأول مرة عند نهر جيحون بينما كانوا يتعقبون أثر يزدجرد الثالث آخر ملك ساساني . وفي عهد معاوية إبن أبي سفيان (٤١- ٦٠هـ/ ٦٦١-٦٨٠م) بعث عبيد الله بن زياد بجيش إلي بخارى ، حيث استطاع في طريقة فتح مدينة " بيقند " الإستراتيجية . وبلغ بخاري في عام ٥٣هـ/٦٧٢م وفرض علي ملكتها جزية مقدارها مليون درهم . وبعد ثلاث سنوات عاد المسلمون إلي بخاري ثانية ، حيث مدوا فتوحاتهم إلي بلاد الصغد وسمرقند . وعلى الرغم من وجود دولة الگوكتورك في تلك النواحي خلال هذه الفترة ، إلا أنها لم تستطع تقديم أية معونة للعشائر التركية لمواجهة الزحف الإسلامي. والحقيقة أن الفتوحات الإسلامية في تلك المناطق قد توقفت لفترة ، فلم تشهد بلاد الترك حالة من الإستقرار الفعلي إلا بعد تعيين الحجاج بن يوسف والياً علي العراق (٩٤هـ/٧١٢م)°. ومرة أخرى استأنفت الفتوحات الإسلامية لبلاد الترك بتوجه جيش كبير تحت قيادة قتيبة بن مسلم إلي خراسان ، حيث زحف منها إلي بلاد ما وراء النهر . ولم يتوقف هذا الزحف إلا بعد أن تمت له السيطرة على بخارى وفرغانه في العام التالي ، فهاجم قتيبة بن مسلم أمراء الأيغور هناك (٩٥هـ/٧١٣م) . والحقيقة أن الشواهد التاريخية تدل على أن

المسلمون العرب ظلوا حتى أوائل القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي يكتفون بصد غارات الترك من جهة الشرق ، و لم يكن دخولهم إلى بلاد الترك خلال هذه الفترة إلا لتأمين حدود الدولة الإسلامية[11] .

وهكذا حكم المسلمون مناطق التركستان حكماً مباشراً منذ أوائل القرن الأول الهجري/ الثامن الميلادي وحتى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / النصف الأول من القرن العاشر الميلادي ، حيث ألحقت تلك المناطق بولاية خراسان . وكان حكام خراسان من قبل الخلافة يبعثون نواب عنهم إلي بلاد ما وراء النهر . وقد ظل الوضع علي هذا الحال حتى تأسيس السامانيين لدولتهم وأتخاذهم بخاري عاصمة لهم عام ٢٦١هـ/٨٧٤م . ومنذ ذلك الحين أخذ السامانيون علي عاتقهم مهمة التصدي لغارات الترك ، ومحاولة نشر الإسلام بين التجمعات التركية هناك[12] .

وفي الحقيقة ، لم يكن اعتناق الأتراك للإسلام نتيجة لهذه الفتوح ، بل كان بمحض رغبة الترك أنفسهم ، حيث أقبل الترك بعد فترة قصيرة علي دين الله أفواجاً ، وصاروا يزودون عن تلك العقيدة الجديدة في غيرة وحماس شديدين . إلا أن هناك عوامل ساعدت علي انتشار الدين الإسلامي بين الترك كان علي رأسها :

أ- هجرة المسلمين العرب إلى المناطق المفتوحة تدريجياً ، واستيطانهم بها ، وحملهم مبادئ الإسلام وقيم الحضارة الإسلامية لتلك المناطق . و لم يكن ممكناً للعشائر

---

[11] فيما يتعلق بفتوحات العرب الأولي لبلاد ما وراء النهر ، وعلاقاتهم في عهد الدولة الأموية مع العشائر التركية أنظر : بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلي ا لغزو المغولي ، تعريب صلاح هاشم ، القاهرة ١٩٨١م ؛ Kitapçi Zekeriya , Arapların Türkistana Girişi, İstanbul 2000; Aycan İrfan, " Emevîler Dönemi Sonuna kardar Müslüman Arapların Türklerle İlk Münasebetleri ", Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, IV/317-328.

[12] بخصوص دور السامانيين في نشر الدين الإسلامي بين التجمعات التركية في بلاد ما وراء النهر ، انظر : Kitapçi Zekeriya, Orta Asya'da İslamiyetin Yayılışı ve Türkler, Konya 1994

التركية الإنتساب للمدنية الإسلامية إلا بإعتناقهم الإسلام الذي كان يمثل كل مظاهر هذه المدنية .

ب- حركة التبادل التجاري بين الترك والعرب . فكما كان الترك يحرصون خلال هذه المرحلة من تاريخهم علي التردد على الثغور الإسلامية للحصول على الغلال الزراعية ، جذبت منتجات بلاد الترك بما تتميز به التجار العرب. فيذكر المقدسي أن التجار المسلمين كانوا يجلبون من بلاد الترك ثياب التركستان والجلود والقسي الجيدة ، ومن سمرقند الديباج ، ومن فرغانه الرقيق الترك وآلات السلاح والسيوف والنحاس . ومن المعروف أن قوافل التجار في تلك العصور كانت تحمل أيضاً الأفكار والأخبار والتيارات الفكرية والعقائدية والروحية مع البضائع. وهكذا ، فإن نشاط التجار المسلمين في تلك المناطق حمل بين ثناياه مبادئ الإسلام وأركانه .

ج- النشاط الدؤوب للجماعات الصوفية في الدعوة لنشر الدين الإسلامي بين الترك في المناطق المفتوحة ، حيث واكب هذا النشاط حركة الفتوح الإسلامية في بلاد ما وراء النهر . وتؤكد الوثائق أن المدارس المستقلة التي انتشرت في خرسان وبلاد ما وراء النهر خلال القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي قد لعبت الدور الأهم في نشر الإسلام بين الأتراك في تلك المناطق . ويذكر القزويني أنه عندما دخل الإسلام بلاد ما وراء النهر حرص أهلها على بناء الرباطات وعمارة الطرق والأوقاف ، ولم تكن هناك قرية ولا مفازة إلا وفيها من الرباطات العدد الكثير .

د- مساهمة مسلمي خوارزم في تأسيس المستعمرات الإسلامية بالقرب من نهر سيحون ، ومد نشاطهم نحو الغرب والشمال الغربي ، حيث كان يقيم الخزر وبلغار الفولجا الذين كانوا أكثر اتصالاً بالمدنية الإسلامية . وتؤكد الدراسات الحديثة أن الشعوب التركية البعيدة عن حدود الدولة الإسلامية كانت أسبق إلى دخول الإسلام عن تلك التي تربطها بالدولة الإسلامية حدود مشتركة ، ذلك

بأن الإحتكاك الذي كان يحدث بين الجارين المتلاصقين جعل شعور العداء يغلب علي حسن التفاهم ، مما شكل حاجزاً أمام انتشار الدعوة الإسلامية ، في حين أن الشعوب والأمم التركية البعيدة كانت تصلها الدعوة الإسلامية عن طريق التجار والدعاة باسلوب هادئ حسن[١٣] .

النفوذ التركي في الدولة الإسلامية

لقد أتاح دخول الترك في الإسلام ، وتتابع هجراتهم من مناطق شتي في وسط آسيا كفرغانة وطاش وما وراء النهر إلي خرسان وإيران والعراق منذ أوائل القرن الثاني الهجري / النصف الثاني من القرن الثامن وخلال القرن التاسع الميلادي ، وانخراطهم في المجتمع المسلم ، أتاح لهم احتلال مواقع هامة في الدولة الإسلامية . فكان منهم الجنود الأشداء والحرس المخلص والقواد الأفذاذ ، وصار لهم تأثير عظيم في إدارة مختلف شئون الخلافة العباسية في بغداد ، وعهدت إليهم وظائف هامة كجباية الأموال والولاية والحجابة وأمارة الأمراء[١٤] .

ولما كانت الدولة العباسية قد قامت على أكتاف العنصر الفارسي ، انحصرت أعداد الترك في حاضرة الدولة العباسية ، وذلك حتى أوائل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي . وفي عصر الخليفة المأمون (١٩٨- ٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م) تم تشكيل أول فرقة حرس خاص من الترك ، ألا أنه حدثت زيادة مفاجئة في أعداد هؤلاء الجند

---

13 فيما يتعلق بانتشار الإسلام بين الترك في بلاد ما وراء النهر والأسباب التي ساعدت علي ذلك ، وأعتناق العديد من ملوكهم الإسلام ، أنظر : Kitapçi Zekeriya, Türk Boyları Arasında İslam Hidâyet Fırtınası, Konya 2001; aynı mlf., Türkistan'da Müslüman olan İlk Türk Hükümdarları, İstanbul 1988; Sevenc N., " Turklerin Islamiyete Gecisini Kolaylastiran Sebebler, TDA dergisi, Istanbul 1980.

14 حول فعاليات الترك السياسية في العصر العباسي انظر : Karapinar Mahmut, Abbasîler Dönemi Türklerin Siyasî Faâliyetleri, Türkler, IV/352-363.

منذ عهد الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م)، حيث وصلت أعدادهم إلى ما يقرب من أربعة الآف جندي تحت قيادة قواد من الترك أيضاً . وكان الخليفة المعتصم قد أحس بخطورة العنصر الفارسي عليه بعد أن رأي تعصب الفرس لأخية المأمون الذي كانت أمه فارسية ، ففكر في الإعتماد علي الترك ، وخاصة أن أمه كانت تركية ، فاستكثر المعتصم من خدم الترك حتي بلغ عددهم ثمانية عشر ألف مملوك تركي. ولما شكا أهل بغداد إلى المعتصم عسف جنوده من الأتراك ، قام الخليفة بتشييد مدينة " سرمن – راي " أي سامراء ، حيث انتقل إليها ومعه رجاله من الترك (٢٢١هـ/ ٨٣٦م) وجعلها مقراً جديداً لحكمه[15] .

وهكذا ، أضاف دخول الترك إلى الديوان العباسي عنصراً جديداً للنزاع العنصري الذي كان مشتعلاً بين العرب والفرس ، حيث تمكن العنصر التركي من التفوق علي العنصرين الآخرين بمرور الوقت . ولم يقتصر استخدام العنصر التركي علي شئون الجندية والحراسة فقط ، بل أن المعتصم أعتمد عليهم في كثير من شئون الإدارة والحكم ، فضلاً عن إدراج أسمائهم في ديوان الجند .

وفي عهد الخليفة الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ/ ٨٤٢-٨٤٧م) والخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧-٨٦١م) ، بدأت سيطرة هؤلاء الترك علي مقاليد الحكم تزداد باطراد . ولما أحس المتوكل بازدياد نفوذ الترك في الدولة وتسببهم في كثرة الدسائس والمؤامرات ، نقل عاصمته إلي دمشق (٢٤٣هـ/٨٥٠م) ، إلا أنه لم يطب له المقام فيها ، فعاد إلى سامراء . وإذا كان المتوكل قد حاول بعد عودته التخلص من زعماء

[15] بخصوص اتخاذ الخلفاء العباسيين جند من الترك ، وزيادة نفوذ هؤلاء الجنود في بغداد ، أنظر :
Azımlı Mehmet, Abbasîler Döneminde Türklerden Oluşturulan Ordu, Hassa Ordusu, Türkler, IV/364-374.

الترك ، إلا أن مقتله زاد من نفوذهم ، وبدأ الصراع بينهم يشب علي مختلف المناصب[١٦].

ومن ناحية أخري ، تمكن قواد الترك هؤلاء من تأسيس عدة دول وامـــارات استقلت عن الخلافة العباسية في مصر والشام وبلاد ماوراء النهر وخرسان وإيران والهند والأناضول . فقد استطاعوا تأسيس الدولة الطولونية (٢٦١-٢٩٢هـــ/٨٧٥-٩٠٥م)، ثم الدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـــ /٩٣٥-٩٦٩م) في مصر ، غـــير أن هـــاتين الدولتين لم يكتب لهما الإستمرار طويلاً نظراً لبعدهما عن مواطن الترك في وسط أسيا . أما أول دولة اسلامية تمكن الترك من تأسيسها بالمعني الحقيقي ، فكانت تلك التي نجح **القره خانيون** في تأسيسها في بلاد ما.وراء النهر خلال النصف الأول من القرن العاشر الميلادي.

وكان ضعف واضمحلال الدولة السامانية (٢٦١-٣٩٥هـــ/٨٧٤-١٠٠٤م) خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري قد مهد لظهور دولة لقبائل الإيغـــور في منطقة تركستان الشرقية عند سفوح جبال تيان شان . فقد استطاع زعيمهم إيليك خان توحيد قبائلهم ، ليأتي بعده إبنه ساتوق بغرا خان (وفاته : ٣٤٤هـــ/٩٥٥م) ويدخل في دين الإسلام هو وأتباعه ممن كانوا علي البوذية والمسيحية وغيرها ، ويؤسس تلـــك الدولة التي أطلق عليها اسم " **القره خانيون** " . ويعتبر ساتوق بغرا خان هو أول مـــن سن سنة اعتناق الإسلام جماعياً لدي الترك ، حيث انطلق مع أتباعه ليغـــزو المنـــاطق المجاورة التي لم يدخلها الإسلام ، ثم راح يضم المناطق الغربيـــة ممـــا كـــان في حـــوزة السامانيين حتي استولي علي سمرقند نفسها . وعلى أثر موت أبو القاسم نوح بن منصور الساماني في عام ٣٨٧هـــ/٩٩٧م ، اضطربت الدولة السامانية ، الأمر الذي أتاح لإيليك خان التوغل مجدداً في بلاد ما وراء النهر ، حتي ضم أغلـــب أراضـــي الســـامانيين

---

[16] حول نشاط الجماعات التركية التي وصلت إلي حاضرة الخلافة العباسية ، وسيطرتهم علي مقاليد الحكم والسياسة في الدولة ، أنظر : Karapinar Mahmut, Abbasîler Dönemi Türklerin Siyasî Faâliyetleri, Türkler, IV/352-363.

(٣٩٥هـ/١٠٠٤م) ، فامتد ملكه من حدود الصين وحتى بحر الخزر . وقد استمر نفوذ دولة القره خانيين سائداً في بلاد ما وراء النهر ، حتى بدأ في الضعف منذ أواسط القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وأخيراً انهارت دولتهم في حوالي عام ٦١٣هـ/١٢١٦م[١٧] .

تعتبر الدولة التي أقامها **الغزنويون** في غزنة وبلاد الهند نموذج واضح للدور السياسي والعسكري والحضاري الذي قام به الترك في العالم الإسلامي . فقد كان ظهور هذه الدولة إعلاناً عن تفوق العنصر التركي على العنصر الإيراني في ميدان الزعامة في هذا القسم من العالم الإسلامي . وكان الغزنويون يعملون في البداية كولاة للسامانيين في إقليم غزنة الذي ينتسبون إليه ، حيث استطاعوا أن يستقلوا بما تحت أيديهم ويخلفوا الدولة السامانية نفسها في مناطق شاسعة من أملاكها . وكان مؤسس هذه الدولة الذي يدعي سبكتكين قد أكتفي بفتح اقليم السند وبعض مناطق البنجاب ، إلا أن ابنه محمود استطاع التوغل في بلاد الهند فغزاها سبع عشرة غزوة علي مدي سبعة وعشرين عاماً فيما بين عامي ٣٩٠-٤١٧هـ/١٠٠٠-١٠٢٦م ، فغزا لاهور والملتان كما دخل كشمير ، فكان أول من نشر الإسلام بها على نطاق واسع . فكانت گجرات أكبر المراكز التجارية الهندية ، وسومنات أقوي مراكز المقاومة والعدوان الهندوكي ، من أعظم فتوحات محمود الغزنوي في بلاد الهند . والحقيقة ، كان محمود الغزنوي من أعظم ملوك المسلمين قاطبة في عصره ، فقد امتد ملكه من بلاد الهند الشرقية حتى فارس وما وراء النهر[١٨] .

---

[17] بخصوص تأسيس القراخانيين أول دولة إسلامية تركية في بلاد ما وراء النهر ، أنظر : Genç Reşat, Karahanlılar Tarihi, Türkler, IV/445-459 Jurgen Paul, Karahanlilar, cev. Seyda Yilmaz, Turkler, IV/460-468.

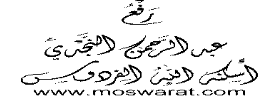
[18] فيما يتعلق بالغزنويين ودورهم في نشر الدين الإسلامي في بلاد الهند والسند ، أنظر : Mercil Erdogan, Gazneliler, Turkler, IV/479-508, Yakubavesky Ay, " Gazneli Mahmud, Gazne Devletinin Mensei ve Karakteri Meselesine dair", cev. Ahmed Caferoglu, Ulku Mecmuasi (1939), c. XII, XIII, sayi 72, 73, 75, 76

وعقب وفاة محمود الغزنوي (٤٢١هـ/١٠٣٠م) خلفه ابنه مسعود الـذي جانبه الصواب في سياسته العسكرية و لم يستطع ملء الفراغ الذي تركه أبيه ، حيـث أخذ بناء الدولة العظيم ينهار علي يديه ، ثم على أيدي خلفائه الضعاف مـن بعـده . وكانت حروبه مع السلاجقة والقره خانيين الذين اقتسموا أملاكه في الشمال والغرب، وانصرافه لحياة اللهو الترف، من أهم أسباب انهيار دولته على يد الغوريين الأفغان عام ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م ، حيث خلفهم في بلاد الهند الغورويون بعد أن استمر سلطانهم فيها أكثر من قرنين من الزمان[١٩].

وقبيل ظهور دولة السلاجقة التركية في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشـر الميلادي ، كانت الدولة الغزنوية قد ضعفت قبضتها علي مناطق خراسـان ومـا وراء النهر، وشرعت الدولة البويهية الشيعية في لفظ انفاسها الأخيرة ، فضلاً عن زيادة نفوذ الترك وسيطرتهم على المناصب المدنية والعسكرية في مركز الخلافة العباسية في بغـداد ، الأمر الذي مهد الطريق لقيام دولة تجمع المنطقة تحت زعامة سياسية ودينية واحدة تمثلت في دولة السلاجقة .

---

[19] لتفصيلات أكثر حول الغزنويين وانجازاتهم في الدولة الإسلامية أنظر : Merçil Erdoğan, Ğazneliler, Türkler, IV/479-508



الدولــة الســلجوقية

أسستها مجموعة من القبائل التركية التي تحمل اسم " الغُزّ " أو" الأوغــوز " ، هاجرت من أقصي بلاد الترك خلال القرنين الثالث والرابع الهجـــري تحــت ظــروف سياسية واقتصادية قاهرة ، حيث حاولــت الإســتقرار في اقليمــي مــا وراء النــهر وخراسان[٢٠].

وقد أخذ التاريخ يذكر اسم السلاجقة منذ أواخر القرن الرابــع الهجـــري / العاشر الميلادي ، حيث سكنت تلك القبائل الهضاب القريبة من بحير خوارزم ، وبالقرب من السواحل الشرقية لبحر قزوين (الخزر) ، وفي الهضاب المحيطة بنــهري ســيحون وجيحون . وقد أطلق علي هذه القبائل التركية اسم " السلاجقة " نسبة إلى رئيســها سلجوق بن بقاق الذي جمع شملها ووحدها تحت زعامته ، ثم قادها إلى تلك المنازل في حوالي عام ٣٧٥هــ/٩٨٥م[٢١] . وكانت منازل السلاجقة في ذلــك الوقــت تجــاور

---

[20] عاشت قبائل الأوغوز في المنطقة التي تمتد من نهر سيحون وتلك التي تقع بين بحر الخزر وبحيرة آرال. وكانت تجمعاتهم تتشكل من ٢٤ قبيلة انقسمت إلي فرعين أساسيين : أوج أوق وبوز اوق . وينتسب السلاجقة إلي شعبة تعرف بـــ " قينق " من فرع أوج أوق . وكانت شعبة قينق تلك تقيم بين قبائل الأوغوز عند منابع نهر سيحون : Faruk Sümer, Oğuzlar (Türkman), Ankara 1972, s/ 12-13

[21] تذكر المصادر أن عشائر الأوغوز كان يحكمها في أوائل القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري حاكم يدعي " يابغو " . وكان 'دقاق الملقب بـــ تمير ياليغ حد الأسرة السلجوقية صاحب مكانة قوية في دولة الأوغوز تلك . ولما توفي 'دقاق قام يابغو بتعيين ابنه سلجوق قائداً للجيش ، وسرعان ما اكتسب سلجوق نفوذا كبيراً في الدولة ، الأمر الذي أخاف يابغو ، وأراد الفتك به . وهكذا ، جمع سلجوق قبيلته ومقربيه وغادر بهم متوجهاً إلي منطقة جند التي كانت تعد احدي مدن الثغور بين الدول التركية والدولة الإسلامية . وكان لرحيل سلجوق دور كبير في سقوط دولة يابغو الغزية علي يد القيچاق . ويري بعض الباحثين أن الدافع وراء رحيل سلجوق كان ضيق الأرض في تلك المناطق وعدم كفاية المراعي اللازمة لها : Köymen M. A., Büyük Selçuklu İmparatorluğu Tarihi Kuruluş Devri, I, Ankara 1979. ، كذا أنظر :

ممتلكات السامانيين والقره خانيين والغزنويين ، فأدي جوار السلاجقة لهم إلى اعتناقهم الإسلام وتعصبهم للمذهب السني الذي كان يرعاه الخليفة العباسي في بغداد[٢٢].

وعلى أثر تقرب سلجوق للسامانيين بتقديم مساعداته لهم ، أذنوا له بالاستقرار بالقبائل التي يقودها بالقرب من نهر سيحون ، حيث اتخذ مدينة " جند " قاعدة لــه . ومنذ أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي راح السلاجقة يستقرون في بلاد ما وراء النهر . فصارت منازل عشائر السلاجقة تقع بالقرب من بخاري في الشتاء وبالقرب من سمرقند في الصيف .

وخلال سنوات قليلة أعدّ السلاجقة جيشاً وافر العَدد قوي العُدد حتي صاروا قوة يخشي بأسها . وقد ساعدهم اسلامهم وحرصهم علي التمسّك بأهــداب الــدين والتقرب لأئمته علي الظفر باحترام الناس والحكام . وقد أدى ذلك كله إلى خشية القره خانيين من طموحاتهم ، فحرضوا عليهم السلطان محمود الغزنوي الذي ارتبط معهــم بربــاط المصـــاهرة بعــد أن أكــدوا لــه خطــورة وجــودهم في تلــك المنــاطق (٤١٥هــ/١٠٢٤م). ولما كان السلاجقة يحاولون توسيع ممتلكاتهم في المناطق المجــاورة لهم ، أحس محمود الغزنوي بخطرهم علي نفوذه في المنطقة ، فسعي للحد من نفوذهم .

وهكذا ، دعي محمود الغزنوي رئيس السلاجقة آنذاك إسرائيل ابن ســلجوق للقائه بالقرب من جيحون متظاهراً برغبته في كسب ودّهم ، حيث قام بالقبض عليه هو وزعماء السلاجقة ، وألقي به في أحد سجون الهند[٢٣] .

Merçil Erdoğan , Selçuklu Devletleri Tarihi, Ankara 1995; Köymen M A., Selçuklular Devri Türk Tarihi, Ankara 1982.

[22] أنظر عبد النعيم حسانين ، سلاجقة ايران والعراق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠، ص. ١٦-١٧ . لما كان الدين الإسلامي ينتشر بين التجمعات التركية المجاورة لجند ونواحيها ، اعتنق سلجوق وعشيرته الدين الإسلامي ، حيث قام بمنع الضريبة السنوية التي كان يأخذها يابغو من المسلمين في المنطقة : Kitapçi Zekeriya , Türkistan'da İslâmiyet ve Türkler, Konya 1988; aynı mlf. , Orta Asya'da İslamiyetin Yayılışı ve Türkler, Konya 1994.

العبور إلي خرسان : اختار السلاجقة لقيادتهم ميكائيل الـــذي فكـــر في الإنتقال بعشائرهم إلي إقليم خراسان ، فأرسل إلى السلطان محمود الغزنوي يلتمس منه الإذن له ولقومه بالمرور عبر الأراضي التي تخضع لسلطانه والتوجه إلى إقليم خراســـان ، والاقامة في المنطقة الواقعة بين مدينتي "نسا" و"باورد" ، فأذن له . والحقيقة أن انتقـــال السلاجقة إلي خراسان يُعد بداية لمرحلة جديدة من مراحل تشكيل دولتهم ، فأخـــذوا يدعمون قوتهم وينتشرون في النواحي المجاورة لهم . فلمّا أحس أهل " نسا " و" باورد " بخطرهم أرسلوا إلي محمود الغزنوي بالشكوي منهم (٤١٨هـ/١٠٢٧م) ، فأمر والى طوس بإجلائهم ، غير أنهم انتصروا عليه انتصاراً ساحقاً .

توفي ميكائيل وله إبنان هما چغري بك وطغرل بك ، استطاعا جمع السلاجقة وتكوين جيش قوي . وقد انتهز الأخوان فرصة وفـــاة الســـلطان محمـــود الغزنـــوي (٤٢١هـ/١٠٣٠م) ، حيث طلبا من والي نيسابور السماح لقومهما بالإقامة بالقرب منها ، فرفض الوالي واستعان بمسعود بن محمود الغزنوي ، فأسرع إلي نيسابور في عام ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م لدفع هذا الخطر السلجوقي ، إلا أن السلاجقة اســـتطاعوا الحـــاق الهزيمة به واجباره لعقد الصلح معهم . وبذلك ، دعّم السلاجقة نفوذهم في خراسان ، ولم يبق أمامهم سوي اعلان دولتهم[٢٤] .

حاول مسعود الغزنوي احلاء السلاجقة عن خراسان ، فهاجمهم بالقرب من سرخس في شعبان ٤٢٩هـ/١٠٣٧م ، حيث دارت معركة شرسة انتـــهت بانتصـــار السلاجقة أيضاً . وعقب هذا الإنتصار أسرع طغرل بالتوجه إلى نيسابور والإســـتيلاء عليها ، وجلس على عرش مسعود فيها في ذي القعدة من نفس العام ، وأعلن قيام دولة السلاجقة . وأصبح طغرل أول سلطان للسلاجقة.

---

[23] عبد النعيم حسانين ، المرجع السابق ، ص. ٢١-٢٤ ؛ كذا انظر : Köymen M. A., Büyük Selçuklu İmparatorluğu Tarihi Kuruluş Devri, I, Ankara 1979.

[24] عبد النعيم حسانين ، المرجع السابق ، ص. ٢٤-٢٥

لم يكد مسعود الغزنوي يعلم بذلك حتى عزم على التوجه بنفسه لتأديب السلاجقة ، حيث وقع آخر اشتباك بين الطرفين عند " دندانقان " عام ٤٣١هـ/١٠٣٩م ، انتهى بهزيمة مسعود وتخليه عن اقليم خراسان تماماً للسلاجقة . وهكذا ، اجتمع حول الدولة السلجوقية الوليدة جند كثيرون من جميع أطراف خراسان حتى أنهم ظفروا باعتراف الخليفة العباسي عام ٤٣٢هـ/١٠٤٠م[٢٥] .

ترسيخ أركان الدولة السلجوقية في إيران والعراق : أخذ السلاجقة في توطيد دعائم دولتهم في إيران والعراق ، حيث اجتمع طغرل بأخيه چغري بك وعمه موسي بيغو وغيرهم من رجالات السلاجقة ، واتفقوا علي تعيين طغرل قائداً عاماً لجيوشهم ، وسلطاناً علي دولتهم ، وتعاهدوا أن يدينوا له بالولاء . فاستعان طغرل بأفراد أسرته ، وعين كل واحد منهم والياً علي ولاية وسيره إليها ، وسمح له بفتح ما يستطيع فتحه من الجهات المجاورة له . وولي وجهه شطر جرجان وطبرستان للقضاء علي حكم آنو شيروان الزياري ، حيث أعلن الأخير خضوعه له وتعهد بطاعته وأداء ضريبة سنوية له ، ثم لم يلبث طغرل أن عزله ، وعين والياً من قبله عليها ، فكان هذا ايذاناً بسقوط الدولة الزيارية في إيران . توجه طغرل بعد ذلك لفتح خوارزم ، فتمكن من ضمها (٤٣٤هـ/١٠٤٢م) ، ثم رحل إلى الري ، حيث دخلها في نفس العام ، واتخذها عاصمة له ومقراً لحكمه .

انتقل بعد ذلك طغرل بك إلي الأقاليم الغربية ، حيث أرسل فرقة من جنده لفتح كرمان ، ثم توجه عام ٤٤١هـ/١٠٤٩م إلى همذان مرة أخري لتوطيد حكم السلاجقة هناك بعد أن أعلن أخيه إبراهيم إينال تمرده فيهما . وفي أوائل عام ٤٤٢هـ/١٠٥٠م خرج طغرل بك لفتح إصفهان والأجزاء الجنوبية من إيران ، فتم له ذلك بعد حصار طويل لها في محرم من عام ٤٤٣هـ/١٠٥١م . وبعد أن أسقط دولة الديالمة في تلك المنطقة ، توجه لترسيخ حكم السلاجقة في إقليم أذربيجان عام

---

[25] عبد النعيم حسانين ، المرجع السابق ، ص. ٢٥-٢٧

٤٤٦هـ/١٠٥٤م ، فدخل تبريز ، ومدّ نفوذه حتي شمل أجزاء من بـــلاد الـــروم[٢٦] .
وهكذا عاد طغرل إلي الرّي بعد أن بسط نفوذ السلاجقة علي كافة أنحاء إيران ، وأخذ يستعد لدخول بغداد[٢٧] .

ومن ناحية أخري ، كانت الخلافة العباسية في بغداد تمر بظروف مضطربة جعلت طغرل يفكر جدياً في الإستجابة لدعوة الخليفة العباسي القائم بأمر الله له لزيارة بغداد . غير أن ما شجع طغرل لأتخاذ هذه الخطوة أسباب ، أهمها : سيطرة البويهيين ، ونفوذ الأتراك ، وضعف الخليفة العباسي . فكان قائد الجنود الترك في بغداد شيعياً يميل إلي الفاطميين ويحاول بسط نفوذهم علي بغداد إذا واتته الفرصة وإسقاط الخلافة العباسية السنية . وكان اسم الملك الرحيم أبي نصر البويهي يذكر في الخطبة، ولكنه كان ضعيفاً أمام قائد الجند التركي و لم يكن علي وفاق معه. أما الخليفة العباسي فلم يستطع الصمود

[26] كان البيزنطيون علي رأس أعداء الدولة الإسلامية آنذاك ، وكانت دولتهم قد دخلت مرحلة من الصحوة خلال القرن العاشر الميلادي ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه الخلافة العباسية تتعرض للتفكك والتمزق . ففي عام ٩٢٧م استولي الروم علي أرض روم ، وأجبروا حكام ملطية ودياربكر علي دفع أتاوة سنوية . وفي عام ٩٤٨م ، استولوا علي مرعش ، وبعد عشرة أعوام سيطروا علي طرسوس ودياربكر ، وفي عام ٩٦٤م استردوا قبرس من المسلمين وسيطروا علي حماة وحمص واللازقية . وبذلك ، تبدل الموقف بين المسلمين والروم خلال القرن العاشر الميلادي ، فتحول المسلمون من الهجوم إلي الدفاع. إلا أن ظهور السلاجقة خلال القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري أدي إلي تحول جديد في ميزان القوي مرة اخري ، حيث كشفوا عن حماستهم تلاء نغزو الأجزاء الشرقية من الدولة الرومانية عام ١٠٤٨م/٤٤٠هـ حتي بلغوا طرابزون . وعلي الرغم من الصلح الذي عقده طغرل بك مع إمبراطور بيزنطة ، إلا أن الأشتباكات لم تتوقف بين الطرفين علي طول الحدود مع الدولة الإسلامية : Köymen M A., Selçuklular Devri Türk Tarihi, Ankara 1982

[27] عبد النعيم حسانين ، سلاحقة ايران والعراق ، ص. ٢٧-٣٧

أمام هذه القوي ، وكان ينتظر مجئ السلطان السلجوقي السني طغرل لإنقاذه من تبعية ونفوذ القوي الشيعية المسيطرة علي مركز الخلافة العباسية[٢٨] .

إنفراد السلاجقة بالنفوذ في بغداد : سار طغرل في محرم من عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م إلي همذان ، ومنها توجه إلي العراق . ولمّا علم الملك الرحيم بمجيئه ، أتفق مع الخليفة العباسي علي التعاون مع طغرل ، فأمر الخليفة بذكر اسم طغرل في الخطبة بعد اسم الملك الرحيم . ودخل السلطان ركن الدولة أبا طالب طغرل بك محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين بغداد دخول الظافرين ، وأعترف الخليفة به سلطاناً علي جميع المناطق الموجودة تحت يده . ولم يلبث أن أمر طغرل بالقبض علي الملك الرحيم وأرساله أسيراً إلي الريّ ، فأسقط الخليفة اسمه من الخطبة . وبذلك دالت دولة بني بويه الشيعية وزال نفوذها من بغداد ، حيث حلت محلها دولة السلاجقة السنية[٢٩] .

---

[28] عبد النعيم حسانين ، المرجع السابق ، ص. ٣٨وما بعدها . حول العلاقة بين السلاجقة في عهد طغرل بك والعباسيين انظر : Suleyman Genc, Tugrul Bey Zamaninda Selcuklu-Abbasi Iliskileri, Turkler, VI/639-658

[29] تفرق المصادر المعاصرة بين الأتراك الذين استجلبوا إلي بغداد منذ عصر الخليفة المأمون وتزاوجوا علي أرضها ، وبين أتباع طغرل بك من الأتراك السلاجقة الذين غلبت عليهم روح الإنضباط وكانت لهم قيادة توجههم وتشرف عليهم . وترجع هذه المصادر سبب الإختلاف بين الفريقين إلي أن السلاجقة نزحوا إلي بلاد ما وراء النهر في وقت شهد استقرار الإسلام في تلك البلاد وتغلغله في قلوب أهلها . ولذلك جاء إسلام السلاجقة منذ البداية راسخاً يتسم بصدق الإيمان وسلامة النية . والحقيقة أن اقامة السلاجقة لفترة تربو عن نصف قرن من الزمان في بلاد ما وراء النهر قبل نزوحهم إلي الدولة الإسلامية جعلتهم يتشربون مبادئ الدين الإسلامي وروح هذا الدين ، فتأثروا بحضارته وتهذبت طباعهم وفقاً لتعاليم الإسلام . ولذلك ، لم نشهد أي مظاهر للعنف أو سفك دماء وسلب أموال عندما دخل السلاجقة بغداد ، بل كانت حماستهم الشديدة للدفاع عن الإسلام والزود عن أرضه وأهله أمام أعداء الإسلام من أهم ما تميزوا به من سمات : Merçil Erdoğan, Büyük Selçuklu İmparatorluğu Tarihi Kuruluş Devri, I, Ankara 1979,s. 83 vd.

ومن ناحية أخري ، كان قائد الجند التركي ويدعي البساسيري قد خرج عن طاعة الخليفة العباسي منذ ٤٤٦هـ/١٠٥٤م ، واتصل بالخليفة الفاطمي المستنصر بالله . فلمّا سمع بزحف طغرل صوب مركز الخلافة العباسية في بغداد ، انسحب البساسيري منها وتوجه إلي الموصل ، حيث تمكن من احتلالها وقراءة الخطبة بإسم الفاطميين فيها . وهكذا ، اضطر طغرل إلي الخروج من بغداد لقمع هذه الفتنة في ذي القعدة من عام ٤٤٩هـ/١٠٥٧م . وبعد هزيمة البساسيري وفراره صوب الشام ، أتم طغرل السيطرة علي الموصل والمناطق المجاورة لها ، وعين أخيه إبراهيم اينال عليها ، ثم قفل عاداً إلي بغداد .

لم يبق إبراهيم إينال علي عهده ، ورفع راية العصيان ضد أخيه طغرل تاركاً الموصول ومتوجهاً إلي همدان ، فاضطر طغرل للخروج خلفه ، حيث التقي به بالقرب من همدان وألحق به الهزيمة، ثم قبض عليه وأمر بقتله في ٤٥٠هـ/١٠٥٨م . انتهز البساسيري هذه الفرصة ، وأعاد احتلال الموصل ، ودخل بغداد نفسها في ٨ ذي القعدة ٤٥٠هـ/ أول يناير ١٠٥٩م ، وأمر بقراءة الخطبة في بغداد باسم الخليفة المستنصر بالله الفاطمي . ثم توجه البساسيري إلي واسط استولي علي البصرة. فلمّا علم طغرل بهذه التطورات ، ثارت حميته وعاد إلي بغداد ، فأسرع البساسيري بالفرار إلى الشام . أرسل طغرل جيشاً في أعقابه ، فالتقي به بالقرب من الكوفة ، حيث انتهت المواجهة بين الطرفين بمصرع البساسيري في أواسط ذي الحجة ٤٥١/ أواخر يناير ١٠٦٠م .

وهكذا ، بسط طغرل نفوذه علي العراق بعد هذه الإنتصارات المتلاحقة كما بسطها علي إيران من قبل . إلا أن المنية لم تمهله لإقتطاف ثمار انجازاته تلك ، حيث مرض ثم توفي في الثامن من رمضان من عام ٤٥٥/ التاسع من سبتمبر ١٠٦٣م. ويعتبر طغرل هو المؤسس الحقيقي للدولة السلجوقية ، فهو الذي رتب أمورها وبسط نفوذها

وأظهر قوتها ، ووضع أساساً متيناً لدولة السلاجقة الكبري . فكان سلطاناً قوياً مظفراً ، مسلماً يحب أهل السنة ويميل إليهم[٣٠] .

ازدهار الدولة السلجوقية : لم يكن لطغرل ولد يرث العرش من بعده، فأصبحت ولاية العهد مثار تنافس بين أفراد البيت السلجوقي . وكان أخوه چغري قد توفي عام ٤٥١هـ/١٠٥٩م تاركاً عدداً من الأبناء أكبرهم آلب أرسلان ، فخلف أبيه في حكم خراسان وما وراء النهر ، وكان يعاونه وزير قوي يدعي أبا علي حسن بن علي بن اسحق الطوسي ويلقب بنظام الملك . فلما توفي طغرل (٤٥٥هـ/١٠٦٣م) ، رأى آلب أرسلان أنه أحق الناس بعرش السلاجقة ، فأعلن نفسه سلطاناً عليهم . إلاّ أنّه واجه منافسة من بعض أفراد الأسرة السلجوقية ، فاستطاع تنحية أخيه الأصغر سليمان بمساعدة وزير طغرل أبو نصر الكندري ، وإلحاق الهزيمة بقتلمش بن إسرائيل بالقرب من الرّي عام ٤٥٦هـ/١٠٦٣م ، وبعمه بيغو بالقرب من هراة عام ٤٥٧هـ/١٠٦٥م . وهكذا انفرد آلب ارسلان بعرش السلاجقة بدون منازع[٣١] .

تدارس آلب أرسلان وضع الدولة مع وزير نظام الملك ، حيث رسما معاً سياسة السلاجقة في المرحلة المقبلة ، وحددا أهدافهم القريبة والبعيدة . واستقر رأي آلب أرسلان علي العمل علي تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعه لنفوذ السلاجقة قبل التطلع لفتح أقاليم جديدة . فجعل أهدافه القريبة تدعيم نفوذه في إيران والعراق ، وأهدافه البعيدة فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته من ناحية ، واسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر وتوحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية السنية ونفوذ السلاجقة من ناحية أخرى .

---

[30] بخصوص توطيد السلاجقة لنفوذهم في بغداد وقضائهم علي منافسيهم انظر : Genç Süleyman, Fatimi- Abbasi- Selçuklu Münasebetleri ve Besasırî İsyanı, S.95- 129.

[31] عبد النعيم حسانين ، المرجع السابق ، ص.٤٦-٥٤ Köymen M A., Alp Arslan ve Zamanı, Ankara 1972

أخذ ألب أرسلان يتفقد أجزاء دولته مترامية الأطراف ، فبدأ بالمناطق الجنوبية ، وتوجه من خراسان إلي اصفهان ، واستولى علي شبانكاره في عام ٤٥٨هـ/١٠٦٥م ، وعلي فارس في عام ٤٥٩هـ/١٠٦٦م ، ثم توجه إلى كرمان ، وعاد إلى مرو بعد أن اطمأن لرسوخ حكم السلاجقة في إيران والعراق ، وزال ما كان يخشاه من قيام فتن وثورات داخلية هنا وهناك . وقبل أن يهم بتحقيق أهدافه البعيدة ، أراد تأمين ظهره أولاً فارتبط برباط المصاهرة مع الغزنويين في غزنه والهند ومع القره خانيين في بلاد ما وراء النهر . وبذلك ، تفرغ السلاجقة لتحقيق أهدافهم الكبري بفتح الأقاليم المسيحية المجاورة لدولته . وكانت دولة الروم قد تجاوزت علي مناطق متفرقة من الشرق الإسلامي في ظل ضعف الخلافة العباسية ، فأراد آلب أرسلان أن يضع حداً لهذه التجاوزات[٣٢].

معركة ملازكرد (٤٦٤هـ/١٠٧١م) : تجاوز آلب أرسلان اقليم أذربيجان وراح يغزو بلاد الروم المجاورة له حتى تمكن خلال فترة قصيرة من الإستيلاء علي المناطق الواقعة بين بحيرتي وان وأورميه ووضع يده علي قلاعها ، كما فتح جورجيا وبلاد الأرمن ، وأخذ ينشر الإسلام وحضارته في تلك المناطق[٣٣] . أغضبت فتوحات ألب ارسلان إمبراطور الروم رومانوس ديوجينس ، فصمّم علي القيام بحركة مضادة ، حيث سار علي رأس جيش كبير لغزو الشام ، وتمكن من التغلب علي أمير حلب التابع للفاطميين . فلمّا علم ألب أرسلان بذلك ، أرسل جيشاً بقيادة ابنه ملكشاه نصم بلاد الشام وتحقيق هدف آخر من أهداف السلاجقة. عندئذ أعلن والي حلب انضمامه

---

[32] عبد النعيم حسانين ، المرجع السابق ، ص. ٥٣-٥٩ ، كذا أنظر : Köymen M A., Alp Arslan ve Zamanı, Ankara 1972

[33] لقد أحدث اعتلاء آلب أرسلان السلطنة بعد طغرك بك تغييراً جوهرياً في سياسة السلاجقة ، حيث وضع السلطان الجديد سياسة أكثر صرامة تجاه الروم لوقف تجاوزاتهم علي الأقاليم الإسلامية ، وتنشيط حركة الفتوح الإسلامية في بلاد الروم .ففي عام ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م فتح آلب أرسلان عاصمتا أرمينية آني و قارص ، حيث أصبح الطريق مفتوحاً أمام السلاجقة للتوغل داخل الأناضول حتي وصلوا إلي قيصرية عام ٤٦١هـ / ١٠٦٧م : Köymen M A., Alp Arslan ve Zamanı, s. 45-62

للسلاجقة قبل وصول ملكشاه إلي بلاده ، وأحل اسم الخليفة العباسي محل اسم الخليفة الفاطمي . وخلال هذه الحملة ، تمكن ملكشاه من الاستيلاء على جزء كبير من بلاد الشام (٤٦٣هـ/١٠٧٠م) . ونجح الجيش السلجوقي في تأمين الجيش الزاحف صوب بلاد الروم .

فلما علم إمبراطور الروم بذلك ، جمع جيشاً جراراً من مختلف الشعوب المسيحية ، وعسكر به في نواحي " ملازگرد " بالقرب من " أخلاط " . فأعلن ألب أرسلان أن الإسلام في خطر وأنه لا سبيل لإنقاذه إلا بالقضاء علي هذه العصبة الكافرة، ودعاهم لبذل الروح في سبيل الله . وهكذا هجم جند السلاجقة علي الجيش الروماني في معركة حامية الوطيس ، فأمعنوا في الروم أسراً وتقتيلاً حتي وقع رومانوس نفسه أسيراً في أيديهم وحاقت الهزيمة بجنده . لم يفرج عن أمبراطور الروم إلا بعد أن افتدي بمبلغ كبير من المال ، وعقدت معاهدة بين الطرفين مدتها ٥٠ عاماً تعهد الروم فيها بدفع الجزية للسلاجقة ، وتنازل عن الأناضول نهائياً (٤٦٤هـ/ ١٠٧١م)[٣٤] .

لقد كانت موقعة ملازگرد نقطة تحول في التاريخ الإسلامي بصفة عامة وتاريخ غربي آسيا بصفة خاصة ، لأنها يسرت القضاء على نفوذ الروم في أكثر اجزاء الأناضول مما مهّد للتقويض أركان الدولة نفسها على أيدي الأتراك العثمانيين فيما بعد . وكانت لهذه الموقعة نتائج بعيدة الأثر ، أهمها :

١. إحياء حركة الفتوح الإسلامية في بلاد الروم من جديد ، وبدء مرحلة من الكرّ الإسلامي صوب الغرب ، واسترداد مكانة العالم الإسلامي التي كانت قد أهتزت كثيراً .

---

[34] أنظر ، عبد النعيم حسانين ، المرجع السابق ، ص. ٥٣-٥٨ ولتفصيلات أكثر حول معركة ملازگرد أنظر : Sevim Ali, Malazgırt Meydan Savaşı, TTK., Ankara 1971.

٢. حلول الحضارة الإسلامية بعقائدها ونظامها وآدابهـــا وجميـــع مظاهرهـــا في الأناضول محل الحضارة اليونانية والآداب المسيحية التي كانت تسيطر علي تلك المناطق .

٣. انتشار اللغة الفارسية لغة الجنود الفاتحين بين أهالي الأراضي المفتوحة في مختلف أنحاء الأناضول .

٤. انسياح القبائل التركمانية في الأناضول وتشكيل إمارات تركمانية لأول مرة في القسم الشرقي من الأناضول[٣٥] ، ثم دولة ســـلاجقة الـــروم ، ثم الإمـــارات التركمانية التي حلّت محلها في وسط وغرب الأناضول . فكان لهذا النشـــاط السياسي في الأناضول دور عظيم في ترسيخ الحكم الإسلامي في تلك المناطق ثم في أوروبا الشرقية لأول مرة ، ومن ثم القضاء علي الأمبراطوريـــة البيزنطيـــة وإعلان " القسطنطينية " حاضرة للدولة العثمانية .

لم يعش ألب أرسلان حتي يجني ثمار نصره العظيم ويواصل فتوحاتـــه ويحقـــق أهدافه البعيدة ، فقد قتل بعد عام وبضعة أشهر من موقعة ملازگرد علي يد احد الثائرين ببلاد القره خانيين في ١٠ ربيع الأول ٤٦٥هـــ/ ٢٩ نوفمبر ١٠٧٢م ، بعد أن حكـــم تسعة أعوام ونصف العام تقريباً.

والحقيقة أن عصر آلب أرسلان جسّد عظمة الإسلام وقوة الدولة السلجوقية وسطوة الخلافة العباسية السنّية ، حيث قام وزير ألب آرسلان نظام الملك بدور هام في انجاح أهداف السلطان وتوجيه سياسة الدولة . وقد ظهرت قوة هذا الوزير بوضـــوح عقب مصرع ألب آرسلان ، فساعد أبنه وخليفته ملكشاه حتي استطاع أن يلي العرش

[35] لقد كان انتصار ملازكرد ١٠٧١م ، نقطة تحول في التاريخ التركي ، حيث اننفتحت أبواب الأناضول أمام العشائر التركمانية ، وبدأت حركة الهجرة المتابعة إليها من خلال بوابة أزربيجان:

Kafesoğlu İbrahim, Doğu Anadolu'ya İlk Selçuklu Akını, Köprülü Armağan, İstanbul 1951, s.55 vd.

ويوطد سلطنته ويوسع حدوده ويستكمل ما بدأه أبوه في تنفيذ الأهداف العليا للدولة السلجوقية[٣٦].

توطيد أركان الدولة في عهد ملكشاه : كان ملكشاه يرافق أباه في حملته التي قام بها لتأديب القره خانيين ، فلمّا قتل والده ، رجع هو علي رأس الجيش إلي خراسان وجلس علي عرش نيسابور وأسند الوزارة إلي نظام الملك ، وكتب إلي حكام الأطراف بذلك حتي يطيعوا أمره ويخضعوا له كما كتب إلي الخليفة العباسي في بغداد ليصدر التفويض له بالسلطنة ويأمر بأن يذكر اسمه في الخطبة . وهكذا استقام الأمر لملكشاه فتوجه من نيسابور إلي الرّي ليكمل ما بدأه أبوه[٣٧] .

سلاجقة كرمان : لما علم قاورد بنبأ وفاة شقيقه ألب آرسلان ، توجه إلي الرّي وأعلن أنه أحق بالسلطنة من إبن أخيه ملكشاه ، إلا أن ملكشاه سبقه في الوصول إليها ، حيث التقي به بالقرب من همذان وانتصر عليه وأمر بقتله ، وأقر كرمان بيد أولاده فتوارثوا حكمها إلي عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، حيث سميت دولتهم في التاريخ بإسم "سلاجقة كرمان" .

سلاجقة الشام : وأسند ملكشاه أمر بلاد الشام إلي أخيه تاج الدين تتش في عام ٤٧٠هـ/١٠٧٧م ، وسمح له بأن يفتح ما يستطيع فتحه . فتوجه تتش في عام ٤٧١هـ/١٠٧٨م إلي حلب لإستعادها ، إلا أن محاصرة الفاطميين لدمشق ، وأستنجاد أميرها بتتش ، جعل تتش يرفع الحصار عن حلب ويتوجه إلي دمشق ، حيث انسحب الجيش الفاطمي هناك ، ودخلها تتش دخول الفاتحين عام ٤٧٢هـ/١٠٧٩م ، واتخذها مقراً لحكمه وأسس فيها دولة " سلاجقة الشام " .

---

[36] أنظر عبد النعيم حسانين ، المرجع السابق ، ص.٥٩-٦٠ وما بعدها .

[37] Kafesoğlu İbrahim, Sultan Melikşah Devrinde Büyük Selçuklu İmparatorluğu, İstanbul 1953, s. 23-41

سلاجقة الأناضول : عمل ملكشاه علي توطيد نفوذ السلاجقة في الأناضول ، فعين سليمان بن قتلمش إبن إسرائيل والياً عليها ، فوضع يده علي ولايتي قونيه وآق سراي . وقد تمكن سليمان من توطيد نفوذ السلاجقة في بلاد آسيا الصغري ، وحاول توسيعه بفتح أقاليم جديدة ، ففتح مدينة أنطاكية عام ٤٧٧هـ/١٠٨٤م وكانت تحت حكم قياصرة الروم . إلا أن فتحها أشعل الفتنة بين أفراد البيت السلجوقي ، حيث فكر سليمان في الاستيلاء علي حلب وضمها إلي منطقة نفوذ سلاجقة الروم بعد أن تم له فتح انطاكية . فلمّا سار سليمان إليها وحاصرها ، استنجد حاكمها بتتش الذي اسرع لصد سليمان عن حلب ، حيث وقعت بين الطرفين معركة طاحنة بالقرب من المدينة ، انتهت بانتصار تتش وقتل سليمان في صفر من عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م ، فدخل تتش حلب وضمها لحوزته . توجه ملكشاه بنفسه إلي الشام للإطمئنان عن الأوضاع في تلك المنطقة، فدخل حلب وطمأن أهلها ، حيث أقر حكم تتش علي بلاد الشام ، وحكم أبناء سليمان بن قتلمش علي بلاد الروم .

لم يبق أمام ملكشاه إلا أن يخضع إقليم ما وراء النهر . وقد واتته الفرصة عام ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م ، عندما شكا علماء ما وراء النهر من ظلم أميرها أحمد خان ، فغادر ملكشاه إصفهان يرافقه وزيره نظام الملك ، حيث أعد جيشاً كبيراً في خراسان عبر به نهر جيحون وفتح بخاري وسمرقند وهزم أحمد خان وقبض عليه . وهكذا ، بسط ملكشاه نفوذ السلاجقة علي هذا الإقليم ، ثم لم يلبث أن خضع له والي كاشغر ، فامتد نفوذ السلاجقة شرقاً فشمل المناطق الواقعة بين كاشغر في الشرق وأنطاكية في الغرب ، وانضوت تحت لوائهم أقاليم ما وراء النهر وإيران وأسيا الصغري والعراق والشام[٣٨] .

---

[38] أنظر عبد النعيم حسانين ، المرجع السابق ، ص. ٦٣-٦٨ . ولتفصيلات أكثر حول تقسيم دولة السلاجقة الكبار ، ونشأة دول سلاجقة كرمان والأناضول والشام والعراق أنظر : Merçil Erdoğan, Selçuklu Devletleri Tarihi, Ankara 1995

ظهور ملامح الضعف في الدولة السلجوقية : لقد ظهرت علي مسرح الأحداث في أواخر عهد ملكشاه بعض التحديات الداخلية التي كان لها الأثر العظيم في اهتزاز أركان الدولة السلجوقية بعنف . وقد تمثلت هذه التحديات الداخلية في :

أ- عودة نشاط الإسماعيلية من جديد .

ب- الصراع علي النفوذ المطلق في توجيه شئون الدولة بين السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك .

ج- الصراعات التي نشبت بين أفراد البيت السلجوقي علي الحكم في مختلف الولايات.

فقد عاود النفوذ الإسماعيلي للظهور في عصر ملكشاه علي يد أحد أنصار المذهب النزاري الإسماعيلي ويدعي حسن الصباح . أخذ حسن الصباح يجدد الدعوة للمذهب الإسماعيلي النزاري في إيران ، حيث التف حوله خلق كثير ، استطاع بهم الإستيلاء علي قلعة " ألموت " عام ٤٨٣هـ/١٠٩٠م ، فاتخذ من هذه القلعة مقراً حصيناً لدعوته . ولما كثر مريدوه استطاعوا تكوين معاقل حصينة يتحصنون بها في المناطق الجبلية من شمال إيران وشرقيها ، وفي المناطق الممتدة من حدود آذربيجان إلي كرمان . وكانت للإسماعيلية فرق تمتاز بالحماسة والإستعداد للتضحية ، فكثر بينهم الفدائيون الذين أستعين بهم في نشر الدعوة لهذا المذهب واغتيال الأعداء من القواد والأمراء والسلاطين الذين كانوا يقفون حجر عثرة في طريقهم ، مما أثار الاضطراب في جميع أنحاء الدولة السلجوقية . ولعل أبرز عمل ينسب إلي الإسماعيلية في عهد ملكشاه ، هو قتلهم لوزيره نظام الملك في العاشر من رمضان من عام ٤٨٥هـ/ ١٩ أكتوبر ١٠٩٢م .

وعلي صعيد آخر ، كان الوزير نظام الملك قد تقدم به العمر ، فاستعان بابنائه وأقاربه وأتباعه في إدارة أقاليم الدولة السلجوقية المترامية الأطراف ، فسيطروا علي مرافق الدولة المختلفة وتصرفوا في الأمور وفقاً لإرادتهم واستغلوا مكانة نظام الملك لدي الدولة

ولدي السلطان السلجوقي أسوأ استغلال ، الأمر الذي جعل السلطان ملكشاه ينفر منه . والحقيقة أن دسائس منافسي نظام الملك في الدولة ، وتحريض تركان خاتون زوجة السلطان التي كان نظام الملك يتصدي لمطالبتها بأن يكون إبنها محمود ولياً للعهد ، وشكوي والي مرو من أحد أحفاد نظام الملك ، قد ساعد علي تعميق الهوة بين ملكشاه ونظام الملك . غير أن السلطان حشي من انفراط عقد الدولة ، ومن انتشار الفوضي في انحائها إذا ما أقدم علي خلع نظام الملك من الوزارة . وبينما كانت مراسلات التهديد والوعيد بين الطرفين مستمرة قام أحد فدائي الإسماعيلية بقتل نظام الملك وهو في طريقه لبغداد في رفقة السلطان ملكشاه .

وعقب مصرع نظام الملك ، توجه ملكشاه إلي بغداد ، حيث عين تاج الملك الشيرازي في الوزارة ، غير أن السلطان لم يلبث أن توفي بعد وفاة نظام الملك بخمسة وثلاثين يوماً (١٥ شوال ٤٨٥هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٠٩٢م) ، فانفرط عقد السلاجقة ، وتمزقت وحدتهم ، وصدق قول نظام الملك في رده علي رسالة السلطان: " إن ثبات هذه القلنسوة معذوق بهذه الدواة ، وإن اتفاقهما رباط كل رغيبة ، وسبب كل غنيمة ، ومتي اطبقت هذه زالت تلك .. "[٣٩] .

لقد كان قتل نظام الملك وموت ملكشاه في ظروف غامضة بعده بقليل ، واختفائهما من المسرح السياسي من أهم الأحداث التي وقعت في تاريخ الدولة السلجوقية . فقد انتهي بإختفاء السلطان ووزيره عهد القوة والإزدهار ، وبدأ عهد جديد من الضعف والإنقسام كثر فيه النزاع بين أفراد البيت السلجوقي ، فلم تعد الدولة تخضع فيه لسلطان واحد ، بل تنازعها أكثر من سلطان في نفس الوقت وتقاسمها أمراء

---

[39] أنظر عبد النعيم حسانين ، المرجع السابق ، ص. ٨٩-٧٧. وفيما يتعلق بأثر نظام الملك الخالد "سياست نامه"، أنظر : Nizamü'l-mülk, Siyaset-nâme, hazırlaryan : A.Köymen, Ankara 1990.

السلاجقة الذين لم يعد همهم سوي القضاء علي بعضهم البعض ، فأدت كثرة القتال بينهم إلي إسقاطهم جميعاً في النهاية[٤٠] .

وإذا كانت دول السلاجقة في خراسان وما وراء النهر وإيران والعراق والشام راحت تتساقط واحدة تلو الأخري خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، نتيجة لتناحر أفراد البيت السلجوقي ، وعدم قواهم علي مواجهة التحديات الخارجية، إلا أن سلاجقة الأناضول ، وعلي الرغم من ابتلائهم بنفس داء الصراع علي كرسي الحكم ، استطاعوا المحافظة علي وجودهم السياسي حتي أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي .

---

[40] بخصوص مرحلة الضعف والإضطراب في الدولة السلجوقية ، انظر : Özaydın A , Sultan Berkyaruk Devri Selçuklu Tarihi (1092- 1104) İstanbul 2001



دولة سلاجقة الأناضول

كان شهاب الدولة قوتلمش بن إسرائيل قد توجه أثناء حكم طغرل بك (٤٣١- ٤٥٥هـ/ ١٠٤٠- ١٠٦٣م) إلي منطقة أزربيجان ، حيث جمع تحت لوائه القبائل التركمانية في المنطقة ، وقام بحملات متتالية علي شرقي الأناضول . والحقيقة أن قتلمش استطاع في وقت قصير اكتساب نفوذ كبير هناك ، وتشكيل قوة تمكن بها أن يلعب دوراً هاماً في تلك المنطقة .

وعقب وفاة طغرل بك ، طمع قتلمش في حكم الدولة السلجوقية في ايران والعراق ، مما أدي إلي نشوب حروب بينه وبين آلب أرسلان انتهت بقتله وأسر أبنائه في أوائل عام ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م . وتقول احدي الروايات التاريخية أن آلب أرسلان قد همّ بقتل أبناء قتلمش ، إلا أن وزيره نظام الملك رأي أن يكتفي بإبعادهم إلي مناطق الحدود البيزنطية غربي إيران ومساعدتهم علي الاقامة في نواحي أورفه وبيره جك[41] .

---

[41] والحقيقة أن كيفية انتقال سليمان شاه وأخوته إلي الأناضول والتاريخ القطعي لتأسيس دولة سلاجقة الأناضول يحيطهما الغموض ، حيث بقيت هاتين القضيتين مثار نقاش بين الباحثين حتي اليوم. فهناك روايات كثيرة ومختلفة حول وصول السلاجقة إلي الأناضول واستقرارهم بها ، فتقول احدي هذه الروايات : أنه لما شارك سليمان شاه وأخيه الأكبر منصور في معركة ملازكرد وأبليا بلاءاً حسناً فيها ، خصص آلب أرسلان منطقة الأناضول ليحكمها سليمان شاه . أما الرواية الأخري فتقول أنه لما توفي طغرك بك وتولي ألب أرسلان ، خرج قتلمش علي السلطان الجديد الذي أوقع به الهزيمة وقتله (١٠٦٤م)، أراد السلطان قتل أبنائه أيضاً ، إلا أن وزيره ظام الملك أشار علي السلطان بأن قتلهم سيكون بشير شؤم علي الدولة ، وأن ارسالهم للأناضول وانشغالهم بالفتح والجهاد سيصرفهم عن الخروج علي الدولة ، فإن استشهدوا فسيكون شرف لهم وللسلاجقة ، وإن انتصروا فسيكونون سبباً في تحقيق فتوح جديدة للدولة : للاطلاع علي تفصيلات أكثر انظر : Ibrahim Kafasoglu, " Anadolu Selcuklu Devleti Hangi Tarihte Kuruldu? ", TED.(sayi 10-11), Istanbul 1981,s. 25-64, ayn. Mlf., Doğu Anadolu`ya Ilk Selçuklu Akını, Köprülü Armağanı, Istanbul 1951, s. 7 vd., Ali Sevim, Anadolu Fatihi Kutulmuşoğlu Süleyman, Ankara 1990, s. 12vd.

ومهما يكن من أمر ، فقد أتاحت معركة ملازكرد (٤٦٤هـ/١٠٧١م) لعشائر الأوغوز في الزحف صوب الأناضول والإنتشار في مختلف نواحيها ، حيث وجد سليمان وأخيه الأكبر منصور وأخويه الصغيرين إيليغ ودولاط الذين فرّوا أو رحّلوا إلي نواحي أورفه وبيره جك في أوائل عصر ملكشاه (٤٦٤-٤٨٧هـ/ ١٠٧٢-١٠٩٢م) وجد الفرصة أمامه سانحة للاتصال بالتجمعات التركمانية في تلك المناطق وقيادتها لفتح مختلف أنحاء الأناضول بتشجيع من السلطان ملكشاه وتحت رعايته (٤٦٦هـ/١٠٧٣م)[42].

تأسيس دولة سلاجقة الروم (الأناضول) :

أعترف سليمان بن قتلمش بنفوذ سلاجقة إيران والعراق في الأناضول ، وصار حاكماً لمناطق وسط وشمال الأناضول (٤٦٧هـ /١٠٧٤م) . وهكذا ، عهد ملكشاه إليه بفتح المناطق الواقعة بين نهر قيزيل ايرماق والبحر الأسود وإسكان القبائل التركمانية في المناطق المفتوحة . استطاع سليمان فتح مدينة قونيه ، حيث اتخذها أولاً مركزاً لحكمه. ولما تقدم في فتوحاته شمالاً وتمكن من فتح مدينة إزنيق (٤٧١ هـ/ ١٠٧٨م)،

42 لقد ظهرت علي مسرح الأحداث في شرقي الأناضول خلال الربع الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي عدد كبير من الإمارات التي أسسها قواد عديدون من السلاجقة علاوة علي أبناء قتلمش . فقد ظهرت إمارة أبناء صالتوق في أرضروم وحواليها ، وأبناء منكوجك في أرزنجان وكماه ، وآل دانشمند في وادي يشيل إرماق ، وآل سوكمن في حوض بحيرة وان ، وأبناء إينال في منطقة ديار بكر، وأيضاً أبناء ديلماج ، ووآل أرتوق في مردين وصن كيفا ، وأبناء جوبوق في منطقة الازيغ ومن بعدهم أبناء آرتوق في خربوط ، حيث راحت هذه الأسرات تحكم مناطق شرقي الأناضول علي مدي قرنين من الزمان تقريباً : أنظر ، Osman Turan, Doğu Anadolu`da Türk Devletleri Tarihi, Istanbul 1993,s.5-6, keza bk. Cahen Claude, Osmanlılardan önce Anadolu, cev. Erol Üyepazari, Istanbul 2000, Sefer Solmaz, Danışmandlar, Türkler,VI/430-451, Ali Ongül, Mengücekler, Türkler, VI/452-460, Ali Ongül, Saltuklular, Türkler, VI/461-470, Aydın Usta, Artuklular, Türkler, VI./471-483, Recep Yasa, Ahlatşahlar,VI./484-490.

نقل إليها مقر إدارته في الأناضول . وقد امتدت فتوحاته حتى وصلت إلي بحر مرمـــرة وسواحل بحر ايجه ، وأصبحت القسطنطينية على مرمى بصره . وهكذا ، بدأ سليمان في إرساء قواعد حكمه في طول البلاد وعرضها ، فولي الولاة وعين القضاة ، ورفرفت راية السلاجقة علي معظم أنحاء الأناضول[43] .

وإذا كان سليمان بن قتلمش قد أجبر امبراطور بيزنطه الكسي كومنين علـــي توقيع معاهدة سلام بين الطرفين ألتزم فيها الأول بحماية الثاني ضد منافسيه علي العرش ودفع فيها الثاني للأول خراجاً سنوياً ، فقد تمكن أيضاً من الاستفادة من النزاع الـــذي شب بين حاكم انطاكية وابنه الذي وعد بتسليم سليمان المدينة شريطة تأييده ضد أبيه . والحقيقة أن تسلم سليمان بن قتلمش لمدينة انطاكية بالفعل عام ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م ، جعله يطمع في حكم حلب فهاجمها . وبذلك ، هرع حاكم دمشق السلجوقي تـــاج الدين تتش لنجدة والي حلب ، حيث وقعت معركة شرسة بين الطرفين بالقرب مـــن حلب انتهت بمقتل سليمان في نفس العام[44] .

والحقيقة أن فتوحات سليمان بن قتلمش في الأناضول ، وسرعة بسط نفـــوذه علي أنحائها يعود إلي عدد من الأسباب ، أهمها :

١. انتشار روح الجهاد بين القبائل المهاجرة إلي الأناضول ، والرغبـــة في مـــد الفتوح الإسلامية إلي عمق الأراضي البيزنطية .
٢. تشجيع ألب أرسلان لسليمان ، وحث سليمان لأمراءه في الأناضول علـــي توطيد مقام القبائل التركمانية في المناطق المفتوحة .

---

43 عبد النعيم حسانين ، المرجع السابق ، ص. ، كذا لتفصيلات أكثر راجع : Ali Sevim, Anadolu Fatihi Kutulmuşoğlu Süleyman, Ankara 1990, s.76vd., Osman Çetin,"Iskanlarla Anadolu`nun Türk Vatanı Haline Gelmesi", Türkler, VI/260-268, Şeker Mehmet, Anadolu'nun Türk Vatanı Haline Gelmesi, Türkler, VI/269-282.

44 أنظر في هذا الخصوص: Ali Sevim, Anadolu Fatihi Kutulmuşoğlu Süleyman,S. 149vd.

٣. إتباع ألب أرسلان سياسة حكيمة تقوم علي مبادئ الدين الإسلامي السمحة إزاء الأهالي الروم ، وذلك بتوفير الأمن لأرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، والاكتفاء بأخذ الجزية ممن لم يدخل في الإسلام ، وتمكينهم في أراضيهم بعد أداء الخراج عنها وفقاً لقواعد الإسلام السمحة .

٤. الاستفادة من نشوب الخلافات بين المتنافسين علي العرش البيزنطي .

٥. ضعف الدفاعات البيزنطية علي طول الحدود في الأناضول[٤٥] .

وعقب موت سليمان بن قتلمش ، لم يشأ السلطان السلجوقي ملكشاه تعيين قليج أرسلان بن سليمان محل أبيه المتوفي ، بل استدعاه إلي إيران ، حيث أمر بسجنه هناك . وكان سليمان بن قتلمش قد وكّل أميراً يدعي أبا القاسم لإدارة شئون البلاد إثر توجهه إلي أنطاكية وحلب . فلمّا وصلت الأنباء بمقتل سليمان وأسر أبنه قليج أرسلان ، جمع أبو القاسم شتات الولاة تحت حكمه ، واستولي علي بعض الجزر في بحر ايجه مما أشعر الروم بأن دولة السلاجقة لازالت قوية رغم تفككها ، فسعي الروم للاتفاق مع أبي القاسم . ثم إن أبا القاسم أراد أن ينال رضا السلطان ملكشاه ، فولي أخاه أبا الغازي حاكماً علي " أزنيق " ، ثم توفي (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) .

سلاجقة الأناضول في عهد قليج أرسلان : والحقيقة أن نجم سلاجقة الروم قد لمع مرة أخري بعد وفاة السلطان السلجوقي ملكشاه (رمضان ٤٨٥هـ/ أكتوبر ١٠٩٢م) ، فما أن تولي بركياروك[٤٦] العرش حتى أطلق سراح قليج أرسلان بن سليمان بن قتلمش ، وولاه علي الأراضي التي كانت تحت حكم أبيه ، فتوجه قليج أرسلان إلي

---

[45] فيما يتعلق بتتريك وأسلمة الأناضول ، انظر : Mustafa Kafalı, " Anadolu`nun Fethi ve Türkleşmesi", Türkler, VI/177-194

[46] بخصوص تفصيلات أكثر حول عصر السلطان السلجوقي بركياروك ، أنظر : A. Özaydın, Sultan Bdrkyaruk Devri Selçuklu Tarihi (1092-1104), İstanbul 2001

ازنيق ، وأنتزعها من أبي الغازي ، حيث جعلها عاصمة لملكه ؛ وحارب الولاة والأمراء الخارجين علي إدارته ، واستطاع إعادة الدولة إلي تماسكها وقوتها مرة أخري.

حاول قليج ارسلان انجاز ما عجز عنه أبوه سليمان ، وسعي بناء أسطول قوي يمكنه به فتح القسطنطينية . وبالفعل شرع في بناء الأسطول في ميناء " جناق قلعـــه " . وبالرغم من سرية هذا المشروع ، أحاطت بيزنطة به علماً ، وأدركت الخطر الذي يحيط بها . وهكذا ، استنجد إمبراطور الروم الكسيوس كومنينوس ببابا روما أربانوس الثاني في عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م . فهب بابا روما لمساعدته سعياً لإرجاع الكنيسة اليونانيـــة إلي نفوذ روما ثانية ، والاستيلاء علي بيت المقدس ، وألقي خطبة في " كليرمونت " بفرنسا استحث فيها مسيحيي أوروبا علي سلوك الطريق إلي كنيسة القيامة ، وانتزاعهـــا مـــن أيدي المسلمين . وقد استجاب لدعوة البابا نحو مئة وخمسين ألف رجل أكثرهم مـــن الفرنسيين وضعوا جميعاً الصليب علامة علي صدورهم ، وبذلك بدأت الحملة الصليبية الأولي التي سلكت طريقها عبر الأناضول[٤٧].

استطاع قليج أرسلان التربص بالفرق الاستطلاعية الأولي لجيوش الصليبيين في مسالك الأناضول ، حيث ألحق بها ضربات موجعة عام٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م . ولما علم بأن هذه الفرق سوف يتبعها جيش كبير لا قبل له به ، أرسل لطلب النجدة من مركز الدولة السلجوقية في إيران . غير أن رجالات البيـــت الســـلجوقي كـــانوا منشـــغلين بصراعاتهم الداخلية علي العرش ، فلم يلب أحد طلبه . وهكذا ، اســـتولت الجيـــوش الصليبية علي أزمير ، ثم التقت بقليج أرسلان عند أسكي شهر . غير أن قليج أرســـلان فضل الانسحاب بقواته ، حيث بدأ في شن حرب عصابات ضد الجيوش الصليبية المتتالية العابرة للأناضول . وقد استفاد الإمبراطور البيزنطي من عبـــور الصـــليبين للأناضـــول وسيطرتهم علي بعض المراكز فيها ، حيث تمكن من استعادة أزنيق وبعض الجزر القريبة

---

[47] بخصوص العلاقات السلجوقية – البيزنطية ، أنظر : Ayönü Yusuf, Selçuklu-Bizans İlişkileri , Türkler, VI/598-617, Işın Demirkent, Haçlı Seferleri ve Türkler, Türkler, VI./651-668

من سواحل مرمرة وايجه . وإذا كان قليج أرسلان قد تعاون لفترة مع الدانشــمنديين[48] وألحق خسائر كبيرة في صفوف الصليبيين ، إلا أنه سرعان ما اختلف معهم ، وضــم بعض ممتلكاتهم في انقره وقيصرية ، ثم توجه غرباً ، حيث استرد المنــاطق الــتي كــان البيزنطيين قد استولوا عليها . وبذلك أعاد قليج أرسلان مرة أخري بسط نفوذه علــي الأراضي التي كانت تحت يده من الأناضول[49].

وبعد وفاة السلطان بركياروك (٤٩٨هـ/١١٠٤م) ، لم يعترف قليج ارسلان بوصاية دولة السلاجقة الكبار ، فأعلن استقلاله التام عنها ، وسعي للاستيلاء علي عرش إيران ، مما أدي لدخوله في مواجهات ضد إمارات خربوط والموصل ودياربكر ، حيث هزم في آخرها ، ومات غريقاً عام٥٠٠هـ/١١٠٦م[50].

وقد انقسمت دولة سلاجقة الأناضول في عهد مسعود بن قلــيج أرســلان (وفاته: ٥٥١هـ/١١٥٦م) إلي أقسام ثلاثة : فأصبحت العاصمة قونيــة وآقســراي ونيكده تحت حكم أبنه قليج أرسلان الثاني ، وأنقره ونواحي جانقري تحت سيطرة أبنه الثاني شاهنشاه ؛ أما سيواس وأماسيا ونيكحصار ونواحيها ، فكانت تحــت يــدَ روج أبنته نظام الدين ياغيبصان الذي كان يعترف بحكمه . إلا أن قليج أرسلان الثاني استطاع السيطرة علي البلاد جميعها والقبض علي إدارة الدولــة بعــد وفــاة يــاغي بصــان

---

48 بخصوص العلاقات السلجوقية الدانشمندية والتعاون فيما بينهم لصد الحملات الصليبية علي التي عبرت الأناضول : Muharrem Kesik, Turkiye Selcuklulari ile Danismendliler Arasindaki Iliskiler, Turkler, VI/537-546.

49 فيما يتعلق بالمواجهات التي تمت بين سلاجقة الأناضول وجيوش الحملات الصليبية الأولي ، أنظر : Işın Demirkent, Haçlı Seferleri ve Türkler, Türkler, VI/651-668; ayn. Mlf., Türkiye Selçuklu Hükümdarı Sultan I. Kılıç Arslan, Ankara 1996, s. 78-92; Ayönü Yusuf, Selçuklu- Bizans İlişkileri , Türkler, VI/598-617

50 Işın Demirkent, Türkiye Selçuklu Hükümdarı Sultan I. Kılıç Arslan, s. 231.

عام٥٥٩هـ/ ١١٦٤م ، وإلحاق الهزيمة بأخيه شاهنشاه وبالجيش البيزنطي الذي حالفه في معركة عرفت باسم " ميرياكفالون " في نواحي جيوريل (٥٧٢هـ/ ١١٧٦م)[٥١] .

ومرة أخري أرتكب قليج أرسلان الثاني خطأً جسيماً في نهاية فترة حكمه ، حيث عين ابنه غياث الدين كيخسرو حاكماً على قونية ، ثم قسم بلاده علي بقية أبنائه. وبذلك نشب صراع دموي بين الأخوة في حياة أبيهم الذي توفي علي أثره عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م . استطاع ركن الدين سليمان التغلب علي أخوته عام ٥٩٢هـ/١١٩٦م ، فوحد إدارة الدولة تحت قيادته ، وقام بتوسيع حدوده بانتزاع أرضروم من أسرة سلتوق عام ٥٩٨هـ/١٢٠١م ، ودخلت ديوركي وأمراء منكوجك تحت نفوذه ، ودفع ملك الأرمن له الجزية . إلا أنه قبيل وفاة سليمان عام (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م) قام اللاتين باحتلال استانبول ، حيث اضطر الروم للفرار منها وتأسيس مركزين للإمبراطورية في إزنيق وطرابزون . وعلي الرغم من الصراعات التي شبت بين أبناء سليمان ، فقد استطاع غياث الدين كيخسرو فتح انطاليا علي البحر المتوسط (٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م) ، وتمكن عز الدين كيكاوس من فتح مدينة سينوب علي البحر الأسود (٦١١هـ / ١٢١٤م)[٥٢] .

دولة سلاجقة الروم تحت التبعية المغولية : وخلال عصر علاء الدين قيقباد (٦١٦-٦٣٤هـ/ ١٢١٩- ١٢٣٧م) الذي يعتبر عصر ازدهار سياسي واقتصادي وعمراني لدولة سلاجقة الأناضول ، سقطت مملكة خوارزم الكبري[٥٣] في يد الماغول الذين زحفوا صوب الغرب ، حيث أجبروا السلطان الخوارمي جلال الدين

---

[51] لتفصيلات أكثر حول عصر مسعود بن قليج أرسلان انظر : Muharrem Kesik, Turkiye Selcuklu Devleti Tarihi, Sultan I. Mesud Donemi (1116-1155), Ankara 2002

[52] حول هذه الوقائع انظر : Mercil Erdogan, Turkiye Selcuklulari, Turkler, VI/503-538

[53] فيما يتعلق بدولة خوارزمشاه ودورها في شرقي الأناضول انظر : Hasan Gayikoglu, Harizmsahlar ve Dogu Anadolu, Turkler, IV/917- 931

منكوبرتي علي الانسحاب إلي آزربيجان عام ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م ، ودفعوا العديد من القبائل التركمانية للهجرة إلي الأناضول . ففي الوقت الذي كان فيه علاء الدين قيقباد قد استطاع أن يبسط سيطرته علي كافة سواحل البحر المتوسط والإستيلاء علي أرزنجان وكماه وشرقي قره حصار في شرقي الأناضول ، كان الزحف المغولي صوب الغرب قد دفع جلال الدين خوارزمشاه لطلب المساعدة من السلاجقة والأيوبيين والخليفة العباسي (٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م) . إلا أن وفاة جلال الدين في العام التالي واحتلال المغول لبلاده ، جعل أمراء خوارزم يلتجئون للسلطان السلجوقي الذي سمح لهم بالاستقرار في شرقي الأناضول . ولما قامت القوات المغولية بالإغارة على المنطقة الواقعة بين أرضروم وسيواس الخاضعة للسلاجقة، وشهد علاء الدين قيقباد قوة بأسهم ، أراد تفادي عواقب نزالهم بطلب عقد اتفاق معهم . إلا أن طلبه قوبل بالرفض ، حيث رضخ أخيراً لطلبهم بالاعتراف بتبعيته لهم قبيل وفاته عام (٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م) .

موقعة كوسه داغ (٦٤١هـ/ ١٣٤٣م) : وعلي الرغم من ظهور الخطر المغولي في المنطقة ، إلا أن حكام السلاجقة والأيوبيين والأرتوقيين لم يتخذوا أية تدابير لمواجهة هذا الخطر الداهم ، واستمروا في خلافاتهم الداخلية التي لم تتوقف حتى وصلت الجيوش المغولية إلي أبواب الأناضول ، وراحت تقضي علي الأخضر واليابس في المنطقة . وهكذا ، استولت الجيوش المغولية التي كانت تحت قيادة بايجو نوين علي أرضروم بعد حصار قصير لقلعتها ، حيث قتل ذكورها وسبي نسائها وخربت دورها . ولما وصلت هذه الأنباء إلي غياث الدين كيخسرو الثاني ، خرج علي رأس جيش يبلغ ٣٠ ألفاً من الفرسان ، وتوجه بهم إلي سيواس ، حيث وقعت المواجهة بين الطرفين في نواحي كوسه داغ شمالي سيواس في ١١ محرم ١/٦٤١ يولية ١٢٤٢.

انتهت المعركة بهزيمة الجيش السلجوقي وفرار غياث الدين ، حيث قام حاكم مدينة سيواس بتسليم المدينة للمغول . وبعد أن قام بايجو بالاستيلاء علي قيصري والتجاء غياث الدين إلي حدود إمبراطورية الروم بإزنيق ، قام الوزير السلجوقي مهذب الدين

بعقد اتفاقية تبعية مع بايجو تقضي بدفع ضريبة سنوية للمغول ، حيث عاد الجيش المغولي علي أثرها لمعسكرهم بآذربيجان.

لم يوقف استيلاء المغول علي الأناضول الصراع الدائم بين رجالات البيت السلجوقي في الأناضول علي السلطة ، حيث قسمت البلاد بين ركن الدين قلبيج أرسلان الرابع وعز الدين كيكاوس الثاني في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي . وفي ظل هذا التقسيم وذلك الصراع ، أخذ النفوذ المغولي يزداد تدريجياً ، كما مكن بعض الأمراء التركمان وحتى إمبراطور بيزنطة من التدخل في شئون سلاجقة الأناضول .

وهكذا ، ضعفت مكانة حكام السلاجقة في ظل سيطرة المغول المطلقه فسي إدارة البلاد ، حتى أصبح للايلخان ولاية في الأناضول ، وعجز الأهالي عن أداء الضرائب المتزايدة للمغول ، ولم يعد أمراء الحدود يعترفون بأية تبعية للسلطان السلجوقي، حيث راحوا يتصرفون باستقلالية تامة ، وذلك في الوقت الذي كانوا يدفعون فيه للخزينة الإيلخانية مقداراً سنوياً من المال والهدايا تجنباً لتدخلاتهم . ومن ناحية أخري ، سلب المغول من الحاكم السلجوقي أيضاً حق تعيين الوزير السلجوقي، بل أصبح أصحاب الكلمة في الدولة هم الأشخاص المعتمدين من قبل الحاكم الإيلخاني . وفي أواخر القرن ٧هـ/ ١٣م وعلي أثر هزيمة غياث الدين مسعود أمام الحاكم المغولي بالتو ، حبس غياث الدين في قلعة همدان ، ولم يعين علي البلاد أحد من أسرة آل سلجوق ، وقسمت الولايات السلجوقية إلي أربعة أقسام قام المغول بإدارتها إدارة مباشرة تحت إشراف مجير الدين أمير شاه(٦٩٥هـ/١٢٩٦م) .

لم تستقر أوضاع الأناضول في ظل الحكم المغولي المباشر ، حيث اضطر غازان محمود خان لإعادة السلطنة للعائلة السلجوقية ثانية . وبذلك ، عين علاء الدين قيقباد حفيد عز الدين كيكاوس الثاني حاكماً سلجوقياً في نهاية عام ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م ، إلا أن هذا التعيين لم يحل دون اشتعال القلاقل بين المغول والسلاجقة ، حيث عزل علاء الدين قيقباد الثالث علي الرغم من زواجه من إبنة شقيق غازان خان ، وأعيد غياث الدين مسعود سلطاناً اسمياً للسلاجقة عام ٧٠١هـ/ ١٣٠٢م . وقد قضي آخر

السلاطين السلاجقة بقية حياته في قيصري ، حيث توفي مشلولاً في عـام ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م ، ولم يعين المغول بدلاً منه حاكماً من الأسرة السلجوقية ، بل وجهت الإدارة العامة في الأناضول لأحد الأمراء المغول[٥٤] .

وكانت الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية قد ضعفت دفاعاتها عقب انتقال مركز الإمبراطورية من إزنيق إلي استانبول التي استطاع ميخائيل باليولوج استعادتها عام ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م ، حيث بدأ أمراء الحدود (اوج أميرلري) التابعين لدولة سلاجقة الأناضول يتوسعون تدريجياً صوب الغرب علي حساب الأراضي البيزنطية . وقد ساعد هؤلاء الأمراء علي التوسع علي طول الحدود البيزنطية العوامل التالية :

أ- تصرف قواد القلاع التابعين للإمبراطورية البيزنطية باستقلالية .

ب- تأثير حالة النفور العامة تجاه ميخائيل باليولوج الذي اغتصب السلطة في استانبول .

ج- تعرض المدن الموجودة بمنطقة تراقيا والتابعة لبيزنطة لاحتلال البلغار والصرب .

د- سيطرة البنادقة والجنويون علي إدارة أهم موانيهم التجارية في المورة وجزرهم في بحر ايجه وبعض موانيهم في البحر الأسود .

ه- عدم وجود جيش أو اسطول منتظم للإمبراطورية لمواجهة التحديات الداخلية والخارجية .

وهكذا ، مهد ضعف نفوذ الإمبراطورية البيزنطية علي ممتلكاتها سواء في الأناضول أو في البلقان ، والضغوط المغولية علي شرق ووسط الأناضول ، وتفكك دولة سلاجقة الأناضول وصراع رجالاتها علي السلطة ، مهّد لظهور تشكيلات سياسية مستقلة في القسم الغربي للأناضول خلال النصف الثاني من القرن ٧هـ/١٣م .

---

[54] Mercil Erdogan, Turkiye Selcuklulari, Turkler, VI/503-538



إمارات الأناضول المستقلة

في مطلع القرن ٧ هـ /١٣م

كان الصراع المستمر مع البيزنطيين قد جعل الأمويين ثم من بعدهم العباسيين يقيمون تشكيلات عسكرية خاصة علي الحدود الغربية للدولة الإسلامية ، حيث حرص سلاجقة الأناضول فيما بعد علي اقامة تشكيلات مماثلة فيما يعرف باسم " الأوج " علي طول الحدود الغربية للدولة . وكان دور هذه التشكيلات ينحصر في صدّ غارات العدو والاغارة علي أراضيه كلما سنحت الفرصة . وقد اعتمدت هذه التشكيلات علي عشائر التركمان . وكانت أكبر هذه الحاميات أهمية في غرب الأناضول تلك الموجودة علي حدود الإمبراطورية البيزنطية في "نيقيه" (إزنيق) .

وهكذا ، كانت دولة سلاجقة الأناضول تقوم بتعيين بعض القوات للدفاع عن الثغور البرية والبحرية ، حيث اكتسبت القوات العرفية للثغور البرية علي الحدود الغربية للدولة أهمية عظيمة حتي استعان بها السلاطين لتقوية جيوشهم . ومن ناحية أخري فقد جرت العادة علي أن تضفي الحكومة السلجوقية علي أي رئيس من رؤساء العشائر يعظم أمره ويلتحق به عدد من العشائر الصغيرة لقب " أوج بكي " أي حاكم الحدود ، حيث كانت تجعله تحت إمرة رئيس يطلق عليه اسم " أوج أميري " أمير الحدود . وكان هؤلاء الحكام يؤدون للدولة ضرائب نقدية وعينية . وعلي الرغم من ذلك ، لم يكن للحكومة السلجوقية سلطان فعلي عليهم ، حيث كانوا يقومون بالإغارة علي الأراضي البيزنطية لحسابهم الخاص ، فيسببون للدولة كثيراً من المشكلات السياسية الخارجية ، وربما جرّوها إلي حروب مع البيزنطيين . وكان هؤلاء الأمراء لا يتحرجون من شق عصا الطاعة كلما أتيحت لهم الفرصة ، والتصرف باستقلالية ، وقد لا يؤدون الضرائب إلا بعد تهديد الدولة لهم ، كما كانوا في أحيان كثيرة ينحازون إلي أحد المتصارعين علي عرش السلاجقة .

وعلي الطرف الآخر ، كانت الإمبراطورية البيزنطية في نيقيه علي وفاق مع السلطنة السلجوقية في قونيه خلال الربع الأخير من القرن ١٣م/٧هـ ، غير أنها كانت تقوي من خطوطها الدفاعية لمواجهة غارات التركمان . وقد استطاعت تلك الفيالق البيزنطية التي عرف في المصادر الإسلامية باسم " الخرائطة " أن تقوم بمهامها خير قيام في عهد إمبراطورية نيقيه. إلا أنه عقب نقل العاصمة إلي بيزنطة ثانية (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، أهملت هذه التشكيلات البيزنطية ، حيث صودرت الأراضي التي كان ريعها موقوف عليها ، الأمر الذي أدي إلي خروجها في حركات عصيان نكّل بها تنكيلاً عظيماً[٥٥] .

وهكذا ، مكّن ضعف الدفاعات البيزنطية وضعف النفوذ السلجوقي في المناطق الحدودية ، مكن حكام الحدود من التركمان من التوسع في أراضي بيزنطة بالتدريج ومن تقوية النفوذ المحلي لأمراء الحدود ، الأمر الذي ساعدهم علي تكوين تشكيلات سياسية جديدة علي الحدود البيزنطية . ففي مطلع القرن ١٤م/٨هـ استطاع الأمير چوبان ومن بعده ولده الوالي الإلخاني دميرداش أن يوطدا نفوذهما في مناطق الحدود أحياناً بالسياسة وأحياناً أخري بحد السيف[٥٦] .

وكانت أراضي مناطق الحدود الغربية من الأناضول مقسمة إلي اقطاعات متفاوتة القيمة يعطي أقلها دخلاً لجند الحدود المعروفين بإسم " غازي " وفقاً للتقاليد الإسلامية وبإسم " آلب " وفقاً للتقاليد التركمانية الغزية . وقد فعل الضغط المغولي علي شرق ووسط الأناضول فعله في الدفع بالعديد من العشائر التركمانية للهجرة من وسط

---

[55] بخصوص الإمارات التركمانية التي نشأت في الأناضول ، أنظر : Ayönü Yusuf, Selçuklu- Bizans İlişkileri , Türkler, VI/598-617; Merçil Erdoğan, Anadolu Beylikleri, Türk Dünyası El Kitabı, Ankara 1976; Yücel Yaşar, Anadolu Beylikleri Hakkında Araştırmalar, I.-II. Ankara 1991

[56] فما يتعلق بالإمارات التي قامت شمال غربي الأناضول خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي ، انظر : Yücel Yaşar, XIII-XV Yüzyıllar küzeybatı Anadolu Tarihi , Çoban oğulları, Candar oğulları Beylikleri, Ankara 1980

الأناضول صوب الغرب ، كما كان لعجز بيزنطة عن الدفاع عن رعايا الروم في غربي الأناضول وثقل الضرائب التي كانت تُفرض عليهم ، دور هام في دخول بعض من هؤلاء الرعايا في طاعة أمراء الحدود مقابل دفع الجزية علي النفس والمال .

ومن ناحية أخري ، كان العلماء ممن درسوا في العواصم الإسلامية كالشـــام وإيران ومصر والقرم يرافقون بعض هؤلاء الأمراء ، حيث لعبت هذه الفئة دوراً هامـــاً سواء في وضع أسس الجهاز الإداري أو في وضع نواة المؤسسات الثقافية الإســـلامية في إمارات الحدود تلك .

ولما كانت تلك المناطق تقع في أقصي " دار الإسلام " من الناحية الغربيـــة ، اصطبغ الصراع فيها بمفهوم الجهاد في سبيل الله ، حيث وفدت علي هذه المناطق أيضـــاً جماعات مختلفة من المجاهدين والمتطوعين والمتصوفة ، ذكر منهم المؤرخ التركي عاشـــق باشا زادة في حوليته" تواريخ آل عثمان " جماعات الـــ" آلبلر "، " الغزاة "، " الفتيان "، " آخيان روم "، " الأخية الفتيان "و " أبدالان روم "[57] .

والحقيقة أن تطورات هامة وقعت في الأناضول في أواسط القرن ٧هـــ/١٣م ، مهدت لظهور إمارات تركمانية مستقلة علي طول الحدود السلجوقية مع إمبراطوريـــة الروم يأتي علي رأسها :

١. ظهور الخطر المغولي شرقي الأناضول ، ثم سيطرتهم علي كافة مقاليـــد الإدارة في الأناضول.

٢. الإنهيار المفاجئ لدولة سلاجقة الأناضول، وخضوع السلاجقة للإدارة المغولية، وصراع البيت السلجوقي علي السلطة عام ١٢٤٣م/٦٤١هـــ.

---

[57] لتفصيلات أكثر حول الظروف التي أحاطت بتشكيل إمارات غربي الأناضول التركمانية ومنها إمارة آل عثمان ، أنظر : محمد فؤاد كوبريلي ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، القاهرة ١٩٦٥ ؛ Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I, Ankara 1947

٣. هجرة الكثير من العشائر التركمانية من وسط الأناضول أمام الزحف المغولي ، واستقرارها علي طول الحدود الغربية لدولة سلاجقة الأناضول ، وشروعها في القيام بتحركات استقلالية بخروجها علي الحكومة السلجوقية الخاضعة للمغول ، ونقضها المعاهدات التي عقدتها مع أباطرة الروم .

٤. ضعف الدفاعات البيزنطية علي حدودها الشرقية إثر التخلي عن أزنيق (نيقية) كعاصمة للإمبراطورية وعودة الإمبراطور إلي القسطنطينية (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، الأمر الذي أتاح لتشكيلات الغزاة التركمانية للتوسع علي حساب الأراضي البيزنطية .

وبذلك ، بدأت هذه العشائر التركمانية تتجمع تحت قيادة بعض أمراء الحدود الغزاة وتقوم بالتوسع التدريجي غرباً مستفيدة من حالة الضعف والإنهيار التي كانت تمر بها كل من دولة سلاجقة الأناضول والإمبراطورية الرومانية ، وذلك علاوة علي ضعف قبضة الإدارة المغولية علي مناطق الحدود الغربية . وهكذا ، بدأ أمراء الحدود يؤسسون إمارات صغيرة في المناطق التي راحوا يستولون عليها معترفين بالنفوذ الإلخاني (المغول الغربيين) ، حيث راحوا يدفعون لهم الخراج لضمان عدم التعرض لهم . وفي الوقت الذي كانت فيه دولة سلاجقة الأناضول تحتضر ، اقتصر دور الولاة العموميين التابعين للإلخانيين في الأناضول علي توفير الإنضباط في البلاد وجمع الضرائب .

ولما تولي باينجار قائداً جديداً للمغول عام ١٢٩٨م/ ٦٩٨هـ قام بتنصيب علاء الدين قيقباد الثالث علي عرش السلاجقة ، إلا أن خروج أحد قواده ويدعي سولمش ضده بحركة عصيان في العام التالي ١٢٩٩م/٦٩٩هـ ، أضعف النفوذ المغولي-الإلخاني في منطقة الحدود الغربية فجأة ، الأمر الذي مكّن أمراء الحدود بتكثيف هجماتهم علي الحدود البيزنطية وإعلان استقلالهم في الفترة ما بين ١٢٩٩-١٣٠١م/٦٩٩-٧٠١ هـ .

وهكذا ، ظهر علي مسرح التاريخ في الأناضول خلال مطلع القرن ٨هـ/١٤م إمارات تركمانية عديدة ، أهمها : أبناء قرمان في لارنده وسليفكه ، وأبناء حميد في أقشهر واسبرطه وبوردر ، وأبناء گرميان في كوتاهيه وأفيون وآلاشهر ، وإمارات أبناء منتشه وأبناء آيدين وأبناء صاروخان وأبناء قراسي علي سواحل بحر أيجه ، وإمارة أبناء جندار في قسطموني وسينوب ، وإمارة أبناء عثمان في سكود ويكيشهر وبيله جك وأسكيشهر وبورصه وأزنيق وأزميت[٥٨] .

---

[58] لتفصيلات أكثر حول الإمارات التركمانية التي نشأت في وسط وغربي الأناضول خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي ، أنظر : Uzunçarşılı, Kitabeler ve Sahib, Saruhan, Aydın, Menteşe, İnanç, Hamıdoğulları hakkında Malumat,I - II. İstanbul 1929; aynı mlf., Anadolu Beylikleri, Ankara 1984; Yücel Yaşar, XIII-XV Yüzyıllar küzeybatı Anadolu Tarihi , Çoban oğulları, Candar oğulları Beylikleri, Ankara 1980; Feridun M. Emecen, İlk Osmanlılar ve Batı Anadolu'da Beylikler Dünyası, İstanbul 2001; Varlık Mustafa Çetin Germiyanoğulları Tarihi (1300-1429), Ankara 1974; Öden Zerrin Günal, Karası Beyliği, Ankara 1999.



المصادر والمراجع

أولا- المصادر :

- إبن بيبي ، يحي بن محمد ، تواريخ آل سلجوق ، ترجمة يازيجي أوغلي علي ، نشر ليدن ١٩٠٢

- ـــــ ، الأوامر العلائية في الأمور العلائية ، نشر عدنان صادق أوزك ، أنقره ١٩٥٩

- أحمد بن محمود ، سلجوق نامه ، ترجمه للتركية أردوغان مارجيل ، استانبول ١٩٩٧

- الاسترابادي ، عزيز بن أردشير ، بزم ورزم ، نشر بكليس لي رفعت ، استانبول ١٩٢٨ ، ترجمه للتركية مرسل أوزتورك أنقره ١٩٩٠

- الأصفهاني ، عماد الدين ،تاريخ دولة آل سلجوق ، بيروت ١٩٧٨

- أقسرايي ، كريم الدين محمود ، مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار ، نشر عثمان توران، أنقرة ١٩٤٤

- أمير خواند البلخي ، روضة الصفا ، ج٤ ، تهران ١٢٧٠

- البيهقي ، أبو الفضل محمد بن حسين الكاتب ، تاريخ مسعودي (تاريخ البيهقي)، نشر سعيد نفيسي ، تهران ١٣١٩هـ ش (ترجمه للعربية يحي الخشاب وصادق نشأت).

- الحسيني ، صدر الدين علي بن مصطفي ، أخبار الدولة السلجوقية (ذبدة تواريخ الأخبار العمرية والملوك السلجوقية) تحقيق محمد نور الدين ، بيروت ١٩٨٥

- خواند مير ، عياث الدين بن همام الدين ، حبيب السير في أخبار أفراد البشر ، بمباي ١٢٧٣هـ/١٨٥٨م

- رشيد الدين فض الله ، جامع التواريخ ، نشر أحمد آتش ، انقرة ١٩٦٠ (ترجمه للعربية محمد صادق نشأت ، أحمد موسي هنداوي ، وفؤاد عبد المعطي الصياد ، القاهرة ١٩٦٠)

- الروندي ، محمد بن علي بن سليمان ، راحة الصدور وآيات السرور ، نشر محمد اقبال ، ليدن ١٩٢١ (ترجمه للعربية إبراهيم الشواربي ، عبد النعيم حسنين ، وفؤاد الصياد) .

- العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ليبزج ١٩٥٩

- الغفاري ، أحمد بن محمد قاص ، تاريخ جهار ارا ، نشر حسن توراكي ، قمران١٣٤٣

- القزويني ، حمد الله بن أبوبكر أحمد المستوفي ، تاريخ كزيده ، قمران ١٣٣٩

- الكاشغري ، محمود ، كتاب ديوان لغات الترك ، استانبول ١٩١٧ ، أنقره ١٩٩٠

- كرديزي ، أبو سعيد عبد الحي بن الضحاك ، زين الأخبار ، نشر عبد الحي حبيبي، قمران ١٣٤٧

- مجهول ، تاريخ عالي سلجوق در أناضولي ، نشر نادره جلالي ، قمران ١٩٩٩

- يازدي ، شرف الدين علي ، ظفر نامه (انظر الترجمة العربية) ، كلكتا ١٨٨٧

ثانياً- المراجع :

١- التركية

- Akbulur Dursun Ali, Arap Fütûhâtına kadar Meveraunnehir ve Horasan'da Türkler (الأتراك في بلاد ما وراء النهر وخراسان حتي الفتح العربي) basılmamış Doktora Tezi, Erzrum 1984.

- Aycan İrfan, " Emevîler Dönemi Sonuna kardar Müslüman Arapların Türklerle İlk Münasebetleri "(العلاقات الأولي بين العرب المسلمين والترك حتي نهاية العصر الأموي), Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, IV/317-328.

- Ayönü Yusuf, Selçuklu- Bizans İlişkileri(العلاقات السلجوقية البيزنطية) , Türkler, VI/598-617.

- Azımlı Mehmet, Abbasîler Döneminde Türklerden Oluşturulan Ordu, Hassa Ordusu (الجيش المشكّل من الترك في العصر العباسي ، الجيش الخاص), Türkler, IV/364-374.

- Bainbrige M., Dünya'da Türkler (الأتراك في العالم), çev. Mehmet Harmancı, İstanbul 1995.

- Baştov Şerif, Hazar Kağanlığı Tarihi, Tarihte Türk Devletleri (تاريخ قاغان الخزر ، الدول التركية في التاريخ), I. Ankara 1967.

- Dönmez Y., Türk Dünya'sının Beşerî ve İktisadî Coğrafyası (الجغرافيا البشرية والاقتصادية للعالم التركي), İstanbul 1968.

- Erdem İlhan, Doğu Anadolu Türk Devletleri (الدول التركية في شرقي الأناضول), Türkler, VI/ 383-424.

- Genç Reşat, Karahanlılar Tarihi (تاريخ القره خانيين), Türkler, IV/445-459.

- Genç Süleyman, Fatimi- Abbasi- Selçuklu Münasebetleri ve Besasırî İsyanı(العلاقات الفاطمية العباسية السلجوقية وحركة عصيان البساسيري) , basılmamış Doktora Tezi, İzmir 1995.

- İzgi Ö., Uygurların Siyasî ve Kültürel Tarihi Hukuk Vesikalarına göre (التاريخ والسياسي والثقافي للأويغور من واقع الوثائق القانونية), Ankara 1987.

- İnan Abdulkardır, Eski Türk Dini Tarihi (التاريخ الديني للترك القدامى), İstanbul 1976.

- Işın Demirkent, Haçlı Seferleri ve Türkler (الحروب الصليبية والترك), Türkler, VI/651-668.

- Kabulov Karim, " Orhun Türkmenlerinin Aslı " (أصل تركمان أورخون), Türkler, II/118-126.

- Kafesoğlu İbrahim, Sultan Melikşah Devrinde Büyük Selçuklu İmparatorluğu (امبراطورية السلاجقة الكبار في عصر السلطان ملكشاه), İstanbul 1953.

- _________ , Harezmşahlar Devleti Tarihi (1092-1229) (تاريخ دولة خوارزمشاه, Ankara 1956.



- ________, Doğu Anadolu'ya İlk Selçuklu Akını (الزحف السلجوقي الأول علي شرقي الأناضول), Köprülü Armağan, İstanbul 1951.

- ________, Eski Türk Tarihi (التاريخ التركي القديم), Ankara 1980.

- ________," Tarihte " Türk " adı "(اسم "ترك" في التاريخ), Türkler, I/308-315.

- Karapinar Mahmut, Abbasîler Dönemi Türklerin Siyasî Faâliyetleri (الفعاليات السياسية للترك خلال العصر العباسي), Türkler, IV/352-363.

- Kerimova Risalet, " Hun İmparatorluğu ile Çin Doğu Türkistan Mücadelesi " (إمبراطورية الهون وصراع الصين علي تركستان الشرقية), çev. Nurşen Özsoy, Türkler, I/743-748.

- Kesik Müharrem, Türkiye Selçuklu Devlti tarihi, Sultan İ. Mesüd Dönemi (1116-1165) (تاريخ دولة السلاجقة التركية ، عصر السلطان مسعود الأول) ، Ankara 2002.

- ________, Tükiye Selçukluları ile Danışmendliler Arasındaki İlişkiler(العلاقات بين سلاجقة تركيا والدانشمانديين) ,Türkler, VI/537-546.

- Kitapçi Zekeriya, Orta Asya'da İslamiyetin Yayılışı ve Türkler (الترك وانتشار الإسلام في وسط آسيا), Konya 1994.

- ________, Arapların Türkistana Girişi (دخول العرب بلاد التركستان), İstanbul 2000.

- ________, Türkistan'da Müslüman olan İlk Türk Hükümdarları (الحكام الترك الأوائل الذين أعتنقوا الإسلام في خرسان), İstanbul 1988.

- ________, Türkistan'da İslâmiyet ve Türkler (الأتراك والإسلام في بلاد التركستان), Konya 1988.

- ________, Türk Boyları Arasında İslam Hidâyet Fırtınası (رياح الهداية إلي الإسلام بين العناصر التركية), Konya 2001.

Koca Selim , Anadolu Türk Beylikleri (إمارات أتراك الأناضول), Türkler, VI/703-755.

- ______ , " Hun İmparatorluğu'nun Doğuşu " (ظهور إمبراطورية الهون), Gazi Eğitim Fakültesi Dergisi, sayı VI, (Ankara 1990).

- Köymen Mehmet Altay, Selçuklular Devri Türk Tarihi (التاريخ التركي في العصر السلجوقي), Ankara 1982.

- ________ , Büyük Selçuklu İmparatorluğu Tarihi Kuruluş Devri (تاريخ إمبراطورية السلاجقة الكبار ، عصر التأسيس), I, Ankara 1979.

- ________ , Alp Arslan ve Zamanı, Ankara 1972

- ________ , Büyük Selçuklu Devleti (دولة السلاجقة الكبار) , II., Ankara 1954

- Kurat A.N. , IV-XVII. Yüzyıllarda Karadeniz Küzeyindeki Türk Kavimleri ve Devletleri (الأقوام والدول التركية القاطنة شمالي البحر الأسود في الفترة ما بين القرنين الرابع والسابع عشر الميلادي), Ankara 1972.

- Merçil Erdoğan, Müslüman Türk Devletleri Tarihi (تاريخ الدول التركية الإسلامية), Ankara 1993.

- ________, Ğazneliler (الغزنويون), Türkler, IV/479-508.

- ________ , Selçuklu Devletleri Tarihi (تاريخ الدول السلجوقية), Ankara 1995.

- ____________ , Anadolu Beylikleri (الإمارات الأناضولية), Türk Dünyası El Kitabı, Ankara 1976.

- Nicola Di Cosmo, " Hun İmparatorluğu'nun Kuruluşu ve Yukselişi "(تأسيس إمبراطورية الهون وإزدهارها), Türkler, I/709-719.

- Ogel Bahaeddin, Büyük Hun İmparatorluğu Tarihi (تاريخ إمبراطورية الهون الكبري), Ankara 1981.

- Özey Ramazan, " Tarihte Türk Devletleri ve Hakimiyet Alanları"(الدول التركية في التاريخ وميادين نفوذهم), Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, cilt.I/ 266-276.

- Richord Rafe De Crespingy, " Hun Konfedrasyonu'nun Bölünmesi ve Yıkılması "(انقسام إتحاد الهون وإنهياره),Türkler, I/749-757

- Sevim Ali , Malazgırt Meydan Savaşı(معركة ملاذكرد), TTK., Ankara 1971.

- Şeker Mehmet , Anadolu'nun Türk Vatanı Haline Gelmesi (تحول الأناضول إلي وطن تركي), Türkler, VI/269-282.

- Talar Tekin, Orhon Yazıtları (كتابات أورخون), Ankara 1988.

- Tasağıl Ahmet, Göktürkler (الكوكترك), Ankara 1995.

- __________ , " İslam öncesi Devrede Orta Asya'da Yaşayan Türk Boyları "(الأعراق التركية التي تعيش في وسط آسيا في عصر قبل الإسلام), Türkler, II/323-367.

- Turan Osman, Doğu Anadolu'da Türk Devletleri Tarihi (تاريخ الدول التركية في شرقي الأناضول), İstanbul 1993.

- Uzunçarşılı İsmail Hakkı, Anadolu Beylikleri, Akkoyunlu ve Karakoyunlu Devletleri (امارات الأناضول ، دولتي آق قويونلي وقره قويونلي), Ankara 1937.

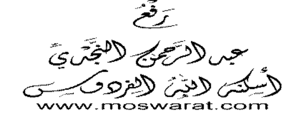
- ________, Anadolu Beylikeri, Ankara 1969.

- Yınanç Mükremin Halil, Anadolu'nun Fethi (فتح الأناضول), İstanbul 1944.

ب– غير التركية

- بارتولد ، تاريخ الترك في أسيا الوسطي ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، القاهرة ١٩٥٨

- بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلي الغزو المغولي ، تعريب صلاح هاشم ، القاهرة ١٩٨١
- حسين أمين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، بغداد ١٩٦٥
- سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٨٦
- عبد النعيم حسنين ، سلاجقة إيران والعراق ، القاهرة ، ١٩٧٠
- محمد سالم بن شديد العوفي ، العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية في العصر السلجوقي (٤٤٧-٥٦٧/١٠٥٥-١١٧١)، الرياض ١٤٠٢/ ١٩٨٢



تاريخ وحدث

– معركة نهاوند ، وإلحاق المسلمون الهزيمة بالشاه الساساني	٦٤٢
يزدجرد .	---
– إنهيار الإمبراطورية الساسانية نتيجة ضغط الهجمات	٦٤٢-٦٥١
الإسلامية .	---
– فتح الجيوش الإسلامية لبلاد خرسان لأول مرة .	٦٥٢
– هزيمة المسلمين لآخر الملوك الساسان فيروز .	٦٦٧
– عبور المسلمين لنهر آمو ، ومحاولتهم الأولي للسيطرة علي	٦٧٣-٧٠٤
بخاري .	---
– فتح المسلمين لترمذ .	٦٨٩
– بدء قيام الجيوش الإسلامية تحت قيادة قتيبة بن مسلم	٧٠٥
بالإنطلاق من مرو والجهاد في بلاد ما وراء النهر .	---
– فتح بخاري وسمرقند .	٧٠٩
– فتح خيوه .	٧١٠
– قيام الجيوش الأموية بفتح بلاد ما وراء النهر وبلاد	٧١١-٧١٢
السند.	---
– هجمات قتيبة بن مسلم علي بلاد ما وراء النهر ،	٧١٢
وهزيمته لقوات الكوكتورك .	---
– إخضاع العرب بلاد خوارزم .	---
– غزو الجيوش العربية لبلاد كشغر .	٧١٣
– قيام الكوكتورك بتسجيل كتابات أورخون .	٧٣١-٧٣٤
– انتقال الخلافة من الأمويين إلي العباسيين ، ودار الخلافة	٧٤٩-١٢٥٨
إلي بغداد .	---

-٨١٩/٨١٥	– تأسيس الدولة السامانية .
١١٠٥/٩٩٩	-------------------
١٠٤٠-٨٤٠	– قيام كول بيلكه خان بتأسيس دولة القرخانيين . انقسام الدولة عام ١٠٤٠م إلي قسمين : شرقية (١٠٤٠-١٢١٠) وغربية (١٠٤٢-١٢١٢م) .
٩٠٥ -٨٦٨	– تأسيس الدولة الطولونية في مصر .
٨٧٥/٨٧٤	– استيلاء الأسرة السامانية الفارسية السنية علي الإدارة في بلاد ما وراء النهر .
٩٣٢	– تأسيس الأسرة القره خانية التركية التي كان مركزها الأول في كشغر .
٩٦٩-٩٣٥	– تأسيس الدولة الإخشيدية في القاهرة .
أواسط القرن العاشر	– أعتناق القره خانيين والأيغور الدين الإسلامي في عصر عبد الكريم بغرا خان (وفاته ٩٥٥م) .
٩٦٢	– تأسيس الأسرة الغزنوية التركية في أفغانستان .
٩٨٥	– هجرة الأتراك السلاجقة الذين هم واحدة من أكبر واقوي قبائل الأوغوز إلي نواحي بخاري .
٩٩٢	– استيلاء الأتراك القارلوق الذين دخلوا سمرقند علي أثر ضعف السامانيين ، إستيلائهم علي سمرقند . وبداية حكم أسرة جديدة تحت اسم القره خانيين .
١٠٣٠-٩٩٧	– اعتلاء محمود الغزنوي العرش في غزنه ، وقراءة الخطبة باسم الخليفة .
٩٩٩	– هزيمة الغزنويين للسامانيين في خراسان ، وقيام القره خانيين بالإستيلاء علي العاصمة السامانية في بخاري . وإنهيار الدولة السامانية .
أواخر القرن العاشر	– سيطرة الدولة البويهية الفارسية الشيعية علي معظم

التاريخ	الحدث
---	الأراضي العراقية والإيرانية ، وقضائها علي نفوذ الخلافة
---	العباسية .
أوائل القرن الحادي	- توسيع الغزنويين لسلطتهم من العراق حتي بلاد السند .
عشر	
١٠٣٠	-وفاة محمود الغزنوي وتولية إبنه مسعود السلطنة من بعده.
١٠٤٠	- هزيمة السلطان مسعود الغزنوي في معركة داندانقان
---	بالقرب من مرو .
١٠٤٠-١١٥٧	- تأسيس طغرل بك لدولة السلاجقة الكبار .
١٠٤١-١١٨٧	- تأسيس قره أرسلان لدولة سلاجقة كرمان .
١٠٥٥	- دخول السلطان السلجوقي طغرل بك بغداد ، وقضائه
---	علي النفوذ البويهي في بغداد ، وإعلان حمايته للخليفة
---	العباسي في بغداد .
١٠٦٤	- حملة آلب أرسلان علي قفقاسيا وشرقي الأناضول ،
---	وفتح قارص(١٦ أغسطس).
١٠٦٥-١٠٦٧	- تأسيس الوزير السلجوقي نظام الملك المدارس في بغداد
---	ونيسابور .
١٠٦٧	- الزحف السلجوقي علي وسط الأناضول ، وفتح مدن
---	قيصري ونيكسار وقونية.
١٠٧١	- حملة آلب أرسلان علي سوريا التابعة للدولة الفاطمية
---	الشيعية ، وضم ملازكرد وحلب للإدارة السلجوقية .
---	- هزيمة آلب أرسلان للجيش البيزنطي (٢٦ أغسطس) في
---	موقعة ملازكرد الكبري، ووقوع الإمبراطور رومانوس
---	ديوجينيس في الأسر ، وأعتراف بيزنطة بالنفوذ السلجوقي
---	علي الأناضول .

١٢٥٢-١٠٧١	- تأسيس إمارة أبناء منكوج في الأناضول حتي قضاء
---	سلاجقة الأناضول عليها .
-١٠٧٥/١٠٧١	- تأسيس دولة سلاجقة الأناضول عقب معركة ملازكرد ،
١٣٠٨	أسسها سليمان شاه إبن قتلمش ، وقضي الإلخانيين عليها في
---	أوائل القرن الرابع عشر الميلادي .
١٠٧٥	- انطلاق سليمان شاه بن قتلمش من بيره جك مع أخيه
---	منصور وفتحه لقونية ثم إزنيق ، و اتخاذه إزنيق عاصمة له
---	وتأسيسه دولة سلاجقة الأناضول .
١١١٧-١٠٧٨	- تأسيس دولة سلاجقة سوريا من قبل تتش .
١٢٠١-١٠٨٠	- تأسيس إمارة أبناء صالتوق .
١٠٨٥	- فتح سليمان بن قتلمش لمدينة أنطاكية
١٠٨٦	- محاصرة سليمان بن قتلمش لمدينة حلب ، وخروج تتش
---	إليه ، وموته عقب المواجهة التي وقعت بينهما علي أبواب
---	حلب .
١٠٨٧	- هجمات نائب سليمان أبي القاسم علي المضايق ومحاولته
---	بناء أسطول في مرمرة.
١٠٩٢	- انقسام دولة السلاجقة الكبار إلي ثلاثة أقسام عقب وفاة
---	السلطان ملكشاه .
١١٠٧-١٠٩٢	- عصر سلطان سلاجقة الأناضول ، قليج أرسلان الأول .
١١٧٥-١٠٩٥	- تأسيس إمارة أبناء دنشمند في الأناضول .
١٠٩٦	- الإعداد للحملات الصليبية بتحريض من الإمبراطور
---	البيزنطي لمواجهة الفتوحات السلجوقية ، وخروج الحملة
---	الصليبية الأولي .
١٢٣١-١١٥٧	- انهيار دولة السلاجقة الكبار وتأسيس دولة الخوارزمشاه ،

---	وإنهيارها علي يد المغول .
١١٧٤-١٢٥٠	- تأسيس الدولة الأيوبية علي يد مؤسسها صلاح الدين
---	الأيوبي ، وإنهيارها علي يد المماليك .
١٢٠٤-١٣٢٠	- تأسيس إمارة أبناء جوبان في الأناضول ، وإنهيارها علي
---	يد أبناء جندار .
١٢٠٥-١٢٢٠	- عصر الإستقرار والإزدهار في دولة سلاجقة الأناضول .
١٢١٨	- إعدام خوارزمشاه محمد لسفراء المغول ، وخروج
---	الحملات المغولية الأولي نحو الغرب .
١٢٣٦-١٥٠٢	- تأسيس باتو خان لدولة ألتون أوردو ، وإنهيارها علي يد
---	الروس .
١٢٤٣	- هزيمة المغول لدولة سلاجقة الأناضول في معركة كوسه
---	داغ .
١٢٤٦-١٢٦٥	- سنوات الصراع علي السلطنة بين افراد أسرة سلاجقة
---	الأناضول .
١٢٤٩-١٢٥٠	- تأسيس دولة المماليك الأتراك علي يد القبجاق في مصر .
١٢٥٠-١٤٨٧	- تأسيس إمارة أبناء قره مان ، وسقوطها علي يد
---	العثمانيين .
١٢٥٠-١٥١٧	- تأسيس الدولة المملوكية علي يد أيبك وسقوطها علي يد
---	العثمانيين .
١٢٥٦-١٢٥٧	- الإستيلاء المغولي الثاني علي أراضي سلاجقة الأناضول .
١٢٥٨	- قضاء المغول علي الخلافة العباسية في بغداد .
١٢٦٠	- هزيمة المماليك للمغول في معركة عين جالوت .
١٢٦٠-١٤٢٩	- تأسيس إمارة أبناء كيرميان علي يد علي شير في
---	الأناضول ، وإنهيارها علي يد العثمانيين .

١٢٧٧	- دخول السلطان المملوكي الظاهر بيـــبرس الأناضـــول
---	وحملته علي قيصري .
١٢٩٢-١٢٧٧	- عصر النفوذ الإلخاني- المغولي في الأناضول .
١٣٩١-١٢٨٠	- تأسيس إلياس بك لإمارة أبناء حميـــد في الأناضـــول ،
---	وإنهيارها علي يد العثمانيين .
١٤٢٥-١٢٨٠	- تأسيس منتشه بك لإمارة أبناء منتشـــه في الأناضـــول،
---	وإنهيارها علي يد العثمانيين.
١٣٢٤-١٢٨١	- عصر عثمان غازي الأول مؤسس الدولة العثمانية .
١٤٦١-١٢٩١	- تأسيس جندار بك لإمارة أبناء جنـــدار في الأناضـــول،
---	وإنهيارها علي يد العثمانيين
١٣١٨-١٢٩٢	- عصر تفكك وإنهيار أسرة ودولة سلاجقة الأناضول .
١٢٩٥-١٢٩٤	- إعتناق الإلخانيين للإسلام تحت قيادة قازان خان .
١٣٠٢-١٢٩٨	- عصر السلطان السلجوقي علاء الدين قيقباد الثالث .
١٣٠٠-١٢٩٩	- تأسيس عثمان غازي للإمارة العثمانية غربي الأناضول .
١٩٢٣-١٢٩٩	- عصر الأمبراطورية العثمانية .

الفصل الأول

مرحلة التأسيس

المحاولة الأولي لتشكيل الدولة العثمانية

من إعلان قيام الدولة حتي استيلاء تيمورلنك

(١٢٩٩م/٦٩٩هـ-١٤٠٢م/٨٠٥هـ)



ظهور إمارة آل عثمان

لقد استغرقت مسألة ظهور أسرة آل عثمان علي ساحة التاريخ خلال القــرن ١٣م/٧هــ ، والعوامل التي ساعدت علي تشكيل إمارة عثمانية في الجزء الغربي مــن الأناضول كواحدة من امارات الأناضول الحدودية ، الكثير من جهود الباحثين المعاصرين قبل أن يصلوا إلي نتائج تطمئن إليها النفس .

والحقيقة أن تأخر تسجيل وقائع آل عثمان حتي ظهور دولتهم كقوة اقليميــة ذات بأس في الأناضول والبلقان خلال القرن ١٥م/٩هــ ، أي بعد قرن من تأســيس دولتهم ، جعل المعلومات والأخبار التي وردت في مدونات الوقائع العثمانية والتي ظهرت خلال هذه الفترة وبالخاصة ما يتعلق منها بظهور الأسرة العثمانية وتأســيس الإمــارة العثمانية ، وانتقالها إلي مرحلة الدولة المستقلة ، جعلها موضع هام لمناقشات البــاحثين حتي اليوم . وقد ظهرت مدرستين في دراسة هذه الوقائع خــلال القــرن العشــرين . المدرسة الأولي منها سعت لوضع مسلّمات تفسر هذه الوقائع استناداً علــي العناصــر العرقية والدينية في الأناضول ، حيث مثلها كل من هربرت آ. جيبون وفؤاد كوبريللي وباول ويتيك ، وخليل اينالجق[٥٩] . أما المدرسة الثانية ، فقد ظهرت في الثمانينات مــن

---

[59] فيما يتعلق بتفسير وقائع تأسيس إمارة آل عثمان وفقاً لهذه المدرسة ، أنظر : Gibbons, Osmanli Imparatorlugu'nun Kurulusu, trc. Hulusi, Istanbul 1928, Fuad Koprullu, , Osmanli Imparatorlugu'nun Kurulusu, Ankara 1972, Paul Wittek, The Rise of The Ottoman Empire, London 1938, Halil Inalcik, "The Question of The Emergence of The Ottoman State",IJTS. II/2 (1982), 71-79, "Osmanli Tarihine Toplu Bir Bakis", Osmanli, I, (Ankara 1999), 37-60

القرن العشرين ، وراحت تعيد الروح من جديد لنظريات المدرسة الأولي بالإستناد علي نظريات العلوم الإجتماعية والجغرافية الحديثة[60] .

وبعد مناقشات مستفيضة في هذا الموضوع ، فإن كل ما يمكن لأي باحث فعله لصياغة وقائع هذه الفترة ، هو قيامه بغربلة الكتابات العثمانية المعاصرة من الأساطير ومقارنة ما يتمخض عن هذه الغربلة من معلومات بما جاء في المصادر البيزنطية والسلجوقية التي ترجع للقرن ١٣م/٧هـ ، ومحاولة الوصول لمعلومات يمكن الإطمئنان إليها بالإستعانة بالوثائق الرسمية التي تشير إلي معلومات تعود لهذه الفترة ، علاوة علي الآثار المادية والطبوغرافية المكتشفة حديثاً[61] .

ومهما يكن من أمر ، فقد توصلت هذه الدراسات الحديثة إلي نتائج هامة حول المنطلق الأول لأسرة عثمان ، الشخصيات التاريخية الأولي لهذه الأسرة ، ونسبة هذه الأسرة لقبيلة قايي ، والظروف التي أحاطت بتشكيل هذه الأسرة لامارة تحمل اسم أبناء عثمان في الطرف الشمالي الغربي من الأناضول ، يأتي علي رأسها :

١. تختلف المصادر في المنطقة التي انطلقت منها عشائر الأوغوز التي خرجت منها أسرة آل عثمان . ولما كانت منطقة " أخلاط " التي كانت تابعة

---

[60] بخصوص هذه الدراسات أنظر : Söğüt'ten Istanbul'a Osmanlı Devletinin Kuruluşu Üzerine Tartışmalar, (haz. M. Öz-O. Özel), Istanbul 2000.

[61] فيما يتعلق بمحاولة تطبيق حي لهذا المنهج حتي بداية مرحلة الفتور ، انظر : Feridun Emecen, "Osmanli Devleti'nin Kurulusundan Fetret Donemine", Turkler, IX/15-32, keza bk. Halil Inalcik, " Osmanli Devletinin Kurulusu Problemi", Dogu Bati, (Yil 2/7, Temmuz 1999), s.9-22, Ilber Ortayli, " Menkibe", Osmanli Devletinin Kurulusu Efsaneler ve Gercekler, Ankara 2000; S. Tekindag, " Osmanli Devletinin Kurulusu Hakkinda Yeni Gorusler", Ataturk Konfanslar, Ankara 1980, C. Heywood, " Osmanli Devletinin Kurulus Problemi, Yeni Hepotez Hakkinda Bazi Dusunceler", Osmanli, Ankara 1999, I/137-145

لخوارزمشاه خلال الربع النصف الأول من القرن ٧/١٣هـ ، تعتبر مركز تجمع للعشائر التركمانية المتوجهة إلي الأناضول خلال هذه الفترة هرباً من الزحف المغولي ، فمن المرجح أن يكون أجداد العثمانيين قد تحركوا منها إلي نواحي أرضروم وأرزنجان أولاً ، ثم استقروا في وادي باسين . وهناك انفصل قسم من هذه العشيرة تحت قيادة أرطغرل بك ، وجاوؤا إلي سكود ودومانيج . والحقيقة أن هذه الرواية تتفق إلي حد بعيد مع ما رواه إبن بيبي حول التجاء جماعات خوارزمية إلي السلاجقة، حيث قام السلاجقة باسكانهم في تلك المناطق المشار إليها[٦٢] .

٢. تردّد المصادر الأولي للتاريخ العثماني العديد من الأسماء التاريخية كشخصيات نسجت وقائع هذه الحقبة التاريخية للعثمانيين مثل سليمان شاه ، شاه ملك ، قاييق آلب ، كوندوز آلب ، كوك آلب ، أرطغرل ، سونكور تكين ، كون طوغدي ، صاروياتي ، عثمان بك . إلا أن النتيجة التي يمكن استخلاصها استناداً علي بعض الآثار المادية الحديثة تؤكد حقيقة وجود شخصيات كوندوز آلب وأرطغرل وعثمان بك . أما ما يقال عن الشخصيات الأخري وما ذكرته الحوليات من شجرات مختلفة لأنساب العثمانيين فهو محض خيال ومن نسج الأساطير الشعبية[٦٣].

٣. وإذا كانت معلومات المناقب العثمانية تتفق على شخصية عثمان وأبيه أرطغرل ، وتؤكدها تلك العملات التي تم اكتشافها أخيراً لعثمان بك وتحمل

---

[62] لتفصيلات أكثر حول هذه المشكلة أنظر : Feridun Emecen, Ilk Osmanlilar ve Bati Anadolu Beylikler Dunyasi, Istanbul 2001, ayn. Mlf. A.g.m., Turkler, IX/17-18.

[63] بخصوص حقيقة شخصية عثمان غازي وأبيه أرطغرل أنظر : Ilber Ortayli, " Menkibe", Osmanli Devletinin Kurulusu Efsaneler ve Gercekler, Ankara 2000; I. Hami Danismend, "Osman Gazi'nin Neseb ve Huviyeti", Turkluk Mecmuasi, c.I.(1939), s. 207-223

اسم أبيه أرطغرل وجده كوندوز آلب أيضاً[٦٤] ، إلا أن علاقة عثمان بوالده، وباخوته ، واكتسابه صفة قائد الغزاة ، وعلاقته بالشيخ أدب عـــالي الـــتي وردت بهذه المصادر في شكل سير الأبطـــال ، تظلـــها جميعـــاً الرويـــات الأسطورية ، وتهدف للبرهنة علي تشكيل دولة آل عثمان[٦٥] .

٤. تتفق المصادر التاريخية العثمانية علي نسبة عثمان بك كشخصية تاريخية إلي احدي قبائل " الغزّ " (الأُغُوز) التركمانية ، هي قبيلة " قايي " . وإذا كانت بعض الدراسات تشير إلي أن ارتباط عثمان غازي بعشيرة قايي تم توفيقـــه فيما بعد بدعم من العثمانيين لتأكيد حقهم المشروع في الحكم والقيـــادة في الأناضول ، إلا أن الدراسات الحديثة التي اعتمدت علي التنقيبات الأثريـــة تؤكد وجود آثار واضحة لعشائر القايي في المناطق التي قطنها العثمـــانيون الأوائل ، حتي أنه تصادف قري تحمل اسم قايي في دفاتر تحرير الأراضي في تلك المناطق[٦٦] .

---

[64] فيما يتعلق بالنقود التي تم اكتشافها حديثاً لعثمان غازي في انحاء مختلفة من العالم انظر : I.Artuk, "Osmanli Beyliginin Kurucusu Osman Bey'e Ait Bir Kikke", Turkiye'nin Sosyal ve Ekonomik Tarihi (1071-1920), Ankara 1980, s. 27-33; P. Lindnet, "Selcuklular, Mogollar ve Osmanlilar Arasinda", Osmanli I./148

[65] تذكر بعض المصادر العثمانية كتواريخ عاشق باشا زاده وحوليات تواريخ آل عثمان مجهولة المؤلف وتاريخ أرروج بك ، شخصية سليمان شاه باعتباره الجد الأكبر للعثمانيين ، فإن أحمدي الذي يعد أول مصدر عثماني يشير إلي علاء الدين وكوندوز آلب كشخصيات قيادية في أسرة آل عثمان ، ويذكر أنوري (دستورنامه ، نشر خليل ينانج ، استانبول ١٩٢٨) شاه ملك كأحد أجداد هذه الأسرة ، ويتحدث قره ماني محمد باشا (تواريخ سلاطين عثمانية،مكتبة آياصوفيا رقم ٣٢٠٤) عن شخص يدعي قاييق آلب كأحد قيادات العثمانيين . في هذا الخصوص انظر: Feridun Emecen, Ilk Osmanlilar, s.1-16, " Menkibe", Osmanli Devletinin Kurulusu Efsaneler ve Gercekler, Ankara 2000, s. 34-42

[66] تشير هذه الدراسات إلي أنه كان هناك عشائر تركمانية أعلي شأناً من عشيرة قايي في تلك المناطق، وكان من الممكن أن ينسب العثمانيون أنفسهم لإحدي هذه العشائر إن كان غرضهم تحقيق

٥. تؤكد الدراسات الحديثة أن التشكيلات الأولي هذه العشائر التي سكنت الحدود الغربية للأناضول كانت عبارة عن جماعات من الغزاة عرف كل منها باسم " بلوك " ، وأطلق عليها اسم قائدها ، حتي أن دفاتر التحرير تشير إلي العشائر التركمانية التي تسكن الأناضول باسماء رؤسائها بهدف تيسير جمع الضرائب منها . والحقيقة أن التشكيلات الأولي لعثمان بك يمكن أن تكون نموذجاً لمثل هذه التشكيلات التركمانية ، حيث راحت مكانة عثمان غازي تتميز داخل عشيرته بالتدريج نتيجة للنجاحات التي حققها في اشتباكاته مع البيزنطيين ، ونجح في وضع ملامح واضحة المعالم لتشكيلات غزاة الحدود .

٦. تجمع هذه الدراسات علي أن التطورات السياسية التي حدثت في غربي الأناضول خلال النصف الثاني من القرن ١٣م/٧هـ عند ظهور إمارة آل عثمان على مسرح التاريخ كواحدة من الإمارات الحدودية كان لها الدور الأهم في التطور المطرد لهذه الإمارة . ولذلك فانه ينبغي بحث ظروف ظهور الإمارة العثمانية في اطار تاريخ سلاجقة الأناضول كواحدة من الإمارات الحدودية التي استقلت عنها وقامت علي انقاضها ثم توسعت بفضل ما استولت عليه من أراضي بيزنطة التي كانت الكوارث الداخلية والخارجية

التميز بين الإمارات التركمانية الأخري غربي الأناضول ، وأن أغلب الظن أن يكون نسبة العثمانيين إلي عشيرة قايي يرجع إلي حقيقة تاريخية : Fuad Köprülü," Osmanlı İmparatorluğu'nun Etnik Menşei Meseleleri", Belleten VII/27(1943), 284-300, Erol Kutukcuoglu, "Kayilarin Anadolu'ya Gelisi", Osmanli, Ankara 1999, I/176-180; Fehmettin Basar, "Osmanlilarin Mensei ve Kayilarin Anadolu'ya Gelisi Hakkinda", Tarih Dergisi, Sayi 36, Istanbul 2000

تسرع بها إلي الإنهيار . وهذا ، يجعل الدارس مضطر للرجوع إلي المصـــادر السلجوقية والبيزنطية خلال القرن ١٣م/٧هـ[٦٧] .

٧. تشير الدراسات الحديثة إلي أن التأثير الروحي والمعنوي الذي انتشر بـين تلك العشائر التركمانية علي الحدود البيزنطية كعقيدة الغـزو والجهـاد ، والآداب الصوفية ، والعادات العرفية ، قد لعب دوراً هامـاً في تشـكيل الإمارات التركمانية علي طول الحدود الغربية للأناضول . فقد أجبر الزحف المغولي علي شرق ووسط الأناضول خلال النصـف الثـاني مـن القـرن ١٣م/٧هـ العشائر التركمانية علي الهجرة غرباً ، حيث رافقـت هـذه العشائر فرق الغزاة (آلبلر) وجماعات الأخوة (الآخيـان) ، وراحـت تخترق الحدود البيزنطية في أقصي غربي الأناضول ، وذلك في الوقت الذي كان فيه دراويش الطرق الصوفية أيضاً يقيمون في تلك المنـاطق المتقدمـة زواياهم وتكاياهم التي كانت تتجمع حولها العشائر المهـاجرة وتؤسـس مجتمعات قبلية صغيرة . وقد ساعدت وفرة الأراضي الخصبة المحيطة بتلـك الزوايا ، ومنح تلك الأراضي للمجاورين بعقود ملكية ، واعفائها من دفع الضرائب ، ساعدت علي تزايد الكثافة السكانية في تلك المناطق الحدوديـة بسرعة .

وبينما كانت عمليتا الهجرة والإستيطان تجري جنباً إلي جنب علـي قدم وساق منذ ذلك الحين ، كان الأمراء الغزاة في تلك المناطق الحدوديـة يحققون انتصارات كبيرة ويفتحون حصون ومدن هامة علي طول الحـدود البيزنطية ، الأمر الذي مكنهم من ترسيخ نفوذهم بـين تلـك العشـائر التركمانية وساعدهم علي توحيدها وتشكيل إمارات حدودية مستقلة علي

---

[67] Osman Turan, Türkiye Selçukluları Tarihi, İstanbul 1984, s. 620 vd., keza bk. Uclar Bulduk, "Osmanlı Beyliğinin Oluşumunda Oğuz/Türkmen Geleneğinin Yeri", Osmanlı, Ankara 1999, I/161-166.

ثغور الدولة الإسلامية . والحقيقة أن المجتمعات التركمانية في هذه الإمارات الحدودية قد امتزج لديها مفهوم الغزو والجهاد والرباط عند الثغور الإسلامية بمفهوم " الفتوة " في التقاليد الغُزّية والتركمانية ، وذلك في الوقت الـــذي وقعت فيه هذه تحت تأثير الطرق الصوفية المختلفة (المولويـــة ، والرفاعيـــة والخلوتية والبكتاشية ... وغيرها) التي كانت منتشرة في الأناضول وبـــين العشائر التركمانية آنذاك[٦٨] .

الملامح الأولي لإمارة عثمان :

وهكذا ، اشتركت إمارة آل عثمان مع الإمـــارات التركمانيـــة الأخـــري في ظروف نشأتها الأولي ، حيث أخذت هذه الإمارة الفتية تتميز بالتدريج وتبرز بين بقية الإمارات الحدودية غربي الأناضول في الفترة ما بين ١٢٨٠-١٣١٠م . ومن ثم يكـــون المجتمع القبلي العثماني قد مرّ في سبيل تطوره وتشكُلِه ككيان سياسي مؤثر في المنطقـــة بمرحلتين متداخلتين :

المرحلة الأولي ، تتمثل في دعوة الغزاة المعروفون باسم " آلب " للغزو والجهاد في الأراضي البيزنطية ، حيث وجدت هذه الدعوة استجابة لدي القبائل التي استقرت في تلك المناطق الحدودية . ومن ثم لعب الأمير والقائد الغازي دوراً بارزاً في تشكيل فئـــة خاصة مع رفاقه الغزاة اكتسبت بالتدريج وضعاً خاصاً داخل العشيرة ، حيث انفصلت هذه الفئة عن بقية أفراد القبيلة الذين راحوا يقومون علي شئون الزراعة وتربية الحيوانات في ذلك المجتمع القبلي .

---

[68] فيما يتعلق بعمليات هجرة وإسكان التركمان في المناطق الغربية من الأناضول ، ودورها في توطيد مقام الإمارات الحدودية في طول الشريط الحدودي مع بيزنطة ، انظر : P. Lindner, Ortacag Anadolu'sunda Gocebeler ve Osmanlilar, terc. M. Gunay, Istanbul 2000; Umit Hasan, Osmanli Orgut-Inanic Davaristan Hukuk Ideolojiye, Istanbul 2001, O.L. Barkan, "Osmanli Imparatorlugunda Bir Iskan ve Kolonizasiyon Metodu olarak Surgunler", Iktisad Fak. Mec., XIII/1-4, 1952, s. 56-78,

والمرحلة الثانية ، ارتبطت بتوحيد فرق الغزاة تحت قيادة واحدة فرضت نفسها من خلال ما حققته من انتصارات وفتوحات ، حيث وصلت المجتمعـات التركمانيـة خلال هذه المرحلة لمستوي الإمارات التي ترعي المقاصد السياسية بين قواد الغزاة[٦٩] .

ومهما يكن من أمر ، فقد أكدت الدراسات الحديثة أن العشيرة التي انفصلت عن " قايي " قد سكنت أولاً نواحي " قره جه داغ " ثم انتقلت بعد ذلك تحت قيـادة أرطغرل غازي إلي سكود ودومانيج بالقرب من أسكيشهر ، وأن هذه العشـيرة قـد انتخبت الأبن الأصغر لأرطغرل عثمان غازي ليخلف أبيه في رئاسة العشـيرة وقيـادة الغزاة، وأن قبيلة عثمان غازي في ذلك الوقت كانت تسيطر علي المناطق الممتدة بـين أسكيشهر وحتي حدود بروصه ، وأن عثمان غازي كان في البداية أحد الغزاة التـابعين لإمارة أبناء چوبان (چوبان اوغوللري)[٧٠] الحدودية الذين كانوا يقودون عمليات الغزو والجهاد في منطقة "قسطموني" وحتي نهر " سقاريا " ؛ ولما ظهر التراخي بين أمراء أبناء

---

[69] انظر في هذا الخصوص ، سيد محمد السيد ، دراسات في التاريخ العثماني ، القاهرة ١٩٩٦، ص. ٤٣-٤٥ ، كذا انظر : Halil Inalcik, "Osmanli Tarihine Toplu Bir Bakis", Osmanli, Ankara 1999, I/32-60; ayn. Mlf., "Osmanli Devletinin Kuruluşu", Türkler, Ankara 2002, IX/73-80; ayn.mlf., "The Gustian Of The Emergence Of The Ottoman State", IJTS., II/2 (1982),p. 54-66; Ahmet Şemşırgil, "Osmanlı Devleti'nin Kuruluşunda Hizmeti Geçen Alpler ve Gaziler", Türkler, IX/99-105; Zafer Erginli, " Osmanlı Devleti'nin Kuruluşunda Türk Dervişlerinin İzleri",107-112

[70] Yasar Yucel, XIII-XV. Yuzyillar Kuzeybati Anadolu Tarihi, Coban Ogullari, Candar ogullari Beylikleri, Ankara 1980; Feridun Emecen, Ilk Osmanlilar ve Bati Anadolu'da Beylikler Dunyasi, Istanbul 2001

جوبان ، أخذ عثمان غازي يجذب الغزاة في تلك المناطق تحت لوائه ، حيث اســـتطاع تأسيس إمارة حدودية في منطقة سقاريا الوسطي[٧١] .

وإذا كانت المصادر السلجوقية المعاصرة والمصادر العثمانية المتأخرة لم تورد لنا معلومات قطعية حول عثمان غازي مؤسس الإمارة التي حملت اسمه ، فإن روايات أحد شهود عيان هذه الفترة المبكرة المؤرخ البيزنطي باتشميرز Pachimeres حول عثمـــان راحت تميط اللثام بعض الشيء عن المراحل الأولي لتأسيس إمارة آل عثمان وحتي عـــام ١٣٠٧م/٧٠٧هـــ .

وإذا كان عاشق باشا زاده راح ينقل عن مناقب ياخشي فقيه قوله بأن عثمان غازي قام بفتح يكيشهر واينه كول وبيله جـــك غـــربي أسكيشـــهر عـــام ١٢٩٩م/

[71] يؤكد المؤرخ البيزنطي المعاصر لوقائع هذه الفترة Pachimeres باتشيميرز المعلومات الواردة في المصادر العثمانية المتأخرة ، حيث يذكر أن جبال بافلاجونيا – قسطموني كانت تغص بالعشائر التركمانية خلال النصف الثاني من القرن ١٣م ، وأن فشل مساعي إمبراطور بيزنطة ميخائيل الثامن خلال الستينيات من هذا القرن لتشكيل قوة حدودية أدي إلي ضعف الخط الدفاعي البيزنطي علي طول الحدود الشرقية ، وأن اضطراره لفرض ضرائب جديدة علي أهالي المنطقة دفع هؤلاء الأهالي للميل إلي الأتراك الذين راحوا يقدمون المساعدات لهم ، وأنه إذا كان اندرونيكوس ابن ميخائيل قد عبر إلي الطرف الأناضولي بنفسه لتحصين مناطق بورصه وإزنيق واولوباد عام ١٢٩٠م ضد هجمات العشائر التركمانية ، إلا أن هذه التدابير لم تكن كافية . وأشار المؤرخ البيزنطي إلي أن قائد الغزاة الذي يدعي عثمان راح يتولي قيادة الغزو في المنطقة عقب مقتل مظفر الدين ياولاق أرسلان ابن جوبان (١٢٩١-١٢٩٢) وتنازل ابنه محمود عن قيادة الغزو في تلك المنطقة لإخيه علي الذي لجأ إلي البيزنطيين ، وأن عثمان بك قام إثر ذلك بقيادة الغزو علي الحدود الغربية تابعاً لأمير قسطموني ، حيث تجمع حوله التركمان الذين حاوؤا من بافلاجونيا . وراح هذا المصدر يؤكد بأن عثمان بك أمكن له الحاق الهزيمة بجيش بيزنطي تحت قيادة موزولون في موضع يطلق عليه اسم " بافوس عام ١٣٠١-١٣٠٢م ، لمطالعة تفصيلات أكثر حول ماجاء بهذا المصدر البيزنطي ، أنظر : Halil Inalcik, " Osmanli Tarihine Toplu Bir Bakis", Osmanli, I/40; ayn.mlf., Osman Gazi'nin Iznik Kusatmasi ve Bafeus Savasi", Sogut'ten Istanbul'a, s/ 307, Y. Yucel, Cobanogullari-Candarogullari Beylikleri, s.49

٦٩٩هـ، وأنه أمر بقراءة الخطبة بأسمه في مدينة قره جه حصار ونقل مركز إمارته إلي مدينة "بيله جك" في نفس العام ، فكان ذلك إيذاناً باعلان إستقلال إمارة آل عثمان استقلالاً فعلياً ، وأنه ألحق الهزيمة بتكفور بورصه وواصل هجماته شرقي نهر سقاريا حتي وصل إلي نواحي إزميت[٧٢] ، فقد ذكر باتشميرز عثمان بك كشخصية تاريخية وقائد عسكري لأول مرة عند سرده لوقائع معركة بافوس / Pafeus التي تعرضت فيها القوات البيزنطية تحت قيادة موزولون Mouzolon للهزيمة علي يد من أطلق عليه اسم " أتمان / Atman " في حوالي عام ١٣٠١م/٧٠١هـ أو ١٣٠٢م/٧٠٢هـ . وراح المؤرخ البيزنطي يؤكد بأن الغزاة الذين كان يقودهم عثمان غازي راحوا يشنون الهجمات علي طول المناطق الممتدة من إزنيق وحتي بورصه ، حيث قاموا بقطع الطرق بين المدن المحاطة بالأسوار في تلك المناطق ، الأمر الذي أجبر أهالي هذه المناطق علي اخلائها . ويذكر باتشميرز أن الأمراء البيزنطيين المستقلين في الأناضول خلال هذه الفترة راحوا يشكلون فرق مرتزقة عرفت باسم "قاتالانلي" للتصدي لهجمات غزاة التركمان علي طول الحدود البيزنطية ، غير أن التحول المفاجئ في علاقة عثمان بك مع هؤلاء الأمراء الذين اختلفوا مع بيزنطة بعد عام ١٣٠٤م/٧٠٤هـ ، أدي لتفكك هذه الفرق العسكرية ، حيث تمكن الغزاة العثمانيين من فتح عدد كبير من القلاع الحدودية المستعصية التي امتدت من أسكيشهر إلي بورصه وإزنيق ، حتي أنهم أجبروا حاكم بورصه علي دفع خراج سنوي لهم .

وبذلك ، اضطر إمبراطور بيزنطة لتوطيد علاقته مع الحاكم الإلخاني أولجايتو، وسعي لمصاهرته مقابل مساعدته في التصدي لهجمات غزاة عثمان بك (١٣٠٥م/٧٠٥هـ) . وإذا كان الحاكم الإلخاني راح يعد إمبراطور بيزنطة بالتدخل وارسال عدد كاف من الجنود للمنطقة ، إلا أن عثمان بك الذي علم بالأمر أسرع

---

[72] فيما يتعلق بما جاء عن عاشق باشا زاده ، انظر : Tevarih-i Al-i Osman, nşr. N. Atsız, İstanbul 1947, s.105-111 وذلك نقلاً عن Halil Inalcik, "Osmanli Develetinin Kurulusu", Turkler, Ankara 2002, IX/70-71,

بتشديد الحصار علي مدينة قره حصار حتي فتحها (١٣٠٧م/٧٠٧هـ) وراح يقطع الطريق بين ازنيق وإزميت ، ولم ينقذ وصول القوات الإلخانية للمنطقة العديد من القلاع التي تساقطت في يد عثمان غازي الواحدة تلو الأخري[٧٣] .

والحقيقة ، لم يصل لأيدينا أي مصدر معاصر يلقي لنا الضوء علي الفترة التي تمتد بين عامي ١٣٠٧-١٣٢٦م/٧٠٧-٧٢٦هـ ، حيث انشغلت بيزنطة عما يجري علي طول حدودها الشرقية بالحروب الداخلية التي اشتعلت عام ١٣٢١م/٧٢١هـ فاسحة الطريق لغزاة عثمان لتوطيد أقدامهم في المنطقة ، والإعلان عن مولد إمارة جديدة في الطرف الغربي من الأناضول[٧٤] .

وعلي هذا النحو ، كانت شهرة غزوات عثمان غازي ورفاقه تفعل فعلها الخرافي بين الأهالي البيزنطيين ، كما كان لها أيضاً تأثير عظيم في تثبيت أقدام عثمان غازي كقائد فذّ لحركة الجهاد في تلك المنطقة الحدودية بين أهالي الإمارات التركمانية المجاورة ، وذلك فضلاً عن تأثيرها العميق علي جماعات الآخيان والطرق الصوفية المنتشرة في مناطق الحدود الغربية للأناضول . وبذلك اكتسبت كلمة "عثمانلي" مغزاها الذي استمر لأكثر من سبعة قرون متتالية .

---

[73] بخصوص ما ورد علي لسان باتشميرز من معلومات انظر : C. Heywood, " Osmanlı Devietinin Kuruluş Problemi, Yeni Hipotez Hakkında Bazi Düşünceler", Osmanlı, I/137vd.; Feridun Emecen, "Osmanlı Devleti'nin Kuruluşundan Fetret Dönemine", Türkler, IX/19-20

[74] Feridun Emecen, "Osmanlı Devleti'nin Kuruluşundan Fetret Dönemine", Türkler, IX/19-20



أورخان غازي

المؤسس الحقيقي للإمارة العثمانية

(١٣٢٤- ١٣٦٠م/٧٢٤-٧٦١هـ)

كان أورخان غازي يقود حركة الفتح في غربي الأناضول منذ عام١٣٢٠م/٧٢٠هـ . وفي الوقت الذي تمكن فيه من فتح مودانيا وتشديد الحصار علي بورصه (١٣٢١م/ ٧٢١هـ) ، كان بعض رفاقه مثل كونور آلب وأقچه قوجه يشددون الحصار على أزميت ويسيطرو علي نواحي بحيرة سبانجه . ولما خلف أورخان غازي والده في قيادة حركة الغزو ومباشرة شئون الإمارة (١٣٢٤م/ ٧٢٤هـ) زاد من إحكام الحصار علي بروصه حتي تمكن من فتحها في ٢٤ ربيع الآخرة ٧٢٦هـ/ ٦ إبريل ١٣٢٦م واتخاذها عاصمة للإمارة العثمانية ، فكان ذلك إيذاناً ببدء عصر جديد[٧٥].

وعقب فتح بورصه ، وسقوط أولوباد ، قام العثمانيون في العام التالي (١٣٢٧م/ ٧٢٧هـ) بحصار إزنيق ، الأمر الذي أجبر الإمبراطور البيزنطي اندرنيكوس الثالث علي جمع جيش قاده إلي إزميت لحماية المنطقة وانقاذ إزنيق . وهكذا ، وقعت أول مواجهة بين إمبراطور بيزنطي وأحدي الإمارات التركمانية في الأناضول في ٤ شعبان ٧٢٩ /١٠ يونية ١٣٢٩ عند موضع يقال له "بلاكه نون" ، حيث تمكن أورخان غازي من هزيمة الإمبراطور وإلحاق خسائر كبيرة بجيشه[٧٦] . والحقيقة أن هذا الإنتصار مكّن أورخان غازي من تحقيق عدة مكاسب أهمها :

---

[75] فيما يتعلق بفتح بورصه انظر :- D. Nicol, Bizans'in Son Yüzyılları (1291-1389), tec. B. Umur, Isatnbul 1999, s.152 vd.

[76] لتفصيلات أكثر حول مواجهات بيزنطة مع غزاة التركمان علي الحدود الشرقية للدولة ، انظر : D. Nicol, Bizans'in Son Yüzyılları (1291-1389, s180-181

- أكتساب أورخان غازي شهرة كبيرة سواء بين أتباعه أو بين الأمراء التركمان الآخرين في المنطقة .
- فتح الطريق أمام العثمانيين للسيطرة علي شبه جزيرة قوجه إيلي .
- فتح إزنيق نفسها في ١٤جمادي الأولي ٧٣١ /٢مارس١٣٣١ .
- أجبار الإمبرطور البيزنطي علي توقيع معاهدة مع أورخان لأول مرة ارتضي فيها دفع الخراج عن عدد من المدن الموجودة في منطقة " بيتينيا ".
- فتح العثمانيين لإزميت عام ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م بعد حصار طويل لها ، واقترابهم من سواحل البحر الأسود ومضايق إستانبول[77] .

ضم أملاك إمارة قراسي :

لقد أثبتت القرائن أن منطقة غربي الأناضول كانت تحت النفوذ الإلخاني خلال أواسط القرن ٨هـ/١٤م ، حيث كان العثمانيون يشعرون شعور بقية الإمارات التركمانية الأخري في المنطقة بالسطوة الإلخانية عليهم ، ومن ثم كانوا جميعاً يتبعون سياسة حذرة في الأناضول .

أما عن علاقة إمارة آل عثمان بالإمارات التركمانية المجاورة لها ، فقد انحصرت خلال الفترة من إعلان عثمان غازي استقلاله وحتي فتح بورصه في امارات أبناء جوبان وإمارات أمورلي وكيرميان وقراسي الموجودة في منطقة بولي . فبينما كانت إمارة آل عثمان تقوم بالغزو في مناطق الحدود البرية البيزنطية تحقق الفتوحات ويعظم شأنها باطراد، كانت الإمارات الساحلية صاروخان وآيدين ومنتشه وقراسي تباشر فعاليات

---

[77] بخصوص نتائج المواجهة الأولي بين العثمانيين وبيزنطة انظر : Osman Turan, Selcuklulr Zamaninda Turkiye, s.645-650; D. Nicol, Bizans'in Son Yuzyillari (1291-1389), s.185vd.

الغزو في بحر إيجه والجزر القريبة من الأناضول دون تحقيق انجازات كبيرة ، أما الإمارات التركمانية الأخري الموجودة في المناطق الداخلية فكانت غرقي في مشكلاتها المحلية[٧٨] .

ولذلك كان للنجاحات التي حققها أورخان غازي غربي الأناضول تأثير كبير في وضع ملامح علاقة العثمانيين بتلك الإمارات جميعاً . فلـم ينشـغل العثمـانيون بمشكلات الإمارات المجاورة حتي أواسط القرن ١٤م/٨هـ ، إلا أن فتحهم للقـلاع البيزنطية " اولوباد " و" ميخاليج " و" كيرماستي " التي كانت تفصل بـين الأمـلاك العثمانية ومدينة باليكسير مركز إمارة قراسي ، والتجاء طورسون بك شقيق دميرخان أمير قراسي إلي أورخان طالباً مساعدته في صراعه علي تولية الإمارة مقابل تنازله عـن باليكسير وبعض القلاع الأخري ، مكّن العثمانيين من التدخل في مشكلات الإمارات الأناضولية لأول مرة .

وبالفعل خرج أورخان برفقة طورسون بك في حملة ضد أخيه دميرخان . وإذا كان حصار باليكسير لم يدم طويلاً ، حيث أجبر دمير خان على الإستسلام والتنـازل عن باليكسير وأدينجيك وقابيداغي ونواحيها ، إلا أن طورسون بك سقط صريعاً أثناء عملية الحصار . وعلي الرغم من بقاء عدد من المناطق في يد أمير قراسي دميرخـان ، أسرع كبار أمراء قراسي مثل حاجي ايلبكي وأورنوس بك وأجه خليل وغازي فاضل بالانضمام لإمارة آل عثمان ، حيث لعبوا دوراً هاماً في فتوحات الروميلـي خـلال عصري أورخان ومراد الأول[٧٩] .

---

78 حول علاقة إمارة آل عثمان خلال هذه الفترة المبكرة بمختلف إمارات وسط وغربي الأناضول، انظر : Feridun Emecen, Ilk Osmanlilar, s. 75-89; ayn.mlf., Osmanli Devletinin Kurulusundan Fetret Donemine, Turkler, IX/21-22

79 لقد كان لضم أغلب أراضي إمارة قراسي التي كانت تمتد حدودها إلي برحامه وحتي سواحل بحر إيجه بالأراضي العثمانية عقب فتح إزميت بمثابة فتح جديد حيث مكنها من السيطرة علي كل سواحل مرمره ، ومهّد الطريق لعبور العثمانيين إلي الطرف الأوروبي والتدخل في مشكلات العرش البيزنطي ، انظر في هذا الخصوص : E Zachariadou, “Karesi ve Osmanli Beylikleri

ومن ناحية أخري ، كان وفاة علاء الدين أرتنا أمير إمارة أرتنــا في وســط الأناضول واختلاف أبنائه من بعده ، سبباً لتدخل أورخان غازي في شئون هذه الإمارة أيضاً ، حيث سعي لتأمين حدوده الشرقية ، وأرسل قوة تحت قيادة ابنه سليمان باشا ، استطاع بها الإستيلاء علي " أنقره " في ١٣٥٤م/٧٥٥هــ[٨٠] .

انتقال العثمانيين إلي الروميلي : كان العثمانيون قد نجحوا في العبــور من بحر مرمرة إلي سواحل تراقيا الشرقية لأول مرة عام ١٣٢١م/٧٢١هــــ ، حيــث تعرّفوا علي تلك المناطق المجهولة . أما العبور الثاني للعثمــانيين إلي الســاحل الغــربي للبوسفور فكان بغرض تأييد أحد المتنافسين علي العــرش البيزنطــي عــام ١٣٢٧م/ ٧٢٨هــ . وعلي أثر وفاة إمبراطور بيزنطه أندرونيكوس الثالث (١٣٤١م/ ٧٤٠هــ)، وتولية إبنه الصغير يوانيس باليولوج (تسع سنوات) العرش، وخروج الوصــي علــي الإمبراطور الصغير كانتاكوزين عن الطاعة واعلان نفسه امبراطوراً في ديمتوقه ، استعان كانتاكوزين في البداية بأمور بك ابن أيدين ، ثم راح بعد عام ١٣٤٤م/ ٧٤٣هــ يطلب المساعدة من أورخان غازي الذي أسرع بتوطيد صلته بكانتاكوزين ، فتــزوج ابنتــه تيودور عام ١٣٤٦م/ ٧٤٥هــ ، وأمده بنحو عشرين ألفاً من الفرســان . وبــذلك انتقلت القوات العثمانية إلي الروميلي لمساعدة كانتاكوزين ضد إمبراطور بيزنطه مــن ناحية ولمواجهة محاولات البلغار والصرب استثمار هذه التطورات لصالحهم من ناحيــة أخري ، وذلك مقابل تنازله عن قلعة "جيمبي" في شبه جزيرة غاليبولي[٨١] .

Iki Rakip Devleti", Osmanli Beyliginin Kurulusu, Istanbul 1996, 243-255; Feridun Emecen, Ilk Osmanlilar, s.86-89

[80] في هذا الخصوص أنظر : M. Akdag, " Ankara Sultan Alaeddin Cami Kapisinda bulunan Hicret 763 Tarihli Bir Kitabenin Tarihi Onemi", Tar'h Vesikalari, III/18, (Mart 1961), s. 366-373.

[81] لتفصيلات أكثر حول هذا الموضوع انظر : D. Nicol, Bizans'in Son Yuzyillari (1291-1453), tec. B. Umur, Isatnbul 1999, s. 135vd.

إن نجاح العثمانيين في بسط نفوذهم علي منطقة قوجه إيلي وسواحل بحر مرمره، وفي إلحاق أراضي إمارة قراسي غربي الأناضول ، وفي تأمين حدودهم الشرقية بضم أنقرة ، أتاح لهم الاستفادة المثلي من المشكلات الداخلية التي عاشتها بيزنطة عقب موت أندرينكوس الثالث ، ومهّد الطريق للعبور إلي الطرف الأوروبي . والحقيقة أن أحداً في هذا العصر لم يكن يتخيل أن اتخاذ العثمانيين لهذا الموضع الصغير في جيمبي موضع قدم لهم يمكن أن يمثل تطوراً هاماً لعدة قرون قادمة بين الشرق والغرب . فلم تكن سيطرة العثمانيين علي جيمبي نقطة تحول في التاريخ العثماني فحسب ، بل في تاريخ أوروبا أيضاً .

وهكذا ، عبرت القوات العثمانية تحت قيادة سليمان باشا بن أورخان إلي شبه جزيرة غاليبولي بهدف مساعدة كانتاكوزين عام ١٣٤٩م/٧٤٨هـ ، حيث عادت الحملة بعد تمكين نفوذه في بيزنطة . إلا أن سليمان باشا اضطر للعودة مرة أخري إلي المنطقة عام ١٣٥٢م/٧٥١هـ ، حيث ألحق الهزيمة بأعداء كانتاكوزين من القوات الصربية والبلغارية[٨٢] . وبعد أن أدى سليمان باشا ما كلف به من مهام ترك عند عودته قسم من قواته في قلعة "جيمبي" التي اتخذت قاعدة عسكرية للعثمانيين في المنطقة . وإذا كان كانتاكوزين قد قدم ضمانات عديدة للعثمانيين للجلاء عن القلعة ، إلا أنهم أبوا أن يتخلوا عن هذا الموقع الإستراتيجي . وفي هذه الأثناء وقع زلزال هائل في أوائل مارس ١٣٥٤م/٧٥٣هـ انهارت علي أثره أسوار غاليبولي وفر منها أهلها ، فدخلت قوات سليمان المدينة الاستراتيجية غاليبولي ، وراحوا يسيطرون علي جميع أنحاء شبه الجزيرة .

---

[82] لما تولي كانتا كوزين السلطة في بيزنطة ترك ليوانيس باليولوج بعض الأراضي في تراقيا ، إلا أن الأخير اختلف مع ماتيوس ابن كانتاكوزين ، فقام يوانيس بمساعدة من صربيا وبلغاريا بالاستيلاء علي أراضي ماتيوس وحاصر أدرنه ، فطلب كانتاكوزين المساعدة مرة أخري من أورخان غازي الذي أسرع بإرسال ابنه سليمان باشا مرة أخري علي رأس قوة قوامها ما بين ١٠-١٢ ألف فارس انتقلت إلي الطرف الأوروبي بمساعدة السفن الجنوية تمكنت من إلحاق الهزيمة بقوات يوانيس ومؤيديه علي طول نهر مريج في خريف عام ١٣٥٢م : D. Nicol, Bizans'in Son Yuzyillari (1291-1453), tec. B. Umur, Isatnbul 1999, s. 225 vd.

ولما أدرك كانتاكوزين خطورة استقرار العثمانيين في شبه جزيرة غاليبولي ، عرض علي أورخان شراء جيمبي وترك غاليبولي ، إلا أن أورخان رفض هذا العرض ، فحوّل كانتاكوزين وجهته إلي الصرب والبلغار طالباً المساعدة منهم لطرد القوات العثمانية من تراقيا[٨٣] .

وهكذا ، حالت الخلافات في البلقان دون حدوث تقارب مع إمبراطور بيزنطة الذي ترك وحيداً أمام الزحف العثماني في تراقيا . فاتخذ سليمان باشا من غاليبولي مقراً له ، وراح ينطلق منها بقواته حتي سيطر علي سواحل مرمرة حتي بولاير وتكيرداغ ؛ ثم توجه شمالاً باحثاً عن موضع قدم في تراقيا الشرقية ، ففتح مالقره وكشان وچورلي . وبذلك ، كان استقرار العثمانيين في غاليبولي الخطوة الأولي التي تبعتها خطوات متتالية نحو قطع الطريق بين استانبول وأوروبا من ناحية البحر ، وفتح شبه جزيرة البلقان حتي وصلوا إلي سلاسل جبال البلقان شمالاً ونهر قراصو غرباً .

استقرار العثمانيين في تراقيا الشرقية : وإذا كان العثمانيون قد حرصوا علي نقل الأسري من جند الروم إلي الأناضول للحيولة دون قيامهم بحركات عصيان في المناطق المفتوحة ، فقد سلكوا سياسة حكيمة في جذب السكان المحليين من غير المسلمين واستمالتهم لطاعة الإدارة العثمانية ، ومن ثم توطيد الإستقرار في تلك المناطق . وقد عرفت هذه السياسة التي خضعت لأحكام الشريعة الإسلامية في التواريخ العثمانية باسم " **سياسة الإستمالة** " ، وكانت أهم ملامحها :

---

[83] حول استيلاء العثمانيين علي قلعة جيمبي والفتوحات الأولي لغاليبولي وما حولها أنظر : Munir Aktepe, "Osmanlilarin Rumeli'de Ilk Fethettikleri Cimpi Kalasi" Tarih Dergisi, sy.2(1950), s.283-306; Oikonomides, "From Soldires Of Fortune To Fazi Warriors The Tzympe Affair", Studies In Ottoman History Of Honour of Professor VI. Menage, Istanbul 1994, s. 239-247; Feridun Emecen, "Felibolu", DIA., XIV, 1

أ- حماية الإدارة العثمانية لأرواح وأموال غير المسلمين في إطار أحكام الشريعة الإسلامية.

ب- حماية دور العبادة ، وتمكين أهلها من ممارسة شعائرهم الدينية بحرية .

ج- الغاء الضرائب الزئدة التي كانت مفروضة على أهالي المناطق المفتوحة .

د- الابقاء علي الأوقاف الدينية في المناطق المفتوحة .

ه- الغاء الإمتيازات الخاصة بالطبقة العسكرية المحلية الإقطاعية ، وضم هذه الطبقة إلي النظم العسكرية العثمانية .

وهكذا ، كان لهذه السياسة أثر ايجابي علي جميع طوائف الروم ورجال الكنيسة والطبقات العسكرية والقرويين . ففي الوقت الذي كانت فيه بعض الأسرات المحلية تقوم بالتصدي لتقدم الغزو العثماني السريع في البلقان بعقد الإتصالات مع الممالك الغربية في أوروبا ودعوتها لإعلان حملات صليبية ضد الدولة العثمانية ، كانت بعض الأسرات المحلية الأخري تسعي لتفادي غزو أراضيها بالاعتراف بالنفوذ العثماني في المنطقة وقبول دفع الخراج السنوي للأمير العثماني بعد عقد الإتصالات الودية معه . وبذلك استطاع العثمانيون خلال فترة وجيزة الاستفادة من الخلافات المذهبية بين الأرثوذكس والكاثوليك في البلقان ، والمنافسات الشديدة بين البندقية وجنوة ، ومن ثقل الأزمات المالية والإقتصادية وزيادة أعباء الضرائب التي كانت تفرض علي أهالي المنطقة ، استطاعوا الإستفادة من كل هذا في فرض نفوذهم السياسي علي البلقان بسرعة مذهلة .

والحقيقة ، أن العثمانيين لم يستقروا في البلقان بقوة السلاح ، بل كانت للسياسة الحكيمة التي اتبعوها ، وللحروب الداخلية التي لم تتوقف بين الأسرات المحلية الحاكمة في البلقان ، وللوباء الذي احتاح أوروبا في الفترة ما بين ١٣٤١-١٣٥٤م/ وأدي إلي خراب مناطق شاسعة من البلقان ، ولحركة هجرة العشائر التركمانية من الأناضول إلي المناطق المفتوحة حديثاً في الروميلي ، دور هام في اعتراف الكثير من

الحكام المحليين بالحكم العثماني في تراقيا الشرقية والغربية وإعادة العمران للمناطق الخربة والتمكين للإدارة العثمانية .

وكانت عمليات هجرة العشائر التركمانية إلي الأراضي المفتوحة من أوروبا قد بدأت منذ فتح سليمان باشا لمنطقة غاليبولي ، حيث تمكنوا من تأسيس قري ومقاطعات كاملة هناك بتشجيع من أمراء الحدود أمثال حاجي إيلبكي وأبناء أورانـــوس وأبنـــاء ميخال، وبدعم من الدراويش وجماعات الأخيان الذين أخذوا يؤسسون أيضاً زواياهم في الخطوط المتقدمة . وقد قامت الإدارة العثمانية بتنظيم عمليات الهجرة بين التركمان تارة عن طيب خاطر وتارة أخري بشكل قسري . ومنذ ذلك الحين وخلال النصف الثاني من القرن ١٤م/٧هـــ ، فتح المهاجرون الجدد الطريق لتغييرات اجتماعية واقتصادية هامة في مناطق مختلفة من البلقان ، حيث كانت تراقيا ومقدونيا وشمال شرق الروميلي من أكثر المناطق جذباً للعشائر التركمانية المهاجرة من الأناضول . وقد استمرت عمليات الهجرة والإسكان في تلك المناطق بشكل متقطع حتي القرن ١٦م/١٠هـــ[٨٤] .

ومهما يكن من أمر ، فقد ارتبطت فتوحات تراقيا بنشاط الأمير سليمان باشا ورفاقه خلال أواخر عهـــد أورخـــان غـــازي ؛ فكمـــا كانـــت وفاتـــه فجـــأة في ١٣٥٩م/٧٦٠هـــ سبباً لتوقف فتوحات العثمانيين في الروميلي مؤقتاً ، فقد فتّت أيضاً في عضد أورخان غازي الطاعن في السن ، حيث توفي علي أثرها في العـــام التـــالي (١٣٦٠م/٧٦١هـــ) .

---

84 بخصوص عمليات هجرة التركمان واسكانهم في المناطق المفتوحة من البلقان ، والسياسة التي اتبعتها الدولة العثمانية ، انظر : Omer L. Barkan, " Osmanli Imprartorlugunda Bir Iskan ve Kolonizasyon Metodu Olarak Surgunler", Iktisat Fakultesi Mecmuasi, XIII/1-4,(1952), 56-78; ayn.mlf., " Osmanli Imparatorlugunda Bir Iskan ve Kolonizasyon Metodu Olarak Vakiflar ve Temlikler", Vakiflar Dergisi, II, (1942),s. 279-553; Halil Inalcik, "Osmanli Fetih Yonetimleri", Sogut'ten Istanbul'a, s. 443-474,

الملامح الأولى لتشكيلات الدولة العثمانية :

لقد كان فتح بورصه ثم إزنيق ، واتخاذ العثمانيين لموضع قدم في الطرف الأوروبي بفتح غاليبولي ثم انسياحهم في تراقيا ، نقطة تحول في كيان الإمارة العثمانية الصغيرة ، حيث انتقلت على أثرها من مرحلة العشيرة وما ارتبط بها من عادات وأعراف إلي مرحلة الكيان السياسي المتكامل . فقد كان ضرب عملة " الأقچه " الفضية باسم أورخان غازي عام ١٣٢٧م/ ٧٢٧هـ ، تأكيداً لاعلان الكيان السياسي العثماني في المنطقة ، حيث شعر هذا الكيان منذ ذلك الحين وعلي أثر الفتوحات المتتالية التي حققها في البلقان بحاجته الملحة لوضع تشكيلات ادارية وقضائية وعسكرية لحماية مقاصده العليا ورعاية شئون رعاياه .

ولما كانت إمارة آل عثمان ، واحدة من إمارات الأناضول التابعة لدولة سلاجقة الأناضول والخاضعة إدارياً لنفوذ الإلخانيين ، فقد وقعت تشكيلاتها الأولي تحت التأثير المباشر لهاتين الدولتين . فقد كان الديوان الذي اتخذ مركز الإمارة مقراً له هو العنصر الأساسي لدولاب الحكومة ، حيث كان يرأس هذا الديوان الحاكم الذي هو رئيس الدولة ، ويرأسه عند الضرورة الوزير الذي هو نائباً للحاكم ورئيساً للحكومة . ويعتبر علاء الدين باشا هو أول من عُين في منصب الوزارة في الإمارة العثمانية ، وكان من طائفة العلماء . وكانت الشئون العسكرية للدولة توجه لشخص يعرف باسم " صوباشي " أو لأمير الأمراء " بكلربكي " فيما بعد . وكان الديوان هو المرجع الأول لكافة شئون الإمارة ، حيث كانت تصدر عنه كافة الأحكام التنفيذية . واستمرت الشئون العسكرية للدولة تنظر بمعرفة الصوباشي وأمير الأمراء حتي تولية جاندارلي قره خليل للوزارة .

ومنذ عهد عثمان غازي ، كانت الأراضي توجه للأمراء الغزاة الذين قاموا بفتحها ، وذلك وفقاً للأعراف السلجوقية القديمة ، حيث تم توجيهها فيما بعد لقواد

الجنود في ساحات القتال كمناطق سنجقية ، أي تلك المناطق التي يرفرف فوقها سنجق (علم) هذا القائد . وكان صاحب السنجق ينظر في كافة الشئون العسكرية والأمنية في منطقته ، إلاّ أن الشئون القضائية والشرعية فيها كانت تنظر بمعرفة "القاضي" . وكان قاضي بورصه هو أعلي مرجع للشئون القضائية والعلمية للإمارة العثمانية في ذلك الوقت، حيث كان تعيين وعزل قضاة السناجق واحدة من أهم مسئولياته ، وذلك حتي استحداث منصب " قاضيعسكر " في عهد مراد الأول .

من المعروف أن قوات العشائر التي قامت بالفتوحات الأولي كانت من الفرسان. ولما شعرت الإمارة العثمانية بحاجتها لقوات جاهزة للحرب في كل وقت ، اقترح قاضي بورصه جاندارلي قره خليل تشكيل قوات عاملة من الشبان التركمان ، بحيث يتخذ منهم المشاة (يايا) والفرسان (مُسلّم) . وهكذا ، تم اختيار ألفين من الفتية التركمان الأشداء القادرين علي الحرب والنزال ، حيث كان يوزع علي كل منهم يومية قدرها أقچه واحدة وقت الحرب ، أما في وقت السلم فكان يترك لهم عشور الأراضي المعينة لهم ، كما كانوا يعفون من دفع أية ضرائب عليها . ولما كثر عدد هذه القوات ، تم تقسيمهم بالتبادل في وقت السلم والحرب . أما جند المسلم فقد انقسموا إلي بلوكات كل منها يتراوح بين عشرة أفراد إلي مائة فرد ، حيث كان رئيس العشرة يعرف بإسم "اونباشي" (اوكباشي) ، ورئيس المائة "يوزباشي" ، وقائد الفرقة التي تبلغ ألفاً فيعرف باسم "بنباشي" (بكباشي) . وقسمت فرقة الفرسان (مسلم) إلي اوجاقات يبلغ كل منها ثلاثين فرداً ، حيث كان يخرج للحرب منهم في كل مرة خمسة أفراد بالتبادل أيضاً . وقد استمرت هذه القوات تقوم بمسئولياتها بنجاح حتي تشكيل فرق الدرگاه العالي (قاپو قولي/خدم لباب) ، حيث راحت تستخدم في مؤخرة الجيش بعد ذلك .

وهكذا، يعتبر أورخان غازي هو المؤسس الفعلي للإمارة ثم الدولة العثمانية، ففي عهده ضربت العملة وعقد أول ديوان وأسس أول جيش ، وأثبت وجود إمرة آل

عثمان السياسي في الأناضول والروميلي ، وفتح الباب لإبنه مراد غازي لترسيخ نفـوذ الدولة شرقاً وغرباً وتوطيد دعائمها في الداخل وفي الخارج[٨٥] .

---

[85] فيما يتعلق بالتشكيلات الأولي لإمارة آل عثمان ، أنظر : İsmail Hakkı Uzunçarşılı, Osmanlı Devletinin Merkez ve Bahriye Teşkilâti, Ankara 1948, s.1vd.; ayn. Mlf., Osmanlı Devletinin Saray Teşkilâtı, Ankara 1945, s.9 vd.; ayn. Mlf., Osmanlı Devleti Teşkilâtından Kapı Kulu Ocakları, Ankara 1943, s. 5vd.; ayn. Mlf., Osamnlı Devletinin İlmiye Teşkilâti, Ankara 1965, s. 1vd.; Yusuf Halacoğlu,XIV-XVII. Yüzyıllarda Osmanlılarda Devlet Teşkılâtı ve Sosyal Yapı, Ankara 1996, s. 7, 43vd.

الأناضول والبلقان
في عهد مراد " خداوندگار "

(١٣٦٠-١٣٨٩م / ٧٦١-٧٩١هـ)

إذا كان أورخان غازي قد وضع الأساس الأول لتشكيل الدولة العثمانية السياسي والإداري والعسكري والقضائي ، فقد خطي مراد الأول بالدولة خطوات واسعة إلي الأمام موطداً نفوذها السياسي في الأناضول وفي أوروبا في نفس الوقت ؛ فوحد الإمارات التركمانية غربي ووسط الأناضول تحت قيادته ، وقاد الغزاة باقتدار ، وساس شئون الدولة بحكمة مستفيداً من التطورات السياسية التي كانت تمر بها بيزنطة وممالك البلقان .

فقد كانت الإمبراطورية البيزنطية ومملكة البلغار في طور الإنهيار . أما امبراطورية صربيا التي تمكن استيفان دوشان من تأسيسها فقد تمزقت عقب موته (١٣٥٥م/٧٥٦هـ) ، حيث أخذ كل أمير يعمل لمصلحته الخاصة . وبينما كان الأمراء اللاتين في اليونان والمورة قد ضعفوا نتيجة لنزاعاتهم الداخلية ، لم يستطع اليونان والبنادقة والجنويون وأمراء رودس نبذ خلافاتهم وتوحيد قواهم لمواجهة الزحف العثماني . وفي ظل محاولات ملك المجر الكاثوليكي ليوش نشر مذهبه بالقوة بين سكان البلقان الأرثوذكس ، تمكن العثمانيون باحترامهم لحرية اعتناق الدين وبتطبيق مبادئ الإسلام السمحة بين الأهالي تمكنوا من فتح مدن وقلاع البلقان دون أية مقاومة تذكر من الأهالي المحليين[٨٦] .

فتح أدرنة : كان مراد غازي قد تولي قيادة الغزو والجهاد في البلقان عقب وفاة أخيه سليمان باشا . فلمّا قبض علي مقاليد الحكم بعد وفاة أبيه أورخان وأستتب له

---

[86] أنظر في هذا الخصوص : A. Luttrel, " 1389 Oncesi Osmanlı Genişlemesine Latin Tepkileri", Osmanlı Beyliği, s. 133-136; Melek Delilbaşı, "Osmanlı-Bizans Ilişkileri", Türkler, IX/122-131

الأمر في الأناضول ، قام بتعيين لالا شاهين باشا في رتبة "بكلربكي" أي أميراً للأمراء ، وكلفه بقيادة القوات العثمانية والتوجه بها إلي الروميلي لاستعادة بورغـاز وچـورلي ومالقره التي كان الروم قد احتلوها عقب وفاة أورخان. والحقيقة أن "أدرنه" كانت هي الهدف الأول لمراد غازي عند عبوره لتراقيا . وإذا كان الباحثون قد اختلفوا في تـاريخ فتح أدرنه التي كانت عاصمة تراقيا ، إلا أننا نطمئن إلي الرواية التي تشير إلي أنها فتحت عام ١٣٦١م/ ٧٦٢هـ بالتنسيق بين لالا شاهين ومراد غازي بعد أن ألحقت هزيمـة قاسية بالروم وبالقوات البلغارية التي جاءت لمساعدتهم [٨٧] .

لقد كان اتخاذ مراد الأول لأدرنه مقراً لحكمه في الروميلي وقاعدة عسـكرية لجنده اعلاناً لرغبته في مدّ فتوحاته في البلقان من ناحية والإحاطة ببيزنطة مـن ناحيـة أخري . فلمّا كانت قلعة أدرنه تسيطر علي الطريق الممتد من العاصمة البيزنطية وحتي جبال البلقان ، حرص مراد الأول علي اتخاذ مدينتها مركزاً عسكرياً لقواته في الروميلي. وانطلاقاً من أدرنه راحت القوات العثمانية تتقدم في تراقيا خطوة خطوة ، حتي دخلت ديمتوقة . ومن هناك أصدر مراد غازي الأمر للالا شاهين بالتوجه إلي "فليبه" و"زغره" ففتحهما ، ولأورانوس بك بالتوجه إلي تراقيا الغربيـة ، فسـيطر علـي كوملجينـه (١٣٦٣م/٧٦٤هـ) . وبذلك ، قطعت العلاقة بين البيزنطيين والصرب، حيث أجـبر إمبراطور بيزنطه يوانيس الخامس على الاعترف بالفتوحات العثمانية في البلقان وتعهـد

---

87 الحقيمه أنه تعددت الروايات حول التاريخ القطعي لفتح أدرنه ، حيث تشير بعض الدراسات إلي أن الفتح قد تم بعد حركة عسكرية منظمة قام بها مراد بك ولالا شاهين خلال عام ١٣٦١ وفي حياة أورخان غازي (Halil Inalcik, "Edirne'nin Fethi 1361", Edirne, Ankara 1965, s.137-160) ، في حين أن بعض الدراسات الأخري تذكر أن الفتح قد تم بعد عام ١٣٦٦م أو خلال عام ١٣٦٩م استناداً إلي احدي المرثيات الشعرية ، انظر في هذا الخصوص : F.M.Emecen, "Tarih Koridorlarında Bir Sınır Şehri, Edirne", Edirne Serhattaki Bayitaht, Istanbul 1998, s.53vd.

بعدم تحريض أمراء البلقان ضد الدولة العثمانية ، وتقـديم المسـاعدات للعثمـانيين في مواجهاتهم مع الإمارات التركمانية في الأناضول[٨٨] .

حركات المقاومة في تراقيا

لقد كان فتح أدرنه نقطة حول في منطقة تراقيا وحتي في البلقان كله ، فراحت الأصوات في أوروبا تعلوا مطالبة بطرد العثمانيين من البلقان ، ودعي بابا روما لحملـة صليبية كبري شارك فيها أمراء قبرص والمجر ، وأخذ امبراطور بيزنطة يبحث عن حلفاء له لمواجهة العثمانيين المتربصين به حتي وجد دعماً من سافوي أمادو أحد أبناء عمومته عام ١٣٦٦م/ ٧٦٧هـ . فقام أمادوا بشن هجوم مفاجئ علي شبه جزيرة غاليبولي ، وتمكن من احتلالها في ٢٣ أغسطس ١٣٦٦/٨ ذي القعدة ٧٦٧ . وفي العام التالي قام أمادو بتسليم غاليبولي لإمبراطور بيزنطة . وإذا كانت أوروبا قد شعرت بسعادة غامرة بهذا الإنجاز ، وراحت البابوية وبقية الدول الإيطالية تنسق مع القوات المحلية المشـتركة لشن هجمات ضد العثمانيين للحد من نشاطهم في مختلف أنحاء البلقان ، إلا أنهـم لم يستطيعوا اخراج العثمانيين من البلقان.

ومن ناحية أخري ، راح مراد غازي يتابع سير الفتوحات في البلقان ، حيـث تمكن من تصفية بؤر المقاومة في تراقيا الشرقية . فكما استطاع تيمورطاش باشـا ولالا شاهين باشا فتح العديد من المناطق التابعة للبلغار (١٣٦٧/٧٦٨هـ)، تمكن مـراد غازي من السيطرة علي مناطق استراتيجية أخري تابعة لبيزنطة ، وذلك حتي أتم فـتح تراقيا الشرقية بسيطرته علي بينارحصار وفيزه وقيرقلراللي عام ١٣٦٩م/٧٦٨هـ[٨٩] .

---

[88] D. Nıcol, "Bizans'ın Son Yüzyılları (1291-1453)", s. 306-309; A. Luttrel, " 1389 Öncesi Osmanlı Genişlemesine Latin Tepkileri", Osmanlı Beyliği, s. 136-139; Melek Delilbaşı, "Osmanlı-Bizans İlişkileri", Türkler, IX/131-136

[89] فيما يتعلق بالتوسعات العثمانية في تراقيا الشرقية انظر : A. Luttrel, " 1389 Öncesi Osmanlı Genişlemesine Latin Tepkileri", Osmanlı Beyliği, s139

معركة چيرمن (١٣٧١م/٧٧٠هـ) : لقد أجبرت الفتوحـــات العثمانيـــة في الأراضي البلغارية أمير البلغار ايفان شيشمان علي عقد اتفاق مع العثمانيين يقضي بفرض الحماية العثمانية علي المناطق المفتوحة ، ودفع الخراج السنوي علي أراضيها ، وتـــزويج أخته ماريا لمراد غازي ، وذلك مقابل مساعدته ضد أخيه ستراتيسمير الذي استعان بالمجر وأتي بهم لبودين (١٣٧٠م/٧٦٩هـــ) .

وإذا كان أمير البلغار ايفان شيشمان قد خرج علي هذا الإتفاق وتحالف مـــع أخيه أمير الصرب ووقاشين في العام التالي للنيل من القوات العثمانية الموجودة في مقدونيا ، فتحركا معاً صوب أدرنه في سبتمبر ١٣٧١م/ صفر٧٧٣ ، إلا أن مراد غازي تمكـــن من ايقاع هزيمة شديدة بهذا الحلف علي سواحل نهر مريج في معركة "**چيرمن**" ، حيث قتل الأمير الصربي وأخوته في أرض المعركة ، وفتحت أبواب مقدونيا وبلاد الصـــرب واليونان أمام الجيوش العثمانية ، وأعلن الكثير من أمراء الصرب التبعية للعثمانيين بشرط دفع الخراج للخزينة العثمانية[٩٠] .

وهكذا ، راحت القوات العثمانية تزحفت علي طول نهـــر واردار لم يوقفهـــا شيء، وبدأ غزاة الحدود وقوات المهاجمين (آقينجيلر) في شن الهجمات علي غربي شبه

---

vd., D. Nıcol, "Bizans'ın Son Yüzyılları (1291-1453)", s. 309-312

[90] لتفصيلات أكثر حول معركة جيرمن وزحف العثمانيين علي البلقان ، انظر : Şerif Baştav, Bizans İmparatorluğu Tarihi Son Devir (1261-1461), Osmanlı Türk- Bizans Münasebetleri, Ankara 1989, s. 22-26 ; İ. Demirkent, " 14. Yüzyıla Kadar Balkan Yarımadasında Bizans Hakimiyeti ", İ. Kosova Zaferinin 600. Yıldönümü Sempozyumu, Ankara 1992, s. 54 vd., Mucteba Ilgurel, " XVI Yuzyilda Omsnali Devletinin Siyasi Durumu", I. Kosova Zaferinin 600 Yildonumu Sempozumu, s. 18 vd., Ibrahim Sezgin, "Osmanlilarin Rumeli'ye Gecisi ve Ilk Fetihler", Osmanli, c.I, Ankara 1999, s. 215 vd.

جزيرة البلقان . وكما ارتضي إمبراطور بيزنطة ثم حاكم البلغار وغيره التبعية للعثمانيين ، أجبر لازار حاكم الصرب العليا وأمراء الصرب الآخرين علي التفاهم مع العثمانيين أيضاً (١٣٧٣م/٧٦١هـ) . والحقيقة أن الضغوط الشديدة التي مارسها مراد غازي علي إمبراطور بيزنطة ووريثه علي العرش مكنت العثمانيين من استعادة غاليبولي مرة أخري عام ١٣٧٦م/٧٧٨هـ .

وكانت القوي الفاعلة في البلقان خلال هذه الفترة تتشكل من العناصر الإقطاعية التي كان يمثلها الأمراء المحليين هناك ، ولم يكن هؤلاء حيلة في مواجهة الضغوط الشديدة التي مارسها الامراء الغزاة الذين فرضوا نفوذهم علي مناطق البلقان إلا بالإعتراف بتبعيتهم للعثمانيين . وكانت شروط هذه التبعية تنحصر في :

١. الإعتراف بالنفوذ العثماني المطلق .
٢. أداء الخراج الذي كان مقرراً علي الأراضي سنوياً .
٣. إرسال فرق عسكرية لمساعدة الجيش العثماني عند اللزوم .

ولم يعجز العثمانيون عن اضافة بنود جديدة كلمّا أتيحت لهم الفرصة ، بحيث استطاعوا إحكام تبعية هذه المناطق لهم تدريجياً[٩١] .

توسيع النفوذ العثماني في الأناضول : في الوقت الذي انشغلت فيه الأسرات الحاكمة في البلقان بتراعاتها الداخلية (١٣٧٦-١٣٨١م/٧٧٨-٧٨٣هـ)،

---

[91] فيما يتعلق بسياسة التبعية العثمانية تجاه إمارات الأناضول والبلقان خلال عهد مراد الأول ، أنظر :
A. Luttrel, "1389 Oncesi Osmanli Genislemesine Latin Tepkileri ", Osmanli Beyligi, 1300-1389, Istanbul 1997, s. 32 vd., Stefhon W. Rainert, " Niş'ten Kosova'ya İ. Murad'ın Son Yıllarına İlişkin Düşünceler, Osmanlı Beyliği, İstanbul 1997, s. 46 vd.; İ. Demirkent, " 14. Yüzyıla Kadar Balkan Yarımadasında Bizans Hakimiyeti ", İ. Kosova Zaferinin 600. Yıldönümü Sempozyumu, Ankara 1992, s. 83 vd.

كانت الدولة العثمانية الوليدة ترتب البيت من الداخل وتطور نظمها وتشكيلاتها الإدارية والعسكرية والعدلية المركزية وفقاً لتطورها السياسي ، وتضع القواعد التي تكفل للبلدان المفتوحة حديثاً في البلقان الأمن والإستقرار .

والحقيقة أن زحف العثمانيين علي الروميلي يُعد نقطة تحول هامة في علاقات إمارة آل عثمان بالإمارات التركمانية في غربي ووسط الأناضول . لقد اكتسب أمـــراء الحدود التابعين للعثمانيين شهرة عظيمة بين الإمارات التركمانية في الأناضول بســـبب عمليات الغزو الناجحة في الحدود الغربية للروميلي . فكانت الرغبة الشديدة للوصول إلي تلك المكانة الرفيعة دافعاً لميل أغلب أمراء وسط وغربي الأناضول للجانب العثمـــاني . وكان العثمانيون يتبعون سياسة حذرة للغاية تجاه الإمارات التركمانيـــة في الأناضـــول عموماً وتلك التي تجاورهم علي وجه الخصوص . ولذلك فقد كشـــفت الدراســـات الحديثة عن أن السياسة التي اتبعها العثمانيون خلال هذه المرحلة قد مـــرّت بمـــرحلتين متتاليتين :

الأولي – مرحلة التبعية ، أي انخراط تركمان غربي الأناضـــول في فيدراليـــة محدودة تحت الراية العثمانية خلال عهد مراد الأول .

الثانية – مرحلة ضم الإمارات التركمانية في الأناضول في نظام مركزي تقوده الدولة العثمانية خلال عهد ييلدرم بايزيد (١٣٨٩-١٤٠٢م)[٩٢] .

والحقيقة أن إمارة أبناء قرمان كانت تتبع في وسط الأناضول سياسة مشـــابهة لسياسة العثمانيين تجاه إمارات غربي الأناضول ، ومن ثم كانوا يمثلون منافســـة جـــادة للعثمانيين . وفي الوقت الذي كان مراد الأول فيه يطبّق سياسة التبعية هذه بشكل حذر في المنطقة ، كانت الإمارات التركمانية الصغيرة التي تقع علي الحـــدود بـــين هـــاتين

---

[92] انظر في هذا الخصوص : Feridun Emecen,"Osmanlı Devleti'nin Kuruluşundan Fertret Dönemine", Türkler, c.IX/26-27

الإمارتين الكبيرتين تحاول ضبط أوضاعها وفقاً لتحركات القرمانيين والعثمانيين . ومهما يكن من أمر ، فقد أخذ العثمانيون يؤكدون قيادتهم في المنطقة عقب حادثتين هامتين :

الحادثة الأولي : تتمثل في فشل حملة حوريجوس أواخر فبراير ١٣٦٧م/٧٦٨هـ . والحقيقة أن هذه الحملة تعتبر حلقة من حلقات المنافسة العثمانية – القرمانية علي النفوذ في الأناضول ، حيث أراد القرمانيون أن يثبتوا من خلال تجريدهم لهذه الحملة أنهم يتفوقون علي العثمانيين في الغزو والفتح . وكان القرمانيون بصفتهم ورثة عاصمة سلاجقة الأناضول قد دعوا مختلف الإمارات التركمانية للمشاركة بقوات في هذه الحملة ، وذلك في الوقت الذي راح فيه قائد قلعة حوريجوس يطلب المساعدة من ملك قبرص . وإذا كانت القوات المشتركة لإمارات الأناضول قد حاولت اعتراض هذه لمساعدات ، إلا أن الحاق الهزيمة بهذه القوات وانسحابها إلي الجبال ، هزّ مكانة أبناء قرمان بقوة أمام الإمارات التركمانية الأخري ، ووطّد وضع مراد الأول في الأناضول نظراً لغزواته الناجحة في الروميلي[٩٣].

لقد كان خروج إلياس ابن حميد على علاء الدين بن قرمان وأمره بجعل الخطبة والسكة باسمه ، من أولي نتائج هذا الإخفاق القرماني ، حيث اضطر الأمير إلياس لطلب المساعدة من مراد بن عثمان ، وسليمان بن كيرميان . ولما تولي حسين بك محل أبيه إلياس آثر الدخول في حماية العثمانيين لمواجهة القرمانيين ، فتنازل لمراد الأول عن عدد من القلاع والمدن الموجودة علي الحدود القرمانية أهمها آقشهر ويالواج وبكيشهر وسيدي شهر وقره آغاج واسپرطه ، وذلك مقابل ثمانين ألف ذهبية[٩٤] .

---

93 بخصوص غزوة القرمانيين علي حوريجوس انظر : Ş. Tekindağ, "Karamanlılar'ın Gorigos Seferi (1367)", Tarih Dergisi, sy.6(1954), s.161-174

94 S. Kofoğlu, "Hamidoğulları", DIA., XV./473-474; Feridun M. Emecen, İlk Osmanlılar ve Batı Anadolu'da Beylikler Dünyası, İstanbul 2001,s.45 vd.

ومن ناحية أخري ، أراد مراد الأول اتمام تأمين حدوده مع امارة أبناء گيرميان، حيث وجد السبيل إلي تحقيق رغبته هذه بتقدم ابنه الأكبر بايزيد للزواج من ابنة سليمان أمير گيرميان " دولت خاتون " ، فقام الأخير بالتنازل عن مدن كوتاهية وطاوشانلي وأكري يوز وسيماو للعثمانيين كمهر لإبنته (١٣٧٨م/٧٨٠هـ) . وبهذا الزواج السياسي يكون العثمانيون قد استطاعوا ضم جميع المدن التي كانت تقع غربي إمارة أبناء قرمان ، حيث صارت أراضيهم تجاور ممتلكات هذه الإمارة التركمانية من ناحية الشمال والغرب . وبذلك ، كان تعرض امارتي كيرميان وحميد لضغوط المنافسة العثمانية – القرمية ، سبباً لميلهما إلي الجانب العثماني خلال هذه الفترة .

الحادثة الثانية : وتتمثل في دخول الإمارات الصغيرة التي تشكلت في المناطق الممتدة من توقات إلي آماسيا تحت الحماية العثمانية . وكان ممر طريق حرير إيران الذي فتح عقب ضم أنقرة (١٣٥٤م/ ٧٥٥هـ) قد نشط كثيراً خلال عهد مراد الأول . فلمّا ظهرت تعديات القاضي برهان الدين وريث إمارة أرتنا في سيواس علي تلك الإمارات الصغيرة في المنطقة ، طلبت هذه الإمارات الحماية من العثمانيين، الأمر الذي مكّن العثمانيين لمدّ نفوذهم إلي مناطق وسط الأناضول[٩٥] .

بدء نشوب النزاع بين العثمانيين وأبناء قرمان : كان أبناء قرمان قد قاموا بتأسيس إمارتهم في نواحي أرمناك وموط ، حيث استطاعوا بسط نفوذهم علي قرمان وقونيه عقب انهيار دولة سلاجقة الأناضول . والحقيقة أن قيام الأمير القرماني علاء الدين علي بك بالزواج من ابنة مراد الأول ملك خاتون (نفيسة سلطان) لم يحل دون نشوب الصراع علي النفوذ بين الطرفين في الأناضول .

لقد كان توسع العثمانيين في وسط الأناضول علي حساب إمارتي أبناء گيرميان وأبناء حميد علي هذا النحو سبباً في ظهور الشقاق بين العثمانيين والقرمانيين. فقد سعي

---

[95] لتفصيلات أكثر انظر : Feridun Emecen, İlk Osmanlılar ve Batı Anadolu'da Beylikler Dünyası, s. 78 vd.

علاء الدين علي بك إبن قره مان لتشكيل جبهة أناضولية ضد العثمانيين ، فاتفق مع حميد أوغلو كمال الدين حسين بك لإستعادة الأراضي التي تنازل عنها لمراد غازي مستفيداً من انشغال العثمانيين في الروميلي ، حيث قام بالإستيلاء علي بكشهر وبعض المناطق المحيطة بها (١٣٨٦م/٧٨٨هـ).

وعلي أثر هذه التطورات ، أسرع مراد غازي بالإستعداد للتوجه للأناضول مصطحباً معه قوات من الروم والصرب والتتار وفقاً لبنود اتفاقيات التبعية التي أشرنا إليها ، حيث ترك الوزير جاندارلي خليل خير الدين باشا علي رأس جيش الروميلي ، وعاد علي رأس جيشه متعدد الأجناس إلي بورصه . ولّما تأكد أمير قرمان بأنه لا طاقة له بهذا الجيش ، أرسل إلي مراد غازي يعرض عليه السلام . إلا أن مراد ردّ طلبه متجاوزاً بجيشه حدود قرمان ، حيث وقع صدام شديد بين الطرفين أمام قونية انتهي بهزيمة علي بك عند موضع يقال له " فرنك ياريسي " وفراره ملتجأً إلي قلعة قونية . وإذا كانت القوات العثمانية قد قامت بحصار علي بك لفترة طويلة ، إلاّ أنها رفعت الحصار عنه بعد أن شفعت له زوجه " نفيسة سلطان " ابنة مراد ، حيث وقع بين الطرفين معاهدة صلح عام ١٣٨٧م/ ٧٨٩هـ . والحقيقة أن اضطراب الأوضاع في الروميلي ، ورغبة مراد في الإنتقال بجيشه إلي الطرف الأوروبي ، كان هو الدافع الحقيقي لقبول العثمانيين لهذا الصلح[٩٦] .

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت هذه الحرب أول مواجهة عسكرية بين العثمانيين وبين واحدة من أهم الإمارات الأناضولية التي تعتمد علي نفس العناصر التركمانية . وقد اعتبر المؤرخون هذه المواجهة بمثابة اعلان قوي عن الوجود العثماني في الأناضول . ولذلك كان لهذا الانتصار نتائج هامة بالنسبة للعثمانيين سواء في الأناضول أو في الروميلي ، يأتي علي رأسها :

---

[96] حول العلاقات العثمانية القرمانية انظر : Tekindağ, " Son Osmanlı Karaman Münasebetleri Hakkında Araştırmalar " Tarih Dergisi, İstanbul 1963, XIII/17-18.

أ- زيادة النفوذ العثماني في الأناضول : فقد كانت إمارة قره مان هـي أقـوي منافس لإمارة آل عثمان حتي ذلك الوقت . ولذلك كانت هزيمتـها أمـام العثمانيين في معركة فرنك ياريسي بمثابة إعلان علني عن تفـوق العثمـانيين المطلق وأحقيتهم بزعامة إمارات الأناضول وبسط النفوذ علي أنحائها . وهكذا، أمكن للعثمانيين خلال الفترة ما بين ١٣٦٧-١٣٨٧م /٧٦٨-٧٨٩هـ كسر النفوذ القرماني ، حيث اعترف القرمانيون بالنفوذ العثمـاني في الأناضـول ، وراح العثمانيون يؤكدون في كل مناسبة علي التشكيل الفـدرالي لإمـارات الأناضول تحت زعامتهم المطلقة .

ب- بدء المشاركة الواسعة لقوات إمارات الأناضول التركمانية الأخري مع الجيش العثماني في حملات البلقان : لما شاهدت إمارات الأناضول كيف قويت شوكة العثمانيين بمشاركة فرق من جيوش الممالك البلقانية في الحملة ضد علي بـك إبن قرمان ، قامت بتلبية طلب مراد غازي بمشاركتها بفرق من جيوشـها في الجيش الذي راح يعده العثمانيين لمواجهة الجيوش الأوروبية.

ج- تأمين حدود الشرقية للدولة العثمانية ، وتفرغ العثمانيين لمواجهة التكـتلات الأوروبية التي كانت تسعي لاستعادة الأراضي التي فتحها العثمانيون والخروج علي بنود معاهدات التبعية التي وقعت معهم .

استئناف الفتوحات العثمانية في البلقـان : لقد كان الدافع وراء تجدد التحركات العثمانية في البلقان ، الاستفادة من حالة الضعف والاضطراب التي كانت تمر بها ممالك البلقان أنذاك ، واتخاذ خطوة إلي الأمام لبسط النفوذ العثماني المباشر علي بلاد البلغار والصرب والأرناؤوط . وهكذا أتاحت حركة العصيان التي قام بها ابن امبراطور بيزنطة يوانيس الخامس ضد أبيه وسيطرته علي مقاليد الحكم في الفترة ما بين ١٣٧٦-١٣٨١م /٧٧٨-٧٨٣هـ ، والحرب التي نشبت بين بيزنطة وأهل جنوة في غلطة آنئذ ، أتاحت لمراد الأول الفرصة لتوطيد أقدام العثمانيين في الروميلي.

ولذلك كان علي العثمانيين المبادرة بفتح صوفيا حتي يمكنهم السيطرة علي بلاد البلغار ، وفتح نيش لإقتحام بلاد الصرب ، وفتح مناستير للإنطلاق إلي بلاد الأرناؤوط. وبالفعل ، تمكن تيمورطاش باشا من فتح مناستير ثم برلبه في عام ١٣٨٠م/٧٨٢هـ ، ثم استطاع جاندارلي خليل باشا واورانوس بك من اعادة فتح سره ز عام ١٣٨٣م/ ٧٨٥هـ . وكما استسلمت صوفيا للقوات العثمانية بعد حصار طويل لها عام ١٣٨٥م/٧٨٧هـ ، تكللت هجمات ياخشي بك ابن تيمورطاش باشا علي الأطراف الشمالية لبلاد الصرب بالنجاح بفتح نيش عام ١٣٨٦م/٧٨٨هـ ، واستطاعت القوات العثمانية الوصول إلي سلانيك التي تحصن فيها مانويل ابن امبراطور بيزنطة ، حيث تمكنت من فتحها بعد تشديد حصار عليها في ٩ إبريل ١٣٨٧/ ١٢ ربيع الأول ٧٨٩[٩٧].

التحالف البلقاني ضد النفوذ العثماني : لقد كان الشعور المشترك لملك البوسنة وملك الصرب وأمراء الخروات والأرناؤوط بضرورة التصدي للنفوذ المجري من الشمال والنفوذ العثماني من الجنوب ، دافعاً للبحث عن وسيلة يمكن من خلالها تشتيت القوي العثمانية . ولذلك ، سعي المتحالفون للإتفاق مع علاء الدين علي بك ابن قره مان علي فتح جبهة ضد العثمانيين في الأناضول وفي البلقان في وقت واحد . وبالفعل ، في الوقت الذي كان فيه مراد غازي يجبر ابن قره مان علي طلب الصلح عقب معركة فرنك ياريسي ، أمكن لملك الصرب وملك البوسنه إلحاق الهزيمة بالقوات العثمانية الحدودية عند بولشنيك (١٣٨٧م/٧٨٩هـ) . والحقيقة أن هذه الهزيمة جعلت كافة ملوك البلقان والخروت والأفلاق والمجر وامرائها يتحالفون مع ملوك وأمراء البلغار والصرب والأرناؤوط لخوض مواجهة حاسمة مع العثمانيين .

---

[97] D. Nicol, Bizans ve Venedik, trc. G.Ç.Gücen, İstanbul 2000, s. 250; İ. Demirkent, "14 Yzyıla Kardar Balkan Yarımadasında Bizans Hakimiyeti", İ. Kosova Zaferinin 600 Yıldönümü Sempozyumu, Ankara 1989, s. 8 vd.

ولما علم مراد غازي بهذا التحالف ، خطط لإخراج البلغار من هـذا الحلـف أولاً، حيث أمر الوزير الأعظم جاندارلي زاده علي باشا بالخروج علي رأس قوة قوامها ثلاثين ألف فرد صوب بلاد البلغار (١٣٨٨م/٧٩٠هـ) ؛ وفي نفس الوقـت وجـه الدعوة لأمراء الأناضول للمشاركة في مواجهة هذا التحالف البلقاني . وهكذا ، تمكـن علي باشا من الإستيلاء علي مركز مملكة البلغار طيرنووا ، ثم علي سلستره ونكبولي علي نهر طونه ، حيث أجبر ملك البلغار علي طلب الصلح مع العثمانيين ، ومن ثم خسـر الحلف البلقاني عنصراً هاماً من عناصره[٩٨] .

معركة قوصوه (١٣٨٩م/٧٩١هـ) : استعد مراد غازي لمواجهة أخيرة في البلقان ، فعبر إلي الروميلي مصطحباً معه أبنيه بايزيد ويعقوب وأورانوس غازي وباشا يكيت غازي ، علاوة علي عدد من فرق أمراء الأناضول . وهكذا صدر القرار بالتوجه إلي " برشتينه " مقر حاكم الصرب ، فأسرع الجيش العثماني باحتلال مواقعه في وادي قوصوه . أما جيش الحلفاء الذي كان يتشكل من قوات الصـرب والبوسـنة والمجـر والأفلاق والأرناؤوط والتشيك فقد كان تحت قيادة لازار حاكم الصرب وتوارتقو ملك البوسنة . وفي صباح يوم ٢٨ يونية ١٣٨٩م/ ٢٥ جمادي الآخرة ٧٩١هـ اصـطف الجيشان ؛ فقام يلدرم بايزيد بن مراد بشق صف جيش الحلفاء بفرقته ، حيث اشتعلت بين الفريقين معركة حامية الوطيس . وأخيراً ، تمخضت المواجهة عن هزيمة قاسية لجيش الحلفاء وقتل ملك الصرب لازار نفسه وابنه وعدد كبير من أتباعه وأمرائه . وإذا كـان العثمانيون قد حققوا انتصاراً حاسماً في هذه المعركة ، إلا أن مراد غازي قتل أيضـاً في أرض المعركة[٩٩] .

---

98 فيما يتعلق بالفعاليات الأوروبية التي سبقت معركة قوصوه ، أنظر : Stephan W.Reinert, "Niş'ten Kosova'ya I. Murad'ın Son Yıllarına ilişkin Düşünceler", Osmanlı Beyliği, s.183-230

99 تروي المصادر العثمانية أنه عقب انتهاء المعركة ، وبينما كان مراد غازي يتفقد ساحة القتال ، قام أحد جرحي جنود الصرب بضربه غيلة بخنجره ضربة قاتلة توفي علي أثره . فيما يتعلق بمعركة قوصوه

والحقيقة أن معركة قوصوه راحت تحدّد مستقبل ممالك البلقان ، حيث انساحت الجيوش العثمانية في مختلف انحاء البلقان فوطدوا أقدامهم فيها ، وفتح الباب على مذارعيه أمام حركة الهجرة التركمانية من الأناضول إلي الروميلي . فكانت هذه الموقعة نتائج بعيدة المدي سواء علي دول البلقان أو علي الفتوحات العثمانيه فيها ، كان أهمها :

١. يسّرت قوصوه للعثمانيين نجاحاً عسكرياً وسياسياً سريعاً في المنطقة ، حيث لم يعد أمامهم قوة يمكنها مواجهتهم في المناطق الباقية جنوبي نهر طونه سوى المجر فقط . ففتحت المناطق الشمالية من بلاد الصرب للعثمانيين ، ودخل أمراء الصرب تحت التبعية العثمانية ، وتقدم العثمانيون بجيوشهم صوب مقدونيا وبلاد الصرب والأرناؤوط والبوسنة .

٢. فتحت الطريق لتغييرات هامة في البناء الإثني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي في مختلف مناطق البلقان ، حيث انتشر علي أثر ذلك الدين الإسلامي بشكل تدريجي هناك .

٣. أصبحت المناطق المفتوحة من البلقان ميداناً لإسكان الجماعات التركمانية الأناضولية ، حيث اعتبرت هذه الجماعات الدعامة الأساسية لفتوح مقدونيا

أنظر : F.M. Emecen, " I. Kosova Savaşının Balkan Tarihi Bakımından Önemi ", Kosova Zaferinin 600 Yıldönümü Sempozyumu, Ankara 1989, s.35-44; S. Reinert, " A Byzatine Source On The Battles Of Bileca And Kosova Polje, Keydones Letter 396 and 398 Reconsidered Studies İn Ottoman History İn Honour Of Prof. V. İ. Menage, İstanbul 1994,249-272; T. Emmert, " The Battle Of Kosova Early Reports Of Victory And Defeat " , Kosova, Legacy Of Medieval Battle, ed. W. Vucinich – T. Emmert, Minneapolis 1991, s.19-40

وشمال شرق بلغاريا ، ثم للمحافظة علي الكيان العثماني خلال الأزمـــة الـــتي تعرضت لها الدولة العثمانية في مطلع القرن ١٥م/٩هـــ[١٠٠] .

[100] لقد خضع موضوع انتشار الإسلام في البلقان خلال هذه الفترة لمناقشات كثيرة بين الباحثين المعاصرين ، حيث أشاروا إلي أن أغلب الذين اعتنقوا الإسلام كانوا تحت الضغوط الكاثوليكية ، وأن هناك أسباباً اقتصادية واجتماعية لعبت دوراً هاماً في ذلك ، وأن رغبة العناصر المحلية في البلقان في الحصول علي النفوذ في الإدارة العثمانية في المنطقة كان علي رأس عوامل انتشار الإسلام هناك ، كما كان للجاليات التركية والعشائر التركمانية ولتكايا دراويش الطرق الصوفية دوراً هاماً في ذلك . وعلي الرغم من ذلك ، فقد حافظت أغلب الأجناس البلقانية علي سماتها الأساسية باعتناقها الإسلام ، ولم تتعرض لأي شكل من عمليات التتريك ، حيث كان للثقافة الإسلامية أثرها العميق في اندماج هذه الأجناس مع العناصر التركية . وذلك في الوقت الذي لم تتعرض فيه الكنائس المختلفة في المنطقة لأية تغييرات ، بل راحت تباشر فعالياتها بشكل طبيعي في الحياة الإجتماعية معترفة بالمرجعية للعثمانية والعهد بين الطرفين : H. Kaleşi, " Türklerin Balkanlara Girişi ve İslamlaştırılma ", terc. Kemal Beydilli, Tarih Enstitüsü Dergisi, sy.10-11 (1981), 177-194; Werner, Büyük Bir Devlet'in Doğuşu Osmanlılar (1300-1481), trc. O. Esen-Y. Önen, İstanbul 1986, I/190

مولد فكرة الدولة المركزية

في عهد ييلدرم بايزيد

(١٣٨٩-١٤٠٢م /٧٩١-٨٠٥هـ)

لقد خلّف مراد الأول ورائه تشكيل سياسي خطى بخطاً ثابتة نحو الانتقال من كيان الإمارة إلي كيان الدولة متكاملة الأركان ، وذلك بعد أن وطّد مقامه في البلقان واستوعب منافسيه في الأناضول فاخضعهم جميعاً لسلطته العليا . إلاّ أن خروج الأمراء التابعين سواء في الأناضول أو الروميلي عن سلطة الدولة العليا كلمّا سنحت لهم الفرصة متجاوزين رباط التبعية ، دفع ييلدرم بايزيد للتفكير في تطبيق نظام مركزي قوي للدولة في عهده .

وهكذا ، كانت محاولات بيزنطة وممالك البلقان وإمارات الأناضول التابعة للعثمانيين الإستفادة من حالة الاضطراب في الدولة إثر وفاة مراد المفاجئة والخروج علي سلطتها ، دافعاً لبايزيد لبدء تطبيق سياسته المركزية هذه . فلم يكد يتولي بايزيد مقاليد الحكم في ميدان قوصوه حتي وردت الأنباء من الأناضول بخروج بعض أمرائها علي القيادة العثمانية الجديدة ، وذلك في الوقت الذي راحت فيه بيزنطة تنتهز الفرصة وتستعيد سلانيك وبعض المناطق الأخري التي كان العثمانيون قد فتحوها من قبل . ولما كان الوضع في الأناضول أكثر حساسية ، اضطر ييلدرم بايزيد لإعداد العدة للعودة للأناضول في أسرع وقت ممكن ، فقام باتخاذ عدد من التدابير من شأنها تأمين الحكم العثماني في البلقان قبل مغادرتها إلي الأناضول كان أهمها :

١. عقد اتفاق سلام مع والدة استيفن لازاروفيتش الوصية علي ابنها وريث عرش الصرب صغير السن ، حيث قضي هذا الإتفاق بدفع حاكم الصرب للخراج عن بلاده ، وبالتعهد بتقديم فرقة عسكرية قوامها عشرين ألف فرد للمشاركة في معارك الدولة العثمانية عند الحاجة ، والسماح للسلطان العثماني بزيارة صربيا مرة كل عام .

٢. تزوج يبلدرم بايزيد من ابنة لازار حاكم الصرب المقتول وتدعي "اوليفـــرا" . وكان هذا الزواج بمثابة الضمان لبنود المعاهدة المعقودة مع حـــاكم الصـــرب الصغير . والحقيقة أن اوليفرا ابنة لازار قامت بدور مؤثر في وضع نواة بعـــض العادات السيئة في السراي العثماني منذ ذلك الحين .

٣. تكليف باشا يكيت بتأمين مدينة " اسكوب " علي الحدود الصربية ، وفيروز بك بتأمين مدينة " نكبولي" ، واورانوس بك بالإقامة في " سرز " ، والإنطلاق منها لفتح " ويدين " و" چيتروز " . وتوطيد مقام العشـــائر التركمانيـــة في المناطق الواقعة بين "اسكوب" و"نيش"[١٠١] .

ضم العثمانيين لإمارات بحر ايجه (آيدين ، منتشه ، صاروخان) :

لقد أحيت وفاة مراد غازي وانشغال بايزيد في بسط سيطرته علي البلقان الأمل لـــدي علاء الدين ابن قرمان لبسط نفوذه علي الولايات غربي الأناضول ، فشرع في احـــتلال الأراضي التي ابتاعها العثمانيون من أبناء حميد ، وبدأ بــ " بكشهر " مستفيداً من مقتل أميرها يعقوب بن مراد ، وراح يمدّ نفوذه حتي أسكيشهر ، ثم قـــام بتحـــريض أمـــراء صاروخان وآيدين ومنتشه وگيرميان للخروج على العثمانيين . ومن ناحية أخري ، قام يعقوب الثاني حاكم إمارة گيرميان باستعادة مدينة كوتاهية وغيرها من المدن التي كانت قد تركت للعثمانيين ، واستعاد حاكم سيواس أحمد بن القاضي برهان الدين قيرشهر . وهكذا ، اضطر يبلدرم بايزيد لتأمين أوضاعه في الروميلـــي والإنتقـــال كـــالبرق إلي الأناضول .

بدأ بايزيد حملته الأناضولية بالتوجه إلي ابن گيرميان يعقوب بك ، حيث قبض عليه وحبسه مع وزيره في قلعة " يبصاله " بالروميلي (١٣٩٠م/ ٧٩٢هـــ) . وبعد أن استولي بايزيد علي دكزلي التابعة للگيرميانيين ، ولي وجهه صوب إمارة آيدين . ولمـــا كانت إمارات آيدين ومنتشه وصاروخان التي تقع علي سواحل بحر ايجه إمارات بحرية ،

---

[101] D. Nicol, Bizans'ın Son Yüzyılları (1291-1453), s.313-314

وليس لديها جيوش برية قوية يمكن بها مواجهة الجيوش العثمانية ، لم يفكر عيسي بك ابن آيدين في المقاومة ، حيث تم الإستيلاء علي مركز إمارته في آياصولوغ ، وتعيينه علي إدارة أوقاف اسرته في مركز " تيره " . وعلي نفس النحو ضم مركز إمارة منتشه في " بلاط " ، حيث منح أميرها محمود بك مقاطعة " براما " ليقضي بها بقية حياته . أما إمارة صاروخان فقد فر صاحبها تاركاً اياها للقوات العثمانية (١٣٨٩-١٣٩٠م/ ٧٩١-٧٩٢هـ) . وبذلك تمكن يبلدرم بايزيد من الحاق أملاك إمارات آيدين ومنتشه وصاروخان بالأراضي العثمانية ، وتجديد الإمتيازات التي كانت تمنحها هذه الإمارات للبنادقة ، والإستيلاء علي سفن ومراكب هذه الإمارات، حيث اعتبرت النواة الأولي للأسطول العثماني في بحر ايجه. وهكذا ، انتهت المرحلة الأولي من حملة بايزيد الأناضولية. وكانت وجهة حملته في العام التالي إمارة أبناء قرمان المحرض الأصلي للإمارات التركمانية[١٠٢] .

وخلال خريف عام ١٣٩٠م/ ٧٩٢هـ ، اصطحب بايزيد مانويل ابن إمبراطور بيزنطة[١٠٣] وجاندارلي سليمان بك وتوجه لفتح مدينة آلاشهر آخر معاقل بيزنطة في غربي الأناضول . وبعد أن تيسرت لبايزيد هذه المهمة ، ولّي وجهه صوب المناطق التابعة لأبناء حميد ، فاستعاد بكشهر وما حولها وعين عليها ابنه عيسي بك ، ثم بسط نفوذه علي تكه (انطاليا) وعين عليها فيروز بك (١٣٩٠م/ ٧٩٢هـ) .

ولما توجه يبلدرم صوب الحدود القره مانية ، انسحب علاء الدين بك إلي "طاش ايلي" ، الأمر الذي مكن القوات العثمانية من محاصرة عاصمة إمارته في "قونية" .

---

[102] فيما يتعلق بسيطرة بايزيد علي إمارات بحر ايجه انظر : Göknur Göyebakan, "Doğu Anadolu'nun Osmanlı Hakimiyetine Girişi", Türkler, IX/459-569

[103] بخصوص علاقة يبلدرم بايزيد باسرة باليولوج البيزنطية انظر : S. Reinert, "The Palaıologoi, Yıldırım Bayezid and Constantınople, June 1389-March 1391", Studies in Honor of Speros Vryonis, Jr., vol. I. Hellenic Antiquity and Byzantium, New York

لم يستطع علاء الدين ابن قرمان الحصول علي مساعدة القاضي برهان الـــدين حـــاكم سيواس[١٠٤] وسليمان بك حاكم إمارة جاندار ، ومن ثم اضطر لطلـــب الصــلح مـــن السلطان العثماني (١٣٩١م / ٧٩٣هـــ) . والحقيقة أن الوضع الحساس للقوات العثمانية في الروميلي وعلي الحدود الغربية كان يحتم علي ييلدرم بايزيد العودة للجبهة الأوروبية في أسرع وقت ممكن ، وبالخاصة أنه وفق في استعادة بكشهر وآقشهر وغيرهـــا مـــن القرمانيين . وبذلك ، انتهت الحلقة الثانية من حملة بايزيد الأناضولية بعقد معاهدة صلح مع علاء الدين قضت بأن يصبح نهر جارشنبه حدوداً مشتركة بين الطرفين[١٠٥] .

خروج بايزيد إلي الأفـــلاق : لم ترع الممالك الأوروبية العهود التي قطعتها علي نفسها ، وانتهزت فرصة انشغال بايزيد في القضاء علي فتنة القرمانيين في الأناضول، فقام امبراطور بيزنطه بانشاء تحصينات محكمة علي طول السواحل الجنوبية لإستانبول ، كما أقدم أمير الأفلاق علي الهجوم علي بعض المناطق التابعة للعثمانيين، حيث استولي علي سلستره ، وراح البنادقة يحشدون أساطيلهم في المورة، وزادت فعاليات المجـــر في الأفلاق والبلغار . وبذلك ، اضطر بايزيد للعبور إلي الروميلي ، حيث جمـــع قواتـــه في أدرنه وعبر بهم نهر طونه متوجهاً إلي بلاد الأفلاق . وإذا كان ميرچه حاكم الأفلاق قد خف للقاء الجيوش العثمانية ، إلا أنه هزم في وادي " أرقوش " ، ووقع أســـيراً في يـــد القوات العثمانية ، وارسل إلي بورصه ، حيث أجبر علي اطلاق سراح الأسري المسلمين لديه، وتوقيع معاهدة تبعية مع الدولة تقضي بدفع جزية سنوية قدرها ثلاثة ألاف ذهبية ،

---

104 بخصوص القاضي برهان الدين ودولته في وسط الأناضول ، أنظر : Y. Yücel, Kadı Burhaneddin Ahmed ve Devleti 1344-1398, Ankara 1970

105 Tekindağ, " Son Osmanlı Karaman Münasebetleri Hakkında Araştırmalar " Tarih Dergisi, İstanbul 1963, XIII/17-22.

وتقديم فرق عسكرية لمساعدة العثمانيين في حملاتهم عند الضرورة (١٣٩١م/ ٧٩٣هـ)[106] .

ضم بلاد البلغار : كانت المجر هي الدولة البلقانية الوحيدة التي يمكنها مواجهة العثمانيين في ذلك الوقت . إلاّ أن تعصب ملوكها المذهبي ، جعل شعوب البلقان ترتمي في احضان الإدارة العثمانية التي لم تكن تتدخل في عقائد أهالي المناطق المفتوحة . وعلى الرغم من ذلك ، راح سيجسموند يرفع دعوي حمايته للممالك البلقانية ، فادعي بحقه في حماية بلاد البلغار التي كانت تحت الحماية العثمانية بالفعل، وراح يحرض ملك البلغار شيشمان علي عصيان الدولة . وبينما كان ملك المجر يستميل أمير الأفلاق إلي جانبه ويزحف علي بلاد البلغار ، كان بايزيد قد أصدر أوامره بالهجوم علي ترانسلفانيا (١٣٩٢م/ ٧٩٤هـ) . وبذلك ، تمكن سليمان جلبي ابن بايزيد في العام التالي من التصدي للهجوم المجري واعادة فتح عاصمة بلاد البلغار في طيرن أووا بعد حصار لها دام ثلاثة أشهر ، حيث ضُم القسم الشرقي من بلاد البلغار للإدارة العثمانية ضماً مباشراً ، وتركت ويدين الموجودة بالقرب من الحدود المجرية في يد ستراسيمير شقيق شيشمان (١٧ يولية ١٣٩٣م / أواخر شعبان ٧٩٥)[107] .

حصار العثمانيين للقسطنطينية (١٣٩٤م/ ٧٩٦هـ) : لما علم مانويل الثاني الذي شارك في حملة أبناء قرمان بوفاة أبيه امبراطور بيزنطة ، توجه إلي استانبول بدون إذن من بايزيد . فأراد بايزيد اختبار ولائه له فأرسل إليه يدعوه للمشاركة في حملة يعد لها صوب المجر ، غير أن الامبراطور الجديد لم يستجب . وفي هذه الأثناء ، قُبض علي شخص يحمل رسالة من امبراطور بيزنطه إلي سيجسموند ملك المجر يحذره فيها من

---

[106] لتفصيلات أكثر حول الفتوحات العثمانية في الأفلاق ، أنظر : Viorel Ponaite, "Osmanlı Hakimiyetinin Tna Nehrinin Küzeyinde Yayılışı : XIV ve XVI Yüzyıllarda Eflak ve Boğdan", Türkler, IX/206 vdç

[107] İ. Demirkent, "14 Yzyıla Kardar Balkan Yarımadasında Bizans Hakimiyeti", İ. Kosova Zaferinin 600 Yıldönümü Sempozyumu, Ankara 1989, s.21-25

هجوم عثماني مرتقب علي بلاده . وهكذا ، أحدث يلدرم تعديلاً في خطته ، فقـــرر محاصرة استانبول بدلاً من التوجه في حملة صوب المجر . ومن ثم أصدر السلطان أوامـــره للأسطول العثماني الموجود في غاليبولي بالتوجه لحصار استانبول بحراً ، بينما أمر الوزير الأعظم بمحاصرة المدينة من ناحية البر ، وأرسل طوران بك لغزو المدن البيزنطية المطلـــة علي البحر الأسود . وعلي أثر قطع المواصلات والمؤن عن المدينة ونقل العديـــد مـــن العشائر التركية للإستقرار حولها ، طلب الامبراطور النجدة من بابا روما وملك فرنسا وملك المجر[١٠٨].

فتح سلانيك : وبينما كانت القوات العثمانيـــة تقـــوم بمحاصـــرة مدينـــة القسطنطينية لأول مرة ، وصلت الأخبار بأن السفن الفرنسية رست في ميناء سلانيك ، وراحت تضرب سواحل الروميلي سعياً منها لتخفيف وطأة الحصار عن بيزنطة ، فأسرع يلدرم بالتوجه صوب سلانيك وقام بحصارها من البر . وعلي الرغم من المســـاعدات الفرنسية للمدينة عن طريق البحر ، استطاع بايزيد أخيراً فتحها عام ١٣٩٤م/٧٩٦هـــ، حيث انطلقت القوات العثمانية منها تغزو شمالي اليونان وتفتح لاريسا (يكيشهر) حتي وصلت بفتوحاتها حتي تساليا وبتراس ووسط اليونان. أما أرجوس فقد تنـــازل عنـــها تيودوروس شقيق امبراطور بيزنطه للبنادقة في ٢٧مايو ١٣٩٤/١٨رجب ٧٩٦ بغرض حمايتها من السقوط في يد العثمانيين . وفي العام التالي تمكنت القوات العثمانية من فتح ترحالة التي كانت مركزاً هاماً في تلك المنطقة[١٠٩] .

---

[108] لتفصيلات أكثر حول حصار بايزيد الأول للقسطنطينية ، أنظر : Serif Bastav, " Bizans Imparatorlugu Tarihi Son Devir (1261-1461), Osmanli Turk-Bizans Munasebetleri, Ankara1989, s. 221vd.

[109] فيما يتعلق بفتح سلانيك ، أنظر : M. Delibaşı, "Selanik ve Yanya'da Osmanlı Egemenliğinin Kurulması", Belleten, LI./199, (1987),s. 75-89; Melek Delilbaşı, "Osmanlı-Bizans Ilişkileri", Türkler, IX/136-140; D. Nicol, Bizans'ın Son Yüzyılları (1291-1453), s. 213-220

ضم إمارة جندار وتشتيت الحلف الأناضولي : كانت الاضطرابات علي الجبهة الأوروبية قد جعلت بايزيد يتردد في القيام باجراء حاسم ضد أمير قسطموني سليمان بك الذي راح يحرض أمراء غربي الأناضول ضد العثمانيين . ولما حسم سليمان جلبي الموقف في بلاد البلغار ، رأي بايزيد ضرورة تأمين ظهره علي جبهة الأناضول . فلمّا علم سليمان بك ابن جندار بتوجه يبلدرم بايزيد صوب قسطموني ، طلب المساعدة من علاء الدين ابن قره مان والقاضي برهان الدين سلطان سيواس . وفي الوقت الذي كانت فيه القوات المساعدة تهم بالتوجه صوب قسطموني ، كان بايزيد يدخل المدينة ، حيث قتل سليمان باشا في المعركة التي دارت علي أبوابها . وبذلك دخلت إمارة جاندار أيضاً تحت الحكم العثماني (١٣٩٣م/ ٧٩٥هـ)[١١٠] .

وعلي أثر ضم قسطموني اعترف أمراء أماسيا وعثمانجق ومادن الذين كانوا تحت نفوذ القاضي برهان الدين في نواحي يشيل ايرماق بالسلطة العثمانية علي بلادهم ، الأمر الذي اشعل الخلاف بين الدولة العثمانية التي سيطرت بذلك علي وسط الأناضول وبين القاضي برهان الدين . وإذا كان القاضي برهان الدين قد ألحق الهزيمة بالقوة العثمانية التي قادها أرطغرل بك بن بايزيد أمام قلعة " قرق ديليم " في صحراء چورورم، إلا أنه تراجع إلي سيواس عندما سمع بتوجه الجيش العثماني نحوه . وهكذا ، أرسل بايزيد ابنه محمد چلبي علي رأس قوة قوامها ثلاثين ألف فرد إلي أماسيا ، حيث بسط نفوذه عليها وعلي عثمانجق ومرزيفون بعد عدة مصادمات مع قوات برهان الدين ، الأمر الذي أقر الهدؤ في وسط الأناضول لفترة طويلة . ومهما يكن من أمر ، فقد وقف أمام بسط العثمانيين لنفوذهم المطلق علي الأناضول قوتين أساسيتين : الأولي قوة القرمانيين ، والثانية قوة القاضي برهان الدين . والحقيقة أن العثمانيين لم يتمكنوا من تصفية هاتين

[110] بخصوص امارة جندار انظر : Y. Yücel, XIII-XIV. Yüzyıllar Kuzeybatı Anadolu Tarihi, Çobanoğulları-Candaroğulları Beylikleri, Ankara 1980, s. 32 vd.

القوتين في اطار سياستهم المركزية إلا بعد أن تيسّر لهم حل مشكلاتهم في أوروبا في الفترة ما بين ١٣٩٧-١٣٩٨م/ ٧٩٩-٨٠٠هـ[111] .

التحالف الصليبي ومعركة نكبولي (١٣٩٦م/ ٧٩٨هـ) :

لم تتوقف حملات الغزو والجهاد في البلقان منذ أن وضع العثمانيون أقدامهم علي الطرف الأوروبي . وكان غزو فرق المهاجمين (آقينجيلر) العثمانية لمناطق البوسنة والأرناوؤط قد جعل اللاتين والبنادقة الذين كان لهم نفوذ في تلك النواحي ، يفكرون في الزحف صوب ميناء "دراج" . وكان النشاط المستمر لسفن البحارة المنتسبين لإ ارات سواحل أيجه (صاروخان ، آيدين ، منتشه) التي انتقلت للعثمانيين وضربهم لجزر " أكري بوز " و" ساقيز " ومناطق شرقي اليونان قد هزّ سكان جنوة والبندقية . والحقيقة أن العثمانيين لم يكن لديهم خلال هذه الفترة اسطولا بحرياً قوياً أو بحارة مهرة يمكنهم منافسة البنادقة . وعلي الرغم من ذلك ، حرص البنادقة علي التودد للعثمانيين الذين ملكوا سواحل بحر ايجه حماية لحركة تجارتهم في المنطقة . اما جنوه فقد كانت أكثر حرصاً من منافسيهم البنادقة علي التقرب للعثمانيين ، ولذلك عملوا علي ارضاء الحكام العثمانيين بكل وسيلة . وهكذا ، لم تلق الدعوة لحملة صليبية ضد العثمانيين رد فعل علني لدي هاتين الجمهوريتين البحريتين .

وكان استمرار الحصار العثماني للقسطنطينية ، والقضاء على مقاومة ملك البلغار شيشمان في نكبولي ، والهجوم الكبير الذي قامت به القوات العثمانية علي طول الحدود مع المجر في أواسط عام ١٣٩٥/٧٩٧هـ ، وفشل أمير الأفلاق ميرجه في التصدي لهذا الهجوم ، قد أشعر ملك المجر سيجسموند بالخطر العثماني الذي يزحف ناحية الغرب ، وبضرورة الاستعانة ببعض الدول الأوروبية لمواجهته . فقام ملك المجر بتشكيل حلف تحت قيادته وبتأييد بابا روما يضم قوات من المجر وفرنسا والمانيا وبلجيكا والفلمنك وسويسرا وانجلترا والأفلاق ورودس ، حيث قدر تعداده بنحو مائة ألف

---

[111] Y. Yücel, Kadı Burhaneddin Ahmed ve Devleti 1344-1398, Ankara 1970, s. 132-136

فرد[112] . وبالفعل ، خرجت الحملة الصليبية تحت قيادة سيجسموند في مايو ١٣٩٦م/ ٧٩٨هـ ، حيث كان هدفها الأعلي لا يتوقف عند رفع الحصار عن بيزنطة ، إنما يتطلع لطرد العثمانيين من منطقة البلقان تماماً بل والتقدم حتي الوصول لبيت المقدس . وهكذا ، أطلقت أيدي الجنود في سلب ونهب المناطق التي مروا بها حتي وصلوا إلي بودين التي أسرعت بفتح أبواب المدينة لهم . وهكذا ، التقت قوات سيجسموند مع القوات الصليبيه التي سلكت طريق الأفلاق عند "نكبولي" ، حيث شرعوا في محاصرة المدينة من البر ومن البحر .

ولما علم يبلدرم بايزيد بخبر الحملة الصليبية ، رفع الحصار عن القسطنطينية وجمع قواته التي قدرت بنحو ٧٠-٨٠ ألف فرد في أدرنه ، ثم أمر قائد المهاجمين اورانوس بك بالتقدم لمناوشة قوات الحلفاء . وإذا كان قواد الحلف الصليبي قد اختلفوا في طريقة مواجهة الجيوش العثمانية ، فقد نظم العثمانيون قواهم بحسب عادتهم ، حيث احتلت قوات اليكيچري (الإنكشارية) مكان القلب من الجيش وأمامهم قوات العزب ، وأخذ جند السواري (الفرسان) مواقعهم في أطراف الجيش ، أما جنود سپاهية التيمار فقد وضعوا في اجنحة الجيش يميناً ويساراً ، وبقيت القوات الإحتياطية في الخلف .

التقي الجيشان بالقرب من قلعة " نكبولي " في ٢٥ سبتمبر ١٣٩٦م/ ١٤ ذي الحجة ٧٩٨هـ، فاستطاعت قوات العزب القضاء علي الهجوم الأول الذي قاده الأمراء الفرنسيين علي قلب الجيش العثماني . ولما أدرك أمير الأفلاق أن الهزيمة واقعة بالحلف الصليبي لا محالة ، انسحب بقواته وعاد إلي بلاده . وهكذا ، حمل الجيش العثماني علي

112 استجاب لهذه الحملة الصليبية أمراء فرنسا وتحمسوا لها ، حيث شارك جون دي نورس ابن دوق دورقونيا بنحو عشرة آلاف فرد ، وشاركت الألمان بستة آلاف ، وتعهد البنادقة بتوفير عدد من السفن نظراً لمصالحها مع الدولة العثمانية ، وتولت جنوة ورودس حراسة الطرق البحرية في ميديلي وساقيز ، وجاء أمير الأفلاق بنحو عشرة آلاف ، أما سيجسموند فقد جمع قوة قوامها ستين ألف فرد ، وذلك علاوة علي الفرق الصغيرة التي جاءت من لهستان وبوهيميا وانجلترا واسبانيا وايطاليا : A. Atiya, The Crusade of Nicopolis, Londra 1934 (türkçe trc. Esat Uras, Niğbolu Haçlılar Seferi, Ankara 1956).

القوات الصليبية حملة واحدة ، وألحقوا بها هزيمة قاسية ، حيث تمكن سيجسموند علي أثرها من النجاة بنفسه بصعوبة . وبهذا الانتصار استرد العثمانيون القلاع التي كان قد استولي عليها الحلفاء من قبل ، كما ضُمّت هذه المرة جميع بلاد البلغار ضماً مباشراً للإدارة العثمانية[113] .

ومهما يكن من أمر ، فقد وطّد انتصار نكبولي أقدام العثمانيين في البلقان بشكل قطعي ، حيث فتح الطريق أمامهم للإنطلاق صوب بلاد اليونان والمورة ، وكشف عن عجز أوروبا في ذلك الوقت عن مواجهتهم فضلاً عن طردهم من البلقان ، وتراجع مكانة بيزنطة في الخطوط الدفاعية الأولي عن أوروبا ، وزيادة اهتمام أوروبا بالمجر باعتبارها حصن الأمان وحائط الصّد المنيع لكل أوروبا ، ومن ثم انفراد العثمانيين ببيزنطة بعد إبعاد البلغار والصرب والأفلاق والإحاطة بها من كل جانب . وقد جاء التوسع العثماني في بلاد اليونان والمورة وإحكام الحصار علي القسطنطينية ليكسب فكرة التصدي للزحف العثماني علي أوروبا أهمية استراتيجية في ميادين السياسة الأوروبية خلال هذه الفترة .

التوسع العثماني في بلاد اليونان والمورة : كانت القوات العثمانية قد تمكنت من فتح سلانيك عام ١٣٩٤/٧٩٦هـ ، حيث نجح أورانوس بك في الإلتفاف حول المورة وقيادة هجوم ناجح شمالي بلاد اليونان . وعقب انتصار نكبولي ، قام بايزيد بحملة علي بلاد اليونان ، حيث أجبر حاكمها تيودوروس علي الإعتراف بالنفوذ العثماني في المنطقة متنازلاً عن بعض المدن للعثمانيين (١٣٩٧م/٧٩٩هـ) . وإذا كان ييلدرم بايزيد قد تمكن من غزو تساليا وفارصاليا وصالونا وأثينا ، إلا أنه انسحب منها بعد ذلك، وأمر طوراخان بك ابن يكيت باشا بالهجوم علي شبه جزيرة المورة . وقد أدي

[113] Esat Uras, Niğbolu Haçlılar Seferi, Ankara 1956, s. 35 vd.; Halil İnalcik, "Osmanlı Döneminde Balkanlar Tarihi Üzerine Yeni Araştırmalar, Tarihte Güney-doğu Avrupa : Balkanolojinin Dünü, Bugünü ve Sorunları, Ankara 1999, s. 47-54

سقوط مدينة " أرجوس " شرقي المورة في يد العثمانيين خلال هذا العام لقبول تيودوروس الأول دفع الخراج للعثمانيين[114].

إحكام الحصار علي القسطنطينية : لمّا كان الهدف الأساسي لتشكيل الحلف الصليبي ضد العثمانيين هو رفع الحصار عن بيزنطة ، فقد أسرع ييلدرم بايزيد عقب هزيمة الحلفاء في نكبولي بمطالبة الامبراطور بتسليم المدينة . إلا أن الامبراطور البيزنطي لم يصدر أي تعليق ، الأمر الذي جعل بايزيد يأمر القوات العثمانية في صيف ١٣٩٩م/ ٨٠٢هـ باقتحام القسطنطينية . ونظراً لعدم توفر المدافع القوية لدي العثمانيين لضرب أسوار المدينة ، فشلت هذه المحاولة ، حيث حاول السلطان العثماني اخضاع المدينة باحكام الحصار عليها وتجويع أهلها . فأمر ببناء قلعة "اناضولي حصار" (گوزل حصار) عند مصب نهر " گوك صو " . ولكن نجاح الجنوبيين والفرنسيين في ايصال بعض المساعدات لأهالي بيزنطة عام ١٤٠١م/٨٠٤هـ ، وظهور الخطر التيموري في الأناضول ، أجبر ييلدرم بايزيد علي رفع الحصار عن المدينة بعد قبول الأمبراطور لزيادة الخراج السنوي ، واقامة حي عثماني في القسطنطينية ، وبناء جامع للمسلمين الموجودين بها ، وتعيين قاض مسلم للفصل في القضايا التي تنشب بين المسلمين والروم ، والتنازل عن المناطق المحيطة بالقسطنطينية حتي سيليوري[115] .

---

114 فيما يتعلق بالفتوحات العثمانية في بلاد اليونان أنظر : Event Kayabinar, "Yunanistan'da Osmanlı Hakımiyetinin Kurulması (1361-1461), Türkler, IX/137-145

115 لما طلب امبراطور بيزنطة مانويل الثاني المساعدة من أوروبا ، استجاب ملك فرنسا تشارلز الرابع لها ، حيث كلف أحد الأمراء الفرنسيين الذين شاركوا من قبل في معركة نكبولي بتقديم المساعدة لاستانبول . وفي أوائل عام ١٣٩٩م تمكن المارشال بوسيكو Boucicout من اختراق الحصار والوصول لاستانبول بقوة صغيرة . وإذا كان مانويل الثاني توجه لأوروبا في ١٠ ديسمبر ١٣٩٩ للبحث عن توفير مساعدات لاستانبول ، وراح يجول في ايطاليا وانجلترا وفرنسا لهذا الغرض ، إلا أن جولته هذه لم تأتي بالنتائج المرجوة منها . وبينما كان العثمانيون يشددون الحصار علي المدينة ، راح الزحف التيموري علي شرق الأناضول يقلب موازين بايزيد رأساً علي عقب ، ويجبره على الحصار

إنفراد العثمانيين بالنفوذ المطلق في الأناضول : كان علاء الدين ابن قرمان قد استغل حركة الحلف الصليبي ضد العثمانيين وشن هجوماً علي أنقره ، حيث قام بأسر أمير أمراء الأناضول صاري تيمورتاش باشا . وهكذا ، لم يكد بايزيد ينفض يده من حملة المورة حتي سار إلي إبن قره مان (١٣٩٧م/ ٧٩٩هـ) . وإذا كانت المواجهة التي وقعت بين الطرفين في " آق جاي " قد انتهت بهزيمة ابن قرمان، إلا أنه استطاع الفرار إلي قلعة قونية ، فقام بايزيد بحصارها أحدي عشر يوماً حتي استسلم أهالي المدينة بشرط عدم الحاق الضرر بأموالهم وأرواحهم ، وأُسر علاء الدين ، ولم تُقبل فيه الشفاعة هذه المرة ، حيث أمر بقتله . توجه بايزيد بعد ذلك إلي قرمان (لارنده) ، وتمكن من الإستيلاء عليها قهراً في نفس العام .

وهكذا ، انتقلت ولايات قونية ولارنده ونكيده وقره حصار التي كانت تابعة لإبن قره مان للعثمانيين ، ولم يبق في يد أمراء عائلة أبناء قره مان سوي موط ، أرمناق ، طاش إيلي وأيج إيل . وإذا كان العثمانيون قد استطاعوا تصفية القوة المنافسة الأولي لهم علي هذا النحو ، إلا أنه بقي على إنفرادهم بالنفوذ المطلق في مختلف أنحاء الأناضول واطلاق أيديهم لتنفيذ سياستهم لتوحيد الأناضول تحت قيادتهم خطوة أخيرة تتمثل في جبهة القاضي برهان الدين في سيواس .

ضم سمسون وسيواس وملاطية : وعقب القضاء على علاء الدين القرماني واضعاف نفوذ القرمانيين في الأناضول ، وفي ربيع عام ١٣٩٨م/ ٨٠٠هـ خرج ييلدرم بايزيد في حملة استولي بها علي سمسون ، حيث اعترف محمود وألب أرسلان ابن تاج الدين بنفوذ العثمانيين في چارشمبه وترمه ونيكصار ، واعترف حاجي أمير زاده سليمان بك بنفوذهم في اردو وگيره سون ، واعترف أبناء طاشان بنفوذهم في بافره ، وذلك حتي جاورت الحدود العثمانية حدود إمبراطورية الروم في طرابزون .

تماماً عن القسطنطينية : D. Nicol, Bizans ve Venedik, trc. G. Ç. Gven, İstanbul 2000, s. 324 vd.

وفي العام التالي (١٣٩٩م/ ٨٠١هـ) أمر بايزيد ابنه سليمان چلبي بالتوجه إلي سيواس بقوة تقدر بعشرين ألف فارس وأربعة آلاف من المشاة استجابة لأهاليها الذين استنجدوا بالعثمانيين عقب قيام رئيس عشيرة آق قويونلي قره يولوك عثمان بمحاصرتهم . وهكذا ، تم انقاذ المدينة وضمها للأملاك العثمانية ، حيث توجه بايزيد بجيش جرار إلي الأناضول تمكن به من اخضاع كافة أملاك القاضي برهان الدين الأخري في توقات وقيصرية .

ومن ناحية أخري ، وبينما كان بايزيد يضم أملاك القاضي برهان الدين في الأناضول، كان قد تولي عرش سلطنة المماليك بمصر والشام بعد وفاة السلطان برقوق ابنه الصغير السلطان ناصر الدين فرج . فلما علم بايزيد أن خلافاً وقع بين الأمراء المماليك حول مقام السلطنة ، طلب من الإدارة المملوكية التنازل عن ملاطية نظراً لأنها كانت ضمن أملاك القاضي برهان الدين . وعلي أثر رفض طلبه ، توجه بايزيد علي رأس جيشه إلي ملاطية وحاصرها حتي أعلن أهلها التسليم ، فدخلها بايزيد في أيلوك ١٣٩٩/محرم ٨٠٢هـ . وهكذا ، إذا كان العثمانيون قد تمكنوا من السيطرة علي ملاطية ثم علي ألبستان أيضاً وتأمين الحدود الشرقية لدولتهم التي امتدت حتي ضفاف نهر الفرات ، إلا أنهم قضوا بذلك علي احتمال تقارب عثماني-مملوكي لمواجهة تهديدات تيمورلنك الذي كان قد وصل إلي مشارف الأناضول .

ملامح مشروع الدولة المركزية :

لقد استطاع ييلدرم بايزيد خلال فترة حكمه (١٣٨٩-١٤٠٢م/٧٩١-٨٠٥هـ) وضع النواة الأولي لتأسيس امبراطورية مركزية في الأناضول والروميلي وسعي سعياً حثيثاً لأن تكون القسطنطينية عاصمة لها ، وأمكن له تحقيق نجاحات ملموسة في أوروبا دفعت الخلافة العباسية في مصر للاعتراف به كسلطان للروم (١٣٩٢م/٧٩٤هـ) . وهكذا راحت الدولة العثمانية في عهده تلعب دوراً هاماً كقوة فاعلة في السياسة الدولية لأول مرة في منطقة امتدت من غربي أوروبا وحتي وسط آسيا ومن مصر حتي مملكة القسلة الذهبية (آلتون أوردا) شمالي البحر الأسود .

وكانت سياسة بايزيد المركزية تقوم علي ركنين أساسيين : الأول - تصفية الأسر الحاكمة في الأناضول والبلقان ، وتحويلها بالتدريج إلي إمارات تابعة له ، ثم إلي ولايات عثمانية . أما الركن الثاني ، فكان يتمثل في تأسيس دولة مركزية في تلك المناطق متخذاً النظام المركزي للدولة الإسلامية في الشرق وتشكيلات مؤسساتها نموذجاً يحتذي. ومن ثم سعي بايزيد لوضع البنية التحتية لإدارته المركزية ، فوجه الأراضي المفتوحة لأفراد الأسرة الحاكمة ، وأمر بتحرير تلك الأراضي ، ووضع نظاماً لتحصيل الضرائب مطبقاً النظم المالية الإلخانية في أنحاء البلاد . وفي الوقت الذي راح فيه بايزيد يحكم السيطرة علي أمراء التركمان وأمراء الحدود والأسرات المحلية ، حرص علي وضع نظام جديد لخدم الباب (قابو قولي) والغلمان المرتبطين بشخص السلطان ، حيث اقتصر توجيه وظائف الدولة الهامة لهذه الفئة فقط . وهكذا ، بينما كانت المفاهيم العرفية والتشكيلات المرتبطة بها تتراجع بالتدريج ، راحت مفاهيم الشريعة والحضارة الإسلامية والتشكيلات المرتبطة بها تحتل موقعها المميز في إدارة بايزيد المركزية .

ومهما يكن من أمر، لم يحل انتقال بايزيد الأول المعروف بالصاعقة (يلدرم) من نجاح إلي نجاح وتحقيقه الأهداف الاستراتيجية لدولته المركزية إلى حدّ ما، لم يحل دون تعرض هذه الدولة الوليدة لكبوة أرجأت إعلان مشروع الإمبراطورية العثمانية لأكثر من نصف قرن من الزمان .

الزحف التيموري علي شرق الأناضول :

كان تيمورلنك قد تمكن من السيطرة علي إمارة بلخ عام ١٣٦٨م/ ٧٦٩هـ ، حيث راح يستفيد من حالة التناحر بين أسرة جانگيزخان والأسرات المغولية الأخري ، فاستطاع أولاً بسط نفوذه علي دولة ألتون اوردو (١٣٧٦م/ ٧٧٨هـ) ، ثم علي إيران والعراق (١٣٩٣م/ ٧٩٥هـ) وشرقي الأناضول (١٣٩٤م/٧٩٦هـ) . وعند عودته من حملته علي بلاد الهند (١٣٩٩م/ ٨٠١هـ) أعاد احتلال بغداد ، حيث فر سلطانها أحمد جلاير مع أمير عشائر القره قويونلي قره يوسف إلي الأراضي العثمانية مستنجدين بيبلدرم بايزيد . فقام السلطان العثماني بتعيين أحمد الجلايري علي كوتاهية

وتعيين قره يوسف علي قيصري وآقسراي . ومن ذلك الحين ، بدأت المراسلات بين تيمورلنك وبايزيد .

وكان تيمورلنك يدعي وراثته لأملاك المغول في أنحاء الأناضول . فلمّا التجأ إليه الأمراء التركمان الذين انتزع بايزيد منهم أملاكهم ، راحوا يحرضون تيمور علي بايزيد الذي كان قد اكتسب شهرة كبيرة في العالم الإسلامي بعد فتوحاته في أوروبا، ويدّعون بأنه لا يعدوا أن يكون أحد التابعين السابقين لدولة المغول في الأناضول ، وأنه تجاوز حدوده وانتزع منهم أراضيهم ، وأنه غيّر وبدّل قوانين الأناضول ونظمها المغولية ، وأن عودتهم إلي أراضيهم ترتبط بعودة المغول للمنطقة . ولذلك ، أراد تيمور تفكيك الإدارة المركزية – الفيدرالية لدولة آل عثمان ، والقضاء علي النفوذ العثماني في الأناضول واخضاعهم ، وتقسيم الأناضول إلي إمارات صغيرة تكون تابعة له .

وبينما كانت المراسلات بين الطرفين مستمرة ، راح تيمور يحرض التركمان والتتار الرحل في نواحي سيواس وقيصرية وملاطية علي عصيان العثمانيين ، ويجذب حكام أرزنجان وآق قويونلي لطاعته . فلمّا أراد بايزيد مدّ نفوذه إلي أرزنجان عام ١٣٩٩م/ ٨٠١هـ ، والتجأ الأمير مطهر الدين إلي تيمور أيضاً ، قام الأخير بدخول أرزنجان ، وحاصر سيواس واحتلالها وقتل أهلها ، ثم استولي بعدها علي ملاطيه (١٤٠٠م/ ٨٠٢هـ) . وفي تطور مفاجئ انسحب تيمور من الأناضول متوجهاً للأراضي المملوكية ، حيث أراد أن يحول دون تشكيل تحالف عثماني – مملوكي محتمل باخراج المماليك من مواجهة محتملة بينه وبين العثمانيين أو ترهيب العثمانيين واخضاعهم دون قتال .

والحقيقة أن بايزيد كان قد أدرك أن تيمور سيعود للأناضول بعد حملته علي سوريا ، ولذلك راح يتخذ من التدابير ما يحمي به حدود دولته ، فقام بالاستيلاء علي أرزنجان ، واجبار حاكمها مطهرتن علي الاعتراف بالنفوذ العثماني في أرزنجان . وإذا كان بايزيد اضطر للانسحاب من أرزنجان قبل مجئ جيوش تيمور، فقد حرص على ضم كماخ ضماً مباشراً للأراضي العثمانية (تموز ١٤٠١/ ذي الحجة ٨٠٣هـ) .

وكان الخلاف الذي وقع بين المماليك والعثمانيين بسبب استيلاء العثمـــانيين علي ملاطيه من قبل ، قد حال دون تفاهم مملوكي – عثماني لمواجهة تيمور في المنطقة ، وانفراد تيمور ببايزيد في الأناضول . وإذا كانت الإضطرابات التي وقعت في بلاد الصين عقب وفاة امبراطورها قد جعلت تيمورلنك يميل إلي الصلح مع العثمانيين ، إلا أن اصرار بايزيد علي عدم تسليم قره يوسف أو اعدامه وتحريض أمراء الأناضول الذين التجئوا إلي تيمور ، جعل تيمورلنك يستدعي جيشه من وسط أسيا ، ويخترق بهم شرق الأناضول ، ويوجه انذار أخير لبايزيد (مارس ١٤٠٢/ رجب ٨٠٤) حدد فيه شـــروط الســـلام والتعاون بين الطرفين لمد حركة الفتح والجهاد في أوروبا علي النحو التالي :

- إعادة كماخ لمطهرتن وتحرير عائلته التي قام بايزيد بأخذها رهينة .
- إرسال أحد أبناء السلطان العثماني كرهينة لدي تيمور .
- استقبال العمامة والحزام التيموري كعلامة علي تبعية السلطان العثماني له .
- إعادة المناطق التي كان قد ضمها بايزيد إلي الدولة العثمانية من أمراء الأناضول لأصحابها .
- تسليم قره يوسف لتيمورلنك أو قتله .

وهكذا ، كان عدم قبول بايزيد لهذه الشروط وسحبه لجيشه الذي كان يحاصر القسطنطينية وتوجيهه صوب أنقرة ، واصرار تيمورلنك علي ادعائه بأنه الوارث الحقيقي لدولة السلاجقة في إيران والعراق ودولة الإلخانيين في الأناضول ، وأن الدولة العثمانية ما هي إلا واحدة من الإمارات التي ينبغي أن تكون تابعة له ، وقيام قواته تحت قيادة ميرزا محمد بالإستيلاء علي كماخ واعادتها لمطهرتن وتوجهه بنفسه إلي ســـيواس ، إعلانـــاً للحرب بين الطرفين[١١٦] .

---

[116] بخصوص مقدمات المواجهة العثمانية التيمورية في الأناضول ، أنظر : Omer Halıs Bıyıktay, Yedi Yıl Harbi İçinde Timur'un Anadolu Seferi ve Ankara Savaşı, İstanbul 1934, s. 7-22; Y. Yücel,Timur

معركة أنقرة (٣٠ تموز ١٩/١٤٠٢ ذي الحجة ٨٠٤) : بدأت الحرب في وادي چوبوق بانقرة سجالاً بين الطرفين ، حتي انحازت قوات سباهية التيمار إلي أمرائها بصفوف تيمور ، فتفرق الجيش العثماني حول بايزيد الذي بقي وحيداً في أرض المعركة مع بعض خواصه ، حيث سقط أسيراً في يد تيمورلنك هو وابنيه موسي چلبي ومصطفي چلبي وبعض الأمراء العثمانيين . وكما استطاع ابنه الأكبر سليمان چلبي الفرار مع الوزير الأعظم علي باشا إلي بورصة ، والإستيلاء علي خزينة الدولة وأرشيفها في بورصه، والتوجه بأخته فاطمة سلطان وأخيه الصغير قاسم إلي قلعة اناضولي حصار ، وتمكن عيسي چلبي من الهرب متوجهاً إلي نواحي باليكسير ، وانسحب محمد چلبي إلي أماسيا .

وهكذا ، في الوقت الذي كان بايزيد يضع فيه اللمسات الأخيرة علي انجازاته في البلقان بضم بلاد اليونان والإعداد لفتح القسطنطينية وفي الأناضول بتصفية القوي التركمانية المناوئة له والمتمثلة في إمارة القره مانيين وسلطنة القاضي برهان الدين ، لم يتصرف بحكمة تجاه الخطر المغولي الآتي من الشرق ، حيث قام بالإستيلاء علي ملاطية التابعة للدولة المملوكية في مصر والشام ، ومن ثم أخفق في تشكيل جبهة مشتركة مع المماليك ضد الزحف التيموري علي الشرق . وإذا كان فرار أمراء الأناضول الذين ضم بايزيد أملاكهم والتجائهم إلي تيمورلنك الذي وضعهم في مقدمة جيشه ، وقيام بايزيد بوضع قوات هؤلاء الأمراء الذين انضموا في وقت سابق للعثمانيين في الجناح الأيسر للجيش العثماني ، وانحياز هذه القوات إلي جانب أمرائهم السابقين ، من أهم عوامل اخفاق بايزيد في معركة أنقرة ، فقد كان لفقدان حماسة الغزو والجهاد لدي الجيش العثماني نظراً لمواجهته عناصراً من نفس دينهم ومن أبناء جلدتهم دور الحسم في هذه المواجهة التي حددت مصير دولة آل عثمان خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي/ التاسع الهجري .

Politikasında Türkiye ve Yakın Doğu 1393-1402, Ankara 1980, s. 54-70.

قامت قوات تيمورلنك بتعقب الأمراء العثمانيين في بورصه وقونيه وآقشـــهر وقره حصار وفي أنحاء الأناضول المختلفة ، وتوجه تيمور إلي كوتاهية ، حيث أقام فيها نحو شهر ، فحرر محمد بك وعلي بك أبناء علاء الدين ابن قره مان من الأسر وأعـــاد إليهم ممتلكاتهم السابقة علاوة علي نواحي قيصري وبكپازاري وآقشهر وسيوريحصار . كما قام بإعادة أراضي إمارات گيرميان وآيدين وصاروخان ومنتشه وحميد إلي أمرائها السابقين الذين أعترفوا بخضوعهم لحكم تيمور ؛ أما اسفنديار بك ابن جندار فكان قد التجأ إلي مطهرتن التابع لتيمور قبل المواجهة ، حيث أعاد تيمور له سينوب وقسطموني وطوسيا وچانقري . ومن ناحية أخري أراد تيمور أن يظهر بأنه غازياً مثل العثمانيين ، فقام بحصار مدينة أزمير الساحلية التي كانت في يد أمراء رودس حتي تمكن من اعـــادة فتحها في ٢ ديسمبر ١٤٠٢/٦ جمادي الأولي ٨٠٥ ، ثم أعطاها لحكامها السابقين من أبناء أيدين .

وبينما كان تيمورلنك يفكر في اصطحاب بايزيد الأول في رحلته إلي سمرقند ، توفي السلطان الأسير في ٩ مارس ١٤٠٣/ ١٤ شعبان ٨٠٥ ، فأرسل موسي بجثـــان أبيه لدفنه في بورصه ، وأخذ ابنه مصطفي چلبي رهينة مغادراً الأناضول . وبذلك تمكن تيمورلنك خلال ثمانية أشهر قضاها في الأناضول من فرض نفوذه المطلق علي الأناضول، ولم يغادر المنطقة إلا بعد أن تفكيك أملاك الدولة العثمانية ، فأطاح بمشـــروع بايزيـــد لتشكيل دولة مركزية ، وأعاد تشكيل الإمارات التركمانية من جديد ، ومن ثم عادت حدود الدولة العثمانية إلي ما كانت عليه في أوائل عهد مراد الأول[١١٧] .

---

[117] بخصوص معركة أنقره ونتائجها علي الدولة العثمانية ، انظر : Ömer Halıs Bıyıktay, Yedi Yıl Harbi İçinde Timur'un Anadolu Seferi ve Ankara Savaşı, İstanbul 1934, s. 32-67; Y. Yücel, Timür'ün Dış Politikasında Türkiye ve Yakın doğu, 1393-1402, Ankara 1980, s. 21- 64; İ. Aka, " Timür'ün Ankara Savaşı 1402 Fetihnâmesi ", Belgeler, XI./15, 1-22.

لقد كانت معركة أنقرة نقطة تحول في تاريخ الدولة العثمانية ، حيث عاد أمراء الأناضول السابقين لإماراتهم من جديد ، وتحررت بيزنطة من الحصار وممالك البلقان من بنود التبعية ، وانقطعت الروابط بين أراضي الدولة في الأناضول وأراضيها في الروميلي ، وبدأ أبناء بايزيد صراع طويل علي الانفراد بالحكم فيما بقي من ممالك هنا وهناك ، حتي أن امبراطور بيزنطة والعديد من أمراء الأناضول والبلقان حرصوا على زيـــادة تــأجج المشاحنات بين المتصارعين علي السلطة المطلقة . وفي ظل هذه المتغيرات ، بدأت الدولة العثمانية تمر بمرحلة جديدة عرفت في التاريخ العثماني باسم " فترت دوري " .

الدولة العثمانية في " مرحلة الفتور "

(١٤٠٢-١٤١٣م/٨٠٥- ٨١٦هـ)

لم تمر الدولة العثمانية بمرحلة أخطر من هذه المرحلة التي أطلق عليها المؤرخون العثمانيون اسم " فترت دوري " أي عصر الفتور والضعف . فقد تفكك التشكيل السياسي العثماني في الأناضول ، وأعيدت التشكيلات السياسية لإمارات الأناضول التركمانية من جديد تحت السلطة العليا لتيمور ، وأنفرد كل ابن من أبناء بايزيد الأربعة بعاصمة من عواصم الأناضول ، حيث استقل سليمان چلبي بأدرنه وأراضي الروميلي ، وعيسي چلبي بباليكسير ، ومحمد چلبي بأماسيا ، وموسي چلبي ببورصه . وهكذا ، فتح استيلاء تيمورلنك علي الأراضي العثمانية في الأناضول وتفكيك مشروع دولة العثمانيين المركزية ، فتح مرحلة طويلة من الصراع الدموي بين أبناء بايزيد للفوز بالنفوذ المطلق علي الأراضي العثمانية استمرت لأكثر من إحدي عشر عاماً .

والحقيقة أن مسألة الصراع علي عرش السلطنة العثمانية بين أبناء بايزيد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بمفهوم وراثة العرش لدي العثمانيين . فنظراً لأعراف التركمان في وسط أسيا أن كل فرد من أبناء الحاكم له الحق في الجلوس علي عرش السلطنة ، وأن التمكين لواحد منهم أمر مقاليده بيد الله تعالي ، وليس لأحد أي دخل فيه . فإذا تمكن أحدهم من الإستيلاء الفعلي علي العرش ، يكون بذلك قد اكتسب الصفة الشرعية للاعتراف به كسلطان شرعي للبلاد ، بحيث يعتبر كل من يخرج عليه من منافسيه خارج علي السلطة الشرعية ، ومن ثم يكون من حق السلطان الشرعي القضاء علي فتنته بأي وسيلة[118] .

[118] بخصوص مشكلة وراثة العرش العثماني ، أنظر : Halil İnalcik, “Osmanlılarda Saltanat Veraseti Usûlü ve Türk Hakimiyet Telekkisi ile İlgili”, AUDTCFD., CXIV, (1959), s. 78 vd.

سليمان چلبي حاكماً علي الروميلي : عقب توجهه إلي الروميلي بصحبة جاندرالي زاده علي باشا وأخيه الصغير قاسم وأخته فاطمه سلطان ، واستقراره في أدرنه ، أعلن سليمان چلبي نفسه سلطاناً علي الدولة العثمانية . وحتي يوطد مقامه في الروميلي عقد مع إمبراطور بيزنطه منويل اتفاقية عرفت بإسم "معاهدة غاليبولي" (١٤٠٣م/ ٨٠٦ هـ) ؛ كما عقد تفاهم مع البنادقة والجنويين يقضي بنقل القوات العثمانية إلي الروميلي والحيلولة دون عبور تيمور إليها ، وذلك مقابل منحهم بعض الإمتيازات التجارية في الأراضي التي يسيطر عليها العثمانيون .

أما معاهدة غاليبولي فقد تنازل الأمير سليمان چلبي بموجبها عن قارتال وبندك وگبزه علي سواحل مرمرة الأناضولية ، وبعض الجزر وسواحل البحر الأسود حتي ميسيوري ، وسليوري في منطقة مرمرة ، وسلانيك وتساليا وبعض المناطق الأخري في البلقان ، كما وافق علي ترك أخيه الأصغر قاسم وأخته فاطمه سلطان كرهائن لدي إمبراطور بيزنطه . على أن يقوم إمبراطور بيزنطة بدعم سليمان والحيلولة دون وصول أي من أشقائه إلي منطقة الروميلي ، وتسليم أي فرد منهم يلجأ إلى بيزنطه لسليمان . وعلي الرغم من اعتراض اورانوس بك وغيره من حاشية سليمان چلبي علي هذه التنازلات ، تم تنفيذ هذه الإتفاقية[١١٩] .

وفي الوقت الذي كان فيه سليمان يمارس سلطاته في الروميلي متخذاً أدرنة عاصمة له ، كان أخوته عيسي وموسي ومحمد يتناحرون في الأناضول سعياً لتحقيق الغلبة المطلقة هناك . والحقيقة أن أمراء الأناضول السابقين وبالخاصة أمراء گيرميان وجندار وآيدين وقره مان ، وامبراطور بيزنطة وأمراء الأفلاق الصرب والبلغار قد لعبوا

[119] فيما يتعلق بفترة حكم سليمان بن بايزيد في الروميلي والاتفاقية التي وقعها سليمان حلبي مع إمبراطور الروم ، أنظر : E. Zachariadou, "Suleyman Çelebi in Rumli and The Ottoman Chronicles", Der İslam, LX. (1963), s. 268-296 ; G. T. Dennis, "1403 Tarihli Bizans-Türk Antlaşması", çev. M. Delibaşı, AUDTCFD., XXIX/1-4 (1971), s. 153-166

دوراً هاماً في تأجيج هذا الصراع بين الأخوة بغرض الحيلولة دون جمع كلمتهم أو توحيد أراضيهم أو الغلبة المطلقة لواحد منهم .

وقد بدأ صراع أبناء بايزيد علي السلطة المطلقة في الأناضول والروميلي عقب مغادرة تمور الأناضول وارسال موسي چلبي بجثة أبيه لدفنها في بورصة وفقاً لوصيته . فلمّا وصل موسي إلي بورصة غادرها أخوه عيسي ، إلاّ أنّه استطاع استعادتها بعد فترة ، وأجبر موسي للجوء إلي خاله يعقوب بك ابن گيرميان في كوتاهية . وبقـي موسـى محجوزاً لدى أبناء كيرميان حتى تمكن أخيه محمد جلبي من فك أسره . وفي الوقت الذي استقر فيه عيسي في باليكسير وبورصة ، كان محمد چلبي قد وطد مقامـه في أماسـيا وتوقات ونيكحصار وسيواس ، حيث عرض علي أخيه عيسي تقسيم الأناضول فيمـا بينهما حقناً للدماء . ولما رفض عيسي العرض لم يكن هناك مفر من الاصـطدام بـين الطرفين عند " اولوباد " . وعلي أثر هزيمة عيسي ، فر ملتجئاً إلي إمبراطور بيزنطة الذي قام بتسليمه لإخيه الأكبر سليمان في أدرنه ، وذلك وفقاً للاتفاقية المعقودة بينهما . وفي الوقت الذي كان فيه سليمان يفكر في الدفع بأخيه عيسي إلي الأناضـول لإسـتعادة العاصمة الأناضولية بورصة من يد محمد ، راح محمد چلبي الذي أعلن نفسه سلطاناً في المناطق التي بقيت في يد العثمانيين من الأناضول بعد أن تمكن من بسط نفـوذه علـي أزنيق، يسعى لفك أسر أخيه الموجود لدي يعقوب ابن گيرميان ليكون دعماً له ضـد الجبهة التي شكلها ضده سليمان وعيسي في الروميلي[١٢٠] .

انفراد محمد چلبي بحكم الأناضول : وهكذا ، شكلت جبـهتان مـن الأشقاء الأربعة ، حيث أعدّ سليمان جيشاً وأرسل به أخيـه عيسـي إلي الأناضـول

[120] Kenan Ziyataş-Sadettin Baştürk," Fetret Dönemi ve Sonuçları", Türkler, IX/252-258; F. Başar, "Fetret Devrinde Osmanlı Bizans Münasebetleri (1402-1413), Prof. Dr. Firet İşiltan'a 80 doğum Yılı Armağanı, İstanbul 1995, 247-260; P. Wittek, "Ankara Bozgunundan İstanbul'un Fethine (1402-1455)", cev. H. İnalcik, Belleten, VII/27, (1943), s. 557-589.

لإستعادة بورصه ، فُهزم مرة أخري أمام محمد چلبي عند أبـواب المدينـة ، وفـرّ إلي اسفنديار بك ابن جندار . استطاع عيسي الحصول علي دعم اسفنديار بك وأعاد الكرة، إلاّ أنّه ُهزم أيضاً . وفي هذه المرة التجأ عيسي إلي جنيد ابن آيدين ، حيث عقد تحالف آخر مع أمراء صاروخان وآيدين ومنتشه ، إلا أن الأخفاق كان من نصـيبه أيضـاً . وأخيراً ولي عيسي چلبي وجهه شطر إبن قره مان ، وعند عودته للأراضي العثمانية قبض عليه بالقرب من أسكيشهر وقتل (حوالي عام ١٤٠٥م/٨٠٨هـ) .

وهكذا ، اضطر الأمير سليمان چلبي للتوجه علـي رأس جـيش كـبير إلي الأناضول لضمها بنفسه ، حيث تمكن من الإستيلاء علي بورصه ، ثم علي أنقره بعـد ذلك متعقباً أخيه محمد چلبي ، إلا أن وفاة وزير سليمان حلبي القدير جاندارلي زاده علي باشا ، واتفاق أحد أهم أمراء الحدود في الروميلي وهو أورانوس بك مع محمد چلـبي ، وتخليص محمد چلبي لأخيه موسي من قبضة أمير گيرميان ، واتفاقه مع الأمير اسفنديار وأمير الأفلاق لتقديم المساعدات اللازمة لموسي لإيصاله إلي الروميلي بحراً ، كل هذا أجبر سليمان علي العودة إلي الروميلي ، وترك الأناضول تماماً لمحمد چلبي[١٢١] .

موسي چلبي يسيطر علي الروميلي : لقد زادت أهمية منطقة الروميلـي عقب إعادة تيمورلنك الإمارات التركمانية إلي أصحابها القدامي ، حيث استطاع أمراء الحدود المحافظة علي كيان الدولة في البلقان إلي حد بعيد ، حتي صارت منطقة الروميلي هي مركز ثقل الدولة العثمانية خلال هذه المرحلة . والحقيقة أن سليمان چلبي الـذي أسرع للجلوس علي عرش أدرنه لم يستطع بتنازلاته السياسية أمام بيزنطـه وبـبعض تصرفاته غير المسئولة المحافظة علي أركانه خلال ما يقرب من ثمان سنوات قضـاها في حكم الروميلي ، وذلك علي الرغم من الدور الحضاري الذي قام به في استقبال أغلب

[121] E. Zachariadou, “Süleyman Çelebi in Rumli and The Ottoman Chronicles”, Der İslam, LX (1963), s. 268 vd. ; keza bk. Necdet Öztürk, Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Te’sisi”, Türkler, IX/221 vd.

رجال الدولة وعلمائها ، والمحافظة علي كيان الدولة في أوروبا خـــلال هـــذه الفتـــرة (١٤٠٢-١٤١٠م/ ٨٠٥-٨١٣هـــ) .

لم يكد موسي چلبي يطأ بقدمه الروميلي حتي تجمع حوله أنصار كـــثيرون ، فوجد مساعدة من أمير الأفلاق وأمير الصرب وأمير البلغار ، الأمر الذي جعل سليمان چلبي مضطراً لطلب المساعدات من إمبراطور بيزنطة وفقاً للمعاهدة المبرمة بينهما . وإذا كان موسي چلبي قد تلقي الهزيمة في مواجهته الأولي مع الأمير سليمان بســـبب خيانـــة القوات الصربية المشاركة معه ، إلا أنه عقب استمالته لأمراء الحدود في الروميلي وعلي رأسهم محمد بك ابن ميخال ، قويت شوكته واستطاع الحاق الهزيمة بقوات سليمان عند صوفيا ، ثم توجه إلي أدرنه . وهكذا ، وبينما كان سليمان يفر مع نفر من أتباعـــه إلي القسطنطينية قبض عليه في الطريق ، حيث أعدم في ١٨ مايو ١٤١٠/ ٥ محرم ٨١٣[١٢٢] .

توحيد شطري الدولة العثمانية في الأناضول والروميلي علي يـــد محمد چلبي : لم يرع موسي چلبي الإتفاق بينه وبين أخيه محمد ، حيث أسرع بالتوجه إلي أدرنه وأعلن نفسه سلطاناً فيها ، وأمر بضرب العملة باسمه ، وعين لنفســـه وزيـــراً وأميراً للأمراء وقاضياً . وهكذا ، بقي في حلبة الصراع علي العرش كل محمد چلبي الذي كان يسيطر علي الأناضول ، وموسي چلبي الذي راح يوطد نفوذه بالتدريج في الروميلي . فقام موسي بتأديب أمراء الصرب وأجبر أمراء البلغار علي الطاعة وأخـــذ يســـتعيد الأراضي التي كان سليمان چلبي قد تركها لإمبراطور بيزنطـــة بمـــا فيهـــا تســـاليا (١٤١١م/٨١٤هـــ) . حاول إمبراطور بيزنطة مانويل التصدي لإجراءات موسي چلبي هذه ، حيث اطلق سراح أورخان بن سليمان الذي كان رهينة عنده وعينه علي سلانيك وتساليا . فخرج إليه موسي چلبي ، حيث التقي بقوات أورخان الذي هزم وتحصن بقلعة سلانيك .

---

[122] E. Zachariadou, "Süleyman Çelebi in Rumli and The Ottoman Chronicles", Der İslam, LX (1963), s. 268 vd.; F. Başar, " Fetret Devrinde Osmanlı Bizans Münasebetleri (1402-1413), s. 253 vd.

ولمّا عجز أورخان عن النيل من عمه ، أرسل مانويل إلي محمد چلبي يدعوه إلي الروميلي ، حيث اتفق الطرفان علي نقل قوات محمد چلبي إلي الروميلي مقابل التنــازل عن بعض المناطق التابعة للعثمانيين . وإذا كان محمد چلبي قد أخفق في ألحاق الهزيمــة بأخيه موسي سواء في المواجهة الأولي (١٤١١م/ ٨١٤هــ) أو في المواجهة الثانيــة (١٤١٢م/ ٨١٥هــ) ، فقد تمكن من الاستفادة من سؤ العلاقة بين موسي چلبي وأمراء الروميلي الذين كانوا يتحينون الفرصة للإيقاع به، حيث اســتمال هــؤلاء الأمــراء ، واستطاع بهم هزيمة قوات موسي چلبي الذي انسحب إلي شمالي بلغاريا . وأخيراً التقــي الطرفان علي ضفاف نهر طونه في موضع يقال له "چومورلي آباد" ، حيث أُلحقت الهزيمة بموسي چلبي بعد قتال شديد ، وألقي القبض عليه وأعــدم في ١٠ يوليــه ١٤١٣م/ ٣ رجب ٨١٦هــ . وبذلك خلصت الروميلي كما خلصت الأناضول من قبل لأصــغر أبناء ييلدرم بايزيد محمد چلبي[١٢٣] .

وهكذا ، فشلت محاولات تيمورلنك لتفكيك الدولة العثمانيــة إلي إمــارات صغيرة تكون تابعة له تبعية مطلقة ، ومساعي الأسرات الحاكمة سواء في الأناضول أو في الروميلي للإستفادة من مرحلة التفكك والصراع علي السلطة بين أبناء بايزيد ، وفعاليات إمبراطور بيزنطه مانويل للنيل من أبناء بايزيد بضرب بعضهم ببعض ولإستعادة نفوذه في البلقان . ويمكن حصر أسباب الفشل في القضاء التام علي كيان الدولــة العثمانيــة في العوامل التالية :

---

[123] تؤكد الدراسات الحديثة أن موسى جلبي هو الوحيد الذي لم يستعن بامبراطور بيزنطة خلال فترة صراعه مع أشقائه علي عرش السلطنة العثمانية ، بل أنه استعاد بعض المناطق التي كان قد تنازل عنها سليمان جلبي ، و لم يتردد في محاصرة استانبول نفسها أيضاً ، لتفصيلات أكثر حول فترة حكمه في الروميلي ، أنظر : Kenan Ziyataş-Sadettin Baştürk," Fetret Dönemi ve Sonuçları", Türkler, IX/254 vd.; P. Wittek, "Ankara Bozgunundan İstanbul'un Fethine (1402-1455)", cev. H. İnalcik, Belleten, VII/27, (1943), s. 557-589; Necdet Öztürk, Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Te'sisi", Türkler, IX/228 vd.

- نجاح العثمانيين في نقل الكثير من العشائر التركمانية إلي تراقيا ، ومن ثم في المحافظة علي تشكيلاتهم العسكرية علي الحدود الغربية ، بحيث صار أمـــراء الحدود في الروميلي مركزاً لثقل الدولة وحصن أمان لها خلال مرحلة الفتور .

- عدم قدرة أي من الأسرات الحاكمة سواء في الأناضول أو في الروميلي علي ملء الفراغ الذي تركته الدولة العثمانية خلال هذه المرحلة ، والسير في فلك الصراع الذي نشب بين أبناء بايزيد .

- وقوع كافة الدول الأوروبية في خلافات مذهبية وسياسية متباينة أعجـــزتهم جميعاً عن توحيد قوتهم في مواجهة دولة آل عثمان وهي في أضعف حالاتها .



إعادة تشكيل الدولة العثمانية

(١٤١٣-١٤٥١م/ ٨١٦-٨٥٥هـ)

لقد كان اخفاق أنقرة عام ١٤٠٢م والنتائج التي تمخضت عنه سبباً لتأخر انطلاقة الدولة العثمانية لما يقرب من نصف قرن من الزمان ، حيث عادت حدودها إلي ما كانت عليه في أواخر عهد أورخان غازي ، فاستعادت إمارات الأناضول وممالك البلقان جزء كبير من استقلالها ، وانغمس أبناء بايزيد في صراعات مريرة عصفت بكل انجازات الغزاة الأوائل ، وأعطت الفرصة لأعداء الدولة للاستفادة من تلك الصراعات لتحقيق مكاسب سياسية ، واستمرت هذه النتائج تلقي بظلالها علي مجريات الأحداث حتي فتح القسطنطينية .

وأخيراً ، تمكن محمد چلبي وهو أصغر أبناء بايزيد من توحيد جناحي الدولة تحت قيادته ، وأتباع سياسة حكيمة في التعامل مع الوضع الحساس الذي كانت تمر به الدولة ، والسعي لاستعادة ما فقدته من أراضي ونفوذ في الأناضول وفي البلقان ، ومواجهة للخارجين علي الدولة بحزم ، والحيلولة دون تشكيل أعداء الدولة لأي تحالف ضدها خلال هذه الفترة الحرجة من تاريخها ، ثم نجح مراد الثاني بعد ذلك في إتمام سياسة سلفه ، ودحر التحالفات الأوروبية المتتالية التي كانت تريد أن العصف بما تبقي من دولة آل عثمان في البلقان ، الأمر الذي يسّر علي الدولة العثمانية عبور هذه المحنة ، واعادة نفوذها إلي سابق عهده ، ومهّد الطريق لبدء مرحلة جديدة من مراحل تطور الدولة العثمانية .

وحتي يمكننا تقدير حجم الإنجاز السياسي والعسكري الذي قام به كل من محمد چلبي (١٤١٣- ١٤٢١م/ ٨١٦-٨٢٤هـ) ومراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١م/ ٨٢٤-٨٥٥هـ) ، علينا أن نشير هنا إلي أن الدولة العثمانية لم تكن تسيطر فعلياً في أول عهد محمد چلبي سوي علي مناطق سيواس وأماسيا وتوقات وچوروم وأنقره وأسكيشهر وبورصه وباليكسير وقوجه ايلي في الأناضول ، وأدرنه وتراقيا الشرقية وما

حولها في الروميلي . فقد استطاع محمد جلبي ومراد الثاني تجديـد دم الدولـة ، ورأب الصدع الذي كان قد أصابها عقب نكسة أنقرة ، وتنقية مؤسساتها مما كان قد لحقها من تجاوزات ، ومن ثم استعادة كافة المناطق التي كانت قد خرجت عن النفـوذ العثمـاني خلال مرحلة الفتور .

محمد چلبي ومحاولاته لإستعادة نفوذ الدولة في الروميلي والأناضول

(١٤١٣- ١٤٢١م/ ٨١٦-٨٢٤هـ)

لقد كان تمكن محمد چلبي من توحيد الأراضي العثمانية تحت سـلطته بدايـةً لمرحلة جديدة من التاريخ العثماني . فعقب انفراده بالعرش العثماني ، راح محمد چلـبي يسلك سياسة مهادنة مع الممالك المحيطة به واضعاً في حسبانه عدم مقدرة الدولة خلال هذه المرحلة علي مواجهة تحالف يمكن أن يطيح بكيانها كله . ولذلك آثر أن يوطد حالة من الاستقرار في الروميلي ، فاستقبل سفراء راجوزة والبندقية وجنوة وجدد المعاهدات التجارية معهم ، كما استقبل سفراء الصرب والأفلاق الذين أتوا لتهنئتـه بـالجلوس ، وأعاد لإمبراطور بيزنطة المناطق التي كان الأمير سليمان چلبي قد تركهـا لـه . إلا أن سياسة المهادنة هذه لم تتضمن التغاضي عن التجاوزات التي كانت تصدر عن الممالـك المحيطة بالدولة سواء في الأناضول أو في الروميلي ، حيث كان السلطان ينتهز فرصة هذه الإعتداءات ويجرد الحملات ضد تلك المناطق ، ويسرع إما بضمها ضمّاً مباشراً لأملاك الدولة أو بفرض نفوذ الدولة عليها واعلان تبعيتها لها من جديد .

وهكذا ، عندما تجاوز جنيد ابن أيدين حدود الدولة معتدياً علي الوالي العثماني بأيدين إيلي ، جرد محمد چلبي حملة قادها بنفسه ، وانتهت بحصار إزمـير وفتحهـا (١٤١٤م/ ٨١٧هـ) . وبذلك أتم محمد چلبي خلال هذه الحملة سيطرته علي سواحل

بحر ايجه ، وقبل أمراء جزر فوچه وميديللي وساقيز التابعين لجنوه النفوذ العثماني ودفــع الخراج السنوي[١٢٤] .

إخضاع محمد ابن قرمان : وبعد أن تم لمحمد چلبي بسط نفوذه علي منطقة ايجه علي هذا النحو ، أسرع بالتوجه إلي قونية لتأديب محمد بك إبن قره مان الذي كان قد انتهز فرصة الصراع بين أبناء بايزيد وقام بمهاجمة الأراضي العثمانية وأراضي حلفائهم من أبناء گيرميان حتي وصل إلي بورصة وحاصرها ونهبها . فقام الجيش العثماني الــذي شارك فيه الأمير يعقوب ابن گيرميان والأمير اسفنديار إبن جاندار باحكام الحصار علي قونية حتي طلب ابن قره مان الصلح (١٤١٤م/ ٨١٧هـــ) . وفي العام التالي ، وعلي أثر نقض إبن قرمان لهذا الصلح ، خرج محمد چلبي ثانية إلي قونية ، حيث ألحق بإبن قـــره مان هزيمة قاسية ، وأجبره علي توقيع معاهدة تبعية من جديد تنازل بمقتضاها محمد إبن قره مان عن يكي بازار وسيوري حصار وآقشهر وبكشهر وسيديشـــهر للعثمـــانيين ، وارتضي دفع الخراج عن الأراضي الموجودة تحت يده ، والمشاركة بفرق عســـكرية في الجيش العثماني عند الضرورة[١٢٥] .

---

124 انظر في هذا الخصوص : Feridun Emecen, “Cüneyd Bey”, DIA.,VIII./122 وكانت قد وقعت بين العثمانيين والبنادقة أول مواجهة عثمانية بندقية في عهد محمد جلبي . وكان سبب هذه المواجهة أن حاكم جزيرة أندروس التابع للبنادقة راح يهاجم بعض السفن العثمانية ، حيث أعد العثمانيون اسطولا في ميناء غليبولي يتكون من ٣٠ قادرغة تحت قيادة جالي بك ، وخرج بهم إلي جزر أندروس وباروس وميلوس ، وأسر منها عدد كبير من الأفراد . وعلي أثر ذلك قام البنادقة باعداد حملة في الربيع بقيادة بيترو ، حيث وقعت بين الطرفين مواجهة حاسمة بالقرب من غاليبولي في مايو ١٤١٦م ، أستشهد علي أثرها جالي بك وحطم الأسطول العثماني ، وجرح قائد الأسطول البندقي بيترو : İ.H.Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, cilt. I., Ankara 1948, s.350-355

125 تذكر المصادر أن ظروف الطقس القاسية هي التي أجبرت محمد جلبي على توقيع الصلح في المرة الأولى ، ولما نقض ابن قرمان الصلح ، ألحق العثمانيون هزيمة منكرة ، حيث أجبر ابن قرمان علي توقيع معاهدة قاسية مع العثمانيين تنازل بموجبها عن بكبازاري وسيوريحصار وآقشهر ويالاواج

إحياء النفوذ العثماني في الأفلاق : وإذا كانت الدولة العثمانية قد أُجبرت علي الإحتكاك باساطيل البندقية في بحر ايجه ، حيث ألحقت بها بعض الهزائم عند مضيق جناق قلعه (١٤١٦-١٤١٧م/ ٨١٩-٨٢٠هـ) ، فقد استفاد محمد چلبي من النزاع الذي شب بين إمير الأفلاق ميرچه الذي كان يتلقي العون من المجر ومنافسه دان الذي طلب مساعدة العثمانيين له . فكان ذلك سبباً لتدخل العثمانيين ، حيث لبى السلطان العثماني طلب دان ، وأمده بقوة استطاع بها هزيمة ميرچه الذي أُجبر علي عقد اتفاق مع العثمانيين وافق بموجبه علي دفع الخراج المتأخر للعثمانيين وزيادة قيمته (١٤١٦م/٨١٩هـ). والحقيقة أن مشكلة الأفلاق هذه أصبحت سبباً لمواجهات عديدة وهجمات حدودية متبادلة علي الحدود بين الدولة العثمانية والمجر ، حيث تجاوزت بلاد الأفلاق نفسها إلي بلاد الصرب والبوسنة وأيستريا[١٢٦] .

فرض النفوذ العثماني علي جندار : ومن ناحية أخري ، لما نشب الصراع بين اسفنديار بك إبن جاندار وإبنه قاسم بك بسبب تقسيم أملاك الإمارة ، التجأ قاسم بك إلي العثمانيين طالباً التوسط بينه وبين أبيه حتي يوافق علي حصوله علي مناطق طوسية وچانقري وقلعه جيك وقسطموني . وإذا كان اسفنديار بك راح يرفض وساطة العثمانيين ، إلا أن محمد چلبي لم يتردد في دعم قاسم بك ، فجرّد حملة توجهت إلي مقر حكم اسفنديار بك في سينوب . وبعد حصار قصير للمدينة ، استسلم اسفنديار بك معلناً اعترافه بالحكم العثماني لبلاده ، وقراءة الخطبة وضرب السكة باسم السلطان العثماني فيها (١٤١٨م/٨٢١هـ) . وهكذا، تركت مناطق باقير كوره سي وقسطموني فقط لاسفنديار بك ، وسيطر محمد چلبي علي بقية بلاده الأخري ، حيث عين قاسم

وبكشهر وسيدي شهر التي كان تيمور قد أعادها لهم بعد استيلائه علي الأناضول (١٤١٥) . وإذا كان محمد ابن قرمان راح ينقض هذه المعاهدة أيضاً ، إلا أنه علي أثر القبض عليه هو وابنه هذه المرة ، قد اعتذاره للسلطان محمد حلبي الذي أنعم عليه بالعفو هذه المرة أيضاً: Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/352 vd., keza bk. Necdet Öztürk, "Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Te'sisi", Türkler, IXŞ/227

126 Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/371 vd

بك إبن اسفنديار علي طوسيه وچانقري وقلعه جيك . وفي العام التالي بسطت القوات العثمانية نفوذها علي سمسون أيضاً (١٤١٩م/ ٨٢٢هـ)[١٢٧] .

وعلي الرغم من هذه المواجهات التي فرضت نفسها خلال عصر محمد چلبي، فقد حرص السلطان العثماني علي المحافظة علي نوع من الاستقرار في الأناضول والروميلي خلال هذه المرحلة . إلا أن هذا العصر شهد حادثتين خطيرتين هزتا الكيان العثماني بعنف . وكانت أولي هاتين الحادثتين ، ظهور الحركة الباطنية في الأناضول والروميلي علي يد الشيخ بدر الدين محمود وأتباعه بوكولوجه مصطفي وطورلق كمال . أما الحادثة الثانية ، فقد تمثلت في ظهور مصطفي ابن بايزيد في الروميلي ومحاولة إمبراطور بيزنطة استخدامه الضغط علي محمد چلبي ، ومنعه من القيام بأي تحرك معادي ضد بيزنطه .

حركة بدر الدين الباطنية في الأراضي العثمانية : لقد كشفت نكسة أنقرة ١٤٠٢م/ ٨٠٥هـ عن عداء مذهبي للدولة العثمانية سنية المذهب في أراضيها ، حيث حاولت الحركات المناوئة لأهل السنة في أنحاء الدولة وبالخاصة في المناطق التي يقطنها العلويون في الأناضول ، الإستفادة من الظروف السياسية التي كانت تمر بها الدولة . ففي الوقت الذي كان فيه أبناء بايزيد يتناحرون للإنفراد بمقام السلطنة ، أخذ أحد المتصوفة ويدعي بدر الدين محمود ابن قاضي سماونه يدعو للمذهب الباطني بين أهالي الأناضول ، حيث انتقل إلي الروميلي ، فقام موسي ابن بايزيد بتعيينه قاضيعسكر خلال فترة حكمه ، وذلك دون أن يعلم بتوجهات الباطنية . وهكذا ،

[127] Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/360 vd., keza bk. Necdet Öztürk, "Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Te'sisi", Türkler, IXŞ/228; Y. Yücel, XIII-XIV. Yüzyıllar Kuzeybatı Anadolu Tarihi, Çobanoğulları-Candaroğulları Beylikleri, Ankara 1980, s. 78 vd.

استطاع بدر الدين كسب مؤيدين وأنصار كثيرون مستغلاً منصبه الديني هذا ، إلا أنه عُزل لمّا تولي محمد چلبي الحكم ، وخصصت له مقاطعة بإزنيق يقيم فيها[١٢٨] .

وخلال هذه الفترة كان تابع بدر الدين وخليفته في إزمير بوكولوجه مصطفي ، وتابعه اليهودي المرتد طورلوق كمال في مغنسيا ، يعدون العدة للقيام بحركة عصيان في الأناضول . ومن ثم فر بدر الدين من إزنيق متوجهاً إلي الروميلي ، حيث اتخذ منطقة دلي اورمان التي يكثر بها العلويون مركزاً له (١٤١٦م/٨١٩هـ).

والحقيقة أن بدر الدين أراد بحركة عصيانه هذه في الأناضول والروميلي الإستفادة من حالة الغفلة والإضطراب التي كانت تعاني منها الدولة العثمانية خلال هذه الفترة ، ومن ثم تحويل حركته من دعوة مذهبية إلي إنقلاب سياسي ديني علي نمط ما سوف نراه في الحركة الشيعية الصفوية في إيران بعد نحو قرن من الزمان . وهكذا التف حول بوركلوجه مصطفي نحو خمسة ألاف شخص ، حيث استطاع أن يلحق الهزائم بعدة حملات جردها محمد الأول . وأخيراً استطاعت الحملة التي قادها الوزير الأعظم بايزيد باشا القبض عليه وإعدامه . توجهت الحملة بعد ذلك إلي طورلاق كمال الذي كان قد أعلن عصيانه في مغنسيا ، فنجحت أيضاً في هزيمته والقضاء عليه .

128 بعد أن أتم تعليمه في قونية ، توجه إلي الشام ، ثم القدس ، ثم مكة والمدينة ، حيث مر علي القاهرة عند عودته ، حيث عين معلم لابن السلطان برقوق المملوكي . وفي عام ١٤٠٣م توجه إلي تبريز ، حيث فاز برعاية تيمور هناك. وإذا كان قد عاد من تبريز إلي القاهرة ثانية ، فقد اضطر للعود إلي قونية بعد أن وقع الخلاف بينه وبين علماء مصر. وهناك لقي بدر الدين اهتماماً كبيراً من أهالي قونية ، حيث تعرف هناك علي بوركولوجه مصطفي الذي كان معروفاً بين الناس باسم " دده سلطان " . وبعد ذلك توجه بدر الدين إلي كوتاهية عبر إزمير حيث تعرف هناك على تورلاق كمال :
Baliver Michel, Şeyh Bedreddin Tasavvuf ve İsyan, çev. Ela Gültekin, Tarih Vakfi Yurt Yayınları, İstanbul 2000, s.34 vd.; M. Şerafettin Yaltkaya, Simavna Kadıoğlu Şeyh Bedreddin, İstanbul 1994, s. 53-55; Şerfaettin Severcan, "Şeyh Bedreddin Olayı", Türkler, IX/259-275

انتقل الوزير الأعظم بايزيد باشا إلي الروميلي متوجهاً إلي دلي اورمان ، وبعد مواجهة بسيطة مع أنصار بدر الدين تمكن من هزيمتهم ، حيث سلّم الشيخ العاصي نفسه بسهولة . وبعد أن أقيمت الحجة الشرعية علي الشيخ بدر الدين محمود في مجلس العلماء، صدرت الفتوي بخروجه عن الإسلام وقتله في ١٨ ديسمبر ١٤١٦/ ١٩شوال ٨١٩[١٢٩].

خروج مصطفي چلبي بن بازيد (١٤١٩- ٨٢٣هـ) : كان مصطفي چلبي قد صحب تيمور عند رحيله إلي سمرقند ، فلمّا توفي تيمور ، أطلق سراح جميع الأسري ومنهم مصطفي بن بايزيد الذي توجه إلي إبن قرمان في نيكده ، حيث مكث عنده لفترة ، حيث توجه بعدها إلي إمبراطور بيزنطة وطلب مساعدته ضد أخيه محمد چلبي . وبذلك ، حاول مانويل مرة أخري الإستفادة من هذه الفرصة والضغط علي السلطان العثماني ، فطلب منه منح مصطفي نصيبه في ملك أبيه . فلمّا رفض محمد چلبي، أُرسل مصطفي إلي أمير الأفلاق الذي أمده بقوة من الأفلاق توجه بها إلي تساليا وسلانيك . عندئذ توجه محمد چلبي إلي سلانيك ، وأوقع الهزيمة بقوات مصطقي چلبي ، ولكنه لم يستطع القبض عليه ، حيث لجأ إلي قلعة سلانيك . وإذا كان السلطان العثماني طلب من والي سلانيك تسليم مصطفي چلبي ، إلا أن والي سلانيك ربط الأمر بموافقة إمبراطور بيزنطة . وهكذا ، أيقن مانويل من عجز مصطفي حلبي عن النيل من أخيه محمد ، فطلب الصلح ، ورفع الحصار عن سلانيك. وبالفعل ، وافق السلطان العثماني علي طلب الأمبراطور ، حيث تضمنت الإتفاقية بين الطرفين البنود التالية :

- حجز مصطفي چلبي رهينة لدي إمبراطور بيزنطه طالما محمد چلبي علي قيد الحياة ، وعدم قيام الإمبراطور بمساعدته للخروج علي الدولة العثمانية .

[129] لتفصيلات أكثر أنظر : Baliver Michel, Şeyh Bedreddin Tasavvuf ve İsyan, çev. Ela Gültekin, s.36 vd.; M. Şerafettin Yaltkaya, Simavna Kadıoğlu Şeyh Bedreddin, s. 61vd.; Şerfaettin Severcan, “Şeyh Bedreddin Olayı”, Türkler, IX/263vd.

- دفع العثمانيين ٣٠٠ ألف أقچه كل عام كمصاريف لمصطفي چلبي وجنيد بك أمير آيدين الموجودين محجوزين لدي الإمبراطور .
- التعامل مع خلفاء محمد چلبي وفقاً للسياسة التي يتبعونها تجاه بيزنطة .

وبذلك تمكن محمد جلبي من إنهاء هذه الفتنة بتقديم بعض التنازلات المرحلية لتأمين حالة من الإستقرار خلال هذه المرحلة الحرجة من التاريخ العثماني[١٣٠] .

وفي ربيع ١٤٢١م/٨٢٤هـ عاد محمد چلبي إلي أدرنه ، حيث استقبل سفير إمبراطور بيزنطة بينما كان مريضاً . ولما أحسّ أنه مرض الوفاة ، جمع وزراءه بايزيد باشا وجاندارلي زداه إبراهيم باشا وحاجي عوض باشا ، وأوصاهم بالمحافظة علي سرية خبر موته حتي مجئ ابنه مراد من أماسيا للجلوس علي العرش ، وذلك لإحتمال اطلاق الإمبراطور البيزنطي سراح أخيه مصطفي بمجرد علمه بخبر وفاته . والحقيقة أن محمد چلبي توفي بالفعل قبل وصول إبنه مراد من أماسيا في مايو ١٤٢١م/ جمادي الأولي ٨٢٤هـ . إلا أن أركان الدولة استطاعوا المحافظة على سرية خبر موت السلطان حتي وصول السلطان الجديد الذي كان يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً وإجراء مراسيم تعيينه ودفن أبيه[١٣١] .

---

[130] لتفصيلات أكثر أنظر : Dukas, Bizsans Tarihi, (çev. Mirmiroğlu, İstanbul 1963), s.71-72; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/159

[131] كان لمحمد حلبي عند وفاته سبعة بنات وأربعة أبناء هم : مراد ومصطفي ويوسف ومحمود ، حيث توفي أحمد في حياة أبيه. وكان السلطان محمد قد عين مصطفي الذي كان يبلغ ١٢ عاماً علي سنجقية حميد . أما يوسف (٨سنوات) ومحمود (٧سنوات) فقد قام مراد بحبسهما عندما تولي الحكم . وكان محمد حلبي يحرص علي عدم تعريض الدولة بعد وفاته لصراع دموي علي الحكم بين أبنائه . ولذلك راح يخطط لتولية ابنه الأكبر مراد السلطنة في أدرنه ، علي أن تبقي الأناضول في يد أخيه مصطفي . أما يوسف ومحمود فكان يفكر في ارسالهما لامبراطور بيزنطة . وكان الذي دفعه لهذا التفكير هو تربص أعداء الدولة في الأناضول والروميلي ، وحرصهم علي تخليص حساباتهم مع العثمانيين : Necdet Öztürk, " Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi", Türkler, IX/231

وهكذا ، استطاع محمد جلبي خلال فترة حكمة القصيرة (١٤١٣-١٤٢١م/ ٨١٦-٨٢٤هـ) إعادة تأسيس تشكيلات الدولة من جديد ، وإستعادة جزء كبير من نفوذها الذي كانت قد فقدته في الأناضول والروميلي ، وعهد إلي إبنه مراد الثاني مهمة إتمام بسط الدولة لنفوذها علي أملاكها ، وإحباط كافة محاولات النيل منها .



مراد الثاني

وإسهاماته في إعادة تشكيل الدولة

(١٤٢١-١٤٥١/ ٨٢٤-٨٥٥هـ)

استمرت نتائج هزيمة أنقره تفعل فعلها خلال عهد مراد الثاني ، وتلقي بظلالها القائمة علي محاولات السلطان الجديد لإعادة بسط نفوذ الدولة علي الأناضول والروميلي. فقد سعى إمبراطور بيزنطة لتهديد السلطان الجديد بعمه مصطفي ، كما حرصت إمارات الأناضول علي استثمار ظروف وفاة محمد جلبي والنيل من وحدة كيان الدولة من حديد ، وسطعت في الأفق علامات تفكك جناحي الدولة من جديد . ولذلك ، راح مراد الثاني يقضي فترة حكمه الأولي في محاولة انقاذ وحدة الدولة ، والتمكين لسلطتها في الداخل والخارج . فكان أخيه الموجود في إمارة حميد تحت حماية يعقوب بك ابن كيرميان ، وراح ابن قرمان يستولي علي أراضي إمارة حميد ، وكان علي مراد الثاني الذي كان مضطراً لإلتزام سياسة المهادنة أن يقبل هذا الوضع. وأعلن ابن منتشة العصيان ، واستعاد أبناء ايدين وصاروخان بعض أراضيهم، الأمر الذي أجبر مراد علي تقديم بعض التنازلات في الأناضول لتهدئة الأوضاع ، وتجسدت من جديد أجواء واقعة أنقرة في الأناضول . ومن ناحية أخري ، راحت اتصالات إبن قره مان بملوك أوروبا سعياً للنيل من الدولة العثمانية والتكتلات الصليبية المتتالية التي أرادت استغلال حالة الإضطراب تلك ، راحت تفت في عضد مراد الثاني حتي اضطرته للتنازل عن العرش لإبنه محمد قبل وفاته في ١٤٥١م/٨٥٥هـ . وعلي الرغم من كل هذه التحديات ، تمكن السلطان العثماني من المحافظة خلال فترة حكمه علي وحدة الدولة ، وتمكين نفوذها في الأناضول والروميلي ، واعادة تشكيلها من حديد لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل تطورها .

انفراد مراد الثاني بالعرش العثماني : بمجرد أن اعتلي مراد العرش ، أرسل إليه إمبراطور بيزنطة يخيّره بين أرسال أخويه إلي القسطنطينية كرهينة وفقاً لإتفاق

محمد چلبي معه ، وبين اطلاق سراح عمه مصطفي ومساعدته علي انتــزاع حقــه في السلطنة العثمانية . وكان رفض مراد الثاني لهذا التهديد إيذاناً ببدء مرحلة جديدة مــن الصراع علي عرش السلطنة بين مراد الثاني وعمه مصطفي الــذي كــان محجــوزاً في القسطنطينية[١٣٢] .

وهكذا أُطلق سراح مصطفي چلبي ، حيث قام الإمبراطور بتقديم المســاعدات اللازمة له وتعيينه سلطاناً علي الروميلي ، وذلك مقابل تسليم ابنه للإمبراطور والتنازل عن المناطق الممتدة من غاليبولي وعلي طول حدود البحر الأسود حتي بــلاد الأفــلاق علاوة علي تساليا لبيزنطة . وبالفعل ، استطاع مصطفي چلبي وجنيد بك إبن آيدين مع بعض فرق من الروم محاصرة غاليبولي . وعقب المواجهة التي وقعت بين قوات الــوزير الأعظم بايزيد باشا وقوات مصطفي چلبي بالقرب من غاليبولي ، تمكن مصطفي چلــبي من دخول أدرنة وإعلان نفسه حاكماً علي الروميلــي (٣٠ أغســطس ١٤٢١/ ١ رمضان ٨٢٤) . وإذا كان مصطفي چلبي قد تمكن من السيطرة علي مدينة غــاليبولي وتحصينها بعد تسليمها ، واستمالة جميع أمراء الحدود في الروميلي والتوجه بهم لبســط نفوذه علي الأناضول ، إلا أن عدم تسليمه مدينة غاليبولي للإمبراطور وفقاً للإتفاق المبرم بينهما ، جعل بيزنطة تسعي لإستئناف اتصالاتها مع مراد الثاني[١٣٣] .

---

[132] كانت بيزنطة أولي الدول التي أرسلت إلي مراد وفداً لتعزيته في وفاة أبيه ولتهنئته على تولية العرش بعده وتتمني استمرار روح الصداقة مع السلطان الجديد ، وتطلب تسليم أخوي السلطان الصغار يوسف ومحمود إلي بيزنطة ، وتهدد باطلاق سراح مصطفي چلبي الذي يمكنه الإستيلاء علي غاليبولي ومقدونيا في وقت قصير . وهكذا ، كلف السلطان الشاب أمير أمراء الروميلي بايزيد باشا بالرد علي الوفد ، بأنه حريص علي توطيد العلاقات مع بيزنطة غير أن مبادئ الشريعة الإسلامية لا تسمح بتلقي الأمراء المسلمين تربية وتعليم من غير المسلمين : Dukas, Bizsans Tarihi, (çev. Mirmiroğlu, İstanbul 1963), s.78; Necdet Öztürk, " Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi", Türkler, IX/231

[133] Dukas, Bizsans Tarihi, s.77, 80, keza bk. Necdet Öztürk, " Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi", Türkler, IX/232

وعلي أثر هذه التطورات ، قام مراد بإطلاق سراح محمد إبن ميخال الذي كان محبوساً منذ عهد محمد چلبي ، حيث استفاد من نفوذه علي أمراء حدود الروميلي الموجودين في صفوف مصطفي چلبي ، كما نجح في إيقاع الخلاف بين عمه وبين جنيد بك الذي انسحب إلي إمارة آيدين . وبذلك انهزم مصطفي چلبي في المواجهة التي وقعت بينه وبين مراد الثاني عند أولوباد بالقرب من بورصه (٢٠ ينـاير ١٤٢٢/ ١٨ محـرم ٨٢٥) ، فاسرع بالعودة إلي الروميلي التي كان أمرائها في أعلنوا الطاعة لمراد الثـاني . وعقب الهزيمة التي تلقاها مصطفي چلبي بالقرب من غاليبولي سلمت المدينة لمراد الثـاني الذي توجه من توه إلي أدرنه وجلس علي العرش ، وفر مصطفي متجهاً صوب بـلاد الأفلاق ، حيث أرسل مراد قوة استطاعت تعقبه والقبض عليه وإعدامه في أدرنه في نفس الشهر[١٣٤] .

ولما أيقن إمبراطور بيزنطة من تمكن مراد الثاني من القضاء علي فتنة مصـطفي چلبي ، أرسل إلي السلطان الجديد يهنئه علي الإنفراد بالعرش العثماني . إلا أن مراد كان قد اتخذ قراره بالفعل لحصار القسطنطينية ، حيث توجه إليهـا في ٢٠ يونيـه ١٤٢٢/ ٢١جمادي الثاني ٨٢٥ [١٣٥]. ولذلك ، سعي إمبراطور بيزنطة مرة أخري للإستفادة من

---

134 لتفصيلات أكثر حول محاولات بيزنطة للنيل من الدولة العثمانية خلال هذه الفترة ،أنظر Necdet Öztürk, " Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin : Yeniden Tesisi", Türkler, IX/232

135 يعتبر هذا هو الحصار السادس الذي تقوم به الدولة العثمانية للقسطنطينية ، حيث كان بيلدرم بايزيد قد قام بحصار المدينة لأربع مرات ، ثم قام موسي چلبي بحصارها في المرة الخامسة . وقد بدأ هذا الحصار في ربيع من عام ١٤٢٢م . وفي يونية من نفس العام أمر السلطان مراد الثاني محمد بك ابن ميخال بقيادة قوة قوامها عشرة آلاف مقاتل ، وتحرك هو بقوة تقدر بعشرين ألف لحصار المدينة . وإذا كان قد شن هجوم عام علي أسوار القسطينية في ٢٢ أغسطس ، إلا أنه تعذر فتحها . وكان هذا الحصار قد استمر نحو شهرين من الزمان : Dukas, Bizsans Tarihi, s.109, Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/389 vd., Necdet Öztürk, " Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi", Türkler, IX/234

شقيق السلطان مراد مصطفي چلبي الذي كان قد لجأ لإبن كيرميان عند تولية مراد الثاني السلطنة وتمكن الإمبراطور من أسره ، وذلك للضغط علي السلطان العثماني . وهكذا ، اضطر مراد لرفع الحصار الذي دام نحو شهرين عن القسطنطينية متوجهاً إلي بورصه وإزنيق للتصدي لأخيه مصطفي چلبي الذي أمده ابن قره مان وابن گيرميان بقوات من التركمان علاوة علي فرق الروم التي أرسلتها إليه القسطنطينية . وبعد أيقاع الهزيمة بقوات مصطفي چلبي ، قبض عليه واعدم في إزنيق في ١٤٢٣م/٨٢٦هـ[١٣٦].

توطيد مراد الثاني الإستقرار في الروميلي والأناضول :

لم تتردد أي من القوي المناوئة للعثمانيين سواء كانت محلية في الأناضول أو أقليمية في الروميلي في محاولة الإستفادة من حالة الاضطراب التي نتجت عن هذه المرحلة من الصراع علي العرش العثماني . إلا أن تمكُن مراد الثاني من القضاء علي منافسيه ، جعل إمبراطور بيزنطة يسعي لعقد صلح مع العثمانيين ، حيث استعاد العثمانيون الخراج السنوي الذي كان يدفعه الإمبراطور للخزينة العثمانية ويقدر بنحو ٣٠٠ ألف آقچه ، كما أعادوا سيطرتهم علي المناطق التي كانت قد تركت لبيزنطة في نواحي البحر الأسود وسلانيك وتساليا (٢٨ فبراير ١٤٢٤/ ١٩ ربيع الأولي ٨٢٧هـ)[١٣٧].

إخضاع اسفنديار بن جندار : وفي الأناضول حاول بعض أمراء الإمارات التركمانية استثمار نشوب حلقة جديدة من حلقات الصراع علي السلطنة في الدولة ، فقام اسفنديار بك ابن جاندار بالإستيلاء علي الأراضي التي كان قد منحها السلطان العثماني لإبنه قاسم بك ، الأمر الذي جعل قاسم يفر إلي مراد الثاني . قام السلطان العثماني بتجريد حملة ضد اسفنديار ، وألحق به الهزيمة بالقرب من بولي ، واستولي علي

---

[136] لتفصيلات أكثر حول حركة عصيان مصطفي چلبي ابن محمد چلبي انظر : Dukas, Bizsans Tarihi, s. 113, :Sehabeddin Tekindag,"Mustafa Celebi", IA, VIII/689, keza bk. Necdet Öztürk, " Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi", Türkler, IX/234

[137] Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/395 vd.

قسطموني وباقيركوره سي . وهكذا ، أُجبر اسفنديار بك علي إعادة أراضي ابنه قاسم بك إليه ، وتعهد بدفع خراج كبير للخزينة العثمانية ، والمشاركة في الجيش العثماني بقوات عسكرية عند الضرورة (١٤٢٣م/٨٢٧هـ)[١٣٨] .

استعادة النفوذ العثماني في الأفلاق : وفي الوقت الذي كان فيه مراد منشغلاً بمشكلة اسفنديار ، أراد حاكم الأفلاق دارقولا الإستفادة من انشغال السلطان العثماني في الأناضول ، وقام بالتجاوز علي الأراضي العثمانية . فأصدر مراد أوامره لأمير الحدود فيروز بك وكلفة بالهجوم علي الأفلاق ، وتشديد الضغط علي طول الحدود . فلما رأي دارقولا نجاح حملة مراد في الأناضول ، اصطحب ابنيه وتوجه بهما إلي أدرنه معلناً الطاعة للسلطان العثماني . وهكذا ، وافق دارقولا علي دفع الخراج المتأخر ، وفي هذه المرة لم يرض العثمانيون بأقل من تسليم ابنيه كرهائن لضمان تنفيذ بنود الإتفاقية مع الأفلاق . ومن ناحية أخري جدّد السلطان العثماني معاهدة الهدنة التي كانت الدولة قد عقدها مع ملك المجر من قبل . وبذلك أمكن لمراد توطيد الإستقرار مؤقتاً في الأناضول والروميلي[١٣٩] .

ضم إمارتي أيدين ومنتشه : ولما فرّ جنيد بك إبن أيدين من جيش مصطفي چلبي متوجهاً إلي إمارة آيدين منتهزاً فرصة فرار أبناء إلياس إبن منتشه أيضاً واعلانهم الإستقلال بإمارتهم ، سار السلطان مراد إليه بعد توطيد الاستقرار في الروميلي، حيث أوقع الهزيمة أولاً بأبناء إلياس وقبض عليهم ، وألحق إمارة منتشة تماماً بالدولة العثمانية (١٤٢٥م/ ٨٢٩هـ) ، ثم توجه بعد ذلك إلي جنيد بك إبن آيدين ، وهزمه

---

138 Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/397 vd, keza bk. Necdet Öztürk, " Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi", Türkler, IX/234

139 Dukas, Bizsans Tarihi, s. 113-114

وضم بلاد أيدين نهائياً للأراضي العثمانية . وأرسل خلفه حمزة بك أمير أمراء الأناضول الذي تمكن من القبض عليه وقتله في ١٤٢٦م/٨٢٩هـ[١٤٠] .

ترسيخ النفوذ العثماني لدي أبناء قرمان : لما توفي محمد إبن قرمان أثناء محاصرته لأنطاليا (٩ فبراير ١٤٢٣/٢٧ صفر ٨٢٦هـ) ، نشب الصراع بين أبناءه علي الحكم ، فقام مراد الثاني بتأييد إبراهيم ابن قره مان لتمكينة من ملك أبيه ، وذلك مقابل تنازله عن الأراضي العثمانية التي منحها تيمورلنك لهم (حميد إيلي ، بكشهر ، و اوتلق حصاري) ، كما قام بتزويج أخواته الثلاثة من أبناء محمد بك ابن قره مان المتوفي إبراهيم وعلي وعيسي[١٤١] .

ضم املاك أبناء كيرميان وتأمين الحدود الشرقية للدولة : ولما لم يكن ليعقوب إبن گيرميان أبناء يخلفونه من بعده في ملكه ، أوصي بأملاكه من بعده للعثمانيين . فلمّا توفي يعقوب بك ، عين السلطان مراد الثاني عثمان بك ابن اومور بك علي مركز إمارة گيرميان في كوتاهية ، وبذلك ضم العثمانيون أملاك هذه الإمارة أيضاً إلي أراضيهم . (١٤٢٨م/٨٣٢هـ) .

وهكذا ، أمكن لمراد الثاني اخضاع الإمارات التركمانية في وسط وغربي الأناضول ، إلا أن شرقي الأناضول كانت تموج بصراعات مستمرة بين تركمان آق قويونلي وقره قويونلي ، كما كانت العشائر التركمانية الأخري علي حدود الدولة الشرقية وبالخاصة في نواحي أماسيا وتوقات وجانيق ، تنشر الإضطراب وعدم الإستقرار في المنطقة ، وتحرض تركمان ذو القدر وآق قويونلي علي نهب الأراضي العثمانية وتخريبها . ولذلك اكتسبت عملية ضبط حدود الدولة الشرقية وتأمين ولاياتها في تلك المناطق أهمية كبري خلال هذه الفترة ، حيث قام مراد الثاني بتعيين يورگاچ باشا علي

---

140 Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/400 vd, keza bk . Necdet Öztürk, " Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi", Türkler, IX/236

141 Necdet Öztürk, " Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi", Türkler, IX/236

ولاية آماسيا للقيام بهذه المهمة (١٤٢٦م/ ٨٢٩هـ) ، فنجح في ضم سمسون للأملاك العثمانية (١٤٢٧م/٨٣٠هـ) وتوطيد الحكم العثماني في المنطقة[١٤٢] .

استعادة سلانيك ويانيا : كان يلدرم بايزيد قد فتح سلانيك في عام ١٣٩٤م/ ٧٩٦هـ ، ثم تنازل عنها بعد ذلك الأمير سليمان لبيزنطة مقابل تأييده في صراعه مع أخوته علي العرش العثماني . ولما تمكن مراد من القضاء علي فتنة مصطفي چلبي ، أمر طورخان بك بمحاصرتها حتي اضطر أهلها لبيع المدينة للبنادقة مقابل توفير المؤن لهم وتعمير المدينة (١٤٢٣م/٨٢٦هـ) . وهكذا ، توجه مراد إلي أمراء جزر ميديللي وساقيز ورودس ، حيث جدد معاهدات الصداقة معهم ، وطلب من البنادقة الخروج من سلانيك حتي يمكن تجديد المعاهدة التجارية معهم أيضاً (١٤٢٦م/٨٢٩هـ). ولكن رفض البنادقة تسليم المدينة دفع مراد للتوجه إليها ومحاصرتها حتي فتحت بهجوم شامل شنه علي المدينة في ٢٩ مارس ١٤٣٠/٢٥جمادي الثاني ٨٣٣ . وعقب الفتح أراد مراد ترسيخ أقدام العثمانيين في المدينة فأمر بإسكان العديد من العشائر التركمانية في مدنها ، حيث اضطر البنادقة لتوقيع معاهدة صلح بين الطرفين في ١٤٣١م/٨٣٤ هـ .

والحقيقة أن الدويّ العظيم الذي نتج عن فتح سلانيك في أوروبا عموماً وفي البندقية علي وجه الخصوص ، أجبر سكان يانيا علي فتح أبواب مدينتهم للعثمانيين بعد أن ضاقوا ذرعاً بصراعات أبناء حاكمها الذي توفي . فأسرع السلطان مراد بتعيين قره جه باشا عليها ، وأمره باسكان العشائر التركمانية في أنحائها (٩ اكتوبر ١٤٣١/ ١٣ صفر ٨٣٥)[١٤٣] .

---

[142] Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/427 vd. Necdet Öztürk, " Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi" ,Türkler, IX/236

[143] تعد سلانيك المدينة الإستراتيجية الثانية بعد بيزنطة ، فلما سلمت للبنادقة ، كانت سبباً لمواجهات بين الطرفين استمرت لما يقرب من سبعة أعوام متتالية (١٤٢٣-١٤٣٠) ، فيما يتعلق بهذا الصراع

التحالف القره ماني- المجري ضد العثمانيين : علي أثر وفاة حاكم الصرب استيفان لازاروفتش حليف الدولة (١٤٢٧م/٨٣٠هـ) تولي جورج برانقوفيتش الحكم بدلاً منه ، فقام حاكم الصرب الجديد بالتنازل عن بعض المناطق التابعة له لملك المجر ولإمبراطور ألمانيا للحيلولة دون قيام العثمانيين بهجمات عليها . وإذا كان العثمانيون قد استطاعوا إجبار أمير الصرب الجديد علي الرضوخ لدفع الخراج السنوي للخزينة العثمانية والمشاركة بفرق عسكرية عند الضرورة ، إلا أن النفوذ الذي كانت تمارسه المجر علي صربيا ، أجبر الأخيرة علي المشاركة في التحالف الذي جمع إبراهيم إبن قره مان وملك المجر .

وكان إبراهيم بك إبن قره مان يسعي لإستعادة الأراضي التي تنازل عنها للعثمانيين ، حيث قام بالتنسيق مع ملك المجر في الهجوم علي الأراضي العثمانية في الأناضول والروميلي في نفس الوقت . ففي الوقت الذي قام فيه إبن قرمان بالهجوم علي بكشهر وحميد إيلي وأسر أميرها إلياس بك ، راح ملك المجر يضرب قلاع قولومباج وگوويرجينلك . فأمر السلطان أمير أمراء الروميلي سنان باشا بالتوجه إلي المجر ، حيث نجح في الحاق الهزيمة بهم (١٤٣٣م/ ٨٣٧هـ) ، ثم توجه السلطان بنفسه إلي إبن قره مان ، فاستولي علي آقشهر وقونيه وبكشهر ووصل حتي بوزقير ، وأعلن عيسي بك أميراً علي إمارة قره مان ، الأمر الذي جعل إبراهيم يسعي للصلح الذي وافق عليه السلطان نظراً لهجوم المجار علي الآجه حصار (١٤٣٤م/ ٨٣٨هـ). وإذا كان السلطان العثماني قد توجه في عام ١٤٣٧م/ ٨٤١هـ إلي بلاد المجر ، إلا أن انسحاب الجيش المجري جعل الحملة تغير وجهتها إلي بلاد الصرب ، حيث ضم سمندره ضماً مباشراً (١٤٣٨م/ ٨٤٢هـ)[١٤٤] .

العثماني السندقي علي مدينة سلانيك ، أنظر : M. Delibas, "Selanik ve Yanya'da Osmanli Egemenliginin Kurlusu", Belleten, LI/199,(1987), s.75-102

[144] Necdet Öztürk, " Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi", Türkler, IX/238-239

تشكيل تحالف صليبي ضد العثمانيين : لقد شجعت الهزائم التي ألحقها جون هونياد المجري بالقوات العثمانية في الروميلي ودخوله بلاد الأفلاق ، شجعت بابا روما علي الدعوة لتشكيل حلف صليبي ضد العثمانيين ، حيث دخل هذا الحلف كل من المجر وبولندا والأفلاق والصرب والألمان والبلغار والأرناؤوط ، وذلك تحت قيادة جون هونياد . تحرك الجيش الصليبي في ٢٢يولية ١٤٤٣/ ١٦ربيع الأولي ٨٤٧ متوجهاً إلي بلاد الصرب ، حيث استولى عليها وعلي ألاجه حصار وشهركوي ونيش ، ثم التقي بالجيش العثماني عند ايزلادي دربندي وألحق به هزيمة سقطت علي أثرها فلبيه أيضاً (٢٤ ديسمبر / ٢٣ شعبان)[١٤٥] .

وفي هذا الظروف الدقيقة ، قام إبراهيم إبن قره مان بتجاوز الحدود العثمانية واحتل المناطق الممتدة من آقشهر وحتي بكشهر ، فأمر السلطان إبنه الأكبر علاء الدين بك بالتوجه إليه ، حيث أجبره مرة أخري علي الصلح واعادة الأراضي التي احتلها . والحقيقة أن مراد اضطر قبول هذا العرض لمواجهة الحلف الصليبي في الروميلي . إلا أن إبن قره مان راح ينقض الصلح مرة أخري ، وتجاوز الحدود وأخذ يتعدي علي الأملاك العثمانية (١٤٤٤م/٨٤٨هـ) ، فطلب السلطان الصلح من المجر التي وافقت عليه ، وأرسلت وفداً إلي أدرنه للإتفاق علي بنوده مع السلطان العثماني.

معاهدة أدرنه – سجدين (١٤٤٤م/٨٤٨هـ) : توجهت هيئة مجرية إلي أدرنه للتصديق علي المعاهدة التي وافق عليها السلطان العثماني في ١٢يونية ١٤٤٤/ ٢٥صفر ٨٤٨ ، حيث تضمنت هذه المعاهدة البنود التالية :

١. التعهد بإعادة المناطق التي كان قد استولي عليها الجيش الصليبي من الصرب.

٢. تشكيل حكومة صربية مستقلة .

---

[١٤٥] بخصوص تفصيلات حول معارك ايزلادي ووارنا ، أنظر : H.Inalcik- M.Oguz, Gazavat-i Sultan Murad b. Muhammed Han (Izladi ve Varna Savaslari , 1443-1444 uzerinde Anon'm Gazavatname), Ankara 1978, keza bk.Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/422

٣. إعادة ابني حاكم الصرب المحجوزين لدي العثمانيين .

٤. تعهد الصرب بدفع الخراج المقرر عليهم للخزينة العثمانية كل عام .

٥. الاعتراف بالنفوذ المجري علي بلاد الأفلاق مع الإستمرار في دفع الخراج للعثمانيين[١٤٦] .

وهكذا ، تفرغ مراد الثاني لمواجهة إبراهيم بك إبن قره مان ، حيث عبر إلي الأناضول بعد مرور شهر من توقيع المعاهدة ، ففر إبن قره مان إلي طاش إيلي وأرسل زوجته أخت السلطان وسيطاً للصلح . وبالفعل ، تم الصلح بين الطرفين وعقدت معاهدة مع إبن قره مان في أغسطس ١٤٤٤/ ربيع الآخر ٨٤٨ ، تعهد فيها بعدم التجاوز مرة ثانية ، وبإعلام السلطان بمراسلات أوروبا معه ، وبتقديم ابنه رهينة لدي السلطان ، والمشاركة بفرقة عسكرية في جيش الدولة عند اللزوم ، وذلك مقابل إعادة السلطان الأراضي التي كان قد استولي عليها إلي إبن قره مان ثانية[١٤٧] .

تنحي مراد الثاني عن الحكم وعودة الحيوية للحلف الصليبي : إذا كانت حالة الإخفاق التي تعرضت لها الجيوش العثمانية في الروميلي قد جعلت مراد الثاني يستدعي ابنه محمد من مغنسيا إلي أدرنه في ٢٢ مايو ١٤٤٤/ ٢٥محرم ٨٤٨ للتزول له عن العرش ، فقد حاول السلطان العثماني توفير حالة من الإستقرار علي الجبهة الأوروبية بعقد معاهدة أدرنه-سجدين وعلي الجبهة الأناضولية بعقد معاهدة صلح مع إبن قره مان ، وذلك قبل اتخاذه قرار الإنزواء في بورصة ، وترك شئون السلطنة لإبنه محمد الثاني[١٤٨] .

---

[146] Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/426, keza bk. Necdet Öztürk, " Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi", Türkler, IX/239-240

[147] Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/427vd

[148] تذكر المصادر الأسباب التي دعت مراد للتنحي عن العرش لابنه محمد ، وتحصرها في حالة الإخفاق التي تعرض لها السلطان في مواجهاته البلقانية ، ومرور مراد خلال هذه الفترة بحالة من الإنكسار لكبريائه ، شعوره بحزن عميق نتيجة لوفاة ابنه الأكبر علاء الدين ، الخلافات التي وقعت بينه

والحقيقة أن تنحي مراد الثاني عن السلطة لإبنه الذي لم يكن يتجاوز الثالثة عشر من عمره في هذا الوقت الدقيق ، وعلي هذا النحو ، كان له آثار داخلية وخارجية عظيمة علي الدولة . فقد بدأ الأهالي يهاجرون إلي الأناضول ، وشرع الجيش في بناء السدود والخنادق حول أدرنه ، وسعي البابا لدفع المجر لنقض المعاهدة مع العثمانيين ، وأسرع إبن قره مان بالمخابرة مع الحلف الصليبي ثانية ، وأطلق إمبراطور بيزنطة سراح أحد مدعي السلطنة ويدعى أورخان لإنتزاع السلطة من السلطان الشاب محمد ، وأغلق الأسطول البابوي طريق العبور إلي الروميلي بسفنه . وكان قائد الأسطول البابوي حون هونياد يري بأن قطع الطريق بين الأناضول والروميلي ، ومن ثم منع انتقال الجيوش العثمانية من الأناضول إلي أوروبا عن طريق البحر سوف ييسر عملية طرد العثمانيين من البلقان ، حيث اعتقد بأنه في حالة انتصار الحلفاء في هذه المواجهة ، يمكنه الظفر بمملكة بلغاريا لنفسه . وبذلك تكاملت عوامل مواجهة جديدة بين الدولة العثمانية والحلف الصليبي .

وهكذا ، نُقضت معاهدة أدرنه- سجدين ، ودخل الحلف هذه المرة المجر وبوهيميا والأفلاق والخروات وبولندا وألمانيا ، علاوة علي البندقية والباباوية وبيزنطه وراجوزه . وتحركت جيوش الحلفاء متوجهة إلي ويدين ، حيث تمكنت من السيطرة علي المناطق الممتدة حتي وارنا بسهولة ، وقطع الطريق البحري بين الأناضول والروميلي. ولما وصلت هذه الأخبار إلي أدرنه ، أستدعي رجال الدولة مراد الثاني من بورصه لقيادة الجيش ومواجهة هذا الحلف الصليبي الجديد . وبذلك تحرك مراد من الأناضول بنحو ٤٠ ألف فرد ، وعبر المضيق من موضع قلعة أناضولي حصار وبمساعدة جمهورية جنوة التي

وبين أمراء الحدود ، والرغبة في إبراز ابنه محمد كسلطان قادم لمواجهة أية محاولات تقوم بها بيزنطة لتأييد أي من مدعي السلطنة الذين كانت تحتجزهم لديها . وإذا كانت المصادر اختلفت في تاريخ تنحية مراد خلال عام ١٤٤٤م ، فقد تباينت أيضاً فيما إذا كان مراد تنحي عن السلطنة مرة واحدة أم مرتين . انظر في هذا الخصوص : Necdet Öztürk, " Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi", Türkler, IX/240

حصلت علي دوقة ذهبية عن نقل كل فرد من الجيش العثماني . وبهذا الشكل ، تمكن مراد من تجاوز الحصار الذي ضربه الحلفاء علي البسفور ، والوصول بجيشه إلي أدرنه[١٤٩].

معركة وارنا (١٠ نوفمبر ١٤٤٤/٢٠ رجب ٨٤٨) : ولما سمع جيش الحلفاء الذي كان قد أقام معسكراته أمام وارنا بأن مراد الثاني قد تمكن من العبور إلي الروميلي ويتوجه علي رأس الجيش العثماني صوب وارنا ، أصابه حالة من الذهول ، وبدأ يستعد لمعركة فاصلة . وفي صباح ١٠ نوفمير ١٤٤٤/ ٢٠ رجب ٨٤٨ وقعت المواجهة بين الطرفين أمام وارنا . وإذا كانت القوات الصليبية قد نجحت في النيل من جناحي الجيش العثماني في البداية ، إلا أن دحر الهجوم الذي قاده ملك المجر علي قلب الجيش العثماني ، أوقع هزيمة قاسية بالتحالف الصليبي ، ففر هونياد من أرض المعركة بقواته ، وراحت القوات العثمانية تتعقب الجيش الصليبي المتقهقر علي طول نهر طونه ، حيث استطاع العثمانيون بذلك توطيد أقدامهم في الروميلي مرة ثانية[١٥٠] .

149 Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/434vd

150 كان أمير أمراء الأناضول قره جه بك يتخذ مكانه في الجناح الأيمن من الجيش العثماني ، أما الجناح الأيسر فكان يقوده أمير امراء الروميلي شهاب الدين باشا ، وكان مراد الثاني يتخذ موقعه في قلب الجيش ، حيث وضع علي رأس رمح في مقدمة الجيش نص معاهدة الصلح التي نقضت . أما الجيش الصليبي فكان الملك لاديسلاس في مركزه ، وكان جون هونياد يتجول بين صفوف الجيش باعتباره القائد العام للجيش الصليبي . وقد حقق الهجوم الأول للجيش الصليبي الذي قاده ملك المجر بفرقة الفرسان نجاحاً محدوداً ، حيث اضطربت صفوف الجيش العثماني وتعرضت خيمة السلطان للخطر . ولكن قره جه بك تمكن في اليوم التالي من جمع صفوف الجنود العثمانيين تحت راية السلطان ثانية ، حيث بدأت معركة في صباح يوم الثلاثاء ١٠ نوفمبر واستمرت حتي وقت العصر ، فقامت فرق اليكيجري بحصار ملك المجر ولهستان الشاب لاديسلاس حتي سقط قتيلاً ، وحقق العثمانيون نصراً مؤذراً في هجومهم المضاد ، وفر يانقو بصعوبة من أرض المعركة ، وسقط قره جه باشا وعثمان بك أبن امور بك شهيدين . والحقيقة أن انتصار وارنه قد أنهي الأزمة التي مرت بها الدولة ودعت مراد الثاني للتخلي علي السلطة لإبنه الصغير . وقد وضع الباحثون هذا الإنتصار في موضعه بين انتصارات قوصوه (١٣٨٩) ونكبولي (١٣٩٦) قوصوه الثانية (١٤٤٨) التي مثلت محاور أساسية خلال

وإذا كان السلطان العثماني قد بقي في أدرنه عقب معركة وارنا بضغط من الوزير الأعظم جاندارلي خليل باشا ، إلا أن القرائن تؤكد أن مراد الثاني لم يباشر شئون السلطنة ، وبقيت كافة مقاليد الحكم في يد ابنه محمد الثاني ، حيث يلاحظ رسائل بشري انتصار وارنه إلي سلاطين العالم الإسلامي والردود عليها راحت تحمل اسم محمد الثاني . وهكذا ، آثر مراد العودة لإنزوائه ثانية في بورصة بعد استقرار الأوضاع في الروميلي . ولكن ، ترك مراد السلطنة لمحمد الثاني صغير السن لم تكن تروق لعدد من رجال الدولة وعلي رأسهم الوزير الأعظم جاندارلي قره خليل باشا ، حيث اتفقوا علي تنحية محمد الثاني وإعادته إلي مغنسيا ، واستدعاء أبيه مراد الثاني ليجلس علي العرش . وبالفعل ، تم لهم ما أرادوا في ٥ مايو ١٤٤٦م/ آخر محرم٨٥٠هـ[١٥١] .

المورة تحت النفوذ العثماني : انتهز أمير المورة قسطنطين فرصة اغلاق مضيق چناق قلعه ووصول الحلف الصليبي إلي ورانا ، وقام بتجاوز برزخ كورنت واحتل بعض المدن العثمانية في المنطقة . وعقب انتصار العثمانيين في وارنا طالب مراد الثاني قسطنطين بإعادة المناطق التي استولي عليها ، إلا أن عدم رد أمير المورة وتحصينه

مرحلة تأسيس الدولة ، انظر في هذا الخصوص : Necdet Öztürk, “ Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi”, Türkler, IX/241; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/435-439

151 انقسم رجال الدولة خلال هذه الفترة فريقين بين مؤيد لمراد ومؤيد لمحمد الثاني ، حيث كان الوزير الأعظم جاندارلي خليل باشا وفرق اليكيجري يؤيدون عودة مراد للحكم ، وكان زاغنوس باشا وصاروجه باشا يدعمون ابنه محمد . وقد قام المؤيدون لمراد وعلي رأسهم خليل باشا بتحريض فرق اليكيجري بعد أن تأخرت رواتبهم علي العصيان والمطالبة بتنحية محمد واعادة مراد لسدة الحكم مرة أخرى وراحوا يهددون بالإنضمام لمدعي السلطنة أورخان چلبي الموجود في بيزنطة حتي تم لهم ما أرادوا فيما عرف في التاريخ العثماني بحادثة "بوحوك تبه" ، وقد اتهم جاندارلي خليل باشا بالتورط في تدبير هذه الحادثة . وهكذا ، عاد مراد لسدة الحكم بعد تركه له لمدة عامين ، حيث قضى في سلطنته الثانية هذه نحو خمس سنوات أخري (١٤٤٦- ١٤٥١م) : Necdet Öztürk, “ Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi”, Türkler, IX/242.

لبرزخ كورنت جعل السلطان العثماني يتوجه للمنطقة بنفسه في ٢٧ نوفمبر ١٤٤٦/ ٨ رمضان ٨٥٠ ، ويسيطر علي البرزخ ، حيث فتحت أمامه أبواب المورة ، وبسط نفوذه علي باتراس وكوردس . وهكذا ، أجبر قسطنطين علي طلب الصلح ، فوافق السلطان علي دفع أمير المورة الخراج للخزينة العثمانية والإعتراف بالنفوذ العثماني عليها[١٥٢] .

بدء حركة عصيان بلاد الأرناؤوط : كان فتح العثمانيين لبلاد الأرناؤوط سبباً في بدء سلسلة من حركات العصيان ضد الإدارة العثمانية . إلا أن الدولة تمكنت من فرض نفوذها علي أمير الأرناؤوط ياني قاستيريوتا (١٤٢٤م/٨٢٧هـ) واحتجاز أبنائه كرهائن لدي الدولة ، ومن ثم اسكان العديد من العشائر التركمانية في تلك المناطق ، الأمر الذي ساعد علي انتشار الإسلام بين السكان الأرناؤوط . ولما مات قاستيريوتا (١٤٤٣م/٨٤٧هـ) ، فر إبنه اسكندر الذي نشأ في السراي العثماني من الأراضي العثمانية رغبة منه في الإستيلاء علي أملاك أبيه ، حيث تمكن من تحقيق هدفه ، وبدأ صراعه الطويل مع الإدارة العثمانية . وإذا كان مراد الثاني قد توجه لحصار قلعة قرويا التي تحصن بها اسكندر بك ، إلا أن استعدادات هونياد لحرب العثمانيين وتجاوزه الأراضي الصربية ، جعل السلطان العثماني يرفع الحصار عن المدينة مؤقتاً ويتخذ الإستعدادات لمواجهة حلف صليبي جديد لاحت موشراته في الأفق (١٤٤٧م/ ٨٥١هـ)[١٥٣] .

معركة قوصوه الثانية : والحقيقة أن الدافع وراء دعوة هونياد لحملة صليبية جديدة ضد العثمانيين ، كان هو محاولة محو عار هزيمة وارنا . فقد سعي هونياد هذه

---

[152] فيما يتعلق بحملة مراد الثاني علي المورة ، أنظر : A. Kurat," Bizans'ın Son ve Osmanlıların İlk Tarihçileri, Türklerin 1446'da Mora'yı Hataca Bağlamalarına Ait Bizans ve Osmanlı Türk Kaynaklarında Verilen Malumatın Mukayesesi", TM., III.(1935),185-206

[153] لتفصيلات أكثر حول حركة عصيان الأرناؤوط بقيادة إسكندر بك ، ومساهمة هؤلاء العصاة في التحالف الصليبي ضد الدولة العثمانية ، أنظر : Bilgehan Pamuk, "Güney Arnavutluk'ta Osmanlı Hakimiyeti", Türkler, IX/196 vd.

المرة لتشكيل جيش من الأفلاق والبولنديين ومتطوعي أردل والمانيا ، كما شارك أمير الأرناؤوط إسكندر بك في هذا الجيش بقوة كبيرة . وهكذا ، سار هونياد بجيشه صوب بلاد الصرب التي تمكن من احتلالها بسهولة ، والتقي بالجيش العثماني الذي كان يقوده مراد الثاني بنفسه في ميدان قوص اووا في أواسط أكتوبر ١٤٤٨/ شعبان ٨٥٢ . وإذا كانت الحرب التي بدأت بهجوم قاده هونياد قد استمرت ثلاثة أيام سجالاً بين الطرفين ، إلا أن انحياز أمير الأفلاق للجانب العثماني وعدم قدر الصرب علي التفاهم مع المجار ، أدي لهزيمة الجيش الصليبي وفرار هونياد من أرض المعركة بصعوبة في ٢٠ اكتوبر/ ١٣ شعبان[١٥٤] .

وأخيراً ، وفي ٣ فبراير ١٤٥١/ غرة محرم ٨٥٥ توفي السلطان مراد الثاني مشلولاً ، حيث استدعي ابنه الشهزاده محمد من ولايته بمغنيسا ، فوصل بعد ستة عشر يوماً ، وجلس علي عرش الدولة للمرة الثانية . وهكذا ، تمكن مراد الثاني خلال فترة حكمه (١٤٢١-١٤٥١م/٨٢٤-٨٥٥هـ) من إتمام ما بدأه أبيه ، واستعاد نفوذ الدولة العثمانية علي الأناضول والروميلي ، وأتم وضع أساس جديد أكثر عمقاً وأصالة لدولة آل عثمان .

ومهما يكن من أمر ، فقد نجح مراد الثاني في مواجهاته ضد البنادقة بسبب سلانيك وضد المجر وعلي طول نهر طونة بسبب تطورات الأوضاع في بلاد الأفلاق الصرب بعد أن نحّي منافسيه على العرش . وبذلك تيسر لمراد خلال العشر سنوات الأولي من حكمه أن تحقيق نجاحات هامة في الأناضول والروميلي سعياً لإستعادة أملاك الدولة ونفوذها الذي كان موجوداً في أواخر عهد ييلدرم بايزيد . وعلي الرغم من تعرض الدولة العثمانية خلال السنوات ما بين ١٤٤١- ١٤٤٤م/ هـ لعدة أزمات نتج عنها تراجع حدودها علي كل الجبهات وتشكيل تحالف صليبي ضم كل من البندقية والمجر استهدف إخراج العثمانيين من كل أوروبا ، فقد قضى انتصار وارنا ١٤٤٤م/ هـ علي كل هذه الطموحات ، ومكنت العثمانيين من ترسيخ أقدامهم في البلقان ،

---

[154] Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/342-345

بحيث أصبح عهد مراد الثاني مرحلة هامة من مراحل فتوح البلقان وإسكان التركمان فيها . والحقيقة أن العثمانيين راحوا يلقون بثقلهم في منطقة الروميلي ويرسخون أقدامهم فيها منذ استيلاء تيمورلنك علي الأناضول ، وتركت مهمة حل مشكلات صربيا والأرناؤوط والمورة واستانبول لمحمد الثاني الذي راح يضع الأساس لمرحلة الإمبراطورية .

أما علي الجبهة الشرقية فقد حرصت الدولة العثمانية خلال عهد مراد الثاني علي اتباع سياسة حذرة تجاه بسط نفوذها علي الأناضول التي كانت تحت نفوذ شاهروخ بن تيمور حتي ذلك الوقت . أما أكبر نجاح تمكن مراد من تحقيقه علي الجبهة الأناضولية ، فقد تمثل في اعادة بسط النفوذ العثماني علي جميع الإمارات القديمة غربي الأناضول .

ومن ناحية أخري ، فقد كشف الصدر الأعظم خليل باشا وفرق اليكيجري في مركز الدولة وأمراء الحدود في الولايات عن المعدن الحقيقي لشخصية مراد الثاني . فقد كانت حركة عصيان اليكيجري خلال فترة حكم مراد الثانية أهم ما تعرضت له مركز الدولة حتي ذلك الوقت ، كشفت هذه الحادثة عن نفوذ هذه الفرق العسكرية لأول مرة ودورهم في تولية أحد أفراد أسرة آل عثمان للسلطنة . وقد شهد عهد مراد الثاني أول مواجهة بينه وبين الطبقة الأرستقراطية من أسرات الغزاة الأوائل الذين شاركوا في فتوحات الدولة الأولي . فقد كشفت الضائقة الإقتصادية عن وجهها القبيح بتفجير حالة من التنافس علي النفوذ بين أمراء الدولة الكبار . إلا أن مراد تمكن من حل هذه المشكلة بتعيين خدم السلطان الخواص في مناصب الدولة العليا ، فكانت هذه السياسة ضربة قوية للأرستقراطية العثمانية التي حازت علي نفوذ كبير في الدولة منذ ظهورها . وقد أخذ محمد الثاني يعمق هذه السياسة خلال عهده ، حيث تعرض السلاطين العثمانيين الذين مارسوا هذه السياسة منذ ذلك الحين لإنتقادات شديدة فيما بعد .

وعلي حدود الدولة أصبح أمراء الحدود من أصحاب النفوذ الراسخ في عهد مراد الثاني . وكان علي رأس هؤلاء الأمير محمد بن ميخال وطوراخان بن باشا يكيت الذين كانا علي رأس قوات الحدود . فكان محمد بن ميخال وطوراخان يقودان

هجمات قوات الحدود علي بلاد اليونان والمورة . أما أبناء أورانوس فكانوا يباشـــرون فعالياتهم في سلانيك ثم في سره ز وبلاد الأرناؤوط بعد ذلك . أما الجبهة الثالثة في بلاد الصرب والبوسنة فقد تولاها عدد من أبناء الأمراء الأوائل . وكانت الجبهة الرابعة تتخذ من ويدين مركزاً لها تحت قيادة سنان بك ، حيث امتدت إلي بلاد المجر والأفلاق . وقد لعب أمراء الحدود هؤلاء دور هام في تأييد مدعي السلطنة خلال عهد مراد ، كمـــا لم يترددوا في أحيان كثيرة في الخروج علي أمراء الأمراء الذين كانوا يمثلون السلطة المركزية في الدولة . ولذلك لم يأمن مراد الثاني جانبهم في أي وقت ، حيـــث بـــدأ دورهـــم الإستراتيجي في الدولة في الزوال التدريجي خلال الربع الثاني من القرن الخامس عشـــر الميلادي .

ومهما يكن من أمر ، فقد تمكن كل من محمد الأول ومراد الثاني خلال فتـــرة حكمهم من اعادة تأسيس الدولة العثمانية من الأناضول والروميلي ، ومهدا الطريـــق لمحمد الفاتح لتحقيق حلم جده ييلدرم بايزيد لتشكيل إمبراطوريـــة مركزيـــة تكـــون عاصمتها القسطنطينية .



المصادر والمراجع

أولا - المصادر :

- إبن كمال (كمال باشا زاده) أحمد عاشقي ، تواريخ آل عثمان ، نشر ن. آتسز ، استانبول ١٩٤٩ (انظر الدفتر الأول ، نشر شرف الدين طوران ، أنقرة ١٩٧٠ ، الدفتر الثاني ، نشر شرف الدين طوران ، أنقرة ١٩٩١)

- أحمدي ، دستان تواريخ ملوك آل عثمان ، نشر جيفجي اوغلي آتسز ، استانبول ١٩٤٧ (كذا أنظر نشر إسماعيل أنور ، أنقره ١٩٨٣)

- إسماعيل غالب ، تقويم مسكوكات عثماني ، استانبول ١٣٠٧

- أوروج بك ، تواريخ آل عثمان ، نشر بابنجر ، استانبول ١٩٢٥ (كذا أنظر نشر نهال آتسز ، استانبول ١٩٧١)

- أنوري ، دستور نامه ، نشر مكرمين خليل ينانج ، تورك تاريخ انجماني كلياتي، استانبول ١٩٢٨

- حديدي ، تواريخ آل عثمان ، نشر نجدت أوزتورك ، استانبول ١٩٩١

- خواجه سعد الدين ، تاج التواريخ ، استانبول ١٢٧٩ (كذا أنظر نشر عصمت بارماقسزأوغلي ، انقره ١٩٩٢)

- شكر الله ، بهجت التواريخ ، (نقله للتركية آتسز) ، استانبول ١٩٣٩

- صولاق زاده ، عثمانلي تاريخي ، استانبول ١٢٩٨ (كذا انظر نشر واحد جابوق ، الجزء الأول ١٩٨٩)

- عالي مصطفي ، كتاب تاريخ كنه الأخبار ، نشر أحمد أوغور وأ. كول وم. جوهادار ، قيصرية ١٩٩٧

- عاشق باشا زاده ، تواريخ آل عثمان ، (نشر علي بك) ، استانبول ١٩٣٢ (كذا انظر نشر لهال أتسز ، استانبول ١٩٤٩)

- فريدون بك أحمد ، منشآت السلاطين ، جزءان ، استانبول ١٢٧٤

- قره مانلي محمد باشا ، تواريخ سلاطين عثمانية ، نشره ونقله للتركية قونيه لي إبراهيم حقي ، استانبول ١٩٤٩

- لطفي باشا ، تواريخ آل عثمان ، نشر علي بك ، استانبول ١٣٤١

- مجدي ، ترجمة الشقايق النعمانية (حدايق الشقايق) ، استانبول ١٢١٩

- منجم باشي أحمد دده بن لطف الله ، ترجمة جامع الدول (صحائف الأخبار) ، استانبول ١٢٨٥ (كذا انظر نشر أحمد اغيراقجه لوقائع ١٢٩٩-١٤٨١ ، استانبول ١٩٩٥)

- نشري محمد ، جهانما - تواريخ آل عثمان ، نشري تاريخي ، نشر محمد كويمان ، أنقره ١٩٨٣

ثانياً - المراجع :

١- التركية :

-Aka İsmail , " Timur'un Ankara Savaşı Fetihnamesi " (فتحنامه تيمور حول حرب أنقره), Belgeler, XI/15 (1986),1-22.
- __________ , Timur ve Devleti (تيمور ودولته) , Ankara 1991.
-Aktepe M. Münir, " Osmanlıların Rumeli'de İlk Fethettikleri Çimbi Kalası "(قلعة جمبي أولي فتوحات العثمانيين في الروميلي) , İÜ.Ed.Fak., Tarih Dergisi, 1-2, İstanbul 1949-1950
-Artuk İ., " Osmanlı Beyliğinin Kuruluşu : Osman bey'e Aid Bir Sikke " Türkiye'nin Sosyal ve Ekonomik Tarihi (1071- 1920) ") تأسيس الإمارة العثمانية : عملة تنسب لعثمان بك " التاريخ الإجتماعي والإقتصادي لتركيا), Ankara 1982, 27-33.

-Barkan Ö.L., " Osmanlı İmparatorluğu'nda Bir İskan ve Kolonizasyon Metodu Olarak Sürgünler " (الترحيل في الإمبراطورية العثمانية باعتباره نظام اسكان), İktısat Fak. Mec. XIII/ 1-4 (1952), 56-78.
-Başar Fahmettin, " Fetret Devrinde Osmanlı- Bizans Münasebetleri (1402-1413) (العلاقات العثمانية-البيزنطية خلال مرحلة الفتور، ١٤٠٢-١٤١٣), Prof. Dr. Fikret İşiltan'a 80 doğum yılı Armağanı, İstanbul 1995, 247-260.
- __________ , " Osmanlıların Menşe-i ve Kayıların Anadolu'ya Gelişi Hakkında "(حول نشأة العثمانيين ووصول عشائر قايي إلي الأناضول), Tarih Dergisi, sy.36, İsatanbul 2000, s.64
- Baştav Şerif , " Osmanlı İmparatorluğunun Kuruluşunda Bizans ve Avrupa "(بيزنطة وأوروبا أثناء تأسيس الإمبراطورية العثمانية) , Osmanlı , İstanbul 1999,
- _________ , " Osmanlı İpmaratorluğunun Yeniden Kuruluşunda Rumeli'nin Katkısı " (دور منطقة الروميلي في إعادة تأسيس الإمبراطورية العثمانية), XI. Türk Tarih Kongresi, 5-9 Eylul 1990, III. Ankara 1994.
- _________ , Bizans İmparatorluğu Tarihi Son Devir (1261-1461)(تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، المرحلة الأخيرة ١٢٦١-١٤١٦), Osmanlı Türk-Bizans Münasebetleri, Ankara 1989.
- ________ , Bilgehan Pamuk, " Güney Arnavutluk'ta Osmanlı Hakimiyeti "(النفوذ العثماني في جنوب الأرناؤوط), Türkler, Ankara 2002, IX/196
- Bıyıktay Ömer Halıs, Yedi Yıl Harbi İçinde Timur'un Anadolu Seferi ve Ankara Savaşı (حملة تيمور في الأناضول وحرب أنقره خلال حرب السنوات التسع), İstanbul 1934.
- Bozbara Nuray, Osmanlı Yönetiminde Arnavutluk ve Arnavut Ulusculuğunun Gelişimi(الارناؤوط وتطور القومية الأرناؤوطية في الإدارة العثمانية), İstanbul 1997.
- Castellan George, Balkanların Tarihi(تاريخ البلقان), İstanbul 1993.
- Çetin Arslan H., " Erken Osmanlı'nın Fetih ve Yerleşim Sisteminde Akıncı Beylerinin Stratejik Önemi " (الأهمية الإستراتيجية

(للأمراء المهاجين في نظام الفتوح العثمانية المبكرة والإسكان), Türkler, Ankara 2002, IX/ 116-121
- Danişmend, İ. Hami, " Osman Ğazi'nin Nesep ve Hüviyeti "(نسب عثمان غازي وهويته), Türklük Mecmuası, c. I. (1939) s. 207-223
- Delibaşı Melek, " Osmanlı – Bizans İlişkileri – (العلاقات العثمانية البيزنطية), Türkler, Ankara IX/154-164.
- ________ , "Selanik ve Yanya'da Osmanlı Egemenliğinin Kurulması" (تأسيس النفوذ العثماني في سلانيك ويانيا), Belleten LI/ 189 (1987), 75- 107.
- Demirkent İ., " 14. Yüzyıla Kadar Balkan Yarımadasında Bizans Hakimiyeti" (الحكم البيزنطي في شبه جزيرة البلقان حتى القرن ١٤), I. Kosova Zaferinin 600. Yıldönümü Sempozyumu, Ankara 1989Doğru Halime, Osmanlı Devletinin Rumeli'de Fetih ve İskan Siyaseti ", Türkler, Ankara 2002, IX/ 165
- Dennis G. T., " 1403 Tarihli Bizans- Türk Antlaşması " (المعاهدة التركية البيزنطية المؤرخة بتاريخ ١٤٠٣), çev. M. Delibaşı, AÜDTCFD., XXIX/1-4 (1971), 153-166.
- Dirimtekin Feridun, " Muasır Bizans Kaynaklarına göre Osmanlıların Rumeli'ye Geçişi ve Yerleşişleri " (انتقال العثمانيين إلى الروميلي واستقرارهم بها وفقاً للمصادر البيزنطية المعاصرة), VII. TTK Kongresi, 25-29 Eylul 1970, II, Ankara 1973.
- Divitçioğlu S., Osmanlı Beyliğinin Kuruluşu (تأسيس الإمارة العثمانية), İstanbul 1996.
- Emecen M. Feridun , " Tarih Koridorlarında Bir Sınır Şehri Edirne "(أدرنه كمدينة حدودية في مجرى التاريخ), Edirne Serhattaki Payıtatı, İstanbul 1998
- ________ , " I. Kosova Savaşının Balkan Tarihi Bakımından Önemi "(أهمية معركة قوص أووا الأولي بالنسبة لتاريخ البلقان), Kosova Zaferinin 600 Yıldönümü Sempozyumu, Ankara 1989
- ________ , İlk Osmanlılar ve Batı Anadolu Beylikler Dünyası(العثمانيون الأوائل ودنيا إمارات غربي الأناضول), İstanbul 2001.

- __________ , " XVI. Asırda Balkanların Kuzeydoğu Kısmında İskan Tipleri ve Özellikleri Hakkında Notlar " (أشكال الإسكان في القسم الشمالي الشرقي للبلقان خلال القرن ١٦م، وملاحظات حول خصائصه) V. Uluslararası Türkiye Sosyal ve İktisat Tarihi Kongresi, Ankara 1990, 543-550.
- Ernst Werner , Büyük Bir Devletin Doğuşu Osmanlılar (1300-1481)(قيام دولة عظمي ، العثمانيون), çev. Yılmaz Öner, I.-II., İstanbul 1988.
- Gibbons Herbert Adams, Osmanlı İmparatorluğu'nun Kuruluşu(تأسيس الإمبراطورية العثمانية), çev. R. Hulûsi, İstanbul 1928
- Hassan Umit , Osmanlı Örgüt-İnanç Davranıştan Hukuk-İdeolojıye(العثمانيون من المنظمة والعقيدة إلي الفقه والإيديولوجية), İstanbul 2001.
- Heywood C.J., " Osmanlı Devletinin Kuruluş Problemi Yeni Hipotez Hakkında Bazi Düşünceler " (بعض الأفكار الجديدة حول مسألة قيام الدولة العثمانية), Osmanlı, I. Ankara 1999, s. 137-145.
- İlber Ortaylı, Menkibe , Osmanlı Devletinin Kuruluşu Efsâneler ve Gerçekler(المناقب، الحقائق والأساطير في مسألة تأسيس الدولة العثمانية), Ankara 2000.
- İlgürel Mücteba, " XIV. Yüzyılda Osmanlı Devletinin Siyasi Durumu "(الوضع السياسي للدولة العثمانية خلال القرن ١٤م), I. Kosova Zaferinin 600 Yıldönümü Sempozyumu (26 Nisan 1989), Ankara 1992, s. 18
- İnalcik Halil, " Osmanlı Tarihi En Çok Saptırılmış Tek Yanlı Yorumlanmış Tarihtir " (التاريخ العثماني باعتباره أكثر التواريخ التي حرفت وفسّرت من جانب واحد) Cogito, Sy. 19, İstanbul 1999.
- __________ , Osmanlı İmparatorluğu'nun Ekonomik ve Sosyal Tarihi (1300-1600) (التاريخ الاقتصادي الاجتماعي للدولة العثمانية، ١٣٠٠-١٦٠٠), İstanbul 2000.
- __________ , " Osmanlı Tarihine Toplu Bir Bakış " (نظرة عامة علي التاريخ العثماني) Osmanlı, I., (Ankara 1999), 37-60 .
- __________ , " Osmanlı Devletinin Kuruluş Problemi " (مشكلة تأسيس الدولة العثمانية), Doğu-batı (Yıl2/7, Temmüz 1999), s. 9-22.



- __________ , " Edirne'nin Fethi 1361 "(فتح أدرنه ١٣٦١), Serhattaki Payıtaht Edirne, Ankara 1965.
, " Osmanlı Döneminde Balkanlar Tarihi Üzerine Yeni Araştırmalar, Tarihte Güneydoğu Avrupa : Balkanolojinin Dünü, Bugünü ve Sorunları (دراسات حديثة حول تاريخ البلقان في العصر العثماني ، جنوب شرق أوروبا في التاريخ ، الدراسات البلقانية بالأمس واليوم ومشكلاتها), Ankara 1999.
- __________ , " Osmanlılarda Saltanat Veraseti Usûlü ve Türk Hakimiyeti Telakkisi ile İlgisi " (حول أصول وراثة السلطنة لدى العثمانيين وتقاليد الحكم لدى الترك), AUDTCFD., CXIV, (1959), 78-112
- __________ , " Osman Ğazi'nin İznık Kuşatması ve Bafeus Savaşı "(حصار عثمان غازي لإزنيق ومعركة بافوس), Söğütten İstanbul'a '
- __________ , " Osmanlı Fetih Yöremleri "(ميادين الفتح العثماني), Söğütten İstanbul'a, s. 443-474.
- İnbaşı Mehmet, " Balkanlarda Osmanlı Hakimiyeti ve İskan Siyaseti "(الحكم العثماني في البلقان وسياسة الإسكان), Türkler, Ankara 2002, IX/154.
- İncicyon P.İ., H. D. Andreasyon, "Osmanlı Rumelisi Tarih ve Coğrafyası"(الروميلي العثمانية ، التاريخ والجغرافيا) , Güneydoğu Avrupa Araştırma Dergisi, c. 2/3, İstanbul 1973-1979.
- Kaleşi Hasan, " Türklerin Balkanlara Girişi ve İslamlaştırma "(دخول الترك للبلقان وأسلمتها), çev. Kemal Beydilli, TED. Sy.10-11, İstanbul 1979-1980, s. 181.
- Kayabinar Event, " Yunanistan'da Osmanlı Hakimiyetinin Kuruluşu (1361-1461)(تأسيس الحكم العثماني في اليونان، ١٣٦١-١٤٦١), Türkler, Ankara 2002, IX/ 187.
- Köprüllü M. Fuat, Osmanlı Devletinin Kuruluşu (تأسيس الدولة العثمانية), Ankara 1984.
- __________ , Osmanlı İmparatorluğunun Etnik Menşei Meseleleri(مشكلات المنشأ الإثني للإمبراطورية العثمانية), Belleten, VII/28 (1943).

- Köprülü Orhan F., " Osmanlı Devletinin Kuruluş ve Gelişmesindeki İtici Güçler "(القوي الدافعة في تأسيس الدولة العثمانية وتطورها), Osmanlı, I. Ankara 1999, s. 153
- Kurat A.N., " Bizans'ın Son ve Osmanlıların İlk Tarihçileri, Türklerin 1446'da Mora'yı Haraca Bağlamalarına âid Bizans ve Osmanlı-Türk Kaynaklarında Verilen Malûmâtın Mükayesesi " (مقارنة المعلومات الواردة في المصادر البيزنطية والتركية العثمانية لدي المؤرخين البيزنطيين الآواخر والمؤرخين العثمانيين الأوائل بخصوص فرض الخراج علي المورة عام ١٤٤٦م), Türkiyat Mecmuası, (1955), sy.3, 185-206.
- Lindner P., Ortaçağ Anadolusunda Göçebeler ve Osmanlılar(العثمانيون والهجرات في أناضول العصور الوسطي), terc. M. Günay, İstanbul 2000.
- Luttel A., " 1389 Öncesi Osmanlı Genişlemesine Latin Tepkilerri "(ردود الأفعال علي التوسع العثماني قبل عام ١٣٨٩م), Osmnlı Beğliği 1300-1389, İstanbul 1997.
- Michel Baliver, Şeyh Bedreddin Tasavvuf ve İsyan (الشيخ بدر الدين بين التصوف والعصيان), çev. Ela Gültekin, Tarih Vakfi Yurt Yayınları, İstanbul 2000.
- Nicol D. , Bizans'ın Son Yüzyılları (1291-1453) (السنوات الأخيرة لبيزنطة), terc. B. Umur., İstanbul 1999.
- Ocak A. Yaşar, Osmanlı Toplumunda Mülhidler ve Zındıklar (15-17 Yüzyıllar)(الملحدون والزنادقة في المجتمع العثماني), İstanbul 1998.
- Oğuz Tekin, " İlk Osmanlı Parası Ne Zaman Basıldı " (متي ضربت السكة العثمانية الأولي؟), Toplumsal Tarih, sy. 66,(Hazıran 1999).
- Orhonlu Cegiz, Osmanlı İmparatorluğunun Aşiretlerin İskani, İstanbul 1987
- Öden Z.G., Karası Beyliği(إمارة قره سي), Ankara 1999.
- Öden Z.G., Umuroğulları Hakkında Bazi Görüşler " (بعض الرؤى بخصوص أبناء أومور), XII. Türk Tarihi Kongresi, Bildiriler, Ankara 1999, II. 589-594.

- Öztürk Necdet, " Osmanlıların Rumeli'ye Geçişi ve Gelibolu'nun Fethi "(عبور العثمانيين إلي الروميلي وفتح غاليبولي), Türk Dünyası Tarih Dergisi, sy. 52, İstanbul 1991.
- Öztürk Necdet, " Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin yeniden Te'sisi "(عصر الفترور وتأسيس الحكم العثماني من حديد), Türkler, Ankara 2002, IX/221-251.
- Rainert Stefhon W., " Niş'ten Kosova'ya İ. Murad'ın Son Yıllarına İlişkin Düşünceler, Osmanlı Beyliği (أفكار حول الأعوام الأخيرة لمراد الأول من نيش إلي قوصوه ، الإمارة العثمانية), İstanbul 1997.
- Runcimau S., Haçlı Seferleri Tarihi(تاريخ الحملات الصليبية), terc. F. İşitan, I-III, Ankara 1987
- Severcan Şefaettin , " Şeyh Bedreddin Olayı "(واقعة الشيخ بدر الدين), Türkler, Ankara 2002, IX/ 259-275.
- Sezgin İbrahim, " Osmanlıların Rümeli'ye Geçişi ve İlk Fetihler "(عبور العثمانيين للروميلي وفتوحاتهم الأولي), Osmanlı, c.I. Ankara 1999, s.215.
- Silberschmidr Max, Venedik Menbalara Nazaran Türk İmparatorluğunun Zuhuru Zamanında Şark Meselesi (المسألة الشرقية في زمن ظهور الإمبراطورية التركية وفقاً للمصادر البندقية), çev. Köprülüzade Ahmed Gemal, İstanbul 1930.
- Sümer Faruk, " Osmanlı Devrinde Anadolu'da Kayılar " (عشائر قايي في الأناضول في العصر العثماني), Belleten, XII./47(Temmüz 1948) s. 598-632.
- ___________ , " Osmanlı Devleti Kurucusu Osman Ğazi ve Devri ile ilgili Bazi Meseleler Hakkında Düşünceler (أفكار حول بعض المشكلات المتعلقة بمؤسس الدولة العثمانية عثمان غازي وعصره), Türk Dünyası Araştırmaları, sy. 80 (1992), s.6-26.
- Şimşirgil Ahmed, " Osmanlı Devletinin Kuruluşunda Hizmeti Geçen Alplar ve Ğâziler " (جماعات الآلب والغزاة الذين قاموا بدور في تأسيس الدولة العثمانية), Türkler, Ankara 2002, IX/99-108.
- Şükrü M., Osmanlı Devletinin Kuruluşu Bitisli İdris'in Heşt-i Behişt adlı eserine göre (تأسيس الدولة العثمانية وفقاً لأثر هشت بهشت لإدريس البتليسي), Ankara 1934.

- Viorel Panaite, " Osmanlı Hakimiyetinin Tuna Nehrinin Küzeyinde Yayılışı : XIV ve XVI Yüzyıllarda Eflak ve Boğdan "(زحف النفوذ العثماني في شمالي نهر طونه ، الفلاق والبغدان خلال القرون ١٤-١٦م), Türkler, Ankara 2002, UX/206-218.
- Werner, Büyük Bir Devletin Doğuşu(ميلاد دولة عظمي), Osmanlılar (1300-1481), terc. O. Esen- Y. Önen, İstanbul 1986.
- Wittek P., " Ankara Bozgunundan İstanbul'un Fethine (1402-1455)(العثمانيون منذ هزيمة أنقرة وحتي فتح استانبول), çev. H. İnalcik, Belleten, VII/27, (1943), 557-589.
- Yaltkaya M. Şerefettin, Simavna Kadısıoğlu Şeyh Bedreddin(الشيخ بدر الدين إبن قاضي سماونه) (Haz. H. Er), İstanbul 1994.
- Yücel Y., Çobanoğulları- Candaroğulları Beylikleri (إماراتي أبناء جوبان وأبناء جندار), Ankara 1980.
- ____________ , Timür'ün Dış Politikasında Türkiye ve Yakın doğu(تركيا والشرق الأدني في السياسة الخارجية لتيمور), 1393-1402, Ankara 1980
- Zachariadou Elizabeth A., " Karesi ve Osmanlı Beyliği (1300-1389)(إمارة قراسي والإمارة العثمانية), İstanbul 1997.
- Ziyataş Kenan - Sadettin Baştürk, " Fetret Dönemi ve Sonuçları "(مرحلة الفتور ونتائجها), Türklar, Ankara 2002, IX/252-258.

غير التركية :

- Atiya A., The Crusade Of Nicopolis, Londra 1934., Türkçe terc. Esat Uras, Niğbolu Haçlılar Seferi, Ankara 1956.
- Atıl Esin, The Age Of Sultan Suleyman Rhe Magnificent, Washington D.C., New York 1987.
- Emmert T. , Serbian Golgotha Kosova 1389, New York 1990.
- _________ , " The Battle Of Kosova Early Reports Of Victory And Defeat " , Kosova, Legacy Of Medieval Battle, ed. W. Vucinich – T. Emmert, Minneapolis 1991.
- İmber Colin, The Ottoman Empire 1300-1481, İstanbul 1990.
- İnalcık Halil, " The Gustion Of The Emergence Of The Ottoman State ", İJTS., II/2 (1982).
- _________ , The Ottoman Empire The Calssical Age (1300-1600), London 1973.

- ________, The Middile East And Balkans Under The Ottoman Empire, Bloomington 1993.
- _________, Essas İn Ottoman History, İstanbul 1998.
- ________ , The Ottoman Empire Conquest Organization and Economy, London 1978
- Kafador C., Between Tow Woarlds, The Construction Of The Ottoman State, California 1995.
- Karpat Kemal, The Ottoman State and İts Place İn The World History, London 1974.
- Kiel M., " Observation On The History Of Northern Grece During The Turkish Rule ", Balkan Studies, c.12 (1971), 415
- Neciboğlu N., Byzantium Between The Ottomans and The Latıns : A study Of Political Attitdes İn The Late Palaiologan Period 1370-1460, Harvard Un. Dokora Tezi, 1990.
- Reinert S., " A Byzatine Source On The Battles Of Bileca And Kosova Polje, Keydones Letter 396 and 398 Reconsidered Studies İn Ottoman History İn Honour Of Prof. V. İ. Menage, İstanbul 1994.
- Reinert S., " The Paloiologoi, Yıldırım Bayezid and Constantinople, June 1389-March 1391", Studies İn Honor Of Speras Veyonis, jr. Vol I. Hellenic Ahtiguity and Byzantium, New York
- Zacharıadou E., " Süleyman Çelebi İn Rumeli and The Ottoman Chronicles ", Der İslam, LX. (1963), 268-296.



تاريخ وحدث

١٢٦١-١٣١٠	- تأسيس إمارات منتشه ، آيدين ، صاروخان ، قراسي وآل
---	عثمان في غربي الأناضول .
١٣٠١	- انتصار عثمان غازي في معركة قويون حصار .
١٣٠٨	- وفاة آخر سلطان سلجوقي وهو مسعود الثاني .
١٣٢٦	- الفتح العثماني لمدينة بورصة (٦ إبريل) .
---	- وفاة عثمان غازي وتولية أورخان غازي .
١٣٢٧	- ضرب أول عملة عثمانية في بورصة .
١٣٣١	- فتح العثمانيين لإزنيق .
١٣٣٧	- فتح العثمانيين لإزميت .
١٣٤٤	- احتلال الصليبيين لقلعة إزمير .
١٣٤٥	- إلحاق العثمانيين لإمارة قراسي .
١٣٤٦	- زواج أورخان بك من إبنة جون كانتاكوزين السادس ،
---	وتدعي تيودورا .
١٣٥٢	- منح اورخان بك إمتيازات في الأراضي العثمانية لجنوة .
---	- دخول سليمان باشا بن أورخان بك إلي أدرنه ، وفتحه لقلعة
---	جيمبي ، وبدء الفتوحات العثمانية لتراقيا .
١٣٥٤	- فتح العثمانيين لأنقرة ، ولغاليبولي .
---	- اعتلاء باليولوج عرش بيزنطة ونزول كانتاكوزين عن العرش .
١٣٥٧	- وفاة الشهزاده سليمان ، وبدء السلام العثماني البيزنطي .
١٣٥٩	- استئناف الشهزاده مراد غزو تراقيا ، وفتح جورلو وديمتوقه .
١٣٦١	- فتح مراد الأول لمدينة أدرنة .
١٣٦٢	- وفاة أورخان بك ، وتولية مراد الأول .
---	- بدء حركات العصيان ضد العثمانيين في الأناضول .

١٣٦٥-١٣٦٣	- فتوحات العثمانيين في جنوبي بلاد البلغار وفي تراقيا .
---	- فتح فيليبه .
١٣٧١	- انتصار الدولة العثمانية علي أمراء الصرب في جيرمن (٢٦
---	سبتمبر) .
١٣٧٣	- عصيان كل من أدرونيكوس وساوجي بك ضد والديهما ،
---	وهزيمتهما .
١٣٨٠-١٣٧٥	- إلحاق قسم من أراضي ابناء كيرميان وأبناء حميد للأراضي
---	العثمانية .
١٣٧٩	- إعتلاء باليولوج عرش بيزنطة ثانية بمساعدة العثمانيين .
١٣٨٣	- دخول العثمانيين سره ز (١٩ سبتمبر) .
١٣٨٥	- فتح العثمانيين لصوفيا .
١٣٨٦	- دخول العثمانيين نيش .
---	- تدخل العثمانيين في منطقة أماسيا شمالي الأناضول .
١٣٨٧	- فتح العثمايين لسلانيك .
---	- انتصار العثمانيين علي القره مانيين .
١٣٨٨	- تحالف الصرب والبلغار والبوشناق ، وهزيمة العثمانيين عند
---	بلوشنيك (٢٧ أغسطس)
١٣٨٩	- فتح العثمانيين شمالي بلاد البلغار .
---	- موقعة قوص أووا (١٥ يونية) .
١٣٩٠-١٣٨٩	- مقتل مراد الأول ، وتولية بايزيد الأول الحكم .
١٣٩٠	- فتح بايزيد الأول لمناطق غربي الأناضول ومنتشة وآيدين
---	وصاروخان وإمارات كيرميان وحميد إيلي .
١٣٩١	- دخول العثمانيين لإنطاليا وآلانيا
---	- فتح اسكوب ، وغزو شمالي الأرناؤوط .

١٣٩٢	- دخول العثمانيين قسطموني وآماسيا .
١٣٩٣	- عودة بايزيد للبلقان وإلحاق ضفاف طونه من بلاد البلغار .
---	- دعوة بايزيد لأمراء البلقان التابعين له بما فيهم الإمبراطور
---	باليولوج للإجتماع في ويريا.
١٣٩٤-١٤٠١	- محاصرة استانبول .
١٣٩٤	- فتح العثمانيين لتساليا ، وغزو بلاد المورة .
١٣٩٥	- حملة بايزيد علي بلاد المجر والأفلاق ، وحرب أرجيش (١٧
---	مايو) .
---	- تحول الأفلاق إلي ولاية تابعة للعثمانيين .
---	- إعدام ملك المجر شيشمان .
---	- تحالف البندقية والمجر وبيزنطة ضد العثمانيين .
١٣٩٧	- عودة ييلدرم بايزيد إلي الأناضول، وضمه لأراضي القرامانيين.
١٣٩٨	- الإستيلاء علي إمارة بلغار ويدين وإمارة القاضي برهان الدين.
١٣٩٩	- الإستيلاء علي ملاطية وألبسان التابعتان للمماليك في وادي
---	الفرات
١٤٠٠	- سلب ونهب تيمورلنك لمدينة سيواس (١٠ أغسطس) .
١٤٠١	- دخول ييلدرم بايزيد لمدينة أرزنجان .
١٤٠٢	- معركة أنقرة (٢٨ يولية) .
١٤٠٣	- وفاة ييلدرم بايزيد .
---	- احياء تيمور لإمارات الأناضول من جديد .
---	- صراع أبناء بايزيد سليمان جلبي في أدرنه ، وعيسي جلبي في
---	بورصة ، ومحمد جلبي في أماسيا علي الإنفراد بالعرش .
---	- اتفاقيات سليمان جلبي مع الدول الغربية ، وتسليم سلانيك
---	للبيزنطيين .

١٤٠٦	- المواجهة بين محمد الأول وسليمان جلبي .
١٤١٠	- هزيمة سليمان جلبي لموسي جلبي في الروميلي (١٥ يونيـــة و
---	١١ يوليه) .
١٤١١	- هزيمة موسي جلبي لسليمان جلبي .
---	- محاصرة استانبول .
١٤١٢	- عقد الإتفاق بين محمد الأول ومانويل ضد موسي جلبي .
١٤١٣	- هزيمة محمد الأول لموسي جلبي بالقرب مـــن صـــوفيا (٥
---	سبتمبر) .
---	- إنفراد محمد جلبي بالحكم في الدولة العثمانية .
١٤١٤	- حصار محمد جلبي لقونية ، وإستيلائه من جديد علي حميــد
---	إيلي .
١٤١٥	- حملة محمد الأولي علي غربي الأناضول ، وإعادة ضمه لإزمير
---	وبقية مدن بحر إيجه .
١٤١٦	- دخول مصطفي بن بايزيد الأول إلي الروميلي .
---	- عصيان ثم إعدام الشيخ بدر الدين .
---	- ضم محمد الأول لأراضي أبناء جندار .
١٤١٧	- ضم محمد الأول لمدينة قره مان ، ثم لقيرشهر ونيكده .
١٤٢١	- وفاة محمد الأول ، ووصول مراد الثاني لبورصـــة وإعتلائـــه
---	العرش .
---	- سيطرة مصطفي علي الروميلي .
١٤٢٢	- إعدام مصطفي في أدرنه .
---	- محاصرة مراد الثاني لإستانبول (٢ يونية – ٦ سبتمبر) .
---	- عصيان مصطفي شقيق مراد الثاني في الأناضول .
١٤٢٣	- هزيمة مراد الثاني لمصطفي .

---	- اخضاع أبناء جندار وأبناء قره مان للحكم العثماني .
١٤٢٣-١٤٣٠	- خضوع سلانيك لنفوذ البنادقة ، والحرب العثمانية البندقية .
١٤٢٥	- ضم إزمير للأراضي العثمانية .
١٤٣٢-١٤٣٣	- ظهور حركة العصيان في جنوبي بلاد الأرناؤوط .
١٤٣٧	- استيلاء مراد الثاني علي حميد إيلي من جديد .
---	- حملة مراد الثاني علي البغدان .
١٤٤١-١٤٤٢	- هزيمة جون هونياد للعثمانيين في البغدان .
١٤٤٣	- استيلاء جون هونياد علي شبه جزيرة البلقان .
---	- عصيان إسكندر بك في شمالي بلاد الأرناؤوط .
١٤٤٤	- عقد الصلح بين الدولة العثمانية وبلاد المجر في أدرنه (١٢ يونية)
---	- عقد الصلح بين العثمانيين والقره مانيين في يكيشهر (أغسطس) .
---	- تنازل مراد الثاني عن العرش لإبنه الصغير محمد الثاني .
---	- معركة وارنه (١٠ نوفمبر) .
١٤٤٦	- إعتلاء مراد الثاني العرش ثانية .
١٤٤٨	- الحملة الثانية لمراد الثاني علي إسكندر بك .
---	- معركة قوص أووا (١٧-١٩أكتوبر).
١٤٤٩	- حملة الأفلاق .
١٤٥١	- وفاة مراد الثاني (٣ فبراير) وإعتلاء محمد الثاني (الفاتح) .

الفصل الثاني

الدولة العثمانية في عصر الإمبراطورية

(مرحلة الإزدهار)

محمد الفاتح ، بايزيد الثاني ، سليم الأول ، سليمان القانوني

سليم الثاني ، مراد الثالث

(١٤٥١-١٥٧٤م/ ٨٥٥-٩٨٢هـ)


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



محمد الثاني

فاتح عصر الإمبراطورية

(١٤٥١-١٤٨١م/ ٨٥٥-١٥١٢ هـ)

كان انتقال الشهزاده محمد من مغنسيا إلي أدرنة لتولي مقاليد السلطة في الدولة عقب وفاة أبيه مراد الثاني (٣ فبراير ١٤٥١/ أول محرم ٨٥٥) بدايةً لعصر جديد في الدولة العثمانية . فقد تمكن السلطان محمد الثاني خلال ثلاثة عقود من الزمان ، هي فترة حكمه ، من الإنتقال بالعثمانيين من مرحلة الدولة إلي مرحلة الإمبراطورية . فبدأ فتوحاته بتحقيق نبوأة محمد رسول الله (عليه الصلاة والسلام) وفتح القسطنطينية . وبفتح حاضرة الدولة البيزنطية يكون السلطان الشاب قد الأساس لإمبراطورية إسلامية دارت في فلكها السياسة الدولية لأكثر من خمسة قرون متتالية ، فاعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية التي عرفت منذ ذلك الحين باسم "الدولة العلية" .

توطيد حالة الإستقرار في الأناضول والروميلي : عقب اعتلائه عرش السلطنة (١٨فبراير/ ١٦ محرم) أراد السلطان محمد الثاني الذي كان يبلغ من العمر نحو عشرين عاماً القبض علي مقاليد الحكم في الأناضول والروميلي . فخرج لتأديب إبراهيم ابن قره مان الذي انتهز فرصة انتقال السلطة ، وقام بتحريض بعض أمراء الأناضول علي العصيان ، وبالتعدي علي الحدود العثمانية . ولما عجز ابن قرمان عن مواجهة السلطان محمد ، طلب الصلح علي أن يتنازل عن آقشهر وبكشهر وسيدي شهر للدولة والمشاركة في الجيش العثماني عند الضرورة[١٥٥] .

والحقيقة أن وصول الأنباء بتفكير إمبراطور بيزنطة في اطلاق سراح الشهزادة أورخان المحتجز لديه قد جعل محمد الثاني يسرع بالعودة إلي الروميلي واتخاذ بعض التدابير يأتي علي رأسها :

---

155 İsmail H.Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I., 4. bas., Ankara 1982, s.453-455

١. استمالة الإمبراطور بالتنازل عن نواحي چورلي التي كان يطالب بها .
٢. عقد هدنه مع الوصي علي عرش المجر جون هونياد مدتها ثلاث سنوات حتي يأمن جانب المجر في أي مواجهة قد تنشب .
٣. تجديد معاهدة الصداقة بين الدولة العثمانية وبين أمير الصرب ، والتنازل له عن منطقة آلاجه حصار .
٤. تجديد معاهدات الدولة مع الأفلاق وميديلي وساقيز ورودس والبنادقة .

وبهذه الإجراءات حاول السلطان الشاب توطيد حكمه في الروميلي كما أمنه في الأناضول .

التفكير في فتح القسطنطينية : منذ انتزاع الشام ومصر وشمال أفريقيا من قبضة الرومان ، حرص المسلمون علي تحقيق نبؤة رسول الله صلي الله عليه وسلم بفتح القسطنطينية . فلما أوقع ألب أرسلان الهزيمة بإمبراطور الروم في ملازگرد عام ١٠٧١م/ ٤٦٤هـ ، انساحت العشائر التركمانية في الأناضول حتي تمكن قليچ أرسلان السلجوقي من الوصول لبحر مرمرة ، وبناء أسطول في مضيق چناق قلعه لمحاصرة القسطنطينية لأول مرة (١٠٩٤م/ ٤٨٧هـ). فكما كانت حماية مركز الكنيسة الشرقية في القسطنطينية من مخططات قليچ أرسلان سبباً في انطلاق الشرارة الأولي للحروب الصليبية علي الشرق ، كانت الدافع الأول وراء التكتلات الصليبية ضد الدولة العثمانية منذ عصر مراد الأول وحتي نهاية عصر مراد الثاني (١٣٦٢- ١٤٥١م/ ٧٦٣- ٨٥٥هـ)[١٥٦] .

والحقيقة أن محمد الثاني لم يكن يرغب خلال هذه المرحلة من حكمة في إجراء أي عمل عسكري ضد أي من خصومه . فقد كان شغله الشاغل هو إعادة هيبته كسلطان للبلاد بعد أن أجبره الوزير الأعظم جندرلي خليل باشا علي النزول عن العرش من قبل ، حيث كان يضع علي رأس أولوياته ، مسألة القبض علي مقاليد الحكم

---

[156] فيما يتعلق بالمحاولات السابقة لفتح استانبول ، أنظر : Feridun Ditimtekin, “Fatih Önce İstanbul”, 511 Yıldönümü Konferansları, İstanbul 1964

وإضعاف نفوذ الأسرات التركمانية الأرستقراطية التي شاركت العثمانيين الحكم منذ غزواقم الأولي حتي أصبح لها نفوذ تمكنت به من إنزال سلطان ورفع آخر. إلا أن طلب إمبراطور بيزنطة قسطنطين من السلطان محمد الثاني زيادة المبلغ المقرر كمصاريف للشهزادة اورخان المحجوز لديه ، وتهديده بإطلاق سراح الأمير الأسير في حالة عدم موافقته علي هذا الطلب ، كان سبباً في تحول سياسة السلطان الشاب ، والتفكير بجدية في فتح القسطنطينية[١٥٧] .

وعلي الرغم من أن هذا المشروع كان يحمل مخاطر عديدة للسلطان الشاب، إلا أن مؤيدي السلطان كانوا يرون أن تنفيذه سوف يحقق مكاسب استراتيجية للدولة أهمها:

١. التمكين لنفوذ السلطان الجديد في الداخل بتحقيق نبوأة رسول الله ، وفي الخارج بوراثة أملاك الإمبراطورية البيزنطية .
٢. القضاء علي مركز إحاكة الفتن الذي كانت تمثله بيزنطة بتحريضها الدائم علي الدولة العثمانية .
٣. إحكام السيطرة علي البلقان ، والتمكن من الربط بين الأراضي العثمانية في الأناضول والروميلي .

---

[157] الحقيقة أنه لم يكن تهديد إمبراطور بيزنطة للسلطان الشاب محمد الثاني سوي القشة التي قصمت ظهر البعير ، حيث كان عدد غير قليل من رجال الدولة وبالخاصة أولئك المحيطين بالسلطان الشاب قد أدركوا بأن منذ واقعة أنقرة أن بيزنطة راحت تمثل مصدر تهديد وتربص دائم بدولة آل عثمان بدعمها لمدعي السلطنة من أبناء بايزيد وأحفاده وبتحريضها سواء إمارات الأناضول أو البلقان وأوروبا كلها على من الدولة العثمانية وطردها ليس من البلقان وحسب وإنما من كل أنحاء الأناضول أيضاً . ومن ناحية أخري ، كانت المحاولات غير الناجحة لفتح القسطنطينية وترهيب السلطان الشاب من اخفاق جديد وحشد عداء اوروبا كلها ضد الدولة ، وضرورة توطيد مكانة السلطان الجديد في الداخل أولاً من الحجج التي عرضها المعارضين للإقدام على عملية حصار جديدة لاستانبول . فيما يتعلق بهذه الخلاف بين رجال الدولة انظر : Önder Bayır, "Çağ Açan Fetih İçin Yapılan Hazırlıklar", Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 2002, IX/322-324

وهكذا ، قام الفاتح باتخاذ عدد من التدابير الأولية لإحكام الحصـــار علـــي القسطنطينية، حيث أمر ببناء قلعة علي الطرف الأوروبي لساحل الروميلي من البوسفور عرفت بإسم " روميلي حصار" أو " بوغازكسن حصار " (يوليـــه ١٤٥٢/ رجـــب ٨٥٦) في الجهة المقابلة لقلعة " أناضولي حصار " (كوزلجه حصار) التي كان يلـــدرم بايزيد قد أقامها عند استعداده لحصار استانبول من قبل ، وذلك للسيطرة علي مضـــيق البوسفور ، وقطع المساعدات التي يمكن أن ترد لبيزنطة عن طريق البحـــر الأســـود ، ولتأمين عمليات نقل القوات العثمانية من الأناضول إلي الروميلي والعكـــس . وأثنـــاء عملية أنشاء القلعة أمر السلطان بصب المدافع الكبار التي سوف تشارك في الحصار تحت إشراف المهندس المجري اوربان الذي كان قد لجأ للعثمانيين[١٥٨] .

وإذا كانت مساعي السلطان الشاب لمحاصرة القسطنطينية واجراءاته التمهيدية لفتح هذه المدينة العريقة قد آتت ثمارها بسرعة ، حيث أرسل إمبراطور بيزنطة يعـــرض استجابته لإية مطالب يقررها السلطان العثماني ، إلا أنها في نفس الوقت كشفت رأيين متعارضين في الديوان الهمايوني . الرأي الأول ، عبر عنه الوزير الأعظم جندارلي خليـــل باشا الذي كان يميل إلي اتخاذ سياسة مهادنة مع بيزنطة حتي لا يستثير أوروبا في حرب صليبية جديدة ضد الدولة ، حيث أكد أن الإقدام علي هذا العمل مغامرة غير مأمونـــة الجانب ، وأن الإمبراطور يمكنه حشد تحالف صليبي قد ينال من الدولة ، وأن المساعدات التي قد ترد من كل أنحاء أوروبا يمكنها جعل المدينة تصمد أمام الحصار كما صمدت من قبل . أما الرأي الثاني ، فقد تبناه زاغنوس باشا معلم السلطان الـــذي رأي أن الـــدول المسيحية غارقة في خلافاتها وأنها لن تستطع نبذ خلافاتها لإرسال الجيوش وانقاذ المدينة ، وأن الجيوش العثمانية المتفوقة عدداً وعدة يمكنها فتح المدينة والسيطرة عليها قبل وصول تلك المساعدات المزعومة . وهكذا ، مال السلطان إلي رأي معلمه زاغنوس ورفاقـــه ،

---

158 Önder Bayır, "Çağ Açan Fetih İçin Yapılan Hazırlıklar", Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 2002, IX/322-324; Nicolo Barbaro, Kostantıniyye Muhasarası Ruznamesi 1453, çev. Ş. T.Diler, İstanbul 1953, s. 20 vd.,

ورفض عرض سفير الإمبراطور ، حيث أبلغة بأنه لن يرضى سوي بتسليم مدينة القسطنطينية وخروجه منها .

استعدادات إمبراطورية تنهار ودولة في طور الإزدهار : لقد أكدت سياسة إمبراطور بيزنطة لمواجهة هذا الحصار الأخير بأن دولته في طور الإنهيار، وأنه مستعد لإرضاء أطماع الدول المتربصة به في أوروبا والتنازل عن أجزاء هامة من أملاك الامبراطورية في سبيل البقاء وحماية بيزنطة ، بل قبول الرضوخ للمذهب الكاثوليكي حتي لا تسقط مركز الكنيسة الأرثوذكسية في يد العثمانيين المسلمين . وهكذا ، وافق الإمبراطور علي التنازل عن سيلوري وميسوري لهونياد ملك المجر ، والتنازل عن جزيرة ليمني لجيش المرتزقة المعروف باسم " قاتالان " ، وذلك مقابل مساعدته في المواجهة المقتربة بينه وبين العثمانيين ، كما وافق علي توحيد الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية في فلورانسا ، وإنهاء النزاع بين الكنيستين في القسطنطينية ، وذكر اسم البابا في كنيسة آيا صوفيا لقاء الوقوف يداً واحدة أمام الغزو العثماني الإسلامي . وفي الوقت الذي كان فيه الإمبراطور مشغولاً في اصلاح وتحصين أسوار القسطنطينية ، وصلت المساعدات من جنوة تحت قيادة جستنيان الذي عين قائداً لقوات الدفاع عن المدينة ، ومن البابوية وأسبانيا وغيرها[١٥٩].

ومن ناحية أخري ، أصدر محمد الثاني أوامره باحاطة القسطنطينية بسياج من الجنود لمنع الدخول إليها أو الخروج منها ، وبنصب المدافع الكبار حول المدينة ، كما كلف قره جه باشا بفتح القلاع المحيطة بالمدينة ، وكلف طورخان باشا وأبناءه بالهجوم علي المورة حتي لا يتيح لأشقاء الإمبراطور الموجودين بها أي فرصة لتقديم المساعدات

---

[159] فيما يتعلق بالاستعدادات بيزنطة لمواجهة حصار محمد الثاني للقسطنطينية ، ووضع الجبهة الداخلية في بيزنطة ، أنظر : D. Nicol, Bizans'in Son Yuzyillari (1291-1453), tec. B. Umur, Isatnbul 1999, s. 455vd; Serif Bastav, " Bizans Imparatorlugu Tarihi Son Devir (1261-1461), Osmanli Turk-Bizans Munasebetleri, Ankara 1989, s. 321vd.; Dukas, Bizsans Tarihi, (çev. Mirmiroğlu, İstanbul 1963), s.143vd.

للقسطنطينية ، كما أرسل لأمراء الولايات والسناجق بالخروج لمحاصرة حاضرة الدولة البيزنطية (مارس ١٤٥٣/ ربيع الأول ٨٥٧) .

حصار القسطنطينية الأخير : عقب الإنتهاء من الإستعدادات تحرك السلطان الشاب من أدرنه متجهاً صوب استانبول في ٢٣ مارس ١٤٥٣/١٢ ربيع الأول ٨٥٧ ، حيث وصلت الجيوش العثمانية أمام المدينة في ٥ إبريل/ ٢٥ ربيع الأول ، وشرعت في الحصار في اليوم التالي . وكان الجيش العثماني المحاصر يتراوح ما بين ١٥٠-٢٠٠ ألف مقاتل تقريباً ، ويتشكل من فرق القابو قولي (خدم الباب السلطاني) وسباهية مقاطعات تيمار الأناضول ، علاوة علي جنود العزب والگوكللو . أما الأسطول العثماني الذي شارك لأول مرة في حصار القسطنطينية بشكل جاد فقد كان يتراوح ما بين ١٠٠ و١٥٠ قطعة بحرية كبيرة وصغيرة . والحقيقة أن حصار المدينة لم يكن مكتملاً لتعذر الوصول لأسوار المدينة الموجودة ناحية الخليج ، وذلك بسبب سد الخليج أمام السفن العثمانية بسلسلة عظيمة .

أما القوات المدافعة عن المدينة فلم تكن معلومة بالتحديد . إلا أن أقرب الآراء للواقع تقول بمشاركة نحو خمسة ألاف من الجيش البيزنطي ، وخمسة آلاف أخري من رجال المدينة المتطوعين ، علاوة علي القوات المساعدة التي وصلت بالفعل من البندقية وجنوة وجزر كريت وساقيز وأسبانيا وتقدر بنحو ثلاثة ألاف ، وقوات الشهزاده أورخان التي بلغت نحو ستمائة فرد، كما كان هناك نحو ٣٩ قطعة بحرية تدافع من ناحية البحر[١٦٠] .

وقبل أن يبدأ السلطان العثماني في الهجوم علي أسوار المدينة ، ووفقاً لقواعد الشرع الإسلامي ، أرسل وزيره محمود باشا إلي الإمبراطور يطلب منه تسليم المدينة حقناً

---

[160] للمقارنة بين أعداد الجيوش العثمانية المحاصرة من البر والبحر والقوات المتطوعة المدافعة عن استانبول التي ذكرها المؤرخون الترك وتلك التي أشار إليها المستشرقون ، أنظر : Önder Bayır, "Çağ Açan Fetih İçin Yapılan Hazırlıklar", Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 2002, IX/326-329

للدماء ، إلا أن الإمبراطور رفض هذا الطلب ، موضحاً أنه مستعد لدفع الجزية التي يقررها السلطان بموجب معاهدة تبرم بين الطرفين ، وأنه عاقد العزم علي الدفاع عن المدينة . وهكذا بدأ أول هجوم علي المدينة في ١٢ إبريل / ٢ ربيع الآخر ، فراحت المدافع الكبار تدوي في سماء استانبول وتفعل فعلها في معنويات المدافعين ، إلا أن هذا الهجوم الذي استمر حتي ١٨ إبريل/ ٨ ربيع الآخر لم يسفر عن نتيجة ايجابية ، وذلك في الوقت الذي وصلت فيه امدادات البابا إلي القسطنطينية بصحبة عدد من السفن الجنوية ، حيث وقعت معركة مع الأسطول العثماني الذي آثر التراجع أمامها .

لم يؤثر فشل الهجوم الأول علي معنويات السلطان العثماني وجنده ، غير أنه أعطي الفرصة للوزير الأعظم خليل باشا لعرض مخاوفه من تدخل الدول الأوروبية والمكاسب التي يمكن للدولة أن تجنيها إذا رفع الحصار عن المدينة هذه المرة. ولكن تأخر وصول المساعدات البرية والبحرية الأوروبية للقسطنطينية حتي هذا الوقت ، جعل زاغنوس باشا يقنع الديوان بأن فتح القسطنطينية واقع لا محالة ، وأنه ينبغي اتخاذ تدابير غير تقليدية لفتحها في أسرع وقت ممكن . وبذلك عُيّن حمزه بك قائداً حديداً للأسطول العثماني ، ونقل نحو ٧٠ قطعة بحرية براً فوق جذوع الشجر في ليلة واحدة (٢١-٢٢إبريل/ ١١-١٢ ربيع الآخر) ، بحيث امتلأ خليج القسطنطينية بالسفن العثمانية التي جُعل منها جسراً ممتداً . وبذلك شرعت مدفعية الأسطول ومدافع القلاع تضرب أسوار المدينة من كل جانب ، وذلك في الوقت الذي كان فيه الجنود يزرعون الألغام تحت الأسوار المتهالكة ، ويصوبون السهام والرصاص والنيران من فوق القلاع المتحركة تجاه المدافعين خلال هجومين متتاليين (٦ مايو و١٢ مايو /٢٤ ربيع الآخر وسلخ ربيع الآخر) .

الهجوم الأخير وفتح القسطنطينية : بعد ان أيقن السلطان العثماني بأن أسوار القسطنطينية علي وشك الإنهيار بين الحين والآخر ، وقبل إعلانه الهجوم الكبير علي أسوار المدينة ، آثر أرسال طلب التسليم الأخير للإمبراطور مع بعض أسري الروم ، حيث طلب فيه تسليم المدينة مقابل السماح له ولأتباعه بالتوجه إلي المكان الذي

يريدون، وتعيينه علي المورة كتابع للدولة ، وترك الحرية لأهالي المدينة في البقاء فيها أو مغادرتها (٢٤ مايو) . وفي الوقت الذي كان فيه الامبراطور يرفض هذه الشروط ، كان الديوان الهمايوني أيضاً يرفض التهديد الذي تقدم به ملك المجر بنقض المعاهدة المنعقدة بين الطرفين وبحشد قوي الدول الأوروبية للوقوف بجوار المدينة المحاصرة إذا لم يرفع العثمانيون الحصار عن المدينة . وهكذا أعطي السلطان محمد الفاتح اشارة البدء في الهجوم الأخير علي القسطنطينية[١٦١] .

وكان قد تجمع أمام أسوار القسطنطينية عشرات الألاف من المجاهدين من كل أنحاء العالم الإسلامي لنيل شرف المشاركة في فتح القسطنطينية علاوة علي الجيش العثماني ، حيث راح العلماء والمشايخ يستثيرون حمية المجاهدين لنيل إحدي الحسنيين النصر والفتح أو الشهادة ، ووقف السلطان الشاب محمد الفاتح يشجع جنده علي نيل شرف فتح القسطنطينية التي سقط تحت أسوارها الأجداد ، ويبين بأن تلك الأسوار قد وهنت والقوي المدافعة قد ضعفت ، وأنه لا صلح مع بيزنطة التي ناصبت الإسلام العداء لعصور طويلة ، وأنه لا عودة إلا بعد فتح اسلام بول .

وبدأ الهجوم الأخير في ٢٧ مايو باطلاق المدافع من كل اتجاه لمدة ثلاثة أيام صباح مساء حتي سقطت الجدران من عدة مواضع ، فاستطاع بعض الجنود تسلق الأسوار الخارجية إلي داخل المدينة . وفي صباح يوم ٢٩ مايو ١٤٥٣/ ٢٠ جمادي الأولي ٨٥٧ ، شرع الجيش العثماني في شن هجوم كبير من خلال الفجوات التي فتحت في المناطق ما بين طوپ قاپي وأدرنه قاپي . ولما جرح قائد الحامية البيزنطية جستنيان ،

---

[161] لتتبع يوميات الحصار الأخير لإستانبول ، أنظر : Nicolo Barbaro, Kostantıniyye Muhasarası Ruznamesi 1453, çev. Ş. T.Diler, İstanbul 1953, s. 57 vd.; M Çavdaroğlu, Fatih Sultan Mehmed Hân-i Sânî ve İstanbul'un Fethi, İstanbul 1953, s. 78vd.; Halil İnalcik, Fatih Devri Üzerinde Tetkikler ve Vesikalar, Ankara 1954, s. 21-25; Selahattin Tansel, Fatih'in Askerî ve Siyasî Faaliyetleri, Ankara 1953, s. 33vd.

آثر الإنسحاب هو وجنوده من فوق الأسوار الخارجية للمدينة ، فتمكنت بعض الفرق من جند اليكيجري (الإنكشارية) من الصعود فوق القلاع ، والبعض الأخر احتاز الأسوار من الفجوات التي أحدثتها المدافع ، الأمر الذي أجبر القوات المدافعة التي كان يقودها الأمبراطور بنفسه من الإنسحاب إلي الأسوار الداخلية للمدينة . وأثناء عملية الإنسحاب قُتل الشهزاده أورخان ، وجرح الإمبراطور قسطنطين ، حيث سقط قتيلاً أيضاً أثناء فراره . وبذلك ، أصبحت الأسوار الداخلية للمدينة بدون مدافعين ، فانقض الجنود علي الأسوار من كل اتجاه ، وتمكنوا من دخول المدينة التي صمدت طويلاً من كل اتجاه ، وصعد قره جه باشا فوق قلعة طوپ قاپي ونصب عليه العلم العثماني الذي راح يرفرف معلناً تحول القسطنطينية إلي إسلامبول"[١٦٢] .

وهكذا سقطت القسطنطينية التي استمرت نحو ١١٢٥ عاماً عاصمة لإمبراطورية الروم الشرقية ، وقتل آخر أباطرتها في أرض المعركة ، وأسر نحو خمسين ألفاً عقب الفتح ، ودخل السلطان الشاب الذي كان يبلغ من عمره ٢٢ عاماً فقط المدينة المفتوحة مع وزراءه ورجال دولته وعلماء المسلمين ومشايخهم ، حيث خلع عليه المسلمون لقب " الفاتح " ، وملوك أوروبا اسم " إمبراطور الروم " .

---

[162] حول تفصيلات وقائع الفتح من خلال المصادر المعاصرة ، انظر : D. Nicol, Bizans'in Son Yuzyillari (1291-1453), tec. B. Umur, Isatnbul 1999, s. 467vd; ; Nicolo Barbaro, Kostantıniyye Muhasarası Ruznamesi 1453, çev. Ş. T.Diler, İstanbul 1953, s. 27 vd.; Feridun Emecen, "İstanbul'un Fethi", Türkler, IX/312-320; keza bk. Tacizade Cafer Çelebi, Mahruse-i İstanbul Fetihnamesi, TOEM., ilaveler, s.8vd



عصر جديد وامبراطوية وليدة

لقد كان فتح القسطنطينية نتيجة لمرحلة طويلة من الصراع بين الدولة الإسلامية عموماً والدولة العثمانية علي وجه الخصوص وبين دولة الروم . فكان انهيار الدولة البيزنطية علي هذا النحو ، بدايةً لعصر جديد ليس بالنسبة للدولة العثمانية فحسب وإنما بالنسبة للعالم الذي راح يترقب الخطوة القامة من فاتح القسطنطينية .

لقد كان سعي العثمانيين لتوطيد سلطانهم في البلقان وبحر ايجه والمورة كوريث لأملاك بيزنطة سبباً مباشراً للإصطدام بأوروبا عموماً وجمهورية البندقية والمجر خصوصاً، كما كان حرصهم علي توحيد الأناضول تحت قيادة واحدة داعياً لمواجهة إمارتي أبناء قره مان وابناء جندار وإمبراطورية الروم في طربزون ودولة آق قويونلي في شرق الأناضول . ومهما يكن من أمر ، فقد راحت الدولة العثمانية تلعب دوراً دولياً محورياً بين الشرق والغرب بعد السيطرة علي اسلامبول (استانبول) التي كانت تمثل بوابة الشرق علي الغرب وبوابة الغرب علي الشرق .

والحقيقة أنه إعتباراً من عصر محمد الفاتح وحتي نهاية عصر سليمان القانوني، فتحت الأبواب أمام تغييرات سياسية كبيرة سواء في الشرق أو في الغرب ، حيث زالت إمارات ودول ومناطق نفوذ ، وتشكلت تكتلات سياسية وعسكرية أخرى لعبت دوراً بارزاً في السياسة الدولية . وإذا أردنا عرض الخريطة السياسية للمناطق التي كان لها علاقات سياسية مع الدولة العثمانية يمكننا أن نؤكد بأنه لم تكن الأناضول قد خلصت تماماً للعثمانيين حتي عصر محمد الفاتح ، حيث كان لازال بها دول وإمارات تسيطر علي بعض الأجزاء الشمالية والجنوبية والشرقية منها . فإمارة **أبناء جندار** في سينوب وقسطموني كانت تعتبر نفسها صاحبة النفوذ المطلق علي البحر الأسود ، **وإمبراطورية الروم** في طرابزون كانت تسيطر علي منطقة شاسعة شمال شرقي الأناضول ، **ودولة قره قويونلي** ، كانت تحكم إيران والعراق وخراسان وآزربيجان وقسم من الأناضول ، **ودولة آق قويونلي** ، كانت تسيطر علي دياربكر ونواحيها . أما في وسط الأناضول

فكانت **دولة القرمانيين** تسيطر علي قونيه وقره مان وآقسراي وأرمناك ونواحيها ، **وإمارة علائية** كانت تبسط نفوذها علي قسم بسيط من ساحل البحر المتوسط ، وكانت **إمارة ذوالقدر** التابعة للمماليك تحكم نواحي ألبستان ومرعش ، وإمارة **أبناء رمضان** التابعة للمماليك أيضاً كانت تسيطر علي أطراف آدنه وطرسوس ، أما سوريا ومصر والحجاز واليمن فكانت تحت حكم **دولة مماليك الجراكسة** .

وفي شمال أفريقيا ، كانت تونس ونواحيها تحت حكم **بني حفص** ، والمناطق الغربية من الجزائر كان يسيطر عليها **بني زيّان** ، والمناطق الشرقية منها يحكمها **بني مرّين**، وكانت هذه الأسرات الحاكمة تقف عاجزة في مواجهة التعديات الصليبية علي السواحل الشمالية للبحر المتوسط .

وفي أوروبا كان هناك مملكة البوسنة وإمارات الصرب والأفلاق والبغدان ، واسكندربك في بلاد الأرناؤوط ككيانات سياسية خاضعة للنفوذ العثماني بموجب معاهدات تبعية . كما كانت خانية القرم التي انشقت عن دولة الجيش الذهبي (آلتون أوردو) ، وموسكو التي كانت إمارة تدفع الخراج لدولة الجيش الذهبي تأخذ موقعها في شمال شرق أوروبا . وفي وسط أوروبا ، كان هناك لهستان ، بوهيميا ، المجر ، وإمبراطورية الألمان المقدسة . وهناك في شمالي أوروبا ممالكتي الدانمرك والسويد ، وفي غربها انجلترا وفرنسا اللتان لم تكد تنتهيان من حرب المائة عام بينهما ، وفي شبه جزيرة أيبريا كانت هناك ممالك البرتغال وأرجون وكاستيل نوار وإمارة **بني الأحمر** آخر الإمارات الإسلامية في الأندلس التي كانت تقع تحت ضغوط الممالك المجاورة لها.

وفي شبة الجزيرة الإيطالية بجنوب أوروبا كانت هناك الباباوية وممالك ميلان وفلورانسا ونابولي وسيجيليا وجمهورية البندقية التي كانت تسيطر علي الكثير من الجزر والموانى في البحر المتوسط . أما علي سواحل البحر المتوسط فكانت جمهورية جنوة تملك العديد من الجزر القريبة من الأراضي العثمانية مثل ليمني وميديللي وسماديرك وطاشوز وساقيز وميناء أنز ، كما كان لها مستعمرات في البحر الأسود أيضاً .

وهكذا كانت إمارة قره مان الخاضعة للعثمانيين تنتهز كل فرصة للنيل من نفوذ الدولة في الأناضول ، ولم تتوقف المنازعات بين دولتي القره قيويونلي وآق قويـــونلي ، فأضعفتهما معاً . أما علاقات الدولة العثمانية مع المماليك في مصر فكانت حتي أواخر عصر الفاتح جيدة . وفي الوقت الذي كانت المنافسة فيه محتدمة بين جمهورية البندقيـــة ومملكة نابولي التي كانت ترغب في فرض نفوذها علي البحر المتوسط والبلقان ، حيث سعت كل منهما لإستمالة الأرناؤوط وإسكندر بك ، كانت الدولة العثمانية تعمل علي توطيد علاقاتها مع البنادقة والجنويين ، وتفعيل معاهداتها التجارية في المنطقة . أما مملكة المجر فكانت واقعة تحت ضغوط تحريض شديد من قبل بابا روما لشن الحمـــلات تلـــو الأخري لطرد العثمانيين من أوروبا .

توطيد الحكم العثماني في وسط وجنوبي البلقان :

الدعوة لحملة صليبية جديدة : لقد أجّج فتح القسطنطينية الصراع بـــين الشرق والغرب من جديد . ففي الوقت الذي راح فيه السلطان محمد الفـــاتح يســـعي لتوطيد النفوذ العثماني في البلقان ، والقضاء علي الأسرات الحاكمة التي يمكنها الإدعاء بحقها في عرش بيزنطة ، لم يدخر بابا روما جهداً لتحريض العالم المسيحي لإعلان حرب صليبية ضد العثمانيين سعياً لإستعادة استانبول وطرد العثمانيين من أوروبا .

والحقيقة أن الدعوة لحرب صليبية تهدف لطرد العثمانيين من أوروبا لم تتوقف منذ فتح القسطنطينية ، حيث انتهز بابا روما نقولا الخامس الفرصة وراح يدعو لحرب صليبية جديدة ضد العثمانيين وأيده في ذلك إمبراطور ألمانيا فردريك الثالـــث ، إلا أن التنافس السياسي الشديد بين جمهورية البندقية ومملكة نـــابولي ، وإقـــرار العثمـــانيين لامتيازات الكنيسة الأرثوذكسية في اسلامبول ، وتوقيعهم معاهدة تجارية مع البنادقة (١٤٥٤م/ ٨٥٨هـــ) ، كانت من أهم الأسباب التي أدت لإحباط محـــاولات البابـــا

لتشكيل حلف صليبي من بين الدول الأوروبية ، وذلك حتي عام ١٤٦٣م/ ٨٦٧ هـ[١٦٣] .

ضم بلاد الصرب للأراضي العثمانية : عندما وصلت الأخبار بأن أمير الصرب برانقوفيتش التابع للعثمانيين يجري إتصالات سرية مع المجر للتنسيق بينهما في الحرب الصليبية التي يدعو لها بابا روما ، طلبت الحكومة العثمانية منه تسليم بعض مفاتيح القلاع الصربية لتأمين حدود الدولة . إلا أن رفض برانقوفيتش لهذا الطلب كان سبباً لخرج السلطان الفاتح في عدة حملات نحو بلاد الصرب (١٤٥٤- ١٤٥٥م/ ٨٥٨- ٨٥٩هـ) ، الأمر الذي أجبر أميرها برانقوفيتش علي الفرار إلي المجر في كل مرة . وهكذا ، كان السلطان يكتفي بتأكيد نفوذ الدولة علي أنحاء صربيا ، وفتح بعض قلاعها قبل عودته . فلمّا توفي برانقوفيتش (١٤٥٧م/ ٨٦١هـ) ، ثم توفي من بعده إبنه الصغير لازار دون أن يترك ولد يخلفه (١٤٥٨م/ ٨٦٢هـ) ، أصبحت بلاد الصرب ميداناً للصراع بين المجر والدولة العثمانية . ومن ثم كلّف السلطان محمد الفاتح وزيره محمود باشا بفتح مدينة "سمندره" عاصمة بلاد الصرب ، حيث تم فتحها بعد حصار قصير للمدينة في ٨ نوفمبر ١٤٥٩/ ٤ محرم ٨٦٤ . وبذلك ضمت جميع بلاد الصرب ضماً مباشراً إلي الأراضي العثمانية ، وأصبحت سمندره مركزاً لسنجقية عثمانية، والقاعدة العسكرية الأولي للهجوم علي بلاد المجر ، وذلك حتي فتح بلجراد[١٦٤] .

---

[163] حول ردود أفعال فتح استانبول انظر : Kenan İnan, "Fatih Sultan Mehmed İstanbul'un Fethi ve Etkileri", Türkler, IX/286 vd.

[164] تذكر المصادر أنه إذا كان السلطان محمد الفاتح قد كلف وزيره محمود باشا بفتح بلاد الصرب ، حيث قام الوزير بمحاصرة المدينة ، إلا أنه لم يستطع فتحها ، حيث اضطر السلطان بنفسه بالتوجه إليها في ربيع ١٤٥٩ وحصارها حتي فتحت ، ومن ثم ضمت بلاد الصرب للأراضي العثمانية ضمّاً مباشراً ، انظر في هذا الخصوص : S. Tansel, Osmanlı Kaynaklarına gore Fatih Sultan Mehmed'in Siyasî ve Askerî Faaliyetleri, Ankara 1999, s.67vd.; Halil İnalcik, " Mehmed II.", IA., s.521; İ.H.Uzunçarşili, Osmanlı Tarihi, II. Cilt, Ankara 1983, s.20 vd.

النشاط البحري العثماني في الحوض الشرقي للبحر المتوسط : إذا كان ييلدرم بايزيد قد اهتم بتطوير البحرية العثمانية كضرورة من ضروريات مشروعه الكبير لتشكيل دولة مركزية تكون عاصمتها القسطنطينية ، فقد شعر محمد الفاتح بهذه الحاجة قبيل وأثناء وبعد فتح القسطنطينية ، حتي أنه حرص علي زيادة عدد سفن الأسطول العثماني في سواحل غاليبولي وإزميت وگملك واستانبول وغيرها حرصه علي تنشأة وتدريب فرق البحارة العثمانية . ومنذ ذلك الحين ، اتخذت غاليبولي مركزاً للإسطول العثماني ، حيث عين كل من حمزة بك ويونس بك كأمراء سناحق لغاليبولي وقباطنة للإسطول العثمانية في نفس الوقت ، فكانا يخرجان للبحر المتوسط ويمارسان مهامهما الدفاعية خلال موسم الربيع .

لقد واكبت حركة فتح الجزر القريبة من السواحل العثمانية التطور التدريجي للأسطول العثماني ، حيث كانت هذه الجزر تدخل أولاً تحت النفوذ العثماني بقبولها دفع الخراج السنوي للخزينة العثمانية ، وحماية السواحل العثمانية من الاعتداءات الخارجية ، وفي مرحلة تالية كانت الدولة تنتهز الفرصة لضمها ضمّاً مباشراً . غير أن الحاق هذه الجزر بالأراضي العثمانية لم يكن أمراً سهلاً ، حيث كانت البابوية والبنادقة ومملكة نابولي تقاوم النفوذ العثماني بكل ضراوة حتي أنهم نجحوا في استعادة العديد من الجزر أكثر من مرة قبل ضمها للعثمانيين ضماً مباشراً ونهائياً . وهكذا ، استطاع العثمانيون في أوائل عصر الفاتح فتح العديد من جزر بحر ايجة والبحر المتوسط، حيث فتحت لأول مرة جزر أنز وأمروز وطاشوز وأغريبوز وميدللي وليمني في عام ١٤٥٦م/ ٨٦٠هـ، إلا أن الحملة البحرية التي دعي إليها بابا روما لإنقاذ هذه الجزر من دفع الخراج للخزينة العثمانية (ربيع ١٤٥٧م/ ٨٦١هـ) قد نجحت في استرداد العديد من هذه الجزر قبل استقرار الحكم العثماني فيها في نهاية هذا القرن[١٦٥] .

---

[165] فيما يتعلق بمراحل سيطرة العثمانيين علي جزر بحر إيجه خلال عهد الفاتح ، أنظر :
Yesemin Demircan, "Ege Adalarında Osmanlı Hakimiyeti", Türkler, IX/365-366; keza bk. Tansel, Osmanlı Kaynaklarına

ضم بلاد المورة : ومن ناحية أخري ، كان أخوي إمبراطور بيزنطة المقتول ديمتريوس وتوماس باليولوج قد لجئا إلي السلطان العثماني طلباً لمساعدتهم للسيطرة علي ملكهم في بلاد المورة ضد منافسيهم من أسرة كانتا كوزين ، حيث ارتضوا دفـــع ١٢ ألف دوقه ذهبية للعثمانين كل عام مقابل هذه المساعدة . وبالفعل صدر الأمر لعمر بك ابن طورخان أمير الحدود بتقديم المساعدات اللازمة إليهما . فلما تمكّنا من السيطرة علي المورة ، اختلفا في تقسيم البلاد فيما بينهما حتي تعدي توماس بمســـاعدة الأرنـــاؤوط المحليين علي أراضي أخيه ديمتريوس ، فأرسل الأخير إلي السلطان العثماني طالباً النجدة . والحقيقة أن السيطرة علي المورة والقضاء علي الاسرات البيزنطية التي يمكنها الادعـــاء بحقها في القسطنطينية ، كان أمراً استراتيجياً بالنسبة للدولة العثمانية خلال هذه المرحلة. فلمّا نقض توماس عهده مع الدولة بتقديم الخراج السنوي ، وراح يسعي في نفس الوقت للإتفاق مع الحلف الصليبي المزمع تشكيله ، لم يتردد الفاتح في تجريد حملته الأولي صوب بلاد المورة .

وبينما كان محمود باشا متوجهاً صوب بلاد الصرب كان الفاتح يقود جيوشه إلي بلاد المورة (مايو ١٤٥٨م/ جمادي الثاني ٨٦٢) . وبعـــد أن دخلـــت القـــوات العثمانية تساليا وفتحت قلعة فيلكه ، قامت بمحاصرة مدينة كورنت وقلعتـــها، إلا أن السلطان الفاتح لم ينتظر حتي فتحها ، بل انساح في بلاد المورة وقام بفتح قلاع ومدن كثيرة قبل أن يعود ثانية إلي كورنت التي كانت بمثابة مفتاح بلاد المورة. وأخيراً استسلم ديمتريوس ، ووقّع مع السلطان العثماني معاهدة أخرى في يوليه ١٤٥٨م/ شعبان ٨٦٢ ، كان أبرز بنودها :

١. الحفاظ علي أرواح وأموال أهالي كورنت عندما تدخلها القوات العثمانية.

٢. بقاء المدن والقلاع التي استولي عليها العثمانيون في المورة ، وهي ما يعـــادل ثلث مساحة المورة تحت الإدارة العثمانية المباشرة .

---

gore Fatih Sultan Mehmed'in Siyasî ve Askerî Faaliyetleri, s.85vd.; İ.H.Uzunçarşili, Osmanlı Tarihi, II. Cilt, s.22-26 vd.

٣. يقوم كل من ديمتريوس وتوماس بتقسيم الأراضي الباقية من المورة بينهما، علي أن يقومان بأداء خراج سنوي للدولة يقدر بثلاثة آلاف ذهبية .

٤. الإستعانة بأميري المورة وبقواتهما في حالة وقوع أي اعتداء من الخارج علي الدولة .

لم يستمر هذا الإتفاق طويلاً ، فعلي الرغم من تكرار تدخل الدولة لتوفير الإستقرار في المورة ، وإرسال السلطان لزاغنوس باشا إلي المورة لهذا الغرض ، راح توماس ينفض الشروط المتفق عليها عدة ، الأمر الذي دفع الفاتح لتجريد حملة جديدة علي المورة قادها بنفسه عام ١٤٦٠م/ ٨٦٥هـ . توجهت الحملة إلي برزخ كورنت ، وفي الوقت الذي أسرع فيه ديمتريوس بقبول طلب تسليم المدينة بعد سقوط قلاع كستريجه وأوارين وارقاديا وغيرها ، كان أخيه توماس يبحث عن طريق الفرار إلي روما.

وإذا كانت شبه جزيرة المورة قد خلصت علي هذا النحو ولأول مرة للحكم العثماني ، إلاّ أنها كانت سبباً لصراع طويل بين الدولة العثمانية من ناحية والبابوية وجمهوريات وممالك أيطاليا من ناحية أخري للسيطرة علي بحر إيجه وجزره والبحر الأدرياتيكي وسواحل البحر المتوسط الشمالية[١٦٦] .

توطيد الحكم العثماني في جنوبي البحر الأسود :

لقد كانت منطقة جنوبي البحر الأسود تضم مستعمرة أماصرا التابعة لجنوة والبلاد التابعة لأبناء جندار وميناثي سينوب وسمسون التابعتين للدولة العثمانية ، علاوة علي أراضي إمبراطورية الروم في طرابزون . وعقب فتح القسطنطينية ، زادت الأهمية السياسية والإقتصادية لهذه المنطقة . والحقيقة أن تطورات الأحداث في تلك المنطقة

---

166 بخصوص فتوحات المورة Tansel, Osmanlı Kaynaklarına gore Fatih Sultan Mehmed'in Siyasî ve Askerî Faaliyetleri, s.67vd.; İ.H.Uzunçarşili, Osmanlı Tarihi, II. Cilt, s.22-26 vd.

خلال هذه الفترة أتاحت لمحمد الفاتح الفرصة لإلحاق هذه المناطق نهائياً بالأراضي العثمانية .

ضم مستعمرة أماصرا : تعتبر أماصرا واحدة من المستعمرات التجارية الهامة التابعة لجنوة علي سواحل البحر الأسود . وكانت هذه المستعمرة تدفع للعثمانيين بموجب معاهدة تجارية بين الطرفين قدراً من الخراج حتي عصر الفاتح ، إلا أن العلاقة بين الطرفين اضطربت عقب فتح استانبول . وعلي أثر طلب جنوة من السلطان العثماني منحها منطقة غلطة باستانبول كملكية خاصة لها ، ورفض الدولة لهذا الطلب ، وجد الفاتح الفرصة سانحة للحد من نفوذ جنوة في المنطقة وتصفية مستعمرتها في "أماصرا" . وهكذا ، أصدر السلطان أوامره بتحرك الأسطول العثماني صوب أماصرا بحراً تحت قيادة الوزير محمود باشا ، حيث توجه هو بنفسه إليها بطريق البر . فلمّا علم أمير أماصرا بعزم السلطان ، قام بتسليم المدينة وقلعتها له ، فضمّت إلي سنجق " بولي " ، ثم نفي أميرها وكبار رجاله إلي استانبول (١٤٦٠م/ ٨٦٥هـ)[١٦٧] .

إلحاق إمارة أبناء جندار : ولمّا عاد السلطان العثماني إلي بورصة ، أرسل إلي إسماعيل بك إبن جندار يبلغه بعزمه علي التوجه في حملة إلي طرابزون ويطلب منه توفير الإحتياجات اللازمة للأسطول العثماني الذي سيصل إلي سينوب في وقت لاحق لهذا الغرض ، وضرورة المشاركة بقوة في هذه الحملة . وهكذا ، ورّي الفاتح في حملته هذه بحملته علي طرابزون . ولمّا وصل السلطان إلي أنقره والتقي بحسن بك إبن إسماعيل إبن جندار الذي جاء علي رأس قوة للمشاركة في حملة طرابزون ، قام السلطان بتعيينه علي سينوب ، كما عين أخيه المحجوز عنده قيزيل أحمد علي قسطموني . وعندما علم إسماعيل إبن جندار بهذه التطورات تحصن في قلعة سينوب . فتوجه إليه محمود باشا ،

---

[167] بخصوص تطور العلاقات بين الدولة العثمانية وجنوة خلال عصر الفاتح ، أنظر : Enrico Basso, " İşbirliğinden Ayrılığa : XIV ve XV. Yüzyıllarda Cenevizliler ve Türkler", Türkler, IX/357-358 ; keza bk. Tansel, Osmanlı Kaynaklarına gore Fatih Sultan Mehmed'in Siyasî ve Askerî Faaliyetleri, s.89vd.

وحاصره حتي استسلم بعد أخذ بعض الضمانات . وهكذا ضمّت سينوب إلي أراضي الدولة . أما قسطموني فقد أعترف أهلها بقيزيل أحمد أميراً لجندار ، إلا أن قيزيل أحمد رفض تنفيذ قرار نقله إلي سنجقية المورة ، ثم فر هارباً إلي حاكم دولة آق قويونلي حسن الطويل . وبذلك دالت إمارة أخري من إمارات الأناضول ، وضمّت أراضيها إلي أملاك الدولة العثمانية نهائياً (١٤٦١م/٨٦٥هـ)[١٦٨] .

سقوط إمبراطورية الروم في طرابزون : كانت حدود هذه الامبراطورية الشمالية تمتد من گيره سون وحتي باتوم وحدودها الجنوبية تصل إلي بايبورد وگوموشخانه ، حيث كان يحكمها في هذه الفترة داويد كومنن الذي اعتلي العرش عام ١٤٥٨م/ ٨٦٢هـ . فقام داويد بقطع الخراج الذي كان يدفعه أخيه يوانيس للعثمانيين ، وطالب السلطان العثماني بما كان قد دفع من أموال ، وراح يطلب المساعدات من بابا روما وملك فرنسا لويس السابع ، ويحرض أوروبا علي الدولة العثمانية ، الأمر الذي دفع الفاتح لتصفية هذه البؤرة الصليبية من الأناضول بعد أن وفق في ضم أماصرا وقسطموني وسينوب دون إراقة دماء . والحقيقة أن حملة طربزون كانت تتفق مع الخطة الاستراتيجية للفاتح والتي كانت تقضي بتصفية الأسرات الحاكمة التي يمكن أن تدعي بحقها في حكم استانبول .

وهكذا ، خرج السلطان إلي طرابزون من ناحية البر وأرسل الاسطول تحت قيادة گديك أحمد باشا من البحر . ولما وصل الجيش العثماني إلي أرزنجان ، جاءه وفد من قبل حاكم آق قويونلي أوزون حسن وفيه والدته سارة خاتون سعياً للوساطة بين الطرفين . وكان أوزون حسن قد تزوج من إبنة إمبراطور طرابزون حتي يكون له الحق

---

[168] حول النفوذ العثماني في الأناضول ، ومراحل تدخل العثمانيين في شئون إمارة أبناء جندار حتي ضمها النهائي للأراضي العثمانية ، انظر : Y.Yücel, Anadolu Beylikleri Hakkında Araştırmalar I., Ankara 1991,s. 201-211; keza bk. Walter Hins, Uzun Hasan ve Şeyh Cüneyd XV. Yüzyılda İran'ın Milli bir Devlet Haline Yükelişi, çev. T. Bıyıklıoğlu, Ankara 1992, s.28-33; Tansel, Osmanlı Kaynaklarına gore Fatih Sultan Mehmed'in Siyasî ve Askerî Faaliyetleri, s.91vd.

في أملاك الإمبراطورية الآيلة للسقوط . أبلغ الفاتح أوزون حسن بأن الوفد سيبقي معززاً في ضيافة الجيش العثماني حتي انهاء مهمته في طرابزون ، ثم واصل الجيش العثماني سيرة إلي طرابرون . وكان الاسطول قد وصل إلي المدينة قبل الجيش ، فشرع في حصارها من البحر ، وإمطار قلعتها بقذائف المدافع . فلما وصل الجيش البري ، شدد الحصار علي المدينة حتي أجبر الامبراطور علي التسليم في ٢٦ أكتوبر ١٤٦١/ ٢١محرم ٨٦٦ . وباستسلام داويد كومنن ، يكون الفاتح قد استطاع القضاء علي كافة الأسرات الحاكمة التي يمكن أن تدعي بحقها في وراثة عرش استانبول سواء تلك التي كانت موجودة في المورة أو في طرابزون[169] .

توطيد الحكم العثماني في شمال البلقان :

لقد كان تخلي البنادقة عن سياسة تحريض الأرناؤوط ضد الدولة العثمانية خوفاً علي مصالحها التجارية ، وإلحاق أبناء أورانوس بك الهزيمة بإسكندر بك وقتل كبار قواده (١٤٥٥م/ ٨٥٨هـ) ، وفقدان الأمير العاصي حماية نابولي بعد موت ملكها الفونس الخامس (١٤٥٨م/ ٨٦٢هـ) سبباً لعودة إسكندر بك لحظيرة الطاعة وقبوله لدفع الخراج للدولة العثمانية (١٤٦٠م/ ٨٦٤هـ) . ولكن سيطرة العثمانيين علي البوسنة وسقوط أرجوس التابعة للبنادقة في أيديهم ومحاولاتهم المتكررة للسيطرة علي بلاد الأرناؤوط ، أحدث تقارباً بين الأمير الأرناؤوطي العاصي إسكندر بك والبندقية ، حيث قررا دخول الحرب ضد الدولة العثمانية (١٤٦٣م/ ٨٦٧هـ) .

الأفلاق ولاية عثمانية : منذ خضوع الأفلاق للتبعية العثمانية ، لم يتردد أميرها في الخروج علي الدولة والتحالف مع أعدائها كلما سنحت له الفرصة . ولذلك حرص محمد الفاتح علي توطيد النفوذ العثماني في تلك البلاد ، فنجح في مساعدة الأمير الأفلاقي ولاد چيش الذي كان محجوزاً لديه حتي تولي إمارة الأفلاق (١٤٥٦م/ ٨٦٠هـ) . وإذا كان أمير الأفلاق الجديد قد أظهر الطاعة خلال سنوات حكمه

169 H. İnalcık, " Mehmed II.", s. 531; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II./73-74

الأولي ، إلا أنه استغل انشغال الدولة في حملاتها في جنوب البحر الأسود وقام بالإتفاق مع ملك المجر ، وراح يعتدي علي نواحي البلغار التابعة للدولة، حتي أنه استطاع هزيمة الحملة التي جردت ضده وقام بتخريب ونهب نكبولي وويـــدين وغيرهـــا (١٤٦١م/ ٨٦٥هـــ) .

وهكذا ، خرج السلطان العثماني علي رأس جيشه في حملة لتأديبـــه في ربيـــع ١٤٦٢م/٨٦٦هـــ، حيث فر ولاد إلي ملك المجر الذي قام بحبسه وفقاً للمعاهدة المبرمة مع الدولة . وبذلك عين السلطان أخيه الآخر الذي كان محجوزاً أيضاً لديه بدلاً منـــه أميراً علي الأفلاق ، كما عين في الأفلاق حامية عثمانية لتوطيد الحكم العثماني بهـــا ، وألزم الأمير الجديد بدفع خراج قدره ١٢ ألف دوقه للخزينة العثمانية . ومنـــذ ذلـــك الوقت ، استقر الحكم العثماني في الأفلاق ، وأصبحت بلاد الأفلاق واحدة من ولايات الدولة ذات نظام حكم خاص[١٧٠] .

ضم العثمانيين لبلاد البوسنة والهرسك : لقد كانت البوسنة بموقعهـــا الهام في البلقان تمثل أهمية خاصة لدي العثمانيين في حالة وقوع أية مواجهة بينهم وبين البنادقة . ولذلك ، لما رفض ملك البوسنة دفع الخراج السنوي للخزينة العثمانيـــة (٥٠ ألف دوقه) ، لم يتردد محمد الفاتح في تجريد حملة هدفها ضم بلاد البوســـنة للأراضـــي العثمانية . وبالفعل خرجت الحملة في ربيع ١٤٦٣م/٨٦٧هـــ . وفي الوقت الذي كان فيه السلطان العثماني يحاصر عاصمة البوسنة في يايجه كان وزيره محمود باشـــا يقـــوم بمحاصرة ملكها استيفن طوماشافيتش في قلعة كيلوچ . وكما نجح محمود باشا في إجبار ملك البوسنة علي الإستسلام ، تمكن الفاتح من فتح يايجه .

---

[170] بخصوص ضم الأفلاق وتحويلها إلي ولاية تابعة للدولة بنظام " ويودالق " الخاص ، أنظر : Viorel Ponoite, “Osmanlı Hakimiyetinin Tuna Nehri’nin Kuzeyinde Yayılışı : XIV ve XVI Yüzyıllarda Eflak ve Boğdan”, Türkler, IX/206-218; keza bk. Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/76-77

لم تكد هذه الأنباء تصل إلي ملك الهرسك استيفن قوصاروفيتش حتي تجنب مواجهة الجيوش العثمانية وأعلن تبعيته للعثمانيين ، حيث ضمت بعض بلاده للاراضي العثمانية وعين أميراً من قبل الدولة علي بقية بلاد الهرسك ، وأخذ ابنه رهينة لدي السلطان .

وبينما كانت مناطق نفوذ بحرية هامة كالبوسنة والهرسك تسقطان علي هذا النحو في يد العثمانيين ، كانت موانئ أرجوس ولبانت التابعتان للبنادقة تدخلان أيضاً تحت النفوذ العثماني ، الأمر الذي أحدث نوعاً من التقارب بين البندقية والمجر والأرناؤوط التي كانت تحت حكم إسكندربك العاصي . وقد تمخض هذا التقارب عن تشكيل حلف صليبي جديد بدأ فعالياته في ديسمبر ١٤٦٣م/ ربيع الأول ٨٦٨هـ بهجوم شامل من قبل الأساطيل البندقية علي المورة وهجوم الجيوش المجرية علي البوسنة[١٧١] .

التقارب التركماني-الأوروبي : تعتبر إمارة أبناء قره مان آخر الإمارات التركمانية التي تشكلت إثر سقوط دولة سلاجقة الأناضول ، حيث ظلت تقاوم النفوذ العثماني المطلق في الأناضول حتي الربع الأخير من القرن ١٥م/٩هـ . ولم يتردد الأمراء القره مانين علي الرغم من علاقة المصاهرة بينهم وبين السلاطين آل عثمان في العمل ضد العثمانيين كلّما سنحت لهم الفرصة ، فقاموا غير مرة بتحريض الأمراء التركمان علي عصيان الدولة ودفع دول البلقان والبنادقة علي حربها . ولّما عجزت هذه الإمارة عن الإستفادة المثلي من التحالف مع الممالك الأوروبية ، ولّت وجهها شطر الأناضول . وكان تركمان آق قويونلي قد أقاموا دولة قوية في شرقي الأناضول ، حيث راحوا ينافسون العثمانيين في السيطرة علي أملاك إمبراطورية الروم في طرابزون ، ويسعون للتنسيق مع أعداء الدولة سواء في الأناضول وفي أوروبا .

---

171 Kenan İnan, "Fatih Sultan Mehmed İstanbul'un Fethi ve Etkileri", Türkler, IX/286 vd.; Tansel, Osmanlı Kaynaklarına gore Fatih Sultan Mehmed'in Siyasî ve Askerî Faaliyetleri, s.124vd.

فلمّا توفي إبراهيم إبن قره مان ، أوصي بالحكم لإبنه اسـحق بـك ، إلاّ أن اعتراض أبناءه الآخرين ونشوب الصراع بينهم ، أتاح للدولة العثمانية التدخل في شئون الإمارة . وهكذا ، نشب الصراع بين اسحق بك وأخيه پير أحمد بك ، حيث لجأ الأول لأوزون حسن ولجأ الثاني للعثمانيين . وهكذا ، تمكن پير أحمد بك من استعادة قرمـان بمساعدة قوات أمير أنطاليا ، حيث تنازل للعثمانيين عن آقشهر وبكشـهر وصـيقلان حصار ، وفر اسحق بك إلي أوزون حسن ثانية (١٤٦٤م/ ٨٦٩هـ)[١٧٢] .

الإعتراف الأوروبي بالنفوذ العثماني في البلقان :

لقد كان للانتصارات التي أحرزها العثمانيون بعد فتح القسطنطينية (١٤٥٣-١٤٦٣م/ ٨٥٧- ٨٦٨هـ) في بلاد الأرناؤوط والبوسنة والمورة والجزر ، ولتمكنـهم من القضاء علي الأسرات الحاكمة التي يمكنها المطالبة بأملاك بيزنطة ، ولنجـاحهم في توحيد الأناضول تحت قيادتهم ، كان لكل هذا أثر عظيم في الإنتقال بالدولة العثمانية إلي مرحلة الإمبراطورية . فقد جعلت هذه الفتوحات والانتصارات الدولة وجهاً إلي وجـه أمام خصوم أقوياء سواء في الشرق كدولة آق قويونلي أو في الغرب كالمجر وبابا رومـا وجمهورية البندقية ومملكة نابولي .

والحقيقة أنه علي الرغم من المحاولات الدؤوبة من بابا روما وبعـض الـدول الأوروبية لتشكيل حلف صليبي ضد الدولة العثمانية منذ فتح القسطنطينية ، إلا أن هذه المحاولات التي استمرت أكثر من عشر سنوات لم تتمخض عن النتائج المرجـوة منـها بسبب المنافسات والخلافات السياسية والمذهبية بين الدول الأوروبية . ولمّـا تجـاوزت الفتوحات العثمانية حدود العديد من دول وسط أوروبا وأخذت الأخطار تقترب مـن منها أكثر فأكثر بانتزاع مناطق شاسعة من أراضيها ، لم تنتظر دولتي المواجهـة المجـر والبندقية محاولات التشكيل المزمع للحلف ، بل شرعتا في الإعداد لمواجهة شرسة في البر وفي البحر مع الدولة العثمانية استمرت لأكثر من ستة عشر عـام (١٤٦٣-١٤٧٩م/ ٨٦٨-٨٨٤هـ) .

---

[172] Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/87-91

تشكل التحالف الصليبي بقيادة المجر والبندقية : إذا كانت الأسباب الحقيقية وراء هذه المواجهة تتمثل في سعي المجر والبندقية للدفاع عن نفوذهما في البلقان ووسط أوروبا ، وحرص الباباوية علي التصدي للزحف العثماني الإسلامي المتنامي بعد سقوط بلاد الأفلاق والبوسنة والهرسك وبلاد الأرناؤوط والمورة وجزر بحـــر إيجـــه ، ومحاولات العثمانيين لتأكيد نفوذهم في تلك المناطق ، فقد كانت واقعة سرقة أحد خدم الدولة لنحو مائة ألف آقچه عثمانية والتجاءه إلي مدينة قورون التابعة للبنادقة ، وأقتسامه هذه الأموال مع محافظ المدينة البندقي ، ثم قيام قائد المهاجمين عيسي بك إبن أورانـــوس بالإستيلاء علي مدينة أرحوس وبعض الأراضي الأخري في نواحي لبانتو(اينه بـــاختي) بعد رفض البنادقة إعادة الخادم الهارب والأموال المسروقة (مايو ١٤٦٣م/ رمضان ٨٦٧) سبباً مباشراً لإعلان البندقية الحرب علي الدولة العثمانية .

وهكذا عقدت جمهورية البندقية مع مملكة المجر اتفاقية دفـــاع مشـــترك ضـــد العثمانيين في ١٢ سبتمبر ١٤٦٣/ ٢٨ذوالحجة ٨٦٧ ، وقررتا التعهد بشـــن البنادقـــة الهجوم على جبهات الأرناؤوط والمورة وفي البحار وفتح المجار للجبهة البرية في البوسنة ، بحيث يقوم البنادقة باستمالة الأمير العاصي إسكندر بك مع تقديم كافـــة المســـاعدات العسكرية والمادية إليه . ومن ناحية أخري ، راح هؤلاء الحلفاء يتصـــلون بحـــاكم آق قويونلي أوزون حسن ، حيث نجحوا في عقد اتفاق دفاعي معه ضد العثمانيين . وقـــد حصل أوزون حسن بموجب هذا الإتفاق علي الأسلحة والمدافع التي تلزمـــه لمواجهـــة العثمانيين في الأناضول . وقد شاركت في هذا الحلف فيما بعد البابوية وإمارة نـــابولي وفرسان رودس ، فقاموا بدور فعال في دعم جيوش الحلف الأوروبي في علـــى طـــول سواحل البحر المتوسط وبحر ايجه والبحر الأدرياتيكي[١٧٣] .

انطلاق حرب الستة عشر عاماً (١٤٦٣م/ ٨٦٨هـ) : بـــدأت البندقيـــة الحرب بالهجوم علي المورة في أغسطس ١٤٦٣/ ذي القعدة ٨٦٧ ، وإحتلال قسم كبير

---

[173] Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/111-116; keza bk. Kenan İnan, “Fatih Sultan Mehmed İstanbul’un Fethi ve Etkileri”, Türkler, IX/286 vd

من أراضيها ، وقامت بتحريض الأهالي المحليين على عصيان الدولة . وفي الوقت الـــذي وقعت فيه أوّل مواجهة بين القوات العثمانية والبنادقة أمام قلعة قورينتوس في ٢٠ أكتوبر ١٤٦٣/ ٦صفر٨٦٨ ، كان ملك المجر ماتياس بن هونياد يدخل البوسنة بقواته ويحتـــل عاصمتها في يايجه ، وكانت أساطيل الحلفاء الأوربيين تقوم بالهجوم علي مدينة أنطاليا جنوبي الأناضول ، وذلك بينما راح أمير البغدان أيضاً يعلن خروجه علي الدولة في شمالي البلقان ، ويقوم حاكم آق قويونلي أوزون حسن بتحريض أبناء قره مان علي العصيان في وسط الأناضول . وهنا برزت القيادة الفذه لمحمد الفاتح في كيفية مواجهة كل هذه الأخطار في وقت واحد ، حيث اضطر لتجريد عدة حملات في الأناضول والروميلي في وقت واحد ، والتصدي لهذه الإعتداءات في البر وفي البحر .

وهكذا ، خرج الفاتح في حملة صوب البوسنة في ربيع عام ١٤٦٤م/٨٦٨هـــ، حيث شدّد الحصار علي عاصمتها في يايجه ، وأجبر الجيش المجري علي الفـــرار . وإذا كان السلطان العثماني قد استطاع في حملتيه علي بلاد الأرناؤوط (١٤٦٥م/٨٦٩هـــ، ١٤٦٧م/٨٧١هـــ) إعادة السيطرة علي المضايق ومعظم بلاد الأرناؤوط ، إلا أن مدينة قرويا التي كانت مركزاً للأمير العاصي إسكندر بك لم تفتح إلا في الحملة التي قادهـــا السلطان في يناير ١٤٧٨م/٨٨٣هـــ ، كما فتحت إسكندرية الأرناؤوط (اشكودرا) في العام التالي . والحقيقة أن احتكاك الأسطول العثماني يالقوة البحرية للبندقية والبابوية علي مدي ستة عشر عاماً كان قد ساعد علي نمو البحرية ا لعثمانية بـــإطراد ، فكـــان نجاحها في فتح جزيرة أغريبوز وهي أكبر جزر بحر ايجه (١٤٧٠م/ ٨٧٥هـــ)، إعلاناً ببدء مرحلة جديدة في تاريخها .

انتهزت مملكة البغدان التي كانت قد اعترفت بالنفوذ العثماني في المنطقة بعـــد فتح القسطنطينية وارتضت دفع خراج سنوي يقدر بألفي ذهبية (١٤٥٥م/ ٨٥٩هـــ) انتهزت فرصة حرب العثمانيين للبندقية ونابولي والبابوية في البحر والمجار والأرناؤوط في البر ، فرفع أميرها استيفن چيلمارا راية العصيان علي الدولة أيضـــاً منضـــماً للحلفـــاء الأوروبيين . وبذلك أمر السلطان بتوجه سليمان باشا الخادم للخـــروج في حملـــة إلي

البغداان (١٤٧٥م/ ٨٨٠هـ) ، إلا أن اخفاق هذه الحملة جعل الفاتح يتوجه إليها بنفسه في ربيع ١٤٧٦م/٨٨١هـ . ولما رفض أمير البغدان استيفن چيلمارا شروط الفاتح التي حددها في أداء الخراج وإعادة الأسري الجنويين وتسليم مدينة " كيلي " الإستراتيجية ، دخلت الجيوش العثمانية مركز المملكة في صوچي أووا في أواخر هذا العام وأخضع أميرها[174] .

انفراد العثمانيين بالنفوذ المطلق في الأناضول ، وإنهاء حكم أبناء قره مان : أما علي الجبهة الأناضولية ، فقد كان حاكم أق قويونلي يدعم أمراء قره مان ضد العثمانيين ، ويتحين الفرصة للسيطرة علي الأناضول من خلالهم مستفيداً من انشغال السلطان العثماني في المواجهات مع التحالف الصليبي . ولذلك ، لم يكد الأمير القره ماني پير أحمد يخرج عن طاعة السلطان ، حتي جرد السلطان حملة قادها بنفسه عام ١٤٦٦م/٨٧١هـ ، وسيطر فيها علي قونية ، ففر بير أحمد إلي لارنده (قرمان) ، ثم التجأ إلي أوزون حسن عام ١٤٧٠م/٨٧٥هـ . وفي العام التالي تمكن الجيش العثماني من السيطرة علي إمارة لارنده ، وضم كديك أحمد باشا إمارة علائية الساحلية للأراضي العثمانية . وهكذا، قرر أوزون حسن الدخول في مواجهة مباشرة مع العثمانيين ، حيث دعم أبناء قرمان بير أحمد وقاسم بك بنحو عشرين ألفاً يقودهم ابنه يوسفجه ميرزا (١٤٧٢م/٨٧٧هـ) . وإذا كانت هذه القوات قد تمكنت من الهجوم علي توقات ولارنده وآقشهر ووصلت حتي بكشهر ، إلا أنها لقيت هزيمة قاسية أمام جيش عثماني يقوده الشهزاده مصطفي ، حيث سقط يوسفجه ميرزا أسيراً ، وفر بير أحمد إلي وزون حسن وقاسم بك إلي ايج ايل .

لقد كان عبور اوزون حسن الحدود العثمانية واحراقه مدينة توقات واحتلاله لقرمان ومطالبته بتنازل الدولة عن قبادوقيا وطرابزون في الوقت الذي كانت فيه أساطيل

---

[174] لتفصيلات أكثر حول سيطرة العثمانيين على البغدان وانضمامها مع الأفلاق للأراضي العثمانية ، أنظر : Viorel Ponoite, "Osmanlı Hakimiyetinin Tuna Nehri'nin Kuzeyinde Yayılışı : XIV ve XVI Yüzyıllarda Eflak ve Boğdan", Türkler, IX/206-218; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/133vd.

الحلفاء تخرب سواحل الأناضول على البحر المتوسط وايجه التابعة للعثمانيين ، اعلانــاً بدخوله الحرب إلي جانب الحلفاء . وبذلك أجبر أوزون حسن السلطان العثماني الذي كان يواجه تحديات عديدة للخروج في حملة لمواجهته في مارس ١٤٧٣/ شوال ٨٧٧ ، حيث انتهت المعركة الفاصلة التي وقعت بين الطرفين عند موضع بالقرب من نهر الفرات يقال له " اوتلوق بلي " بهزيمة أوزون حسن ومقتل إبنه زينل ميرزا وأسر عدد كبير من أتباعه (١١ أغسطس ١٤٧٣/ ١٦ ربيع الأول ٨٧٩) .

والحقيقة أن هزيمة أوتلوق بلي لم تفت في عضد حاكم آق قويونلي ، حيث استمر في دعم أبناء قره مان . وبينما كان السلطان العثماني يتوجه إلي أوزون حسن ، كان الأميرال بترو قائد أساطيل الحلفاء قد وصل إلي سواحل إيج إيل لمساعدته ، حيث تمكن قاسم بك إبن قره مان من الإستيلاء علي قلاع سليفكه وصيغين وقورقو بمساعدة هذه الأساطيل . وهكذا ، رأي السلطان الفاتح أن الوقت قد حان للقضاء علي إمــارة أبناء قره مان ، فولي وجهه إليها عند عودته من حملة أوتلوق بلي ، وأرســل الــوزير الأعظم كديك أحمد باشا إلي أرمناك ثم إلي سليفكه فضمهما ، كما اســتعاد القــلاع المحيطة بهما ، وفر بير أحمد وقاسم بك إلي أوزون حسن وخلصت بلاد قره مان نهائيــاً للعثمانيين (١٤٧٤م/ ٨٨٠هـــ)[١٧٥] .

تفكك الحلف الصليبي ، والإتفاق العثماني – البندقي : وهكذا ، لم يستطع التحالف بين البندقية والمجر والباباوية ومملكة نابولي وآق قويونلي تحقيــق أيــة مكاسب في هذه الحرب ، فبعد أن تمكن الفاتح من هزيمة أوزون حسن والقضاء علــي إمارة آل قره مان ، وتحقيق انتصارات متتالية في بلاد الأرناؤوط والمورة ، وعجز الحلفاء

---

[175] فيما يتعلق بالمراحل الأخير من علاقة إمارة قرمان بالدولة العثمانية ودور حاكم دولة آق قويونلي في هذا الصراع انضمام هذ التكتل الأناضولي إلي الحلف الصليبي والتنسيق بينهما ، أنظر : Ş. Tekindağ, " Son Osmanlı Karaman Münasbetleri Hakkında Araştırmalar", TD., XIII./17-18, İstanbul 1964; R.R. Ahmedi Arat, "Fatih Sultan Mehmed'in Yarlığı", Türkiyat Mecmuası, VI, 1939, s.303 vd.; keza bk. Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/87-98

عن التنسيق فيما بينهم ، ومحاولة ملك نابولي فرديناند وملك المجر ماتياس بن هونياد عقد هدنة مع العثمانيين ، وعدم مقدرة البندقية علي انقاذ إسكندرية الأرناؤوط (أشكودرا)، علاوة علي الأضرار المالية والتجارية والأزمات الإقتصادية التي لحقت بها خلال هـــذه الحروب الطويلة ، أجبر البنادقة أخيراً علي عقد الصلح مع السلطان العثماني في٢٩ يناير ١٤٧٩/٣ ذو القعدة ٨٨٣ . وقد تضمنت المعاهدة التي عقدت بين الطـــرفين البنـــود التالية:

١. إعادة كل طرف الأراضي التي استولي عليها من بلاد المورة ودالمجيا خـــلال فترة الحرب للطرف الآخر .
٢. بقاء مدينة قوريا (آقچه حصار) ، وجزيرة أغريبوز في يد العثمانيين .
٣. تسليم مدينة أشكودرا الواقعة تحت الحصار ونواحيها للجيش العثماني .
٤. دفع البندقية مبلغ ٢٠٠ ألف دوقة ذهبية كل سنتين كضمانات عســـكرية للعثمانيين .
٥. دفع البندقية خراج قدره ١٢ ألف دوقة ذهبية سنوياً مقابل السماح لها بحرية التجارة في الموانى العثمانية .
٦. إعادة جزيرتي ليمني وبوزجه وغيرها للعثمانيين .
٧. تبادل أسري الحرب بين الطرفين .
٨. تعيين بايلوس (قنصل) في استانبول لرعاية مصالح التجار البنادقة في مركز الدولة[١٧٦] .

دخول القرم تحت النفوذ العثماني :

تعتبر خانية القرم أهم خانات شعبة توقاتيمور (قازان ، أستراخان ، القرم) التابعة لدولة التون أوردو (دشت قبچاق). وعقب هزيمة خـــان التـــون أوردو علـــي يـــد

---

[176] بخصوص العلاقة بين البندقية والدولة العثمانية ، وبالخاصة بنود هذه الإتفاقية ، أنظر : Marıa Pıa Pedanı Fabrıs, "XV-XVIII Yüzyılda Osmanlı Venedik İlişkileri", Osmanlı, Yeni Turkiye Yayınları, Ankara 1999, I/259-264; keza bk. Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/123-125

تيمورلنك، تفككت الدولة وغرقت في الصراعات الداخلية ، حيث تمكن حاجي گراي من اعلان خانية مستقلة في القرم عام ١٤٣٨م/٨٣٢هـ . ولما توفي حاجي گراي خان (١٤٦٦م/٨٧١هـ) ، نشب صراع بين أبنائه انتهي بوصول نوردولت گراي علي رأس السلطة في القرم (١٤٧٥م/٨٨٠هـ) . وحتي يمكنه التصدي لمنافسة أخيه منگلي گراي في القرم ومحاولات خان ألتون أوردو لإستعادة السيطرة علي القرم ، عقد نوردولت گراي معاهدة صداقة وتعاون مع السلطان محمد الفاتح عام ١٤٧٧م/٨٨٢هـ . ولما طلبت الدولة العثمانية من نوردولت گراي المشاركة في حملة السلطان علي البغدان وتأخر خان القرم عن المشاركة المطلوبة ، راحت الدولة تستجيب لمساعي أخيه منگلي گراي الذي كان موجوداً في استانبول، وقامت بتعيينه علي خانية القرم بدلاً من نور دولت گراي في أواخر عام ١٤٧٧م/ ٨٨٢هـ . وبذلك ، دخلت القرم تحت النفوذ العثماني[١٧٧] .

خروج حملة أيطاليا وفتح أوترانتو : منذ فتح القسطنطينية راحت باباوية روما والممالك الإيطالية الأخري بالبندقية ونابولي وفلورانسا وغيرها تلعب دوراً كبيراً في حشد أوروبا وتحريض دولها لحرب الدولة العثمانية ، حيث تمكنت من تشكيل حلف صليبي قاد حرب استمرت نحو ستة عشر عاماً في الأناضول وشرق أوروبا . فلما استطاع العثمانيون فتح أغريبوز عام ١٤٧٠م/ ٨٧٥هـ ، انضمت نابولي للحلف الصليبي . غير أن السلطان العثماني انتظر حتي تم توقيع معاهدة الصلح مع البنادقة في ١٤٧٩م/ ٨٨٣هـ ، حيث كان نقل العثمانيين لحملاتهم عبر سواحل الأدرياتيك أمراً طبيعياً . وهكذا ، كانت حادثة زواج ليوناردو أمير جزر زانتا وكفالونيا وأيامواز التربية من السواحل العثمانية والذي كان يدفع خراجاً سنوياً للعثمانيين ، زواجه من إبنة ملك نابولي دون احاطة السلطان الفاتح علماً بالأمر السبب المباشر لخروج العثمانيين لحملة

---

177 فيما يتعلق بدخول القرم تحت التبعية العثمانية ، أنظر : Halil İnalcık, "Yeni Vesikalara göre Kırım Hanlığı'nın Osmanlı Tabiliğine Girmesi ve Ahidname Meselesi", Belleten VIII/30, 1944, 185-129; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/127-128

جنوب إيطاليا . فصدرت الأوامر لگديك أحمد باشا للتوجه بالإسطول العثماني لضم جزر زانتا وكفالونيا واياماورا ، حيث فر أميرها ليوناردو إلي نابولي ، وعين گديك أحمد باشا علي إمارة اولونيا علي ساحل الأرناؤوط ليقوم بالإستعدادات اللازمة لخروج الحملة لجنوب ايطاليا في العام التالي .

وفي ٢٥ تموز ١٤٨٠/ ٨٨٤هـ ، رسي الأسطول العثماني عند ميناء أوترانتو، حيث ألحق بالجيش الذي أرسله ملك نابولي فردناندو بقيادة ابنه الفونس الهزيمة ، وأحكم العثمانيون سيطرتهم علي أوترانتو في ١١ أغسطس ١٤٨٠/ ٣ جمادي الآخرة ٨٨٥ ، حيث قام گديك أحمد باشا بعد ذلك بفتح القلاع المحيطة باوترانتو . وفي الوقت الذي كان فيه القائد العثماني يعد العدة لمد الفتوحات العثمانية داخل ايطاليا ، وصلت الأنباء بوفاة السلطان محمد الفاتح[١٧٨] .

خروج حملة رودس وحصارها : لما كان حكام جزيرة رودس من فرسان "سان حان" قد لعبوا دوراً هاماً في مساعدة أساطيل الحلفاء ضد العثمانيين حيث بقيامهم بعمليات قرصنة وقطع طريق بين الجزر التي فتحها العثمانيون ، راحت القيادة العثمانية تشعر بضرورة تأمين طرق مواصلاتها بين هذه الجزر وفتح جزيرة رودس . وهكذا ، في الوقت الذي فيه السلطان محمد الفاتح يفكر في تعيين گديك أحمد باشا علي حملة إيطاليا، قام بتكليف مسيح باشا بالخروج في حملة استكشافية إلي رودس بنحو مائة قطعة بحرية في ديسمبر ١٤٧٩/ شوال ٨٨٤ . وبالفعل ، خرج مسيح باشا في ربيع ١٤٨٠م/٨٨٥هـ باسطول يتكون من نحو ١٦٠ قطعة بحرية ، ورسي علي سواحل رودس في أواخر مايو ١٤٨٠/ صفر ٨٨٥ . وإذا كان مسيح باشا قد وفق في فتح بعض

---

[178] بخصوص حملة جنوب أيطاليا التي عرفت باسم " أوترانتو " ، انظر : Konstantınos Gıakoumıs, “Osmanlıların Otranto ve Apulia Seferi (1480-1481)”, çev. Kürşat Akpinar, Türkler IX/373-380

أجزاء الجزيرة ، إلا أنه اضطر للإنسحاب بجيشه منها بسبب سوء تدبيره ، حيث عاد إلي استانبول معزولاً بعد ثلاثة أشهر من القتال المستمر في رودس[١٧٩] .

التنافس العثماني - المملوكي علي إمارة ذوالقدر : كان محمد الفاتح قد تزوج من إبنة سليمان بك حاكم إمارة ذوالقدر الذي كان يحكم نواحي مرعش وألبستان ويخضع للنفوذ المملوكي . فلمّا توفي سليمان ١٤٥٤م/ ٨٥٨هـ ، تنازع أبنائه علي الحكم ، الأمر الذي جعل السلطان المملوكي يعين شاه بوداق بك الذي يسيطر علي مرعش علي الإمارة ، والسلطان العثماني يعين شاه سوار الذي يحكم ألبستان عليها في نفس الوقت . إلا أنه علي أثر تمكن شاهسوار بك من السيطرة علي الإمارة ، فر شاه بوداق إلي السلطان المملوكي (١٤٦٦م/٨٧١هـ). ولما تجاوز شاهسوار بك الحدود المملوكية إثر تعقبه لشاه بوداق ، تصدت له القوات المملوكية ، حيث أوقعت به الهزيمة وأسرته ، وأعدم علي باب زويلة في القاهرة (١٤٧٢م/ ٨٧٧هـ) ، وعين شاه بوداق علي إمارة ذوالقدر .

ومنذ ذلك الوقت ساءت العلاقة بين الدولة العثمانية ودولة المماليك . فكان الحاق الهزيمة بأوزون حسن وبسط النفوذ العثماني علي شرقي الأناضول ، وتطلع العثمانيين للقيام بدور في العالم الإسلامي بمحاولة محمد الفاتح اصلاح طرق مياه الحرمين الشريفين علي حسابه الخاص ، سبباً في تربص كل طرف بالطرف الآخر . وإذا كان العثمانيون قد تمكنوا من تعيين علاء الدولة علي إمارة ذوالقدر (١٤٧٩م/ ٨٨٤هـ) ، إلا أن الوضع المضطرب علي الحدود العثمانية- المملوكية ، دفع محمد الفاتح وهو علي فراش المرض لإصدار أوامره لإبنه جم سلطان بالخروج في حملة صوب الحدود المملوكية،

[179] Tansel, Osmanlı Kaynaklarına göre Fatih Sultan Mehmed'in Siyasî ve Askerî Faaliyetleri, s.245-246

حتى أنه توفي بينما كان جم في طريقه لهذه الحملة في ٤ مايو ١٤٨١/ ٤ ربيـــع الأولي ٨٨٥.[١٨٠]

* * *

وهكذا ، يعد محمد الفاتح مؤسس الدولة العثمانية في عصر الامبراطورية . فقد استمرت غزواته شرقاً وغرباً وشمالاً دون توقف علي مدي ثلاثين عاماً ، فصار حاكماً لبحرين وأرضين ، وجعل كل من الأناضـــول والبلقـــان (الروميلـــي) نـــواة لنمـــو الإمبراطورية العثمانية ، ووضع مؤسسات الدولة في شكلها النـــهائي ، ووفـــر كافـــة الظروف لجعل استانبول مركزاً سياسياً وحضارياً لدولة مركزية عالمية .

وقد قام الفاتح باجراء تغييرات جوهرية في سياسة الدولة الداخلية ، فوضـــع النواة لنظام المركزية في الإمبراطورية . وفي هذا السبيل حرص الفاتح علي تحرير سلطته العليا من نفوذ مراكز القوي المختلفة في الدولة ، وذلك من خلال الإجراءات التالية :

أ- إعادة تشكيل فرقة اليكيچري (الإنكشارية) وتنحية مراكز القوي فيها علي أثر قيام هذه الفرقة برفع راية العصيان عقب تولية الفاتح لمقاليـــد الحكـــم في البلاد.

ب- إبعاد الأسرات التركمانية التي شاركت آل عثمان الحكم وعلي رأسها أســـرة جاندارلي التي سلبت من البيت العثماني السيطرة علي الحكومـــة ، ووصـــلت بنفوذها إلي درجة التأثير في تعيين وعزل السلاطين العثمانيين .

ج- تعيين خواص السلطان وخدمه في المناصب والوظائف الهامة في الدولة والتي يتم مباشرتها بتفويض مباشر من السلطان كمناصب الوزارة والإمارة والقيادة العليا للجيوش .

* * *

[180] تشير بعض المصادر بأن المرض الفاجئ الذي أصاب الفاتح ، يرجع إلي أن أحد أطبائه قام باعطائه جرعة من السم ، الأمر الذي أدي إلي تدهور حالته بسرعة ووفاته ، فيما يتعلق بالروايات حول هذا الموضوع أنظر : Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/141-144

تولي السلطنة للمرة الثانية وهو في العشرين من عمرة (١٤٥١م/٨٥٥هـ)، حاز علي لقب " الفاتح " عن جدارة بفتحه استانبول وقضائة علي إمبراطورية الروم الشرقية ، فسلم الأعداء قبل الأصدقاء بكفائته العسكرية ودهائه السياسي . وقد قضي في مقام السلطنة نحوثلاثين عاماً ، خرج خلالها بنفسه علي رأس خمسة وعشرين حملة عسكرية ، وألحق بالأراضي العثمانية ثمانية عشر إقليماً جديداً ، فسيطر علي الأناضول والبلقان سيطرة تامة . كان صاحب عزم وإرادة قوية ، مدقق في إدارة الدولة ، يعرف كيف يخفي مشاعره ، يحيط استعداداته العسكرية بالكتمان ويواري في حملاته بين الشرق والغرب ، جسور في ميادين القتال ، يلقي بنفسه في مقدمة الجيوش تشجيعاً للجنود ، ويحافظ علي هدوء أعصابه واعتداله عند اللزوم . وعلاوة علي ما تقدم ، فقد كان الفاتح عالماً وشاعراً يجيد عدد من اللغات المعاصرة ، وصاحب فكر حر بعيد عن التعصب ، يدعو العلماء لمجالسه ويدير مناقشاتهم العلمية باقتدار وثقة ، يحمي العلماء من كافة الإتجاهات ويرعاهم ، بحيث كان كلما سمع بعالم فاضل في أي مكان حرص علي دعوته لإستانبول بكل وسيلة[181] .

ومن ناحية أخري ، فقد حرص السلطان محمد الفاتح علي جعل استانبول مدينة عالمية ، فنقل إليها العديد من الأسرات التركمانية الموجودة في الأناضول والأسرات التي دخلت الإسلام من الممالك البلقانية المفتوحة ، وزينها بالعديد من المؤسسات الثقافية والإجتماعية المختلفة ، فاستحدث مدارس " صحن ثمان " الشهيرة، ومدارس الـ " تتمه " . وأمر بتدوين القوانين العثمانية التي كانت تطبق حتي عصره تحت اسم " قوانين آل عثمان " ، حيث أضاف إليها القوانين التي صدرت في عهده تحت اسم " فاتح قانون نامه سي " .

وفي عصره اتخذ محمد الفاتح قرارات ثلاثة حول الأوقاف وأراضي الدولة ثار حولها جدل كبير . أولي هذه القرارات ، استحداث قانون تعيين وعزل موظفي وخدم

---

[181] بخصوص جوانب شخصية السلطان محمد الفاتح ، أنظر : Halil İnalcik, "Mehmed II.", IA, VII/534-535; Ekrem H. Ayverdi, " Fatih", Türkler, IX/338-354

الأوقاف بقرار من الديوان الهمايوني وبصدور براءة من السلطان نفسه ، وكانت قبل ذلك يتم وفقاً لرغبة متولي الوقف . أما القرار الثاني ، فيتمثل في وضع قاعدة اصدار براءات مقيدة في دفاتر تحرير الأراضي المعروفة باسم " طابو " توجه لأصحاب مقاطعات التيمار والزعامت ، وتحتوي علي أسمائهم وأسماء قراهم وقيمة واردات المقاطعة السنوية ؛ والقرار الثالث كان مصادرة قسم كبير من الأوقاف والأملاك لخزينة الدولة ، وذلك بسبب أن الكثير من الأراضي الميرية قد تحولت إلي أوقاف أو أملاك خاصة ، الأمر الذي أدي إلي نقص أعداد جنود سپاهية التيمار وإلي قلة دخل خزينة الدولة في نفس الوقت[١٨٢] .

وكان لمحمد الفاتح ثلاث أبناء هم وفقاً لترتيب الأكبر سناً بايزيد ومصطفي وجم ، توفي مصطفي في ديسمبر ١٤٧٤/شعبان ٨٧٩ ؛ وعين بايزيد علي سنجقية أماسيا وجم علي سنجقية قرمان .

---

[182] بخصوص الإصلاحات الإدارية والمالية وما تعلق بها من القوانين التي صدرت في عهد محمد الفاتح Ahmed Akgündüz, Osmanlı Kanunnameleri ve Hukukî : Tahilleri,I.cilt, İstanbul 1990, s.305-308 vd.



الدولة العثمانية في عهد بايزيد الثاني

(١٤٨١-١٥١٢م/ ٨٨٦-٩١٨هـ)

توفي محمد الفاتح وترك ولدان ، الأكبر هو بايزيد والأصغر جم . وكان بايزيد والياً علي ولاية الروم ومركزها مدينة آماسيا ، أما جم فكان والياً علي ولاية قرمان التي مركزها قونية . وكان بايزيد يبلغ من العمر عند وفاة والده ٣٤ عاماً ، في حين أن جم لم يكن يتجاوز عمره آنذاك ٢٣ عاماً فقط . وكان كل منهما قد تلقي تعليماً عالياً وتربية سلطانية راقية .

فعلي الرغم من وضع محمد الفاتح القوانين لإدارة كافة شئون الدولة ، تحدد صلاحياتها وتنظم علاقاتها ، إلا أن مثل هذه القوانيين لم تتطرق إلي وضع قاعدة يمكن من خلالها تحديد من يتولي الحكم بعد السلطان المتوفي . واكتفت هذه القوانين بالتأكيد علي القاعدة القديمة التي تعطي لمن تكون السلطنة من نصيبه الحق في التخلص من اخوته لتأمين الاستقرار في البلاد ، أو لتحقيق ما أشار إليه القانون باسم " نظام العالم " . وهكذا ، خضع التمكين لأحد أبناء السلطان لعاملين لا ثالث لهما خلال هذه الفترة : العامل الأول : اتفاق أركان الدولة وقبولهم بأحد أبناء السلطان ليكون ولياً للعهد . العامل الثاني : رغبة الحرس الخاص للسلطان أي فرقة الكيچري[١٨٣] .

وكان الوزير الأعظم قرماني محمد باشا والوزير الأعظم السابق كديك أحمد باشا يؤيدان الأمير جم ، بينما كانت فرقة الكيچري تؤيد الأمير بايزيد . والحقيقة أنه في الوقت الذي كان فيه الوزير الأعظم يبدي موافقته لرأي بقية رجال الدولة والجند الذين كانوا يفضلون استدعاء بايزيد ليتولى السلطنة ، قام بإرسال أحد رجاله الأوفياء إلي جم

---

[183] بخصوص مشكلة اعتلاء العرش العثماني ، وما جاء بقانون نامه الفاتح وعلاقته بالأعراف التركمانية وكيفية تطبيقها خلال أولياء العهد العثماني ، أنظر : M. Aknan, Osmanlı Devletinde Kardeş Katli, İstanbul 1997

سلطان الذي كان يقيم في ولاية أقرب إلي استانبول يدعوه أيضاً . إلا أن أحد أتباع بايزيد استطاع القبض علي هذا الرسول وقتله . فلمّا علم جند الكيجري (يني جري) بالخبر ، قاموا بقتل الوزير الأعظم قرماني محمد باشا ، وأعلنوا العصيان . وقد استمرت القلاقل في انحاء استانبول حتي وصول بايزيد إلي مركز الدولة ، وجلوسه علي العرش ، وأعلانه سلطاناً علي البلاد في ٢٠ مايو ١٤٨١/ ربيع الأولي ٨٨٦[١٨٤] .

ولما علم جم سلطان بمقتل الصدر الأعظم أسرع بالتوجه إلي بورصة ، حيث استقبله أهلها استقبالاً حافلاً ، واستطاع هناك تشكيل قوة تمكن بها من هزيمة الحملة التي جردها بايزيد ضده في ٢٨مايو ١٤٨١/ ٢٠ ربيع الأول ٨٨٦ . وهكذا، قام بضرب عملة فضية تحمل اسمه ، وأمر بقراءة الخطبة بإسمه أيضاً في عاصمة الدولة القديمة بورصة معلناً سلطنته علي البلاد أيضاً .

وإذا كان جم سلطان قد أرسل إلي أخيه يدعوه لتقسيم الممالك العثمانية بينهما ، علي أن يكون جم في الأناضول وبايزيد في الروميلي ، إلا أن بايزيد لم يقبل هذا الاقتراح ، وأسرع بتجريد حملة أخري خرج بنفسه علي رأسها ، حيث التقي الطرفان بالقرب من يكيشهر في ٢٠ يونيه/٢٢ ربيع الأولي . لم يصمد جم أمام بايزيد طويلاً ، حيث هزم وفر إلي أسكيشهر جريحاً ، ومنها توجه إلي قونية ، ثم رحل إلي الشام بعد ذلك ملتجأً للسلطان المملوكي قايتباي (٢٥ أغسطس/٢٠ جمادي الثاني) . وأثناء وجود جم في مصر ، حاول بايزيد استمالته ، وذلك بدعوته للتخلي عن المطالبة بحقه في السلطنة مقابل تخصيص مبلغ مليون أقچه سنوياً ، إلا أن جم رفض هذا العرض أيضاً .

ومن ناحية أخري ، أتاح الصراع علي العرش بين جم وبايزيد الفرصة لقاسم بك ابن قرمان لإستعادة أملاك أبائه ، حيث أمده حاكم أق قويونلي أوزون حسن بجيش استطاع به الوصول إلي قونية ولارنده ومحاصرتهما ، إلا أنه أجبر علي التراجع إلي

---

[184] أنظر في هذا الخصوص : Ş.Tekindağ, "Bayezid II.'nin Tahta Çıkışı Sırasında İstanbul'da Vukua Gelen Hadiseler Üzerine Notlar", Tarih Dergisi, X/14, 1959, s. 85-96

طرسوس ، حيث فر منها إلي الحدود المملوكية . وفي الوقت الذي أرسل فيه قاسم بك رسالة إلي جم سلطان يدعوه فيها للإتفاق ضد بايزيد بشرط اعادة أملاك القرمانيين إليه ثانية ، أرسل إليه كديك أحمد باشا يدعوه للعودة للأراضي العثمانية ويخبره بأن الرعايا ينتظرونه . وهكذا ، دفعت هذه التطورات جم لمغادرة الأراضي المملوكية في أوائل مايو ١٤٨٢/ ربيع الأولي ٨٨٧ ، فالتقي بقاسم بك في أدنه ، وخرجا في حملة مشتركة صوب قونيه وشرعا في محاصرتها في يونية/ ربيع الآخرة . وكما عجزا الحليفين عن فتح قونية ، سمدت أمامهم حصون أقسراي .

وقوع جم سلطان في الأسر : ومرة أخرى رفض جم سلطان عرض أخيه بايزيد بالإقامة في القدس مع تخصيص معاش سنوي له . عندئذ أرسل السلطان العثماني إليه هرسك زاده أحمد باشا للقبض عليه في نواحي طاش إيلي ، إلا أن جم استطاع الفرار إلي جزيرة رودس في ١٦يولية ١٤٨٢/ ٢١جمادي الأول ٨٨٧ . وبذلك سقط جم سلطان في يد أوروبا التي لم تتردد في استخدامه كسلاح ضد العثمانيين لفترة تمتد لأكثر من أربعة عشر عاماً .

وفي الوقت الذي راح فيه أمراء رودس يطمئنون جم ويعدونه بتقديم المساعدة والدعم اللازم له للوصول إلي الروميلي عبر بلاد المجر ، اتصلوا ببايزيد واتفقوا معه سرّاً علي حجز جم لديهم مقابل تقديم مبلغ قدره ٤٥ ألف دوقة ذهبية سنوياً . والحقيقة أن أمراء رودس لم يترددوا في نقد هذين التعهدين ، حيث اتصلوا بفرنسا سعياً لإبعاد الأمير الأسير إليها (أول سبتمبر ١٤٨٢/١٧ رجب ٨٨٧) . وقد بقي جم سلطان أسيراً في فرنسا لمدة سبع سنوات حتي مارس ١٤٨٩/ جمادي الأولي ٨٩٤ .

أراد بابا روما اينوسان الثامن استعمال جم سلطان لإعلان حرب صليبية علي العثمانيين ، فعقد اتفاقاً مع ملك فرنسا شارل الثامن تم بموجبه تسليم جم للبابا، ومكافئة رئيس فرسان رودس بمنحه درجة الكاردينال . وإذا كان بابا روما قد دعي جم سلطان لإعتناق المسيحية ، حيث عرض عليه تنصيبه ملكاً علي أوروبا ، وقيادة كل ملوكها لإستعادة أملاك أجداد ، إلا أن جم سلطان رده بقوله : " أنه لا يترك دينه من أجل

صراع علي الدنيا .. " . وهكذا ، استجاب البابا لسعي بايزيد لتجديد اتفاقية حجز جم سلطان مقابل دفع ٤٠ ألف دوقة ذهبية سنوياً . ولما مات اينوسان في ١٤٩٢م/ ٨٩٧هـ ، عرض البابا الجديد علي بايزيد الاستمرار في إرسال مصاريف جم أو دفع مبلغ قدره ٣٠٠ ألف ذهبية مقابل قتل جم ، فأرسل بايزيد موافقته علي الاقتراح الأخير . وإذا كان ملك فرنسا قد أراد استعادة جم من البابا الجديد والتوجه به إلي القدس في حرب صليبية جديدة ، إلا أن مرض جم وموته السريع في ٢٥ فبراير ١٤٩٥/ ٢١جمادي الأولي ٩٠٠ ، أحبط هذه المحاولة[185] .

فتح مدينتي كلي وآق كرمان . وإخضاع البغدان :

لقد خضعت أكثر سواحل البحر الأسود للعثمانيين ، غير أنه كان هناك بعض المواضع التجارية الإستراتيجية الهامة بقيت خارجة السيطرة العثمانية . ولذلك، سعي السلطان بايزيد للخروج في أول حملة له إلي البغدان للسيطرة علي تلك المناطق (١٤٨٤م/ ٨٨٩هـ) . فقام بمحاصرة مدينة كيلي من البر والبحر حتي سلّمت بعد تسعة أيام في ١٥ يوليه / ١٢جمادي الآخرة . ومن هناك تحركت الجيوش العثمانية إلي قلعة آق كرمان في منطقة بسارابيا ، حيث انضمت إليها قوات خان القرم منكلي گراي ، فأحكمت الحصار عليها حتي فتحت في ١١ أغسطس ١٤٨٤/ ١٠ رجب ٨٨٩ . وهكذا ، استطاع العثمانيون السيطرة علي الطريق الممتد بين دوبروجه ونهر طونه ، وفتح الطريق الذي يربط البحر الأسود بنهر بروط ، ومن ثم أمكن تأمين مواصلات خان القرم مع الدولة .

وإذا كان أمير البغدان قد حاول استعادة آق كرمان ، إلا أن الحملة التي جردتها الدولة في أيلول ١٤٨٥/شعبان ٨٩٠ ، أجبرته علي الفرار إلي ملك لهستان، الأمر الذي

---

[185] حول صراع بايزيد جم علي العرش ، واقعة أسر جم سلطان ومحاولات بايزيد للقبض عليه ، ومحاولات أوروبا للإستفادة منه للضغط علي الدولة العثمانية ، وأثر حجزه على توقف فتوحات الدولة علي مدي أثني عشر عاماً ، أنظر : M.H.Şakiroğlu, "Cem Sultan", DIA, VII/284; keza bk. S. Tansel, Sultan II. Bayezid'in Siyasî Hayatı, İstanbul 1966, s. 43-52; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/165-174

مكن العثمانيون من اخضاع البغدان نفسها أيضاً . والحقيقة أن محاولات أمير البغدان للعودة إلي بلاده لم تتوقف حتي قَبِل النفوذ العثماني ، وعقد اتفاق تبعية أرتضي بموجبها دفع خراج سنوي قدره أربعة آلاف ذهبية ، وتعهد بعدم الخروج علي الدولة في أية مواجهة أوروبية[١٨٦] .

المواجهة بين العثمانيين والمماليك :

كانت العلاقة بين الدولتين الإسلاميتين السنيتين قد اضطربت منذ استقبال السلطان المملوكي للأمير جم سلطان ودعمه ، حيث قامت الدولة العثمانية من جهتها بدعم أمير ذوالقدر في محاصرته لملاطية التابعة للمماليك والحاق الهزيمة بالقوات المملوكية علي الحدود بين الطرفين (١٤٨٤م/ ٨٨٩هـ) . وإذا كان قد أمكن رأب الصدع من خلال تبادل السفراء بين الدولتين ، واعتراف السلطان قايتباي بالأراضي الموجودة تحت يد السلطان العثماني والتوصية بإرسال الخليفة العباسي بمصر لمنشور السلطنة للسلطان بايزيد ، إلا أن معاملة السفير المملوكي معاملة سيئة علي الحدود ، وتعديات القوات العثمانية علي الأراضي المملوكية واحتلالها بعض القلاع هناك ، كان سبباً لنشوب المواجهة العسكرية المباشرة بين الطرفين لأول مرة (١٤٨٥م/ ٨٩٠هـ)[١٨٧] .

لقد استمرت الحرب علي الحدود بين الطرفين نحو خمس سنوات (١٤٨٥-١٤٩٠م/٨٩٠-٨٩٥هـ) ، حيث تمكنت القوات المملوكية خلالها من هزيمة عدة جيوش عثمانية ، واستعادت القلاع التي كان العثمانيون قد استولوا عليها . وإذا كان بايزيد قد جرّد حملة تحت قيادة أمير أمراء الأناضول هرسك زاده أحمد باشا للسيطرة علي كيلكيا واستعادة تلك القلاع الحدودية ، إلا أنه هزم أيضاً وسقط أسيراً في يد

---

[186] فيما يتعلق بفتوحات بايزيد الثاني في البغدان ، أنظر : Viorel Ponoite, "Osmanlı Hakimiyetinin Tuna Nehri'nin Kuzeyinde Yayılışı XIV ve XVI Yüzyıllarda Eflak ve Boğdan", Türkler, IX/206-218; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/181-184

[187] Ş.Tekindağ, " II. Bayezid Devri'nde Çukurova'da Nüfus Mücadelesi ve İlk Osmanlı Memlük Savaşları", Belleten, XXXI/123, 1969, s.345-373

المماليك في ١٤٨٦م/ ٨٩١هـ . وقد تمكنت القوات المملوكية من إلحاق هزيمة أخري بالجيش العثماني عند أطنه في ١٧ أغسطس ١٤٨٨/٨ رمضان ٨٩٣ ، حيث تمكنت من استعادة المدينة في أول إبريل ١٤٨٩/ آخر صفر ٨٩٤ .

أما المواجهة الأخيرة بين العثمانيين والمماليك فكانت بسبب تحول أمير ذوالقدر علاء الدولة عن العثمانيين واتفاقه مع المماليك . ولذلك قامت الحكومة العثمانية بتعيين شاه بوداق الموجود في استانبول بدلاً منه . وإذا كانت الإدارة العثمانية قد عجزت عن تمكين شاه بوداق من حكم بلاده بعد العديد من المواجهات بين الطرفين ، فقد دفعت الضائقة المالية وحركة عصيان الجند ، دفعت السلطان المملوكي لقبول وساطة سفير تونس بين الطرفين . وأخيراً ، تم تبادل الأسري ، وأعيدت ولايات أطنه وطرسوس للمماليك نظراً لأنها كانت موقوفة علي الحرمين الشريفين (ابريل ١٤٩١/جمادي الآخره ٨٩٦) . وهكذا ، استمرت حالة السلام بين الطرفين لما يقرب من خمسة عشر عاماً أخري[١٨٨] .

المساعدات العثمانية لمسلمي الأندلس :

لقد كان إرسال مملكة بني الأحمر سفيرها للدولة العثمانية طلباً للمساعدة علي مواجهة الضغوط الأسبانية ضد المسلمين في آخر معاقلهم بالأندلس (١٤٨٦م/ ٨٩١هـ) ، وعدم قدرة الإدارة العثمانية علي تقديم المساعدات اللازمة لتحسين أوضاع المسلمين هناك ، سبباً في تفكير الإدارة العثمانية الجدّي لتطوير البحرية

[188] لتفصيلات أكثر حول علاقة إمارة ذوالقدر بكل من الدولتين السنيتين المموكية والعثمانية ، أنظر :
R. Yınanç, Dulkadır Beyliği, Ankara 1989, s.33-69; Ş. Tekindağ, "II. Bayezıt Devrinde Çukurova'da Nüfuz Mücadelesi İlk Osmanlı Memlûklü Savaşları (1485-1491), Belleten, c.XXX. s. 368 vd.; S. Tansel, "Yeni Kaynak ve Vesikalar Karşısında Sultan II. Bayezid Hakkında Bazi mutala'alar", Belleten, c.XVII, sy. 106, s.44-57

العثمانية[١٨٩] . فعلي الرغم من أنه لم يكن لدي العثمانيين حتى هـــذا التـــاريخ القـــواد البحريين المهرة الذين يمكنهم قيادة حروباً كبرى في أعالي البحار ، وفي الوقت الـــذي كانت فيه أوروبا مستمرة في تهديد بايزيد باطلاق سراح أخيه جم سلطان من الأسر، لم تترد الدولة العثمانية في إرسال أسطولها تحت قيادة كمال رئيس لضـــرب الســـواحل الأسبانية ومساعدة المسلمين المهاجرين في الانتقال إلي مختلف الموانى العثمانيـــة شـــرقي البحر المتوسط[١٩٠] .

---

[189] لقد شهد عهد بايزيد الثاني تطوراً كبيراً في البحرية العثمانية ، حيث أنشأت عدة أساطيل ضمّت سفن من أنواع بارجه وقادرغه وقاليته وماونه وقاليون ، علاوة علي سفن المدفعية . ولما تم تعيين كمال رئيس قائداً للبحرية العثمانية في ١٤٩٤م/ ٨٩٩هـــ ، أعطي لهذه الأساطيل فعالية خاصة ، حيث تمكن من تشكيل جيل جديد من البحارة العثمانيين المدربين تدريباً حسناً ، وقام بتدريب الراغبين من رعايا الدولة في الولايات الساحلية غربي الأناضول وسكان الجزر العثمانية للعمل كبحارة في الأسطول العثماني . وبذلك استطاع كمال رئيس الوصول بالبحرية العثمانية إلي درجة منافسة القوة البحرية للبندقية : Uzunçarşılı, Osmanlı Devletinin Merkez ve Bahriye Teşkilati, Ankara , s.344 Vd.

[190] تشير الدراسات الحديثة أنه وصل للبلاط العثماني من الأندلس عدد من السفراء خلال عهد محمد الفاتح ١٤٧٧م لطلب المساعدة على التصدي لتعديات الأسبان ، ودعم المسلمين في هذه البلاد البعيدة ، فكانت هذه أول سفارة إلي العثمانيين لهذا الغرض . ولما كانت الدولة العثمانية تخوض حرب الستة عشر عاماً (١٤٦٣-١٤٧٩م) لم تتمكن من ارسال المساعدات الضرورية . ولذلك تكررت هذه الإستغاثات سواء إلي الدولة العثمانية خلال عهد بايزيد الثاني أو إلي الدولة المملوكية خلال عهد قانصوه الغوري ، إلا أن المساعدات المرسلة كانت متواضعة للغاية ، واقتصرت علي إرسال بعض السفن لنقل المهاجرين المسلمين من بلاد الأندلس إلي شمال أفريقيا . لتفصيلات أكثر في هذا الخصوص، أنظر : Chakıb Benafri, "Endülüs'te Son Müslüman Kalıntısı Morisko'ların Cezayir'e Göçü ve Osmanlı Yardımı",Hacettepe Ün. Sosyal Bilimler Enstitüsü, Ankara 1989, s. 33-52; Mehmet Özdemir, "Endülüs Müslümanlarına Osmanlı Yardımı", Türkler, IX/393-396

الحرب العثمانية – البندقية : لقد دفعت المنافسة بين الجمهوريات الإيطالية حكومات فلورانسا ونابولي والبابوية علاوة علي إمبراطور ألمانيا إلي تحريض الدولة العثمانية ضد البندقية . وإذا كانت البندقية قد حرصت على تحسين علاقاتها مع العثمانيين لمواجهة هذه التحريضات ، إلا أن مساعدة البنادقة لجون كستريوتا ابن اسكندر بك العاصي في بلاد الأرناؤوط ، وعدم تقديمهم العون لبعض السفن العثمانية التي التجأت لقبرص إثر هبوب عاصفة بحرية عليها ، عوامل حاسمة لإعلان الحرب علي البندقية .

فتح اينه بختي : وهكذا ، صدرت الأوامر لأمير البوسنة بتشديد الهجمات علي أراضي شمالي البندقية ، وذلك لتمكين الأسطول العثماني للتحرك صوب المستعمرات البندقية في المورة والحيلولة دون وصول المساعدات للبنادقة من الخارج ، وذلك في الوقت الذي خرج فيه الأسطول العثماني (٣٠٠ قطعة بحرية) تحت قيادة القبطان داود باشا بقوة قوامها ستين ألف مقاتل . وفي أول يونية ١٤٩٩/٢٠ شوال ٩٠٤ ، خرج بايزيد بنفسه متوجهاً إلي المورة ، حيث أصدر أوامره لقوجه مصطفي باشا بالتوجه لمحاصرة إينه بختي من ناحية البر . وكان الأسطول البندقي يرسو علي سواحل مودون تحت قيادة الأميرال أندريه ، حيث تمكّن من إغلاق ميناء اينه بختي بنحو ١٥٠ قطعة بحرية .

ولما وصل الأسطول العثماني وقعت بين الطرفين معركة طاحنة انتهت بمقتل بعض قواد الأسطول البندقي ، الأمر الذي أجبر الأميرال اندريه في البداية للانسحاب إلي قورفو . وعلي الرغم من الخسائر الكبيرة التي تكبدها العثمانيون في هذه المعركة البحرية، إلا أنها أكدت التفوق العثماني في البحر المتوسط ، وأجبرت قائد قلعة اينه بختي علي تسليم مفاتيحها عقب انسحاب الأسطول البندقي ، ودخل العثمانيون المدينة الإستراتيجية في أغسطس ١٤٩٩/ محرم ٩٠٥ .

فتح مودون وقورون ونوارين : لقد كان خروج ميناء هام كإينه بختي من يد البندقية بدايةً مرحلة جديدة من مراحل تطور البحرية العثمانية ، حيث شعرت

جمهورية البندقية بالضعف لأول مرة ، وبعدم قدرتها علي تحمل تبعات الحروب المستمرة والطويلة مع العثمانيين ، فأرسلت سفرائها إلي الدولة العثمانية تعرض تجديد الصلح بين الطرفين ، إلا أن السلطان العثماني حدد شرطين للصلح المزمع هما : تسليم مدن مودون وقورون ونوارين ، ودفع الخراج السنوي للعثمانيين. وكان رفض البنادقة لهذه الشروط إعلاناً عن إستئناف الحرب بين الطرفين مرة أخري.

وبذلك ، صدر الأمر ليعقوب باشا بالخروج علي رأس الأسطول العثماني ، فقام بمحاصرة مودون ، ثم خرج السلطان في إبريل ١٥٠٠/ رمضان ٩٠٥ ، حيث كانت قوات الروميلي والأناضول تحاصر المورة منذ أكثر من شهر . وأخيراً تمكن العثمانيون من فتح قلعة مودون في ١٠ أغسطس ١٥٠٠/ ١٤ محرم ٩٠٦ . وفي الوقت الذي صدرت فيه الأوامر بترميم القلعة المفتوحة ، كلف خادم علي باشا بالتوجه إلي قورون من البر والقبطان داود باشا بالوصول إليها عن طريق البحر . وفي طريقه إلي قورون تمكن خادم علي باشا من فتح ميناء نوارين سلماً وبدون حرب ، حيث سلمت قورون أيضاً في ١٦ أغسطس/ ٢٠محرم[١٩١] .

حرب صليبية جديدة : بينما كان بايزيد يرسل رسائل فتح (فتحنامه لر) اينه بختي ومودون وقورون ونوارين إلي الدول الإسلامية والدول الأوروبية ، كانت البندقية تحت هذه الضربات الموجعة تسعي لطلب المساعدات من إمبراطور ألمانيا والبابوية وانجلترا وفرنسا وأسبانيا ونابولي ولهستان ظوالمجر ، حيث قام البابا في هذه المرة بتحريض دول أوروبا لإعلان حرب صليبية ضد العثمانيين لإنقاذ البندقية . وبالفعل ، عقدت البندقية اتفاقية دفاع مشترك مع البابوية والمجر ، حيث تقرر أن تقوم المجر بمواجهة العثمانيين في الجبهة البرية وتقوم البابوية والدول البحرية الأخرى بمواجهتها في البحر .

تحركت أساطيل الحلفاء في خريف ١٥٠٠م/٩٠٦هـ ، فقام الأسطول البندقي بالإستيلاء علي حزيرة أكينه والأسطول الأسباني علي حزيرة كفالونيه ، ورسي

---

[191] حول العلاقات العثمانية البندقية خلال عهد بايزيد الثاني ، أنظر : Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/190-194, 214-218

الأسطول الفرنسي عند قلعة زانتا ، واقتربت أساطيل أركون وسيجيليا من جزيرة قورفو، وقامت أساطيل الحلفاء بمحاصرة جزيرة ميديللي . ولما وصلت هذه الأخبار إلي استانبول ، أرسلت الرسل إلي ولايات الدولة المختلفة ، وأُعد بسرعة البرق أسطول مكون من ٣٠٠ قطعة بحرية خرجت تحت قيادة هرسك زاده أحمد باشا ، حيث وصل لجزيرة ميديللي في أكتوبر ١٥٠١م/ ربيع الأخرة ٩٠٨ . وفي المواجهة التي وقعت بين الطرفين ، وأثناء الهجوم الأخير الذي شنه الحلفاء علي الجزيرة ، قتل ابن شقيق ملك فرنسا ، وتراجعت سفن فرسان رودس ، وهبت عاصفة أدت لغرق الأسطول الفرنسي ملحقة الهزيمة بأساطيل الحلفاء .

والحقيقة أنه علي الرغم من أن المجر كانت قد عقدت مع الدولة العثمانية معاهدة مدتها ثلاثين عاماً ، إلا أنهم دخلوا الحلف الصليبي مقابل تقديم البندقية لمبلغ ٤٠٠ ذهبية سنوياً لملك المجر . وفي الوقت الذي كان فيه قائد المهاجمين علي الجبهة المجرية البرية إبن أورانوس يفتح مدينة دراج في ١٥٠٢/٩٠٨هـ ، ويتمكن والي البوسنة إسكندر باشا من فتح عدد من القلاع المجرية ، راح ملك المجر يوحد جبهة أمراء ترانسلفانيا وطمشوار وبلجراد ، ويقودهم في شن الهجمات علي نهر طونه وتخريب ويدين ونكبولي .

الاتفاق العثماني – البندقي – المجري : لم تُقصّر دول التحالف الصليبي في مواجهة العثمانيين في البر وفي البحر ، ولكن عدم مقدرة البندقية علي تحمل أعباء الحرب المستمرة دون نتيجة مثمرة دفعها لطلب الصلح من العثمانيين . وفي المقابل ، لم يتردد العثمانيون في قبول الصلح نظراً لظهور الخطر الشيعي في شرقي الأناضول وللأوضاع المضطربة في أنحاء البلاد . وأخيراً ، وفي ١٤ ديسمبر ١٥٠٢/ رجب ٩٠٨ ، وقّعت البندقية مع الدولة معاهدة سلام ، أهم ما جاء فيها من بنود :

١. تنازل البندقية عن اينه بختي ومودون وقورون ، والاعتراف بفتح مدينة دراج التي انتزعت من بلاد الأرناؤوط .
٢. احتفاظ البندقية بجزيرة كفالونيا واعادة جزيرة سنتامورا للعثمانيين .

٣. تبادل الأسري بين الطرفين .

٤. دفع البندقية مبلغ قدره عشرة آلاف دوقه ذهبية سنوياً للخزينة العثمانية .

وفي ٢٠ أغسطس ١٥٠٣/ ربيع الأخرة ٩٠٩ ، وقعّت المجر معاهـدة سـلام أخري مع الدولة ، كان أهم بنودها :

١. اعتراف الحكومة العثمانية بحكم ملك المجر لمناطق اسكولوفانيا ، مورافيا، سيلزيا ولوزاسي .

٢. اعتراف ملك المجر بالمناطق التي فتحها المهاجمون العثمانيون علي الحدود المجرية.

٣. إطلاق الحرية التجارية بين الطرفين"[١٩٢] .

ظهور الخطر الصفوي الشيعي في الأناضول :

تنتسب الأسرة الصفوية إلي الشيخ صفي الدين الأردبيلي جد الشاه إسماعيـل الذي انتسب بدوره إلي إبراهيم زاهد جيلاني مؤسس الطريقة الخلوتية . استطاع الشيخ جنيد إبن صفي الدين ثم إبنه الشيخ حيدر قيادة متصوفة أردبيل وصبغ دعوتهم بالصبغة السياسية ، حيث تمكن إسماعيل بن حيدر من تحقيق مكاسب سياسية سريعة خلال الفترة ما بين ١٥٠٢-١٥٠٧م/ ٩٠٧-٩١٣هـ ، فاستولي علي إيران والعراق وأذربيجـان حتي وصل إلي دياربكر وخربوط معلناً قيام الدولة الصفوية الشيعية .

وكانت الدولة العثمانية قد تعرضت لفتنة الشيخ بدر الدين محمـود البـاطني خلال عهد محمد جلبي (١٤١٣-١٤٢١م/ ٨١٦-٨٢٤هـ) . وإذا كانت الدولة قد استطاعت القضاء علي فتنته في الأناضول والروميلي في وقتها ، إلا أن هـذه الطائفـة العلوية التي لبست رداء التصوف في الدولة راحت توطد علاقاتها مع متصوفي أردبيـل الشيعة . وهكذا ، راح الشاه إسماعيل يرسل دعاته إلي الأناضول ليوطد علاقته بكافـة الطوائف العلوية في مختلف أنحاء الدولة العثمانية ، حيث أمر مؤيديه في تلـك المنـاطق بارتداء قلنسوة حمراء اللون ، فعرفوا منذ ذلك الحين بإسم "قزيلباش" . والحقيقة أن هناك

---

[192] فيما يتعلق بالمواجهات العثمانية – البندقية والعثمانية – المجرية ، أنظر : Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/218-224

أسباب ساعدت علي تفاقم الخطر العلوي الشيعي في الأناضول في أواخر عهد بايزيد الثاني يمكن حصرها فيما يلي :

١. ترك بايزيد شئون البلاد لوزراءه ، ورغبته في الإنزواء .

٢. عدم مبالاة وكلاء الدولة في مواجهة التطورات التي كانت تحدث في شرقي الأناضول .

٣. إنشغال أبناء بايزيد ورجال الدولة وجنودها بتأييد المتنافسين علي خلافة بايزيد علي عرش السلطنة .

لم يضيع الشاه إسماعيل هذه الفرصة ، حيث أرسل أحد دعاته ويدعي نور علي خليفة إلي الأناضول . استطاع نور علي خلال وقت قصير جمع نحو أربعة آلاف من المريدين هزم بهم فرقة عثمانية خرجت لمواجهته ، حيث تمكن من احتلال مدينة توقات والأمر بقراءة الخطبة باسم الشاه الصفوي فيها . وكان أحد خلفاء الشيخ حيدر والد الشاه إسماعيل ويدعي قره بيقلي أوغلي ، وعرف في التاريخ العثماني باسم " شاه قولي " أو " شيطان قولي " ، كان قد استطاع جذب الكثير من المريدين الذين التفوا حوله ، وتمكن بهم من السيطرة علي أنحاء مختلفة من الأناضول والروميلي، فهاجم مغنيسا وسيطر علي انطاليا (١٥٠٩م/ ٩١٥هـ) ، وحاصر كوتاهيه (إبريل ١٥١١/ محرم ٩١٧) ، فألحق الهزيمة بالعديد من الحملات التي جردتها الدولة ضده . وإذا كان علي باشا استطاع هزيمة شاه قولي وأتباعه وقتله في المعركة التي وقعت بينهما في يولية ١٥١١/ربيع الآخرة ٩١٧ ، إلا أن محاولات الشاه إسماعيل الصفوي في التأثير علي العشائر التركمانية ونشر المذهب الشيعي بينها والسيطرة علي الأناضول لم تتوقف[١٩٣] .

---

[193] فيما يتعلق بمحاولات الدولة الصفوية بنشر المذهب الشيعي في الأناضول ، انظر : Begset Karaca, "Safevî Devleti'nin Ortayay Çıkışı ve II. Bayezid Dönemi Osmanlı-Safevî İlişkileri", Türkler, XI/409-417; Ahmed Taksay,"II. Bayezid Döneminde Osmanlı-Safavî İlişkileri", Türk Yurdu, Aralık 1999- Ocak 2000; Yüsüf Küçükdağ, "Osmanlı Devletinin Şah İsmail'in Anadolu'ya Şiileştirme Çalışmalarını Engellemeye Yönelik Önlemleri", Osmanlı, Ankara1999, c.I,

تأجج مشكلة ولاية العهد :

كان للسلطان بايزيد ثمانية أبناء هم عبد الله ، وشاهنشاه ، وعلمشاه ، ومحمود ، ومحمد ، وأحمد ، وقورقود ، وسليم . مات أكثرهم في حياة أبيهم ، ولم يبق منهم سوي شهنشاه صغير السن ، وقورقود وكان والياً علي مغنيسا ، وأحمد وكان والياً علي أماسيا ، وسليم وكان والياً علي طرابزون . وكان الشهزاده أحمد هو أكبر أبناء بايزيد وأحبهم إليه ، حيث كان السلطان يعدّه لتولية السلطنة من بعده ، كما كان الوزير الأعظم علي باشا يؤيده في ذلك . ولذلك ، حرص الشهزاده أحمد على إبعاد أخويه الآخرين عن مركز السلطنة ، فكان سبباً في نقل أخيه قورقود من سنجقه القريب في مغنيسا إلي أنطاليا ، الأمر الذي أغضب قورقود ، ودفعه للفرار إلي مصر بدعوي أداء فريضة الحج (إبريل ١٥٠٩/ محرم ٩١٥) . ولما عاد للأراضي العثمانية توجه إلي سنجقه القديم في مغنيسا ليكون قريباً من استانبول (١٥١٠م/٩١٦هـ)

وكما وصلت الأخبار حول نية السلطان بايزيد لترك السلطنة لإبنه المفضل أحمد إلي قورقود فطالب بإمارة قريبة من إستانبول ، وصلت هذه الأخبار أيضاً إلي الشهزاده سليم . فكان سليم دائم المراقبة لتحركات أخويه أحمد وقورقود نظراً لبعد ولايته طرابزون الشديد عن مركز الدولة في استانبول . ولذلك ، طالب سليم الإنتقال لسنجق في منطقة الروميلي ، حيث توجه إلي هناك رغبة منه في مقابلة أبيه وعرض طلبه عليه . وإذا كان الشهزاده أحمد قد طلب من أبيه القيام بتأديب كل من قورقود الذي توجه إلي مغنيسا وسليم الذي توجه إلي الروميلي بدون إذنه ، إلا أن بايزيد زجر إبنه أحمد ، ولم يسمع لقوله .

---

s.269 vd.; Nejat Birdoğan, Alevîlerin Büyük Hükümdarı Şah İsmail, Hatai 1991, s.44-57; Faruk Sümer, Safevî Devletinin Kuruluşu ve Gelişmesinde Anadolu Türklerinin Rolu, Ankara 1976, s. 51-56; Ş. Tekindağ, "Şahkulu Baba Tekeli İsyanı", Belglelerle Türk Tarihi Dergisi, sy. 3-4, Ankara 1967

وكان رجال الدولة يخافون من شدة الشهزاده سليم وصرامته ، ويميلون لأحمد نظراً لإعتداله ولطفه ، ولذلك حرص سليم علي إعداد قواته لمواجهة حاسمة يمكن أن تقع مع أخويه ، حيث كانت فرق اليكيجري تؤيده لتولي السلطنة خلفاً لبايزيد . وبتحريض من رجال الدولة خرج بايزيد إلي أدرنه للتصدي لإبنه سليم ، إلا أنه أمكن التوصل لاتفاق بين الطرفين يقضي بتعهد بايزيد بعدم تعيين الشهزاده أحمد ولياً للعهد ، وتعيين سليم علي ولاية سمندره في منطقة الروميلي .

وفي الوقت الذي كان فيه سليم يراقب التطورات في استانبول من منطقة فلييه القريبة من استانبول ، وعلي أثر مقتل الوزير الأعظم علي باشا ووفاة الشهزاده شاهنشاه، انزوي بايزيد تماماً عن ممارسة شئون السلطنة ، ودعي رجال الدولة إلي مجلس طارئ ، حيث عرض عليهم رغبته في الترول عن العرش لأحد أبناءه ، فوافق أكثر أهل الديوان علي الشهزاده أحمد . فلمّا علم سليم بمخالفة أبيه العهد الذي قطعه علي نفسه ، جمع قوة قوامها نحو أربعين ألف رجل ، وسار بهم إلي وادي قاريشتيران في ولاية چورلي، فقام رجال الدولة المؤيدون للشهزاده أحمد بتحريض السلطان علي محاربة ابنه ، حيث وقعت مواجهة بين الطرفين في أغسطس ١٥١١/ جمادي الأولي ٩١٧ انتهت بهزيمة سليم وفراره إلي كفه . وعلي الرغم من أن الوزير الأعظم هرسك زاده أحمد باشا راح يذكّر السلطان بايزيد بعهده لأبنائه وبميل الجنود للشهزاده سليم ، إلا أن تأييد بقية رجال الدولة للشهزاده أحمد ، جعل السلطان يسرع بالتوجه إلي استانبول استعداداً لإعلان الشهزادة أحمد سلطاناً علي البلاد في اليوم التالي[194] .

تنازل بايزيد عن الحكم للشهزاده سليم ووفاته : وفي آخر ليلة من شهر سبتمبر ١٥١١/ سلخ جمادي الأخره ٩١٧ احتمع قادة حند اليكيجري ، وقرروا عدم الإعتراف بأحمد سلطاناً عليهم ، وقاموا بنهب منازل الوزير الأعظم وبعض الوزراء ، وأصروا علي أن يكون سليم ولياً للعهد . ولمّا علم الشهزاده أحمد بهذه التطورات عاد

---

[194] بخصوص مرحلة صراع أبناء بايزيد أحمد وقورقود وسليم على العرش أنظر : M. Aknan, Osmanlı Devletinde Kardeş Katli, İstanbul 1997

إلي الأناضول . وعلي أثر فشل أعداء سليم في تعيين الشهزاده أحمد ، حـــاولوا جعـــل قورقود ولياً للعهد بدلاً من سليم ، إلا أنه عندما وصل قورقود إلي إستانبول ، أخـــبره قواد فرقة اليكيجري بأنهم لا يرتضون إلاّ بسليم سلطاناً عليهم، ووعدوا بعدم التعرض لحياته بأي حال إذا تخلى عن مطالبته بحقه في السلطنة . وهكذا ، اضطر بايزيد الذي فقد سيطرته علي أنحاء البلاد لدعوة سليم إلي استانبول، حيث استقبله رجال الدولة ، وتوجه للديوان الهمايوني ، فقبل يد أبيه ، ونزل بايزيد عن السلطنة لإبنه الشـــهزاده ســـليم في إبريل ١٥١٢/ ٧ صفر ٩١٨[١٩٥].

عقب نزوله عن العرش لإبنه السلطان سليم ، توجه بايزيد إلي ديمتوقه ، حيث عُين له معاش قدره ٢٠٠حمل أي ٢ مليون أقچه . وقد اصطحبه في رحلته أمـــير أمـــراء الروميلي حسن باشا ، وقاسم چلبي والطبيب آخي چلبي . وقبل أن يصل إلي ديمتوقـــه توفي فجأة في نواحي چورلي في ٥ يونية ١٥١٢/ ١١ ربيع الأولي ٩١٨ [١٩٦].

[195] بخصوص الوقائع نتج عنها تولية سليم العرش ، أنظر : Çağatay Uluçay, " Yavuz Sultan Selim Nasıl Sultan Oldu? ", Tarih Dergisi, c. VIII, s. 138; keza bk. Ş. Tekindağ, "Korkut Çelebi ile ilgili İki Belge", Belgelerle Türk Tarihi Dergisi, sy.17/1969

[196] فيما يتعلق بملابسات وفاة بايزيد الثاني ، أنظر : Ş. Tekindağ, "Bayezid'in Ölümü Meslesi", Tarih Dergisi, sy.24, Mart 1976



القيادة العثمانية للعالم الإسلامي

عهد ياووز سلطان سليم (الأول)

(١٥١٢-١٥٢٠م/٩١٨-٩٢٦هـ)

لقد حددت التطورات السياسية في شرق الأناضول وشمال أفريقيا والمحيط الهندي خلال عصر السلطان بايزيد الثاني ، حددت الملامح العامة لسياسة الدولة العثمانية خلال عصر السلطان سليم الأول . فكما كانت محاولات نشر المذهب الشيعي بين الجماعات العلوية في الدولة العثمانية سواء في الأناضول أو في الروميلي سبباً في حملات باووز سلطان سليم علي شرقي والأناضول ثم علي الدولة الصفوية الشيعية حماية للمذهب السني الذي اتخذته الدولة العثمانية مذهباً رسمياً لها منذ ظهورها في الأناضول ، فقد كانت التعديات الأسبانية علي شمال أفريقيا بعد سقوط آخر ممالك الأندلس وتجاوزات البرتغال في البحر الأحمر والمحيط الهندي وأطماع الصفويين لإحياء المذهب الشيعي في مصر والشام مرة أخري وعجز دولة المماليك عن مواجهة هذه التحديات الخارجية ، في الوقت الذي نجح فيه إسماعيل الصفوي في عقد إتفاق دفاع مشترك مع قانصوه الغوري ، من أهم العوامل التي دفعت السلطان العثماني الإضطلاع بمهمة الدفاع عن العالم الإسلامي السني ضد الحملات الصليبية في الشمال والجنوب والتوسع الشيعي في الشرق .

توطيد سليم لسلطته علي أرجاء الدولة العثمانية :

لقد كان علي سليم الأول التمكين لحكمة في الممالك العثمانية قبل الخروج في حملات خارجية . فلم يكن اختيار جند اليكيجري للشهزاده سليم سلطاناً علي البلاد ونزول بايزيد الثاني علي رغبتهم نهاية لهذه الحلقة من صراع أبناء بايزيد الثاني علي العرش ، بل كان هذا الاختيار سبباً لتأجج هذا الصراع بين الأشقاء الثلاثة . وقد زاد من هذا الصراع وجود مؤيدين سواء من بين رجال الدولة أو من الفرق العسكرية لكل

طرف . ولذلك ، جعل سليم الأول أولي مهامه ، التمكين لسلطته في أنحاء البلاد ، وتنحية كل عوامل اضطراب جبهته الداخلية .

انفراد سليم بالحكم : كان قورقود قد أخذ العهد من فرقة اليكيجري بعدم المساس بحياته عند جلوس سليم علي العرش . أما الشهزاده أحمد الذي كان أقوي المنافسين فقد توجه إلي قونية ، وأخذ يعد العدة استعداداً لمواجهة أخيه سليم . وفي الوقت الذي كان فيه السلطان الجديد يستقبل السفراء المهنيئن من المجر والبندقية ومصر وغيرها من الدول ويجدد معاهدات الصداقة معهم ، كان أحمد قد تمكن من السيطرة علي بورصة وأمر بقراءة الخطبة باسمه في مساجدها . ولما أرسل سليم قوة إلي الشهزاده أحمد ، تراجع إلي ملاطية وأرسل إبنيه إلي إسماعيل الصفوي يطلب منه المساعدة . وعندما علم سليم بحرص قورقود علي السلطنة أيضاً ، توجه إلي مغنيسا ، وحاصره حتي قبض عليه وأعدم في رمضان ٩١٨هـ/ نوفمبر ١٥١٢م.

وبينما كان سليم يقوم بتصفية الجبهة المؤيدة للشهزاده أحمد بإعدام الوزير الأعظم قوجه مصطفي باشا ، قام باستكتاب خطابات من قبل مؤيدين وهميين إلي الشهزاده أحمد يدعونه فيها للعودة لتولي السلطنة . وبالفعل ، خُدِع الشهزاده بهذه الرسائل ، حيث خرج إلي أماسيا وجمع جنده هناك ، ثم توجه بهم إلي قونية ، ومنها إلي بورصه . وبذلك وقعت المواجهة بينه وبين والي قرمان وأمير أمراء الروميلي عند يكيشهر انتهت بالقبض علي الشهزاده أثناء انسحابه ، حيث أعدم في ٨صفر ٩١٩هـ/ ٥ إبريل ١٥١٣م . وهكذا ، انفرد سليم بالسلطة المطلقة في أنحاء البلاد ، وبدأ في تأمين جبهته الخارجية وجبهته الداخلية[١٩٧] .

سياسة سليم الشرقية : منذ ظهور العثمانيين في ساحة التاريخ قامت استراتيجية الفتوحات لديهم علي الغزو والجهاد في أوروبا . ولم تكن مواجهاتهم الأناضولية سوى شكلاً من أشكال الصراع على بسط النفوذ على بقية الإمارات

[197] Çağatay Uluçay, " Yavuz Sultan Selim Nasıl Sultan Oldu? ", Tarih Dergisi, c. VIII, s. 138 vd.; keza bk. S. Tansel, Yavuz Sultan Selim, s.3-18; Ahmed Uğur, Yavuz Sultan Selim, s. 19-44

التركمانية . وقد استمرت الجبهة الأوروبية الغربية هي الجبهة الأكثر جذباً لسياسة الدولة العثمانية على مدى قرنين من الزمان ، وحتي العقد الأخير من القرن ٩هـ/١٥م. والحقيقة أن العالم راح يشهد تحولات جذرية خلال مطلع القرن ١٠هـ/١٦م كان لها انعكاسات مباشرة على العالم الإسلامي عموماً والشرق الإسلامي بصفة خاصة .

فعلي أثر سقوط آخر ممالك الأندلس في غرناطة في يد الأسبان عام ١٤٩٢م/ ٨٩٧هـ ، بدأت حركة هجرة جبرية للمسلمين هناك إلى سواحل شمال أفريقيا ، حيث أخذ الأسبان يتعقبون المسلمين ويتخذون معاقل لهم على طول سواحل الشمال الأفريقي، حتى وصلت اعتداءاتهم إلى السواحل المصرية . وفي الوقت الذي كان فيه الأسبان يقومون بعمليات سلب ونهب السواحل المصرية في دمياط ورشيد وغيرها ، كان البرتغاليون قد نجحوا في الإلتفاف حول العالم الإسلامي باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، حيث قاموا بتحويل طريق التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر ومصر إليه وحرموا دولة المماليك من موردها الإقتصادي الأهم ، وقاموا بالتعدي علي موانى البحر الأحمر والمحيط الهندي بالتنسيق مع أمراء رودس الذين راحوا يعتدون أيضاً علي موانى مصر الشمالية .

وفي الوقت الذي لم تتمكن فيه دولة المماليك الآيلة للسقوط من التصدي لكل هذه التحديات ، كانت الدولة الصفوية الشيعية قد كشفت عن طموحاتها في الأناضول والشام ومصر والحجاز وشمال أفريقيا ، وراحت تتعاون مع البنادقة سراً لتنفيذ مخططاتها في مصر والشام ، وتعقد الإتصالات مع أوروبا للنيل من العثمانيين في شرقي الاناضول ، وتتصل بمماليك مصر للتصدي للعثمانيين ، وتحاول نشر المذهب الشيعي في شرقي الأناضول مستفيدة من الطوائف العلوية المنتشرة في الأراضي العثمانية .

وهكذا ، شهدت منطقة الشرق الأوسط سباقاً عالمياً محموماً بين الأسبان والبنادقة والبرتغال والصفويين على الفوز النيل من دولة المماليك حامية الخلافة العباسية السنية والسيطرة على المنطقة بأغراض صليبية أو اقتصادية أو مذهبية . ومن ناحية أخري، كان العثمانيون قد استجابوا لطلبات استغاثة المسلمين في شمال أفريقيا للتصدي

لهجمات الأسبان ، ولبّوا احتياجات مماليك مصر لبناء اسطول جديد لمواجهة تعديات البرتغال في البحار الشرقية والبحر الأحمر ، وراحوا يتخذون التدابير الصارمة للقضاء علي المذهب الشيعي في الأناضول .

إذا كان لكل هذه التداعيات دور هام لدفع سليم الأول لتغيير الوجهة الإستراتيجية لحملات الدولة العثمانية ، وتحول تلك الحملات من الغرب إلى الشرق لأول مرة ، فقد كانت التعديات الشيعية على الأناضول والصراع المملوكي العثماني علي إمارة ذوالقدر الحدودية والإتفاق الصفوي - المموكي ضد الدولة العثمانية أسباباً مباشرة لتوجه سليم صوب الشرق في حملاته . ولذلك ، أراد سليم حل مشكلاته مع الدول الأوربية على الجبهة الغربية أولاً . فاستقبل سفراء الدول الأوروبية الذين جاؤوا لتهنئته بالجلوس على العرش ، وجدد معهم المعاهدات السابقة قبل أن يتخذ الإستعدادات اللازمة لمواجهة الزحف الشيعي علي الأناضول[198] .

تصفية التجمعات العلوية في الأراضي العثمانية : كان سليم قد يتابع عن قرب فعاليات الشاه إسماعيل الصفوي في شرقي الأناضول بينما كان والياً علي طرابزون ، حيث راح يتعقب أخبار وقائع شاه قولي وتحركات الدعاة العلويين المؤيدين للشاه الصفوي في مختلف أنحاء الدولة ، فأدرك خطورة عقد بعض الأمراء العثمانيين لعلاقات مشبوهة مع الشاه الصفوي وإلباس خلفاء الشاه في الأناضول الشهزاده مراد بن أحمد للتاج الصفوي ، وعلم حساسية الوضع في أنحاء البلاد ، فحث أبيه بايزيد علي حسم التجاوزات الشيعية في الأناضول ، ولكن دون جدوي .

وهكذا ، كان على سليم بعد أن استتب له الحكم في البلاد ، وقبل خروجه في أولى حملاته على الشرق ، كان عليه أن يقضي أولاً على تلك الحركات العلوية التي انتشرت في أنحاء البلاد . فأصدر سليم أوامره إلى أمراء الأمراء وأمراء السناجق في مختلف

[198] انظر أحمد دراج ، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، القاهرة ١٩٦١ ، ص. ١٢٧-١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٧-١٤٨ Salih Özbaran, " Osmanlı İmprartorluğu ve Hindistan Yolu " , Tarih Dergisi, XXXI. (Mart 1977), İstanbul 1978, s. 73, 85 , 96.

ولايات الأناضول والروميلي بحصر أعداد الطوائف العلوية التي يمكن أن تقوم بحركات عصيان في حالة نشوب حرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية الشيعية ووضع سجل بأسمائهم . وأخيراً أتيحت لسليم الفرصة للتنكيل بتلك الجماعات العلوية بخروج بعضها علي الدولة ، فأصدر أوامره بالقبض علي كافة المنتمين للفرق العلوية وفقاً للسجلات المحررة ، فحبس وقتل منهم أكثر من أربعين ألف فرد . وبذلك بدأ سليم في أخذ استعداداته للخروج صوب إيران بعد أن أطمأن لاستقرار جبهته الداخلية[١٩٩] .

حملة السلطان سليم علي إيران :

لقد كان خروج السلطان سليم في حملته الأولى ضد الدولة الصفوية الشيعية والحاقه الهزيمة بالجيش الصفوي وإعلانه تفوق الدولة العثمانية السنية علي الدولة الصفوية الشيعية ، بدايةً لسيطرة العثمانيين علي شرقي الأناضول لأول مرة والحد من إنتشار الخطر الشيعي في المناطق السنية بها ، ومن ثم تأزم الأوضاع علي الحدود العثمانية المملوكية وتأجج المنافسة علي قيادة العالم الإسلامي السني بين الدولة العثمانية فاتحة القسطنطينية والدولة المملوكية حامية الخلافة العباسية والحرمين الشريفين .

استعداداته سليم وخروجه لحملة إيران : لقد كان للصراع العثماني المملوكي علي النفوذ المطلق في إمارة ذوالقدر وعلي حماية العالم الإسلامي السني ، دور هام في تردد دولة المماليك سنية المذهب في الدخول في حلف مع الدولة العثمانية ضد الشاه إسماعيل الصفوي . وعلي الرغم من تربص الشاه الصفوي بدولة المماليك لإعادة المذهب الشيعي للشام ومصر ، واتفاقه مع البنادقة وغيرهم علي أن يقوموا بشن الهجمات علي الشام بحراً بينما يقوم هو بشن الهجوم علي دولة المماليك من ناحية البر ، رفض السلطان المملوكي قانصوه الغوري دعوة السلطان سليم للإتفاق ضد الدولة

---

[199] فيما يتعلق بتصفية البؤر العلوية المؤيدة لحركة إسماعيل الصفوي في الأناضول والروميلي واستصدار الفتاولي الخاصة بالقضاء علي هذه الفئة التي أطلق عليها العثمانيون اسم " القزلباش " ، أنظر : Mustafa Ekinci, "Yavuz Sultan Selim Döneminde Osmanlı Safavî İlişkileri", Türkler, XI/448-449

الصفوية الشيعية في أية مواجهة تقع بين الطرفين ، حيث فضل البقاء علي الحياد انتظاراً لما يمكن أن تتمخض عنه مثل هذه المواجهة المرتقبة[٢٠٠] .

وهكذا ، راحت الدولة العثمانية تأخذ الاستعدادات بمفردها لمواجهة حاسمة مع الشاه الصفوي حامي المذهب الشيعي . ففي الوقت الذي أرسل فيه سليم الأوامر لولاة الأناضول والروميلي للاستعداد للخروج في حملة إيران ، استدعي ابنه سليمان والي مغنيسا إلي أدرنه وكلفه بحراسة منطقة الروميلي . وفي مارس ١٥١٤/محرم ٩٢٠ تحرك السلطان العثماني من أدرنه متجهاً إلي استانبول ومنها إلي اسكدار ، وأرسل خطاباً إلي الشاه إسماعيل الصفوي دعاه فيه " لرفع المظالم والعودة لحظيرة الإسلام قبل أن يسكت الكلام وتصبح الكلمة العليا للحسام " ، فرد الشاه بأنه يشتاق للمواجهة الحاسمة ، ولم تتوقف المراسلات بين الطرفين حتي اتفقا علي الإلتقاء في صحراء چالديران .

تجمعت فرق الولايات من الأناضول والروميلي (سباهية التيمار) وفرق مركز الدولة (القابوقولي) في وادي يكيشهر بالقرب من بورصه ، ثم تحرك الجيش الذي بلغ عدده نحو ١٤٠ ألف فرد إلي سيواس ، حيث تفقد السلطان أحواله ، فأرسل نحو ٢٠ ألف من سباهية التيمار تحت قيادة دوقاكين أحمد باشا للتجسس علي أحوال الشاه ، وأرسل قره حه باشا مع فرقة صغيرة للقبض على بعض الأسري من الجيش الإيراني لاستجوابهم ، وأمر محمد بك إبن ميخال بشن هجماته علي الحدود الإيرانية[٢٠١] .

---

[200] بخصوص الصراعات التي كشفت عن نفسها بين القوي الدولية المعاصرة ، والأطماع المحيطة بمنطقة الشرق الإسلامي وعجز الدولة المملوكية عن مواجهتها ، أنظر : أحمد دراج ، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، ص. ١٢٩-١٣٠، ١٣٩، ١٢٨، ١٤١-١٤٢، ١٤٤-١٤٥ ؛ كذا انظر **بدائع الزهور في وقائع الدهور** ، ج ٤ ، القاهرة ١٩٦١ ، ص.١٩١، وما بعدها ، ج٥، ص. ١٤ ، ١٠٩، ١٦٣، Salih Özbaran, " Osmanlı İmprartorluğu ve Hindistan Yolu ", s. 97 vd.

[201] فيما يتعلق باستعدادات سليم للخروج لملاقاة شاه إيران في أول حملة له صوب الشرق ، أنظر : Mustafa Ekinci, "Yavuz Sultan Selim Döneminde Osmanlı-Safevî İlişkileri", Türkler, IX/449-500; keza bk. S. Tansel,

وهكذا ، عبرت القوات العثمانية الحدود الإيرانية من موضع يقال له صوشهر ، فلمّا عجز قائد الحدود الغربية للشاه اوستاجلو أوغلي محمد خان عن مقاومة الجيوش العثمانية ، اتبع سياسة الأرض المحروقة . وفي الوقت الذي أخذ فيه الجيش العثماني يعاني من نقص المؤن بسبب تخريب إبن استجالو للمدن التي انسحب منها ، رفض علاء الدولة ابن ذوالقدر مدّ الجيوش العثمانية بالمؤن والزخائر اللازمة . و لم يكتفي بذلك ، بل قام بضرب قوافل الزخيرة في مؤخرة الجيش العثماني ، الأمر الذي أوقع الجيش العثماني في ضائقة شديدة .

والحقيقة أن هذه التطورات جعلت الجبهة التي كانت تعارض الخروج للحملة علي إيران تكسب مؤيدين من قواد ووزراء الدولة . فلمّا وصلت الحملة إلي نواحي أرزنجان بالقرب من الفرات ، توسل هؤلاء الأمراء إلى لسلطان بمولاه همدم باشا لعرض رغبتهم في العودة من الحملة وعدم الإستمرار فيها . وإذا كان ياووز سليم لم يتردد في قطع رقبة همدم باشا بسيفه في الحال لوأد الفتنة في مهدها (تموز ١٥١٤/جمادي الأولي ٩٢٠) ، فقد كظم غيظه عندما قام بعض الأمراء بتحريض فرقة اليكيجري علي العصيان ، واكتفي بزجرهم وإعلانه بأنه وصلته رسالة توضح بأن الشاه إسماعيل قد أتخذ مواقعه في وادي چالديران[٢٠٢] .

معركة چالديران وهزيمة الجيش الصفوي : ولما وصل الجيش العثماني إلي چالديران شمال غرب أذربيجان ، كان جيش الشاه إسماعيل قد أخذ مواقعه في ميدان المعركة ، فأسرع السلطان العثماني بتنظيم فرق جيشه من القابو قولي (جند الدرگاه العالي) أي جند الباب السلطاني وفرق المدفعية . فوقف الوزير الأعظم هرسك زاده أحمد باشا والوزير دوقاكين اوغلي أحمد باشا والوزير الثاني مصطفي باشا بجوار

Yavuz Sultan Selim, s. 38 vd.; Ahmet Uğur, Yavuz Sultan Selim, s. 60-65; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/253-258

[202] Mustafa Ekinci, Yavuz Sultan Selim Döneminde Osmanlı Safevî İlişkileri", Türkler, XI/450-451; S. Tansel, Yavuz Sultan Selim, s.48; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/260-261

السلطان، وأخذ أمير أمراء الأناضول خادم سنان باشا مع جند الأناضـــول موقعـــه في الجناح الأيمن من الجيش ، وأمير أمراء الروميلي حسن باشا مكانه مع جند الروميلي في الجناح الأيسر للجيش ؛ ثم وقف أمام مشاه جند القابو قولي أي فرق اليكيجري جنـــد عزب الأناضول والروميلي ، وأمامهم تم نصب خمسمائة مدفع ضربزن . وعلي الطرف الآخر ، كان يقود الجناح الأيمن من جيش الشاه طورمش خان شاملو ونور علي خليفه وغيرهم ، أما الجناح الأيسر فكان تحت قيادة أمير أمراء دياربكر اوستاجلو أوغلي محمد خان ، وبقي الشاه إسماعيل نفسه في المؤخرة مع قوات الإحتياط . وكان عـــدد أفـــراد قوات كلا الطرفين متساو تقريباً .

بدأت المعركة (٢٤ أغسطس ١٥١٤/٣ رجب ٩٢٠) بشن الجناح الأيمـــن لجيش الشاه هجوماً عنيفاً علي الجناح الأيسر للجيش العثماني ، فأبطل اطلاق المدافع، إلا أن تدخل فرق اليكيجري في الوقت المناسب ببنادقهم كان له فعل السحر في دحـــر هذا الهجوم ، وذلك في الوقت الذي قامت فيه مدفعية الجناح الأيمن للجيش العثمـــاني بدور عظيم في تشتيت شمل الجناح الأيسر للجيش الشاهي ، حيث قتل قائده محمد إبن استاجلو . وانتهت المعركة بفرار الشاه جريحاً وسيطرة ياووز سليم علي مقر قيادته وأسر زوجته تاجلي هانم والاستيلاء علي خزائنه[٢٠٣] .

لم يستطع الشاه إسماعيل الإستقرار في عاصمته تبريز بعد هزيمـــة چالـــديران ، حيث توجه إلي درگوزين ، الأمر الذي مكن القوات العثمانية من السيطرة علي العاصمة الصفوية في تبريز . وكان سليم خان يرغب في استئصال شافة إسماعيل الصفوي وتعقب جيشه ، ولذلك ، راح يستعد لقضاء هذا الشتاء في آذربيجان ، حتي يمكنه الخروج عليه في الربيع . فبعد أن أقام السلطان سليم في عاصمة الدولة الصفوية نحو ثمانيـــة أيـــام ،

203 بخصوص ميزان القوة العسكرية بين الطرفين ووقائع معركة چالديران ، انظر : Ş. Tekindağ, “Yeni Kaynak ve vesikaların Işığı Altında Yavuz Sultan Selim’in İran Seferi”, TD, XVI./22(1968), s. 49-78; Tayip Gökbilgin, “ Çaldıran “, IA, c. III/329-331; S. Tansel, Yavuz Sultan Selim, s.60 vd.; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/268-269

غادرها متوجهاً إلي منطقة قره داغ ، ولكن تذمُّر جنود اليكيجري هناك اضطره للتوجه إلي آماسيا ، حيث انتهز فرصة قيام بعض هؤلاء الجنود بنهب بعض القري في المنطقة ، وقام بعزل الوزير الأعظم هرسك زاده أحمد باشا وتعيين دوقاكين زاده أحمد باشا بدلاً منه . ولما علم السلطان أن الوزير الأعظم الجديد كان سبباً في تذمر جند اليكيجري أمر بقتله ولم يعين وزيراً مكانه ، حيث قبض علي شئون الدولة بنفسه .

ضم كماه وإمارة ذوالقدر ومناطق شرقي الأناضول الأملاك العثمانية : لما علم السلطان سليم بأن وضع الجنود لا يسمح بالخروج في حملة أخري ضد الشاه لتأمين المناطق الشرقية من الأناضول ، وجد أن ضم إمارة ذوالقدر واخضاع عشائر الولايات شرقي الأناضول للإدارة العثمانية قد يفي بهذا الغرض . ونظراً لدور قلعة كماه الموجودة في يد القزيلباش في نشر الفساد في المنطقة ، تحرك السلطان من أماسيا متوجهاً إليها ، فحاصرها حتي استسلمت في مايو ١٥١٥/ربيع الآخر ٩٢١ .

وكان عدم تقديم علاء الدولة أمير ذوالقدر المساعدات اللازمة للجيش العثماني في حملته ضد الشاه الأمر الذي أدي إلي تفاقم أزمة التموين بين القوات العثمانية وضربه لإمدادات الجيش العثماني ، سبباً لتوجه سليم إليه . وكان سليم قد قام بتعيين علي إبن شهسوار شقيق علاء الدولة على ولايتي قيصري وبوزوق المتاخمة لإمارة ذوالقدر . فلمّا وقع من أمير ذوالقدر علاء الدولة ما وقع ، قرر سليم خان انتزاع بلاده من يده وتعيين أخيه عليها ، وأمر خادم سنان باشا بالتوجه علي رأس قوة قوامها أربعين ألفاً للسيطرة علي هذه الإمارة الحدودية الهامة ، حيث كان علي إبن شهسوار مرشداً له في هذه الحملة .

ولما علم علاء الدولة أن سنان باشا عبر حدود بلاده ، خرج للقائه ، فالحقت به هزيمة عند گوكسون ، حيث فر هارباً صوب جبل طورنه . وبعد مصادامات شديدة بين الطرفين ، تمكن سنان باشا من القبض عليه وقتله مع أربعة من أبنائه ونحو ثلاثين من أمرائة وعدد كبير من أقربائه ، وأسر أخيه عبد الرزّاق وأبنائه (يونية ١٥١٥/ ربيع الآخرة ٩٢١) . وهكذا ، عين علي إبن شهسوار حاكماً علي إمارة ذوالقدر من قبل

الإدارة العثمانية ، وأرسلت رؤوس علاء الدولة أبنائه الأربعة إلي السلطان المملـــوكي . وبذلك ، وقعت مناطق الشام والجزيرة تحت التهديد العثماني المباشر ، فكان ذلك سبباً في إحداث اضطراباً لقانصوه الغوري وإمراءه من مماليك مصر ، وزيادة تأزم العلاقة بين العثمانيين والمماليك .

ضم ولاية دياربكر : ولما كانت دياربكر من أهم المدن والقلاع الموجـــودة على حدود الدولة الصفوية ، حيث كانت السيطرة عليها تجعل الأراضي الإيرانية تحت التهديد العثماني المباشر ، فقد قرر سليم خان ضم هذه الولاية للأراضي العثمانية . وقد تمكن السلطان العثماني من تحقيق هدفه سلماً ، حيث راح يستميل العشائر التركمانية في تلك المناطق للإدارة العثمانية بواسطة أحد علماء المنطقة ويدعي إدريس البتليسي . وإذا كان العثمانيون بهذه الطريقة قد استطاعوا ضم دياربكر بدون حرب ، فقد أسرع الشاه إسماعيل وقام بتعيين قره خان إبن استاجلو لإستعادة الولاية الحدوديـــة الهامـــة . إلا أن المواجهة بين الطرفين أسفرت عن فتح نواحي مردين أيضاً ، وتأكيد تبعية دياربكر ومقتل قائد الحملة قره خان .

والحقيقة أن إدريس البتليسي قام بدور هام في حشد أمراء الأكراد من أهـــل السنة في المنطقة واستمالتهم للإدارة العثمانية ، ومن ثم السيطرة علي ولايـــة ديـــاربكر والمناطق المحيطة بها . وقد نجح البتليسي بهذه الطريقة في جذب نحو ٢٥ من أمراء منطقة شرقي الأناضول يأتي علي رأسهم أمراء أورميه ، عمادية ، بتليس ، خيزان ، ســـيرت وغيرها ، حيث أُرسلت البراءات السلطانية إليهم علي أن يقوموا بإدارة بلادهم وفقـــاً للقواعد العرفية المعمول بها في تلك البلاد[٢٠٤] .

---

[204] بخصوص ضم العثمانيين لمنطقة شرقي الأناضول عقب معركة حالديران ، أنظر : Göknur Göğebakan, "Doğu Anadolu'nun Osmanlı Hakimiyetine Girişi", Türkler, IX/463-464; Nejat Göyünç, XVI. Yüzyılda Merdin Sancağı, Ankara 1990, s.14-17, 19-21, 23-34; Mehmet Mehdi İlhan, Amid (Diyarbakır), Ankara 2000, s. 73-84; Memet Ali Unal, XVI. Yüzyılda Harput Sancağı, Ankara 1989, s.25- 29

وبعد أن اطمأن السلطان سليم خان لتوطيد الحكم العثماني شرقي الأناضـــول علي هذا النحو ، عاد من حملة إيران إلي استانبول في ٢٩ جمادي الأولي ٩٢١/ تمـــوز ١٥١٥ . وفي مركز الدولة ، قام بتقصي أسباب حركة عصيان الجند التي وقعت أثنـــاء عودة الحملة ، حيث قام بضرب أعناق مثيرو الفتنة (قاضي العسكر تاجي زاده جعفر چلبي والوزير الثاني إسكندر باشا وسكبان باشي الأوجاق بـــاليمز عثمـــان أغـــا) في الديوان، فسكنت الأوضاع في الجيش العثماني (١٨ أغسطس ١٥١٥/ رجب ٩٢١) .

تطور العلاقات العثمانية المملوكية :

عقب توقيع الهدنة بين العثمانيين والمماليك عام ١٤٩١م/ ٨٩٦هـــ ، وعلـــي الرغم من المصادمات الحدودية التي كانت تقع بين الطرفين بسبب إمـــارة ذوالقـــدر ، استمرت العلاقات الودية بين الدولتين السنيتين . فمثلما حرص بايزيد الثاني على دعم قانصوه الغوري لإعادة بناء الأسطول المملوكي وإرسال عدد من البحارة الترك لمواجهة تعديات البرتغال في البحر الأحمر والبحار الشرقية ، احتفل مماليك مصر والشام بانتصار العثمانيين السنة علي الدولة الصفوية الشيعية . وإذا كان السلطان ســـليم قـــد دعـــى السلطان المملوكي للتحالف معه ضد الشاه الصفوي ، إلا أن قانصوه الغوري آثـــر أن يحافظ علي حياده في الصراع الصفوي العثماني منتظراً نتيجة هذا الصـــراع السياســـي المذهبي بين الطرفين ، ذلك لأنه كان يدرك طموحات الصفويين الشيعية في ميراث الدولة الفاطمية في مصر والشام ، والمنافسة العثمانية القوية لقيادة العالم الإســـلامي الســـني ، ويري بأن المنتصر في هذه المواجهة سوف يولي وجهه صوب الأراضي المملوكية .

ومن ناحية أخري ، وعقب هزيمته في چالديران اقترح الشاه إسماعيل الصفوي على السلطان المملوكي التحالف ضد العثمانيين ، إلا أن خطابات التطمين الـــتي راح يرسلها سليم إلي قانصوه الغوري أحبطت تشكيل مثل هذا التحالف . وعلى الرغم من ذلك ، راحت دولة المماليك تتخذ الاستعدادات الضرورية لمواجهة كافة الاحتمالات ، فأبقت علي الإتصالات السرية مع الصفويين . وبينما كان قانصوه الغوري يستقبل قاسم

بن الشاهزاده أحمد شقيق السلطان سليم رغبة في استخدامه وقت الحاجــة ويســتعد لمواجهة مقتربة بين الطرفين ، لم يوقف مراسلاته مع السلطان العثماني[٢٠٥] .

وهكذا ، وفي ربيع ١٥١٦م/٩٢٢هـ أرسل ياووز سليم وزيره الأعظم خادم سنان باشا علي رأس أربعين ألف رجل إلي نواحي الفرات معلنــاً أن وجهــة حملتــه الأراضي الصفوية . فلما طلب سنان باشا الإذن من الأمراء المماليك لعبور نهر الفــرات للتوجه إلي دياربكر ، رفضوا طلبه ، وذلك في الوقت الذي كان فيه السلطان المملوكي قانصوه الغوري قد ترك الأمير طومانباي نائباً عنه في مصر آخذاً طريقه إلي حلب على رأس جيش قوامه خمسين ألف فرد[٢٠٦] . فلمّا وصلت هذه الأنباء للسلطان سليم الــذي كانت مراسلاته مع قانصوه الغوري بلغت إلي زروتها ، اعتــبر أن خــروج الســلطان المملوكي علي رأس جيشه إلي حلب اعلاناً للحرب علي الدولة العثمانية تأييداً للدولــة الصفوية الشيعية . وعلي الرغم من ذلك ، حافظ السلطان سليم علي سرية الحملــة . فبينما كان يسعي لإستصدار فتوي بمشروعية محاربة الحاكم المسلم الذي يعين الخارجين عن الإسلام ، ويصدر الأمر للجيش العثماني بالتجمع في وادي ولاية قيصري ، أرســل للسلطان قانصوه قاضيعسكر الروميلي زيرك زاده ركن الدين وقره حه باشا لتطمينه إلي أن حملة السلطان وجهتها إيران للقضاء علي أهل الإلحاد من القزيلباش ، وأنه يطلب منه الدعاء[٢٠٧] .

---

[205] فيما يتعلق بمراسلات قانصوه الغوري مع سليم الأول ، أنظر : فريدون بك ، منشآت السلاطين ، استانبول، ١٢٧٤، ص. ٣٦٩-٣٧٥ ; keza bu hususta bk. Şınası Altundağ, "I. Selim", IA.,428-429; Seyyid M. Es-Seyyid, "Kansu Gavrî", DIA. cilt XXIV/314-316

[206] فيما يتعلق بقيادة الوزير الأعظم سنان باشا لمطلع الجيش العثماني المتوجه للشرق في الحملة التي لم يعلن عنها وكان هدفها الأساسي الأراضي المملوكية ، أنظر : Bekir Kütükoğlu, " (Hadim) Sinan Paşa ",İA, X/663-664; keza bk. Tansel, Yavuz Sultan Selim, s. 101-107, 123-131.

[207] أنظر ، فريدون بك ، منشآت السلاطين ، ص. ٤٢٦- ٤٢٧ .

وهكذا ، توجه ياووز سلطان سليم إلي الأناضول بعد أن عهد إلي إبنه سليمان حراسة أدرنه ، وإلى پيري محمد باشا حماية استانبول ، وإلى هرسك زاده حماية بورصه (يونية ١٥١٦/ جمادي الأولي ٩٢٢) ، وذلك في الوقت الذي أرسل فيه الأسطول العثماني إلي السواحل السورية . ولما سمع الغوري بتوجه سليم شرقاً ، أطلق سراح السفراء وأرسلهم بصحبة الأمير مغلباي الدودار مع العديد من الهدايا القيمة لعقد الصلح بين الطرفين . غير أنّ احاطة سليم علماً بأن السلطان المملوكي قانصوه الغوري يعقد اتصالات سرية بينه وبين إسماعيل الصفوي وأنه لن يتردد في استخدام قاسم بن أحمد ضده ، جعله يبلغ مغلباي بأنه ينتظر لقاء السلطان المملوكي في وادي مرج دابق[٢٠٨] .

معركة مرج دابق وسقوط بلاد الشام : وصل قانصوه الغوري بجيشه إلي مرج دابق بصحبة الخليفة العباسي ، وأرسل خطاباً أخيراً لسليم يحيطه فيه علماً بأن خروجه لحلب كان بضغط من المماليك ، إلا أن وصوله إلي مرج دابق كان قد قطع كل أمل في الصلح بين الطرفين . وفي ٢٤ أغسطس ١٥١٦/٢٦ رجب ٩٢٢ التقي الجيشان . وكان في الجناح الأيمن للجيش العثماني أمير أمراء الاناضول زينل باشا ، وفي الجناح الأيسر أمير امراء الروميلي كوچك سنان باشا ، وفي مركز الجيش كان السلطان سليم وفرق القاپو قولي (يكيچري وسواري) وأمامهم فرق المدفعية . أما الجناح الأيمن للجيش المملوكي فكان تحت قيادة نائب حلب خاير بك الذي كان يخابر السلطان سليم سراً ، وفي الجناح الأيسر نائب الشام سيباي ، وفي المركز السلطان قانصوه الغوري وخواص جنوده .

في بداية المعركة انهزم الجناح الأيمن من الجيش المملوكي الذي يقوده خاير بك . وخلال نحو ست ساعات وقعت هزيمة تامة بالمماليك ، حيث بقي قانصوه بمفرده في ميدان القتال ، فاصيب بشلل مفاجئ مات علي أثره . وهكذا ، استولى العثمانيون علي

---

208 أحمد فؤاد متولي ، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص.٩٨-١١٥ ؛ Tansel, Yavuz Sultan Selim, s.123 vd.; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/284 vdd

خزائن السلطان المملوكي ، وأسرع يونس باشا بالدخول إلي حلب ، حيث تعقب فلول المماليك في حماة وحمص ، ثم سيطر علي دمشق[٢٠٩] .

ولما كان الجيش المملوكي قد لقي هزيمة قاسية في مرج دابق ، عجزت القيادة المملوكية الجديدة في مصر عن إعداد جيش بسرعة لإستعادة الشام من العثمانيين ، حيث قام السلطان العثماني خلال خمسة أشهر قضاها في بلاد الشام بتنظيم شئونها ، وتعيين تشكيلاتها . وخلال هذه الفترة ، أمكن للقوات العثمانية ضم جنوب سوريا وصفد ونابلس والقدس وعجلون وغزة من المدن الفلسطينية الهامة . وإذا كان والي غزة المملوكي جانبردي الغزالي قد خرج بقواته للتصدي للقوات العثمانية التي قادها الوزير الأعظم سنان باشا الذي أمر بالتوجه إلي مصر ، إلا أنه انسحب مهزوماً إلي القاهرة (ديسمبر ١٥١٦/دي الحجة ٩٢٢) . وبدأت استعدادات الجيش العثماني للتوجه لمصر .

الحملة علي مصر وموقعة الريدانية : عقب وفاة السلطان المملوكي قانصوه الغوري في ميدان المعركة ، انتخب أمراء المماليك نائبه في مصر الأمير طومانباي سلطاناً عليهم . والحقيقة أن ياووز سليم لم يتوجه مباشرة إلي مصر ، بل أرسل إلي السلطان المملوكي الجديد خطاباً طلب فيه أن يصير تابعاً له وأن تكون الخطبة والعملة بإسمه مقابل ترك كافة أنحاء مصر حتي غزة له ، كما أرسل خطابات أخري إلي الأمراء المماليك بواسطة خاير بك لإستمالتهم . ولما كان الأمراء المماليك يعتقدون أن ضم العثمانيين للشام ، إنما هو ضماً مؤقتاً ، وأنه يمكنهم استعادة تلك المناطق مرة أخري بعد مغادرة سليم البلاد ، وأن صحراء سيناء ستقف مانعاً أمام الجيوش العثمانية كما وقفت أمام المغول من قبل ، رفضوا هذا العرض . وكان السلطان العثماني يعتقد أن العودة دون ضم مصر سيجعل انتصاره في مرج دابق مؤقتاً ، وقد يتيح ذلك الفرصة للأعداء في

---

[209] بخصوص معركة مرج دابق ، أنظر : M.Cevid Baysun, " Merc-i Dabık ", IA, VII/752-754; Seyyid M., "Kansu Gavrî", DIA, cilt XXIV/314-316

الشرق والغرب للسيطرة علي المنطقة ، ولذلك قرر التوجه إلي مصر بنفسه سعياً لتوحيد قيادة العالم الإسلامي والتصدي للأخطار التي كانت تحيط به خلال هذه الفترة[210] .

وصل الجيش العثماني إلي الريدانية بعد أن اجتاز العريش وخان يونس والصالحية وبلبيس . وكان المماليك قد أقاموا التحصينات حول المدينة ، وفي المنطقة التي تمتد من جبل المقطم وحتي نهر النيل ، حيث نصبوا مدافعهم فوق جبل المقطم . ولذلك ، أجري سليم تغييراً في خطته العسكرية حتي يمكن للجيش العثماني أن يقع بعيداً عن مرمي المدافع المملوكية . وهكذا ، التف الجيش العثماني حول جبل المقطم للوصول إلي الريدانية ، حيث بدأ العثمانيون الهجوم في صباح ٢٢ يناير ١٥١٧/٢٩ ذالحجة ٩٢٢ . وإذا كان الهجوم العثماني الأول قد ألحق الإضطراب بالجيش المملوكي ، إلا أن فرسان المماليك أظهروا مقاومة شديدة ، فاستمرت الحرب حتي عصر اليوم التالي . والحقيقة أن معركة الريدانية لم تحسم المواجهة بين الجيش العثماني ومماليك مصر الذين راحوا يدافعون عن آخر معاقلهم بكل بسالة ، فلم يعد أمام طومانباي سوي محاولة القبض علي سليم خان أو قتله ، فقام بشن هجوم ليلي على مقر القيادة العثمانية ، وكان يقيم فيه الوزير الأعظم سنان باشا مع بعض أمراءه بدلاً من السلطان ، حيث تمكن من قتلهم جميعاً (١١محرم ٩٢٣/فبراير ١٥١٧) . وهكذا ، بدأ طومانباي حرب عصابات في شوارع القاهرة ضد القوات العثمانية التي رأحت تسيطر علي أنحاء المدينة[211] .

---

[210] أنظر في هذا الخصوص : خليل أدهم ، " مصر فتحي مقدماتنه داير مهم بر وثيقه " ، تورك تاريخي انجماني محموعه سي ، الجزء ١٣-١٨ ، استانبول ١٩٢٧ ، ٤٤٣ وما بعدها ؛ كذا انظر ، محمد بن أحمد بن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، القاهرة ١٩٦١ ، الجزء الخامس ، ص ٥٨-٧٢ ، ٨٣-٩٧ ، احمد فؤاد متولي ، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته ، ص. ١٨٤-١٩٦، ٢٠٤-٢٢٢

[211] احمد فؤاد متولي ، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته ، ص١٨٥- ١٩٠ ؛ Seyyid Muhammed es-Seyyid, “Mısır Eyaleti’nde Osmanlı Nizamının Kuruluşu”, Osmalı, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999, I/291 vd.; Tansel, Yavuz Sultan Selim, s.166 vd.

وعقب دخول العثمانيين القاهرة ، انتقل السلطان سليم إلي بولاق ، ولم يدخل المدينة حتي تم تصفية البؤر المملوكية فيها . وفي ليلة ٢٨ يناير ١٥١٧/ ٥ محـرم ٩٢٣ استطاع طومانباي السيطرة علي القاهرة مرة أخري بقوة مقدارها نحـو عشـرة آلاف مملوك ، حيث دارت معركة حامية استمرت ثلاث ليال في شوارع القاهرة مع القوات العثمانية التي استطاعت استعادة المدينة بصعوبة بالغة ، وفرّ طومانباي بعدها في عدد من أتباعه إلي صعيد مصر ، ثم انتقل إلي نواحي البحيرة ، حيث تعقبته القوات العثمانية حتي قبض عليه ، ثم قتل في ١٣ إبريل ١٥١٧/ ٢١ ربيع الأولي ٩٢٣[٢١٢] .

أقام السلطان العثماني في مصر نحو ثمانية أشهر ، حيث قام ببعض الإصلاحات الإدارية ، واستمال الأمراء المماليك ومشايخ العربان ، واستقبل إبن شريف مكة أبو نمي بن بركات الذي جاء للسلطان بمفاتيح الكعبة المشرفة ، حيث أعاد السلطان تعيين أبيه شريفاً علي مكة والمدينة ، وأرسل معه الكثير من الصدقات والأموال لأهالي الحـرمين الشريفين أو ما عرف باسم " الصرة المشرفة "[٢١٣].

نتائج سقوط الدولة المملوكية في مصر والشـام : لقد كان لسـقوط دولة المماليك في مصر والشام نتائج هامة سواء علي منطقة الشرق الإسلامي أو علـي الدولة العثمانية نفسها ، حيث يمكن حصر هذه النتائج في العناصر التالية :

١. ضم أملاك المماليك في سوريا وفلسطين والجزيرة والحجاز واليمن ومصر، وهي مراكز دينية وسياسية وحضارية هامة للدولة الإسلامية ، حيث أضافت للدولة العثمانية ثقلاً حضارياً خاصاً في العالم الإسلامي .

---

[212] بخصوص يوميات معركة الريدانية أنظر : Haydar Efendi, "Rüzname", Münşeat's-Salatin, I/480-485

[213] فيما يتعلق بالإجراءات الإدارية التي اتخذها سليم الأولي في الفترة التي أقامها في مصر ، أنظر : Seyyid M. Es-Seyyid, XVI. Asırda Mısır Eyaleti, İstanbul 1990, s.55-58; كذا بخصوص دخول الحرمين تحت الإدارة العثمانية أنظر : Feridun Emecen, "Hicaz'da Osmanlı Hakimiyetinin Tesisi ve Ebu Numey", Tarih Enstitüsü Dergisi, sy.14, 1994, s.90 vd.; Zekeriye Kurşun, "Osmanlı Devleti İdaresinde Hicaz", Türkler, XI/317 vd.

٢. انتقال مركز الخلافة الإسلامية من مصر إلي استانبول ، حيث خطب للسلطان العثماني من فوق منابر الممالك الإسلامية خادماً للحرمين الشريفين ، فأُضيف للسلطان العثماني مقاماً دينياً رفيعاً في العالم الإسلامي علاوة علي مقامه السياسي ، وأعيد بذلك توحيد السلطتين الدينية والمدنية في يد الحاكم لأول مرة بعد سقوط بغداد .

٣. تصدي الدولة العثمانية للأخطار البرتغالية في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، والأخطار الأسبانية في السواحل الشمالية لأفريقيا ، بعد أن أحبطت مخططات الدولة الصفوية الشيعية لإعادة السطو علي العالم الإسلامي ، وبذلك أمكن تأمين الحدود الشرقية والجنوبية للعالم الإسلامي.

٤. أصبحت الدولة العثمانية تسيطر على طريق التجارة القديم الذي يمر بمصر عبر البحر الأحمر والبحر المتوسط إلي أوروبا ، ومن ثم قامت بتجديد المعاهدات التجارية مع البندقية للسماح لها بالتجارة في الأراضي التي كانت تخضع للمماليك ، وتضع الخطط الأمنية اللازمة للتصدي لإعتداءات البرتغال في الجنوب لتنشيط حركة التجارة في الطريق القديم من جديد .

عودة سليم إلي مركز الدولة : وقبل عودة السلطان سليم إلي مركز الدولة (أواخر أغسطس ١٥١٧/ أواسط شعبان ٩٢٣) ، قام بتعيين الوزير الأعظم يونس باشا والياً علي مصر ، إلا أن عجزه عن إدارة شئونها ، أجبر السلطان علي اختيار نائب حلب السابق خاير بك ليكون أول أمير امراء في مصر . وحتي يطمئن السلطان لإستقرار الأوضاع في مصر ، وقبل مغادرته القاهرة ، أرسل إلي استانبول أبناء السلاطين السابقين والخليفة وأقربائهم والعديد من الأمراء والعلماء والمشايخ من ذوي النفوذ ، ومن بين هؤلاء الخليفة العباسي المتوكل علي الله الثالث وعمه خليل وأبناءه والأمير محمد بن قانصوه الغوري[٢١٤] . وعندما وصل السلطان سليم إلي الشام، جاءه مبعوث الشاه

---

214 بخصوص اجراءات سليم الأول لتوطيد الحكم العثماني في مصر ، أنظر : Seyyid Muhammed es-Seyyid, “Mısır Eyaleti’nde Osmanlı Nizamının

إسماعيل الصفوي ، حيث عرض عليه الصلح . وإذا كان السلطان العثماني قد حرص علي استئصال شافة الشاه الشيعي ، إلا أن شعورة بارهاق جنده بسبب طول حملة مصر ، اضطره لإصدار قرار لعودة إلي الأستانة بعد أن وطد النفوذ العثماني في بلاد الشام ، وعين عليها الأمير المملوكي جانبردي الغزالي[٢١٥] .

اهتمام سليم بتطوير البحرية العثمانية : كانت البحرية العثمانية قد شهدت تطوراً كبيراً علي يد كمال رئيس في عهد بايزيد الثاني ، الأمر الذي مكنها من فتح موانى هامة مثل اينه بختي ومودون وقورون . وعقب ضم أملاك دولة المماليك ، أصبحت الدولة العثمانية تسيطر علي كافة سواحل البحر الأحمر وسواحل الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، مما أشعر الإدارة العثمانية بضرورة حماية سواحلها الطويلة وطرق مواصلاتها مع المناطق المفتوحة حديثاً في آسيا وأفريقيا . فقام السلطان سليم بإنشاء ترسانة جديدة في ميناء الخليج في استانبول ، حيث أمر ببناء ثلاثمائة سفينة جديدة من مختلف الأحجام ، الأمر الذي أقلق البندقية التي راحت تحصن جزرها في المنطقة . وإذا كان بعض رجال الدولة راحوا يشجعون السلطان العثماني علي فتح جزيرة رودس ، إلا أن البعض الآخر كان يفضل الخروج في حملة جديدة ضد شاه إيران[٢١٦] .

وفاة السلطان سليم : لقد استمر السلطان ياووز سليم علي فراش المرض لأكثر من شهرين ، حيث توفي في ٢١ مايو ١٥٢٠ / ٨ شوال ٩٢٦ ، بعد حكم دام ثمانية أعوام . ولم يكن له غير ابنه والي مانيسا سليمان الذي استدعي إلي استانبول لتولي عرش الدولة ، وليبدأ مرحلة جديدة من عصر إزدهار الدولة العثمانية[٢١٧] .

Kuruluşu", Osmalı, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999, I/291 vd.; ayn. Mlf., XVI. Asırda Mısır Eyaleti, s. 56-58

215 Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/293-294, 297-299

216 أنظر في هذا الخصوص : Uzunçarşılı, Merkez ve Bahrıye Teşkilati, s.396-398

217 بخصوص ملابسات وفاة سليم أنظر Tansel, Yavuz Sultan Selim, s.367 vd, Şinasi Altındağ, "Selim I", IA,X/431-434;



عصر الذروة

عهد سـليمان القـانوني

(١٥٢٠-١٥٦٦م/ ٩٢٦-٩٧٣هـ)

توفي سليم خان ولم يترك علي قيد الحياة سوي إبنه الوحيد سليمان وستة من البنات . ولذلك ، وجد الشهزاده الشاب العرش العثماني خالصاً له دون منازع ، وهو الأمر الذي لم يحدث منذ عهد بايزيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٢م/٧٩١-٨٠٥) .

وكان الشهزاده سليمان قد وصل لسدة الحكـم في الدولـة العثمانيـة (١٧ شـوال ٩٢٦/ ٣٠سبتمبر ١٥٢٠) وهو في السادسة والعشرين من عمره ، وذلك بينما كانت الدولة قد بلغت أيضاً سن النضج ، وتعيش أزهي عصورها .

والحقيقة أن سليمان كان قد ورث انجازات أجداده عثمان غازي ، وأورخان غازي ، ومراد غازي ، والسلطان يلدرم بايزيد ، والسلطان محمد الفـاتح ، ويـاووز سلطان سليم (١٢٩٩-١٥٢٠م / ٦٩٩-٩٢٦هـ) ، فحافظ علي هذه الإنجـازات وأضاف إليها الكثير ، فأصبح عهده عهد الفتوحات العظيمة ، والسياسـة الحكيمـة ، والعلم والعرفان ، والفنون والآداب ، والنظم والقوانيين ، ولعبت الدولة العثمانيـة في عهده دوراً عالمياً في الشرق والغرب والجنوب والشمال ، وأصبحت محـوراً للسياسـة العالمية ، وبرزت ملامح حضارتها الإسلامية الشامخة من خلال مؤسساتها وتشـكيلاتها العسكرية والإدارية والمالية والقضائية والعلمية والإجتماعية .

توطيد أركان الدولة في مطلع عهد سليمان :

كان ياووز سلطان سليم قد عقد هدنة حذرة مع الدول الأوروبية ، ومال في سياسته لحل مسألتي الصفويين والمماليك اللتان كانتا أكثر إلحاحاً خلال تلك الفتـرة . وإذا كان سليم خان قد استطاع الحد من الأخطار التي كانت تتعـرض لهـا الدولـة العثمانية، بل العالم الإسلامي إلي حد كبير ، ونجح في تحقيق انجازات ضـخمة خـلال حملاته الشرقية هذه ، إلا أنه ترك ميراثاً لا يستهان به من المشكلات في تلك المنـاطق

البعيدة عن مركز الدولة كان علي خلفه سليمان حلها أولاً قبل استئناف فتوحاتــه في أوروبا مرة ثانية . وقد تمثلت هذه المشكلات في العناصر التالية :

أولاً : عودة النشاط لأتباع المذهب الشيعي من جديد في شرقي الأناضــول: وكان تذمر جند القابوقولي أجبر سليم علي العودة وعدم تعقب إسماعيل الصــفوي في حملة تالية لتصفية فلوله .

ثانياً : خروج الأمراء المماليك علي الدولة في حركات عصيان متتالية في مصر والشام : كان سليم خان قد ترك الشام ومصر بعد خضوعهما في يــد بعــض أمــراء المماليك الذين أثبتوا إخلاصهم للإدارة العثمانية ليديروهما وفقاً لأعرافهم مع الخضــوع للقوانين العثمانية مما شجعهم علي العصيان عندما أتيحت لهم الفرصة .

ثالثاً : تفاقم خطر فرسان رودس الذين لم يترددوا في قطع الطريق البحري بين مركز الدولة في استانبول وتلك المناطق التي ضمت حديثاً في جنوب وشرق الحــوض الشرقي للبحر المتوسط .

رابعاً : محاولة ملك المجر الإستفادة من إنشغال الدولة في حملاتها الشرقية ، ونقد الإتفاقيات بين الطرفين بالتعدي على الأراضي العثمانية في البلقان[٢١٨] .

عصيان جانبردي الغزالي في الشـام : كان جانبردي الغزالي قد قــدم فروض الطاعة للسلطان سليم عقب ضم مصر ، فأعفي عنه ، وقام السلطان بتعيينه علي إمارة أمراء الشام عند عودته لإستانبول . فلمّا توفي سليم خان ، أعلن جانبردي عصيانه، وإحياء السلطنة المملوكية في الشام ، وجعل الخطبة والسكة بإسمه ، وأطلق علي نفســه "الملك الأشرف" ، وأرسل الرسائل للشاه إسماعيل الصفوي ولوالي مصر المملوكي خاير بك سعياً لتشكيل جبهة ضد السلطان العثماني الجديد ، ثم توجه صوب حلب لحصارها. وهكذا ، قام خاير بك بإرسال خطابات الغزالي للسلطان سليمان عارضاً عليه تجريــد

---

[218] حول توطيد سليمان لحكمه في أرجاء الدولة ، أنظر : Feridun Emecen, " Sultan Süleyman Çağı ve Cihan Devleti ", Türkler, IX/501vd.; H.G. Yurdaydın, " Kanunî'nin Cülûs ve İlk Seferleri, Ankara 1961, s. 12 vd.

حملة للقضاء علي هذه الحركة . إلا أن السلطان العثماني احتاط للأمر ، وكلف الوزير فرهاد باشا مع سباهية تيمار الأناضول ونحو أربعة آلاف من جند اليكيجري ، وأرسل إلي أمير إمارة ذوالقدر شهسوار أوغلي علي بك القريب من المنطقة باتخاذ التدابير اللازمة لحماية حلب .

وهكذا ، تمكن شهسوار أوغلي علي بك من إلحاق الهزيمة بجانبردي أمام حلب في يناير ١٥٢١/ صفر٩٢٧ ، ثم تعقبه مع أمير أمراء حلب وفرهاد باشا الذي كان قد وصل بقواته متأخراً حتى قبض عليه وأعدم . ولما وصل هذا الخبر لإستانبول، عين إياس باشا أمير أمراء علي الشام ، كما عين أمراء سناجق علي صفد والقدس وغزة[٢١٩] .

ضم إمارة ذوالقدر : كان علي بك ابن شهسوار أمير ذوالقدر قد قدم خدمات جليلة للدولة أثناء حملاتها علي إيران والشام ومصر . إلا أنه أشيع بأنه يسعى للإستقلال ببلاده ، الأمر الذي دفع السلطان للإعلان عن خروج حملة جديدة إلي إيران يعين عليها فرهاد باشا ، ويستدعى علي بك إبن شهسوار وأبنائه للمشاركة فيها . فلما التقي إبن شهسوار وأبنائه بقائد الحملة فرهاد باشا قبض عليهم جميعاً ، وضمت بلادهم لأراضي الدولة (١٥٢٢م/ ٩٢٨هـ) .

والحقيقة أن قتل علي بك إبن شهسوار وأبنائه قد أشعل موجة من العصيان قام بها أصحاب مقاطعات التيمار في المنطقة ، حيث كان لقلندر چلبي العلوي دور في تأجيج هذه الاضطرابات التي استمرت تفعل فعلها في شرقي الأناضول حتي أعيدت الأوضاع للإستقرار بمساعي الوزير الأعظم إبراهيم باشا عند عودته من مصر (١٥٢٥م/٩٣١هـ) . فقام ببعض الإصلاحات الإدارية واستمال أصحاب المقاطعات ، وقضي علي حركة عصيان قلندر چلبي هناك بعد أن فرق جماعته[٢٢٠] .

---

[219] بخصوص حركة جانبردي الغزالي ضد السلطان سليمان ، أنظر : Feridun Emecen, " Canberdi Gazali", DIA., VII/142-143; H.G. Yurdaydın, " Kanunî'nin Cülûs ve İlk Seferleri, Ankara 1961, s. 23-26

[220] تتحدث المصادر عن دور الصراع بين رجال الدولة لنيل الحظوة لدي السلطان سليمان القانوني في إدعاء فرهاد باشا بأن الأمير شهسوار يعد للخروج علي الدولة ، حيث تشير إلي أن السلطان

فتح بلجراد : كان العثمانيون قد حاصروا بلجراد عدة مرات خلال القرن ١٥م/٩هـ، حيث كانت ضمن الأراضي الصربية آنذاك . فلمّا عجز الصرب عن حمايتها ، تنازلوا عنها للمجر . وكانت الدولة العثمانية قد جددت معاهدتها مع المجر لعام آخر بعد عودة سليم من مصر ، وذلك علي الرغم من محاولة المجر الإستفادة من انشغال الدولة في حملاتها الشرقية ، وإعتدائها علي منطقة إيزورنيك التابعة للعثمانيين. فلمّا أرسل أحد چاوشية الديوان الهمايوني لملك المجر يحيطه علماً بوفاة سليم وتولي سليمان ، أهين سفير السلطان في الوقت الذي قامت فيه القوات المجرية بالإستيلاء علي مركز إمارة سنجق البوسنة .

وهكذا ، أراد الوزير الأعظم پيري محمد باشا التمكين للسلطان الشاب في أوروبا باصراره علي تجريد حملة علي بلجراد التي كانت تعتبر مفتاح بلاد المجر . ولذلك، كلف دانشمند رئيس بحراسة سواحل نهر طونه ، وصدرت الأوامر لأمراء الحدود وفرق المهاجمين (آقينجيلر) بها الموجودة تحت قيادة أمير البوسنة بشن الهجمات علي طول حدود المجر . ولمّا خرج السلطان علي رأس الجيش ، أمكن فتح قلعة بوكوردلن الإستراتيجية علي نهر صوا والمناطق المحيطة ببلجراد ، وذلك في الوقت الذي كان فيه الوزير الأعظم پيري باشا يشدد الحصار علي مدينة بلجراد نفسها . وبعد حصار المدينة لمدة شهر تقريباً ، آثر محافظ قلعتها طلب الأمان ، وقام بتسليمها في أغسطس ١٥٢١ /رمضان ٩٢٧. وبعد تحصين المدينة ، عين عليها أمير البوسنة السابق بالي بك إبن

العثماني كان قد وجه الأمر لكل من القائدين للقضاء علي حركة جانبردي الغزالي في الشام ، غير أن فرهاد باشا كان قد وصل متأخراً ، الأمر الذي مكن شهسوار من تحقيق الغلبة علي جانبردي وقطع رقبته وإرساله للسطان ، الأمر الذي أشغل الغيرة في نفس فرهاد باشا ودفعه للإدعاء بأنه يعد للخروج علي الدولة ، ليحقق انجازاً وهمياً بضم إمارة ذو القدر للأراضي العثمانية ، فيما يتعلق بضم إمارة ذوالقدر للأراضي العثمانية والملابسات المحيطة بها ، أنظر : Hasan Basrı Karadeniz, " Osmanlı Devletinin Beylikleri İlhak Siyaseti ve Dulkadırlı Beyliği'nin İlhakı ", Türkler, Ankara 2002, IX/490 vd. ; R. Yınanç, Dulkadır Beyliği, Ankara 1989, s.133 vd.

يحي باشا . ومنذ ذلك الحين ، أصبحت بلجراد واحدة من أهم مراكز تجمع الجيش العثماني في الحملات الأوروبية ، حتي أطلق عليها إسم " بلجراد دار الجهاد "[٢٢١] .

فتح جزيرة رودس : كانت رودس تعد خط المواجهة الأول لأوروبا بعد تصفية البؤر الصليبية في الشام . ومنذ ذلك الحين ، ونظراً لموقع الجزيرة الإستراتيجي، كان أمراء الجزيرة يقومون بدور كبير في قطع الطريق علي سفن التجار والحجاج المسلمين . وإذا كانت الحملة التي جردها السلطان محمد الفاتح لفتح رودس قد فشلت ، إلا أن حرص العثمانيين علي فتحها قد زاد عقب قيام أمراء الجزيرة بدور كبير في استعمال جم سلطان ضد الدولة خلال عهد بايزيد ، وبعد ضم أملاك الدولة المملوكية في مصر والشام للأراضي العثمانية وضرورة تأمين خطوط مواصلات تلك المناطق مع استانبول . ولذلك ، اتخذ السلطان سليم تدابيره للخروج لفتحها وأعد الأساطيل اللازمة لذلك ، ولكن لم يقدر له ذلك أيضاً .

وعلي الرغم من وجود مثل هذه الأسباب الموجبة لخروج الحملة ، كان عدد من رجال الدولة يعترضون علي تجريدها نظراً لشهرة أمراء الجزيرة وتحصيناتها القوية وامكانية تقديم أوروبا المساعدات اللازمة لها وأخفاق العثمانيين في فتحها من قبل . ولكن ، مرة أخري يقف الوزير الأعظم پيري محمد باشا والوزير الثاني چوبان مصطفي باشا إلي جوار السلطان الشاب ، ويؤيده لخروج هذه الحملة . وفي الوقت الذي كانت فيه أخبار خروج العثمانيين لحملة علي رودس قد وصلت لأمير الجزيرة ويليا دو ليل أدام الذي أسرع لطلب المساعدة من حلفائه بابا روما وفرنسا ، كان چوبان مصطفي باشا الذي عين سرداراً علي الحملة يقود الأسطول الذي أعده سليم الأول لهذا الغرض من قبل بعد إكماله (٧٠٠ قطعة بحرية) متجهاً صوب الجزيرة بحراً ، والسلطان سليمان يقود الجيش العثماني براً في مايو ١٥٢٢/ رجب ٩٢٨ .

---

[221] أنظر في هذا الخصوص : H.G. Yurdaydın, " Kanunî'nin Cülûs ve İlk Seferleri, Ankara 1961, s.45 vd.

قام مصطفي باشا بنشر سفن أسطوله حول الجزيرة لمنع أية مساعدات قد تأتي إليها من الخارج وشرع في حصارها ، إلا أن حصانة الجزيـــرة أدّت إلي طـــول فتـــرة الحصار. وفي هذه الأثناء صدرت الأوامر بتعيين مصطفي باشا إلي والياً مصر علي إثـــر وفاة خاير بك ، حيث كُلف الوزير الثاني أحمد باشا بقيادة الحملة بدلاً منه . ولمّا وصل السلطان سليمان إلي الجزيرة وأحكم الحصار عليها ، وأيقن أمير رودس عدم امكانيـــة وصول المساعدات إليه ، اضطر لتسليم الجزيرة وفقاً للشروط التالية :

١. منح الحرية للمسيحيين الذين يرغبون في البقاء في الجزيرة .
٢. عدم أخذ جند لفرق القابو قولي بنظام الديوشيرمه من سكان الجزيرة .
٣. اعفاء سكان الجزيرة من الضرائب لمدة خمس سنوات .
٤. مغادرة الراغبين في ترك الجزيرة خلال ثلاث سنوات .
٥. جلاء قوات الفرسان عن الجزيرة وتسليمها خلال اثني عشر يوماً .

وهكذا ، عين مصلح الدين رئيس علي إمارة سنجق رودس في أواخر ديسمبر ١٥٢٢/ أوائل صفر ٩٢٩ ، حيث قام بمباشرة تنفيذ بنود الاتفاقيـــة ، وراح فرســـان الجزيرة يغادرونها إلي جزيرة مالطة . وعقب فتح رودس ، فتحت أيضاً جزر استانكوي وسومبكي وعدد من القلاع الموجودة علي سواحل الأناضول التي كانت تابعة لفرسان الجزيرة ، وأطلق سراح ما يقرب من ثلاثة آلآف أسير من المسلمين في تلك القلاع[٢٢٢] .

222 تتحدث الروايات المعاصرة عن حرص سليمان القانوني علي البحث عن أبناء جم سلطان الذين كانوا ضمن الأسري ، فوجدهم وقد ارتدوا عن الإسلام بعد نفي جم في فرنسا وروما ، فضم بناته لنساء السراي العثماني ، أما أبنائه فقد طالبهم بالعودة للإسلام ، فلما أبوا أمر باعدامهم كمرتدين حتي لا تحاول أوروبا استخدامهم ضد الدولة مرة أخري ، فيما يتعلق بحملة رودس وأهم نتائجها ، أنظر : Ş. Turan, " Rodos'un Zaptından Malta Muhasarasına ", Kanunî Armağanı, Ankara 1970, s. 33vd.; keza bk. ; H.G. Yurdaydın, " Kanunî'nin Cülûs ve İlk Seferleri, Ankara 1961, s. 23-26

عصيان المماليك في مصر : لما وصل الوزير الثاني چوبان مصطفي باشا إلي القاهرة والياً علي مصر بدلاً من خاير بك (٢٣أكتوبر١٥٢٢/ ٢٣ذي القعدة٩٢٨)، أحدث تغييرات عديدة في مؤسسات الولاية وتشكيلاتها ، حيث ألغي ما بقي من مؤسسات وتشكيلات مملوكية في مصر وأحل محلها مؤسسات وتشكيلات عثمانية ، وأبطل العديد من الوظائف والأعراف المملوكية ، الأمر الذي دفع من بقي من مماليك في مصر للخروج علي الإدارة العثمانية في حركات عصيان متتالية .

ففي جمادي الأخرة ٩٢٩/ مايو ١٥٢٣ ، خرج العديد من أفراد الجهاز الإداري السابق لخاير بك وعلي رأسهم قانصوه ومصرباي ساعين لإحياء دولة المماليك من جديد . وإذا كان مصطفي باشا قد أحاط علماً بهذه الحركة في وقت مبكر ، وتمكن من احباطها والقضاء علي منفذيها ، إلا أن بعض الكشاف المماليك في عدد من ولايات مصر وعلي رأسهم جانم السيفي كاشف الفيوم والبهنسا، قاموا بحركة عصيان أخري بعد ثلاثة أشهر من الحركة الأولي . وكانت هذه الحركة تحمل نفس أهداف الحركة السابقة وتسعي للقضاء علي النظام العثماني وإعادة التشكلات المملوكية من جديد . والحقيقة أن أمير أمراء مصر لم يستطع القضاء علي هذه الحركة إلا بعد إستمالة العديد من الأمراء المماليك ومشايخ العربان في ولايات مصر بمختلف الوسائل . ولما وصلت أنباء هذه الحركات العصيانية إلي استانبول ، جُردت حملة كبيرة تحت إمرة الدفتردار درويش باشا ، إلا أن هذه القوات وصلت بعد القضاء علي هذه الحركات بمساعي مصطفي باشا[٢٢٣] .

لقد سكنت الأوضاع في مصر عقب وصول القوات العثمانية ، ولكن سكون قبل العاصفة . فعلي أثر تعيين الوزير الثاني أحمد باشا والياً علي مصر في أغسطس ١٥٢٣/ شوال ٩٢٩ بدلاً من مصطفي باشا ، وسعيه للاستفادة من القوي المملوكية في

---

[223] فيما يتعلق بمحاولات مماليك مصر احياء دولتهم عقب وفاة سليم وتولية سليمان ، أنظر : Seyyid Muhammed es-Seyyid, XVI. Asırda Mısır Eyaleti, İstanbul 1990, s. 73-76

الولاية ، والاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية ، اضطربت الأوضاع في مصر مرة ثانية . فقد قام أحمد باشا بتشكيل فرق عسكرية من الأحباش وأعاد التشكيلات المملوكية العسكرية والإقطاعية من جديد ، وأعاد قاضي العسكر والدفتردار إلي الآستانه ، وتعقب جنود القابو قولي الموجودين في مصر بالقتل والحبس . فلمّا وصلت هذه الأخبار للأستانة، أرسل أمراً شريفاً لقره موسي بك الموجود بالقاهرة ، يأمره فيه بإعدام أحمد باشا وتولي شئون مصر ، إلا أن هذا الفرمان سقط في يد أحمد باشا الذي أسرع بقتل قره موسي وأعلن عصيانه وسلطنته في مصر ، وجعل الخطبة والسكة بإسمه ، وأحكم سيطرته علي قلاع وموانى مصر، وقطع كافة علاقته بالأستانه .

وإذا كان أحمد باشا قد نحي الكثير من خدم الدولة عن إدارته ، إلا أن العديد ممن احتل وظائف هامة في حكومته كانوا يحافظون سراً علي طاعتهم للسلطان العثماني ، وكان من هؤلاء وزيره الأعظم قاضي زاده محمد بك . استطاع قاضي زاده تشكيل جبهة سرية من المؤيدين للدولة في مختلف أنحاء مصر ، حيث تمكنوا من محاصرة الباشا بينما كان في أحد الحمامات خارج القلعة . وإذا كان أحمد باشا قد استطاع الفرار ، إلا أن المؤيدين للدولة ممن بقي من جند القابو قولي تمكنوا من السيطرة علي القلعة ، وتعقب الباشا الخائن الذي فر إلي مشايخ عرب الشرقية ، حيث قبض عليه هناك وأعدم . وبينما كان الوفد الذي يحمل رأس الباشا العاصي في طريقه لإستانبول ، صادف في الشام الحملة التي كانت الدولة قد جردها للقضاء علي حركة أحمد باشا ، فعادت الحملة من توها .

ومهما يكن من أمر ، فقد تركت حركات العصيان المتتالية تلك ولاية مصر غرقي في حالة من الاضطراب الإداري والمالي ، الأمر الذي دفع السلطان سليمان القانوني لتعيين وزيره الأعظم إبراهيم باشا علي مصر (٣٠ سبتمبر ١٥٢٤/ أول ذي الحجة ٩٣٠) لإعادة تنظيم إدارتها من جديد ، ووضع القوانين العامة التي تكفل لها توطيد علاقتها مع مركز الدولة والتي عرفت باسم "مصر قانون نامه سي". ولم يغادر إبراهيم باشا مصر إلا بعد أن وضع الأساس لنظام إداري ومالي خاص بمصر ، عرف

بإسم " نظام السااليانه " ، حيث ترك مهمة إدارة الأيالة لسليمان باشا الخادم وعاد إلي الأستانه في ١٤ يونية ١٥٢٥/ ٢٢شعبان ٩٣١ بعد أن قضي في مصر نحو ثمانية أشهر لتنظيم أحوالها[٢٢٤] .

الدولة العثمانية دولة عالمية

لقد ورثت الدولة العثمانية أملاك دولة المماليك في مصر والشام والحجاز واليمن ، فواجهت البرتغال في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، والصفويين في شرقي الأناضول والعراق . ولمّا نشطت الحركة الشيعية في الأناضول وحاولت الدولة الصفوية بسط نفوذها علي المنطقة ، صدت لها الدولة العثمانية حامية الحرمين الشريفين وممثلة الخلافة الإسلامية في العالم الإسلامي . وتفككت دولة التون أوردو في استراخان وقازان والقرم ، فدعمت الدولة خانية القرم لمواجهة الأطماع الروسية ، وحاولت إمبراطورية الهابسبورج السيطرة علي أوروبا ، فلعبت دوراً هاماً للحد من أطماعها في وسط أوروبا والبحر المتوسط وشمال أفريقيا ، وتصدت للتحالفات الصليبية – الشيعية في الشرق والغرب بعد أن وحدت العالم الإسلامي السني تحت قيادتها . وهكذا ، فُتحت

224 تذكر المصادر المعاصرة الظروف التي احاطت بمطالبة الوزير الثاني أحمد باشا بولاية مصر ، وتعيينه عليها ، والأسباب التي أدت لضرورة توجه الوزير الأعظم إبراهيم باشا إلي مصر لإصلاح شئونها ، ووضع نظام دائم لها ، فتشير إلي أن تعيين إبراهيم أغا في مقام الوزارة العظمي خلافاً للقانون المعمول به في الدولة ، وتجاوز الوزير الثاني أحمد باشا ، أغضب الأخير وراح يحدث هرجاً في الديوان الهمايوني مطالباً بتعويضه عن هذا المنصب بتعيينه علي مصر ، الأمر الذي جعله يتجه إلي مصر علي نية العصيان هناك ، والإستقلال بها مستفيداً بأوضاعها المضطربة ورغبة المماليك في الإطاحة بالحكم العثماني في مصر . فلما أعلن عصيانه ، واضطربت الأوضاع في مصر للغاية ، أمر السلطان سليمان الصدر الأعظم إبراهيم التوجه للولاية لتنظيم إدارتها ووضع قوانين ولوائح دائمة لها عرفت باسم " قانون نامه مصر " . أنظر في هذا الخصوص : Seyyid Muhammed es-Seyyid, XVI. Asırda Mısır Eyaleti, İstanbul 1990, 77-90; keza bk. "Mısır Eyaleti'nde Osmanlı Nizamının Kuruluşu", Osmalı, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999, I/291 vd

في عهد سليمان القانوني العديد من الجبهات ، وُفرضت علـي الدولـة الكـثير مـن المواجهات إما للذود عن دينها ضد المخططات الصليبية والشيعية أو لتدعيم مكانتـها ونفوذها في الشرق والغرب والجنوب والشمال .

حملات سليمان القانوني في بلاد المجر :

منذ أن انتقل العثمانيون إلي أوروبا ، وخلال مدة تربو عن قرن ونصف مـن الزمان لعبت المجر دور الداعم الأول لخصماء الدولة أو الخصم اللدود لها . وهكـذا ، استمرت المواجهات المتبادلة بين الطرفين حتي انتهت بالقضاء علي مملكة المجر ، وإلحاقها بأملاك الدولة العثمانية . ولذلك ، كان إلحاق المجر بالأراضي العثمانية من أولويـات السلطان سليمان القانوني في هذه المرحلة حتي يمكنه إحكام السيطرة علي منطقة البلقان، والقضاء علي الداعم الأول لها . والحقيقة أن هجمات القوات الحدودية ازدادت باطراد منذ فتح بلجراد علي بلاد المجر والخروات وترانسلفانيا ودالماجيا .

حملة المجر ومعركة موهاچ (٢٩ أغسـطس ١٥٢٦/٢٠ ذي القعـدة ٩٣٢) : أرسل السلطان سليمان وزيره الأعظم وأمير أمراء الروميلي إبراهيم باشـا إلي بلاد المجر علي رأس قوة استطلاعية ، ثم تحرك بنفسه علي رأس قوة تبلغ ١٠٠ ألف فرد في ٢٣ إبريل ١٥٢٦/١١رجب ٩٣٢ . وخلال ثلاثة أشهر ، تكامل الجيش العثمـاني بعد وصول فرسان سباهية التيمار في الأناضول والروميلي إلي بلجراد. وهكذا ، بـدأ الصدر الأعظم بفتح مدينة بترو وارادين ، وتمكن أمراء البوسنة من فتح القلاع الموجودة في منطقة سيرم وعلي طول نهر طونه (يوليه / شوال) . ولما علم ملك المجر ليوش الثاني بالزحف العثماني علي بلاده ، راح يتخذ استعداداته للمواجهة ويطلب المساعدة مـن ملوك وأمراء أوروبا .

أتخذ الجيش المجري مواقعه عند وادي موهاچ ، وكان يتشكل من ١٥٠ ألف مقاتل ، علاوة علي نحو ٧٠ ألف من المتطوعين من مختلف الدول الأوروبية يقـودهم ملك المجر بنفسه . أما الجيش العثماني فكان يبلغ تعداده نحو ٣٠٠ ألف جندي يقودهم

السلطان العثماني بنفسه . وقد أخذ الوزير الأعظم وأمير أمراء الروميلي إبراهيم باشا مكانه في الجناح الأيمن من الجيش العثماني ، أما أمير أمراء الأناضول بهرام باشا فكان في الجناح الأيسر ، والسلطان وأغا اليكيجري وجند القابوقولي في الوسط . وكانت القيادة العثمانية قد أعلنت منذ البداية أن هدف الحملة هو عاصمة مملكة المجر في بودين[٢٢٥] .

بدأت المعركة في عصر يوم ٢٩ أغسطس ١٥٢٦/٢٠ ذي القعدة ٩٣٢ بتكتيك عثماني مبتكر ، أوقع الجيش المجري في مرمي المدافع العثمانية ، حيث جرح الملك ليوش وتوفي في أرض المعركة ، وإنهزم جيش الحلفاء خلال ساعتين من النهار ، وتعقب الجيش العثماني فلوله للحيلولة دون تجميع قوته مرة ثانية .

وعندما وصلت القوات العثمانية أمام بودين في ٢٠ سبتمبر/ ٤ ذي الحجة، كان أهالي المدينة قد فروا منها ، ولم يبق فيها سوي مجموعة من اليهود يرأسهم يهودي يدعي صالامون بن يوسف الذي قام بتسليم مفاتيح قلعة بودين للسلطان سليمان . وبذلك فتح مركز مملكة المجر دون قتال ، وانتزع مقر عرش المجر دون إعدام أي شخص، حيث أقام فيها السلطان سليمان نحو أربعة عشر يوماً ، وعند عودته فتحت سكدين وبعض المدن الأخري .

لم يكن للملك المجر المقتول وريث لعرش المجر ، ولذلك انتخب بعض أمراء المجر حاكم أردل جون زابوليا ملكاً علي المجر (١٥ نوفمبر ١٥٢٦/ ٣ محرم ٩٣٣) . وبعد أن أجريت مراسم جلوس زابوليا علي عرش المجر ، غادر الجيش العثماني بودين. ولما كان زابوليا علي خلاف مع الملك السابق ، لم يرض أمراء شرقي المجر في ترانسلفانيا

---

[225] بخصوص معركة موهاج ، والمراحل التي مرت بها الدولة في فتوح بلاد المجر ، أنظر : Geza Perjes, Mohac Meydan Muharabesi, özet ve tanıtma: Şerif Baştav, Ankara 1988; M. Tayib Gökbilgin, " Kanunî Sultan Süleyman'ın Macarıstan ve Avrupa Siyasetinin Sebep ve Amilleri Geçirdiği Safhaları ", Kanunî 'ya Armağan, TTK.yay. Ankara 1970 , s. 213 vd.

بزابوليا ملكاً علي كل بلاد المجر ، واختاروا زوج أخت ملك المجر المقتول دوق النمسا وشقيق إمبراطور الهابسبورج فرديناند ملكاً علي المجر ، حيث عقد إمبراطور الهابسبورج شارلكن المجلس العرفي الذي أقر بأن فرديناند هو الملك الشرعي للمجر وأن زابوليا خارجاً عليه . وهكذا ، اجتمع أمراء المجر ورفضوا زابوليا ، ودعوا فرديناند وتوجوه ملكاً علي المجر . وبذلك ، أصبح للمجر ملكان ، زابوليا الواقع تحت الحماية العثمانية وفرديناند الموجود تحت حماية الإمبراطور شارلكن ، حيث بدأ الصراع العثماني النمساوي الطويل علي بلاد المجر[٢٢٦] .

حصار فيينا الأول : قام فرديناند باحتلال بودين عقب عودة الجيش العثماني ، وألحق الهزيمة بزابوليا الذي التجأ إلي ملك لهستان سيجسموند ، ثم عرض علي الدولة العثمانية قبوله ملكاً علي المجر مقابل دفع الخراج السنوي ، إلا أن الدولة رفضت وطالبته بإعادة المجر لزابوليا . وهكذا ، خرج السلطان سليمان إلي بلاد المجر ثانية علي رأس جيش يقدر بـ ٢٥٠ ألف فرد في ١٩ مايو ١٥٢٩/ ٢رمضان٩٣٥ ، فالتقي بزابوليا في وادي مهاج ، حيث شرع في محاصرة بودين التي لم تقاوم كثيراً ، واضطرت للتسليم. وبذلك ، أعيد زابوليا ملكاً على المجر وأُلبس تاج المجر ودفع الخراج للسلطان العثماني .

والحقيقة أن الجيش العثماني لم يواجه أية مقاومة عند تعقبه لفلول قوات فرديناند ، حيث وجد أمامه الطريق مفتوح حتي أسوار فيينا . وكان فرديناند قد قام بتحصين فيينا ، وترك لحمايتها ١٦ ألف فرد ، ثم راح يجول في أوروبا لجمع المتطوعين . هكذا ، باشر العثمانيون حصار فيينا ، حيث أمر السلطان سليمان حاميتها بالتسليم . وعلي أثر رفضها الطلب قامت القوات العثمانية بالتضييق علي قلعة المدينة بإستخدام الألغام لفتح ثغرات في أسوارها . ولكن الحقيقة أن حصار فيينا لم يكن من بين أهداف هذه الحملة التي كان غرضها الأساسي إعادة إجلاس زابوليا علي عرش المجر ، ولذلك لم

---

[226] أنظر في هذا الخصوص : M. Tayib Gökbilgin, " Kanunî Sultan Süleyman'ın Macarıstan ve Avrupa Siyasetinin Sebep ve Amilleri Geçirdiği Safhaları ", 44-52 .

يكن سليمان القانون قد اتخذ التدابير اللازمة للحصار ، و لم يحضر المدافع الكبار والمؤن اللازمة للجيش . وهكذا ، اضطر السلطان العثماني لرفع الحصار عن المدينة بعد ثلاثة أسابيع من بدايته بسبب اقتراب موسم الشتاء وشدة برودة الجو ، حيث تم تبادل الأسري بين الطرفين ، وعاد السلطان إلي بودين بنحو ٦٠ ألف أسير (١٤ أكتوبر ١٥٢٩/ أول صفر ٩٣٦)[٢٢٧] .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان حصار العثمانيين لفيينا سبباً لحدوث هياج عظيم في كافة أنحاء أوروبا ، حتي أن مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستنتي راح يخطب خطابه الشهير ضد العثمانيين لإثارة حماسة المتطوعين ، وطلب شارلكن من عدوه ملك فرنسا فرانسوا الأول بإسمه وبإسم بابا روما الإنضمام للحلف المزمع تشكيله ضد العثمانيين ، واضطرت البندقية التي كان لها مصالح تجارية في الأراضي العثمانية للتعامل مع العثمانيين والحلفاء بوجهين لتلبية النداء .

الحملة الثالثة علي بلاد المجر (حملة الألمان) : وإذا كانت الدولة العثمانية قد رفضت مرة أخري طلب فرديناند الاعتراف به ملكاً علي المجر مقابل دفعه الخراج للعثمانيين ، وتمسكت بزابوليا ملكاً علي بلاد المجر ، إلا أنّ الأخير لم يستطع فعلاً السيطرة علي مقاليد الحكم في البلاد . فلمّا قام أمير سيكتوار التابع له بحركة عصيان ، أرسل زابوليا قوة كبيرة لتأديبه . عندئذ انتهز فرديناند الفرصة ، واستولى على قلاع استرغون وويشه جراد وواج ، ثم توجه لمحاصرة بودين ، فقام زابوليا بطلب المساعدة من أمير سمندره . فلمّا علم فرديناند بعودة الجنود من سيكتوار ووصول قوات الحدود مع أمير سمندره وأمير البوسنة ، رفع الحصار الذي استمر نحو ٥٧ يوماً عن المدينة .

وصلت الأنباء إلي إستانبول بقيام فرديناند بحصار بودين ، عندئذ خرج السلطان سليمان إلي بلاد المجر في ٢٥ إبريل ١٥٣٢/١٩ رمضان ٩٣٨ ، وتحرك الجيش

---

[227] حول حصار فيينا الأول ، والظروف التي أدت لفشل هذا الحصار ، أنظر : Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/329 vd.

العثماني الذي كان يتشكل من ٢٠٠ الف جندي و٨٠ ألف من قوات الحدود ونحـو ٣٠٠ مدفع ، تحرك شمال وغرب بلاد المجر ، حيث آثرت العديد من القلاع في تلـك المناطق التسليم بدون قتال . وإذا كان السلطان سليمان قد خرج لهذه الحملة بعـد أن دعي شارلكن لمواجهته علي الأراضي المجرية ، وعلي الرغم من أن القوات العثمانية قد دخلت في عمق الأراضي الألمانية ، إلا أن شارلكن لم يشأ الخروج للقتال . ولذلك ، بدأ الجيش العثماني في العودة بعد أن فتح نحو خمسة عشر قلعة في طريق فيينا ، وذلـك في أواخر نوفمبر ١٥٣٢/ ٢٣ ربيع الآخره ٩٣٩[٢٢٨] .

وهكذا ، ذهبت جميع محاولات فرديناند لحكم المجر أدراج الريـاح ، حيـث أوصاه شارلكن بالتفاهم مع العثمانيين . فكان لهذه الرغبة عند العثمانيين صدي أيجابياً نظراً للتحركات الصفوية علي الجبهة الشرقية في شرقي الأناضول . وبذلك اتفق الطرفان علي بنود الصلح في يوليه ١٥٣٣/ ذو الحجة ٩٣٩ ، حيث جاء فيها :

١. عدم تعدي فرديناند علي أراضي زابوليا .

٢. تحديد الحدود بين الطرفين ، حيث قسمت أراضي المجر قسـمين : قسـم يحكمه زابوليا تحت الحماية العثمانية ، وقسم يحكمه فرديناند ويدفع عنـها الخراج لسليمان .

٣. التصديق العثماني علي أي اتفاق يعقد بين زابوليا وفرديناند حـتي يصـير ساري المفعول .

٤. دفع فرديناند ٣٠ ألف ذهبية للخزينة العثمانية سنوياً مقابل تـرك بعـض الأراضي المجرية في حوزته .

[228] حول حملة ألمان ونتائجها ، أنظر : Ö. Kumrular, " İspanyol Kaynakları Işığında Kanunî'nin Alman Seferi ", Tarih ve Toplum, XXXVI/216, Aralık 2001.

٥. إرسال شارلكن سفير من طرفه لعقد الصلح مع العثمانيين بعد الإتفاق مع فرديناند .

٦. يحتفظ العثمانيون بحقهم في نقض الصلح ، إذا لم يقم شارلكن بعقد الصلح معهم .

٧. ارتباط سريان مفعول المعاهدة بمدي التزام فرديناند ببنودها[٢٢٩] .

بلاد المجر بعد معاهدة ١٥٣٣م/ ٩٣٩هـ :

في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية منشغلة في حروبها الشرقية مع الصفويين والبحرية مع شارلكن وحلفائه ، كانت قوات فرديناند تنقض العهد مع الدولة وتقوم بالتعدي علي حدودها . إلا أن قوات أمراء الحدود تمكنت من التصدي لهذه الإعتداءات ودحرها عام ١٥٣٧م/ ٩٤٤هـ . وعلي أثر وفاة زابوليا عام ١٥٤٠م/٩٤٧هـ ، وبينما كانت أرملته إيزابيلا تطلب من السلطان العثماني تعين أبنها الصغير ملكاً علي المجر محل أبيه ، قام فرديناند وقوات شارلكن بمحاصرة بودين. وإذا كان هذا الحصار قد أخفق ، إلا أنه أسهم في دفع سليمان القانوني للخروج في حملة جديدة علي المجر .

تشكيل إمارة أمراء بودين : أسرع القانوني بتجريد حملتين سريعتين تحت قيادة أمير أمراء الروميلي والوزير الثالث صقوللي محمد باشا للحيلولة دون سقوط بودين ، ثم خرج بنفسه علي رأس الجيش في ربيع ١٥٤١م/٩٤٨هـ . فلما علم فرديناند بوصول الجيش العثماني ، رفع الحصار عن المدينة ، وانسحب بجيشه . وهكذا ، دخل السلطان سليمان بودين ، حيث أرسل إليه فرديناند سفيراً يرفع إليه طلب تعيينه علي بلاد المجر بدلاً من سيجسموند بن زابوليا مقابل زيادة الخراج الذي يدفعه

---

229 Ö. Kumrular, " İspanyol Kaynakları Işığında Kanunî'nin Alman Seferi ", Tarih ve Toplum, , s. 213 vd.

للعثمانيين. إلا أن السلطان رد عليه بقوله : " فالترفع يدك عن بلاد المجر ، ولتدفع الخراج عن أراضي النمسا نفسها ، وليس هناك طريق آخر للصلح بيننا "[٢٣٠].

وهكذا ، أبلغ السلطان سليمان القانوني أرملة زابوليا بأن الجيوش العثمانيـة سوف تقوم بالسيطرة علي بودين لحمايتها من فرديناند حتي يكـبر الملـك الصـغير سيجسموند ، حيث أرسله مع أمه الوصية عليه إلي إمارة أردل تحت الحماية العثمانية. وبذلك ألحقت أراضي المجر التي كانت موجودة تحت سيطرة زابوليا بالأراضي العثمانية مباشرة ، حيث شكلت منها إمارة أمراء بودين التي قسمت إلي ١٢ سنجقاً ، وعـين عليها سليمان باشا المجري الأصل ، وكلف بتحرير بقية أراضي المجر .

وعقب عودة الحملة إلي إستانبول ، عاد فرديناند وحاصر بودين ثانية ، ممـا أجبر السلطان للخروج إليه بنفسه في ٢٣ إبريل ١٥٤٣/ ١٨محرم٩٥٠ . فلمّـا سمـع فرديناند بخروج السلطان إليه ، راح يرفع الحصار عن المدينة . عندئذ ، تعقب الجـيش العثماني فرديناند ، حيث انتزع خلال هذه الحملة من أراضيه مدينة أسترغون التي كانت المقر القديم لملوك المجر ، ومدينة أستوني بلجراد التي كانوا يتخذونها مرقداً لهـم، كمـا سقطت مدينتي شكلوس ووالبو الواقعتان علي نهر دراوا . وهكذا ، أضـطر فرديناند لتوقيع هدنة مع العثمانيين مدتها خمس سنوات ، حيث قضت هذه الهدنة بتنازل الدولة عن بعض المناطق التي فتحت ، ودفع فرديناند مبلغ ٣٠ ألف ذهبية للخزينة العثمانية . وقد شارك في هذه الهدنة شـارلكن والبابـا وملـك فرنسـا والبندقيـة (٩ يونيـة ١٥٤٧/١١ربيع الآخرة ٩٥٤)[٢٣١] .

---

[230] نقلاً عن : Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/342 vd.

[231] بخصوص حملة السلطان سليمان القانوني المعروفة باسم " استرغون " أنظر : İ. Miroğlu, " Kanunî Sultan Süleyman'ın Estergon Seferi", Osmanlı Araştırmaları, X, (1990), 137-159; keza bk. Gabor Agoston, " Macaristan'da Osmanlı-Habusburg Serhadı (1541-1699) : Bir Mukayese", Osmanlı , I/434-451

حل مشكلة أردل وتشكيل إمارة أمراء طمشوار : كانت الملكة إيزابيلا الوصية علي وريث عرش المجر سيجسموند تقع تحت الحماية العثمانيـــة خـــلال هـــذه المرحلة، وكان أحد مستشاريها يؤيد فرديناند ، حيث راح يسعي لتنحية إيزابيلا ، ويمهد الطريق لفرديناند ليحل محلها . وإذا كانت الدولة قد أُحيطت علماً بهذه الخطة ، إلا أنها كانت منشغلة خلال هذه الفترة في الحملة علي الصفويين . ولذلك ، أكتفي الســـلطان سليمان بتعيين صقوللي محمد باشا سرادارا علي رأس حملة قوامها ٨٠ ألـــف رجـــل ، حيث قامت هذه الحملة بفتح عدة قلاع وحاصرت طمشوار ، غير أن ســـوء الطقـــس أجبرها علي العودة لبلجراد دون أن تتم مهمتها (١٥٥١م/٩٥٨هـــ) . وعلـــي أثـــر انسحاب صقوللي محمد باشا بجيشه، تمكن الجيش النمساوي من دخول أردل ، حيث احتل عدداً من القلاع في المنطقة وحاصر سكدين .

قام أمير سكدين المحاصر بإبلاغ أمير أمراء بودين خادم علي باشا بالأمر . وإذا كان علي باشا قد تمكن من فك الحصار عن سكدين ، إلا ان الدولة اضطرت لتجريـــد حملة علي المجر تحت قيادة الوزير الثاني أحمد باشا لحمايـــة إمـــارة أردل (٢٣ إبريـــل ١٥٥٢/ ١٩ ربيع الآخرة ٩٥٩) . فتوجهت الحملة مباشرة صوب طمشوار، حيـــث حاصرت قلعتها التي سقطت بعد ٣٥ يوم من بدء الحصار ، وأسر قائدها ، وأستعيدت منطقة ليبوا ، وفتحت ويسپرم . وبذلك سيطرت الدولة علي المناطق الشمالية من إمارة اردل . ونظراً لأهمية هذه المناطق المفتوحة ، قامت الدولة بضمها لأراضي الدولة ضـــماً مباشراً ، وشكلت منها إمارة أمراء طمشوار .

والحقيقة أن المصادمات بين القوات الحدودية العثمانية وبين القوات النمساوية، ومحاولات فرديناند المتكررة للحصول علي تنازل من السلطان سليمان حتي يمكنه بسط النفوذ علي إمارة أردل لم تتوقف حتي أصبح إمبراطوراً علي ألمانياً بعد أن تنحي شارلكن عن العرش في ١٥٦٢م/٩٧٠هـــ . ومنذ ذلك الحين ، أعلن الإمبراطور الجديد فرديناند تخليه عن المطالبة بحكم إمارة أردل ، حيث قام بتوقيع معاهدة سلام مع الدولة العثمانية

تقضي بدفعه مبلغ يقدر بـــ ٣٠ ألف دوقة مقابل قبول الدولة بترك الأراضي الموجودة تحت يده من المجر[٢٣٢] .

حملة السلطان سليمان علي البغدان : كانت البغدان قد خضعت للنفوذ العثماني عقب فتح السلطان بايزيد الثاني لمدينتي كيلي وآق كرمـــان عـــام ١٤٨٤م/ ٨٨٩هـــ . وإذا كان أمرائها قد تقاعسوا عن دفع الخراج للدولة العثمانية خلال فتـــرة إنشغالها في حملات مصر وإيران ثم المجر ، إلا أنهم اضطروا لدفع الخراج للسلطان عنـــد عودة الجيش العثماني من حصار فيينا الأول (١٥٣٠م/٩٣٦هـــ) . والحقيقة أن أمير البغدان بترو رارش لم يستطع مقاومة الضغوط الخارجية عليه للخروج ضـــد الدولـــة العثمانية ، حيث اتصل بملك النمسا فرديناند وعقد عدة مباحثات معه ، الأمر الـــذي أوجب علي الدولة تجريد حملة لتأديبه . وهكذا ، خرج السلطان سليمان بنفسه علـــي رأس الحملة دون إعلان وجهتها في يوليه ١٥٣٨/صفر ٩٤٥ ، حيث شارك فيها خان القرم صاحب گراي بقوة قوامها ٢٠٠ ألف رجل . ولما وصل أمير البغدان خبر خروج السلطان إليه ، أرسل سفيراً يتعهد أمام السلطان برعاية بنود المعاهدة مع العثمانيين . إلا أن رفض أمير البغدان المجيئ إلي مركز قيادة الجيش العثماني لتقديم فروض الطاعة ، دفع السلطان العثماني باصدار أوامره للجيوش بعبور نهري طونه وبروت والتوجـــه لـــبلاد

---

[232] فيما يتعلق بالعلاقات العثمانية المجرية في اطار الصراع العثماني – الهابسبورجي ، أنظر : M. Tayib Gökbilgin, " Kanunî Sultan Süleyman'ın Macarıstan ve Avrupa Siyasetinin Sebep ve Amilleri Geçirdiği Safhaları ", s. 35-67; keza bk. Ali İbrahim Savaş, Osmanlı Devleti ile Habsburg İmparatorluğu Arasındaki Biplomatık İlişkileri", Türkler IX/555-565; P. Fodor- Geza David, " Hungarian – Ottoman Feace Negatiations İn 1512-1514, Hungorian-Ottoman Military and Diplomatic Telations İn The Age Of Süleyman The Magnificent, Budapeste 1994.

البغدان . وبذلك اضطر أمير البغدان الذي عجز عن مواجهة الجيوش العثمانية للفرار إلي ترانسلفانيا ، حيث قام ويودا الأفلاق بتشتيت قواته هناك .

وعلي الرغم من التحصين الشديد لعاصمة البغدان سچاو والعاصمة الثانية ياش بازاري ، فقد أدرك أمراء البغدان أنه لا طاقة لهم في مواجهة الجيوش العثمانية ، فأرسلوا مفاتيح القلاع للقوات العثمانية ، وقاموا بالتسليم . وهكذا ، صدر الأمر السلطاني لأمراء البغدان بعقد اجتماع فيما بينهم لإختيار أمير ويودا عليهم . وبالفعل، انتخبوا الويودا استيفان أميراً علي البغدان ، حيث وافق السلطان علي اختيارهم ، وأجلسه علي كرسي المملكة في سچاو ، وقرر في براءة التعيين ضرورة قيام الويودا باحضار خراج البغدان بنفسه إلي الأستانة مرة كل عامين ، ثم أعلن عفواً عاماً في البلاد .

لم يغادر السلطان سليمان بلاد البغدان حتي رسم الحدود بين الأراضي العثمانية وأراضي البغدان ، حيث أعتبر نهري دينستر وبروت حدوداً فاصلة ، وكلف أمير البغدان بإنشاء قلعتين ، وشكلت من المنطقة العازلة بين الطرفين والتي تضم مدينتي كيلي وآق كرمان الإستراتيجيتين إمارة سنجقية تحت إسم "إمارة كيلي وآق كرمان"[٢٣٣].

النشاط العلوي في الأناضول وبدء حملات الدولة علي إيران :

لم تنه حملات السلطان سليم الأول علي إيران وضمه لمناطق شرقي الأناضول النفوذ العلوي في تلك المنطقة ، حيث توفي إسماعيل الصفوي (١٥٢٤م/ ٩٣٠هـ) دون أن يعقد أي تفاهم مع العثمانيين حول الأناضول . ولذلك ، استمر التأثير الصفوي

---

[233] حول حملة السلطان سليمان علي البغدان أنظر : M. Guboglu, " Kanunî Sultan Süleyman'ın Boğdan Seferi ve Zaferi", Belleten, L/198, (1987), s. 727-805; keza bk. Viorel Panaite, " Osmanlı Hakimiyetinin Tuna Nehrinin Küzeyinde Yayılışı : XIV ve XVI Yüzyıllarda Eflak ve Boğdan ", Türkler, Ankara 2002, UX/206-218.

علي قيزيلباش الأناضول ، فلم يكن العلويون المنتشرين في الأناضول يترددون في إعلان العصيان كلما سنحت لهم الفرصة وشعروا بانشغال الدولة في حروبها الخارجية . ومن ناحية أخرى ، كانت ممارسات موظفي تحرير الأراضي في الأناضول التي جانبها الصواب واحدة من الأسباب التي دفعت الكثير سباهية التيمار في الأناضول للإلتحاق بجماعات العصاة هؤلاء خلال هذه الفترة .

وهكذا ، ظهرت عدة حركات عصيان في الأناضول أثناء إنشغال الجيوش العثمانية في معاركها ببلاد المجر . فقد ظهرت حركات عصيان قادري خوجه بابا وإبنه شاه ولي ، وبابا ذو النون في بوزوق ، وولي خليفة ، ودوموز أوغلان في أدنة، ويكچه بك في طرسوس . إلا أن أعظم الحركات العلوية التي أثرت في كافة انحاء الأناضول تمثلت حركة عصيان قلندر چلبي المشهور بإسم " شاه قلندر " ، حيث راحت الدولة الصفوية تؤيد هذه الحركات وتدعمها مادياً ومعنوياً (١٥٢٧/٩٣٣هـ) .

فقد استطاع قلندر چلبي جمع نحو ٢٠ ألف من المريدين العلويين ، وهزم بهم العديد من أمراء وولاة شرقي الأناضول ، الأمر الذي أجبر الدولة علي تجريد حملة تحت قيادة الوزير الأعظم إبراهيم باشا لدحر حركته . وإذا كان العصاة قد ألحقوا بالحملة هزيمة في جولتها الأولي ، إلا أن نجاح إبراهيم باشا في إستمالة أمراء العشائر في المنطقة بإعادة المقاطعات التي كانت قد صادرتها الدولة إلي أصحابها ، قد مكنه من إلحاق الهزيمة بقلندر چلبي وقتله ، وتشتيت شمل جماعته (١٥٢٧/٩٣٣هـ). وبعد مرور عامين (١٥٢٩م/ ٩٣٥هـ) خرج في أدنه شخص من القزيلباش يدعي سيدي وسيطر علي مناطق إياس وقارص وذوالقدر ، حيث ألتحق به شخص يدعي " انجير يه مز " ، غير أن أمير أدنه پيري باشا تمكن من السيطرة علي الموقف بسرعة وقتلهما[٢٣٤] .

[234] أنظر في هذا الخصوص : J. İ. Bacque Grammont, " XVI. Yüzyılın İlk Yarısında Osmanlılar ve Safavîler " Prof. Dr. Bekir Kütükoğlu'na Armağan, İstanbul 1991, 205 vd.; keza bk. Mustafa Akdağ, Celali İsyanları, İstanbul 1995, s. 32 vd.

حملة العـــراقين : لم يرسل إسماعيل الصفوي سفراء لتهنئة سليمان بجلوسه علي العرش (١٥٢٠/٩٢٦هــ) . ولما تولي طهماسب الحكم في إيـــران (١٥٢٤م/ ٩٣٠هــ) ، اتبع سياسة أبيه العدائية ضد الدولة ، حيث راح يراسل شارلكن وفرديناند ويعرض عليهما التحالف ضد العثمانيين . ولما لجأ أحد أمراء البيت الصفوي ويـــدعي اولامه خان للعثمانيين ، ولجأ حاكم بتليس شرف خان التابع للعثمانيين لشاه إيـــران ، وأرسل خان بغداد ذو الفقار خان مفاتيح بغداد للسلطان سليمان القانوني ، قام الشاه طهماسب بمحاصرة بغداد لمدة طويلة حتي تمكن من قتل ذو الفقار والإستيلاء عليهـــا (١٥٣٢م/ ٩٣٩هــ). ولما كانت الدولة منشغلة في حملات البحر ، قامت بتعيين أولامه خان علي رأس حملة لإستعادة بتليس ، وطلبت من ولاة الأناضول تقديم الدعم الـــلازم له. وهكذا ، كان فشل أولامه خان في مواجهة شرف خان الـــذي دعـــم بـــالقوات الإيرانية، سبباً في شعور الدولة بضرورة تجريد حملة علي إيران .

عين الوزير الأعظم إبراهيم باشا سرداراً علي حملة إيران في ســـبتمبر ١٥٣٣/ ربيع الثاني ٩٤٠ . وفي هذه الأثناء ، كان أولامه خان قد تمكن من تحقيق الإنتصار علي شرف خان وقطع رقبته قبل وصول الحملة ، حيث قام بإرسالها إلي الوزير (٢١ اكتوبر ١٥٣٣/ ٨ جمادي الأولي ٩٤٠) . ولما أيقن اولامه خان بعدم قدرته علـــي مواجهـــة شمس الدين بن شرف خان ، لجأ إلي الوزير الأعظم ، الذي قام باستمالة شمس الـــدين بتعيينه علي بلاد أبيه في بتليس ، ووعد اولامه خان بوظيفة أخري . وأثناء قضاء الجيش الشتاء في حلب قام السردار الوزير باستمالة العديد من أمراء القلاع التابعين للصفويين ، ثم تحرك في الربيع إلي تبريز التي كان طهماسب قد غادرها في رحلة صيد ، حيث دخلها بدون مقاومه في ١٣يولية ١٥٣٤/ ٢٢ ذو الحجة ٩٤٠ . وبذلك ، قام إبراهيم باشـــا بتعيين أولامه خان علي ولاية أذربيجان ، وتنصيب أحد أفراد أسرة آق قويونلي ويدعي مراد بك علي حكومة العراق .

خروج السلطان لحملة العراقين وضم بغـــداد : تحرك سليمان القانوني من إستانبول متوجهاً إلي بغداد في ١٩يونية ١٥٣٤ / ٢٨ ذو القعدة ٩٤٠، حيث وصل

بعد مرور ثلاثة أشهر ونصف إلي موضع يقال له أوجان بين تبريز وخوي ، فاستقبله الوزير الأعظم هناك ، وقدم حاكم غيلان مظفر خان له فروض الطاعة . وإذا كان السلطان قد خطط لقضاء موسم الشتاء في تبريز ، إلا أنه اضطر للتحرك من تبريز متوجهاً إلي بغداد عن طريق قصر شيرين بعد ٢٧ يوماً . ولما سمع محافظ بغداد تكه لي خان بوصول السلطان العثماني ، غادر المدينة . ودخل السلطان بغداد بدون مقاومة في ١٠ ديسمبر ١٥٣٤/ ٢٤ جمادي الأولي ٩٤١ ، حيث قضي بها نحو أربعة أشهر ، فأمر بتحرير أراضيها ، ووضع نظم دائمة لمؤسساتها وتشكيلاتها، ثم عاد إلي حاضرة الدولة عن طريق حلب ، ووصل إليها في ٧ يناير ١٥٣٦ / ٤ رجب ٩٤٢[٢٣٥].

حماية النفوذ المطلق وبوادر حلقة جديدة من حلقات الصراع علي العرش : لقد أصبح منصب الصدارة العظمي خلال عهد سليمان القانوني يزاحم منصب السلطنة نفسه سمواً وعظمة ، حيث ظهر التنافس عليه تنافس أبناء السلاطين علي عرش السلطنة . فقد سعي الوزير الثاني أحمد باشا سعياً حيثياً للإيقاع بين الوزير الأعظم پيري محمد باشا والسلطان سليمان حتي تمكن من عزله رغبتة في أن يتولي هو هذا المنصب السامي ، إلا أنه لما قام القانوني بتعيين أغا دار السعادة إبراهيم باشا في منصب الوزارة العظمي متجاوزاً الأعراف الجارية في الدولة، سعي الوزير الثاني أحمد باشا لتولي ولاية مصر لتعويض ما فقده ، حيث قام بعصيان الدولة هناك والإستقلال بمصر لفترة من الزمن كما ذكرنا آنفاً .

ولما تولي إبراهيم باشا منصب الصدارة العظمي زوّجه القانوني أخته ، ومنحه صلاحيات مطلقة عبّر عنها الوزير نفسه عند لقائه بسفراء ملك النمسا فرديناند بقوله : " إن الذي يدير هذه الدولة العظمي هو أنا ، فكل فعل أقوم به مؤكد ولا يرد لأن النفوذ كله في يدي أنا . كل ما أعطيه يكون قد أعطي ، وكل ما أردّه يكون قد رُدّ . حتي أن

[235] Feridun Emecen, "İrakayin Seferi", DIA, XIX/117 vd.; keza bk. Bekir Kütükoğlu, Osmanlı – İran Siyasi Münasebetleri, İstanbul 1962, s. 45 vd.

رغبة السلطان الأعظم في الإحسان بأي شئ لا تتم إلا بتصديقي أنا ، فكل شئ الحرب والسلام والثروة والقوة كلها في يدي ... "[٢٣٦]

والحقيقة أن الصدر الأعظم إبراهيم باشا راح يستخدم الصلاحيات التي منحت له بشكل أشعر السلطان نفسه بأنه يشاركه في الملك ، مما أعطي منافسيه الفرصه للكيد له لدي السلطان العثماني . وكان أولامه خان قد أقنع إبراهيم باشا أثناء حملة العراقين بأن يضيف للقب السردار صفة سلطان ، حيث راح الصدر الأعظم والسردار الأكـــرم إبراهيم باشا أيضاً يوقع علي المناشير والفرمانات السلطانية بإسم " سردارِ سلطان " .

وهكذا ، أخذت قضية مشاركة الوزير الأعظم لنفوذ السلطان المطلق تتفـــاقم إثر ربطها بقضية خلافة سليمان القانوني علي عرش السلطنة . فقد كـــان الســـلطان سليمان يعد إبنه الأكبر الشهزاده مصطفي لتولي السلطنة من بعده ، وكـــان الصـــدر الأعظم يشاركه هذه الرغبة نظراً لشجاعة مصطفي وفطنته . أما زوجة السلطان المجرية الحسناء روكسلانه والمعروفة في الحرم السلطاني بـــ "خُرّم سلطان "، فقد كان لها رأي آخر . كان لخرم سلطان من السلطان سليمان ثلاثة أبناء هم بايزيد وسليم ومحمـــد ، وكانت ترغب في أن يلي إبنها بايزيد الحكم بعد أبيه ، وتري أن إبراهيم باشا هو العقبة الكؤود أمام تحقيق هذه الرغبة . وبذلك ، كان عليها العمل علي التخلص من الـــوزير الأعظم ، حيث راحت تشيع بين أروقة السراي الهمايوني أن إبراهيم باشا يسعي للسطو علي السلطنة مستفيدة من تجاوزات الصدر الأعظم المشار إليها . فلم يتردد الســـلطان سليمان عقب عودته من حملة العراقين في استدعاء صدره الأعظم كالعادة والأمر بقتله في ٦مارس ١٥٣٦/٤رمضان ٩٤٢[٢٣٧] .

---

[236] جلال زاده مصطفي چلبي ، طبقات الممالك ودرجات المسالك ، ليدن ١٩٨١، ص. ٣٢٤.

[237] أنظر في هذا الخصوص : F. Emecen, " İbrahim Paşa Makbul ", DİA., XXI/333-335; keza bk. İ. Rierce, Harem-i Hümayûn, Osmanlı İmparatorluğunda Hükümranlık ve Kadınlar, terc. A. Berktay, İstanbul 1996, s.85 vd.; Halil İnalcik, "Osmanlılarda Saltanat Veraseti Usûlü ve Türk Hakimiyet Telekkisi ile İlgili", AUDTCFD., CXIV, (1959), s. 144 vd.

حملة سليمان الثانية علي إيران : تمكنت الحملة السليمانية الأولي علي إيران من الإستيلاء علي تبريز ثم علي بغداد . وإذا كان الصفويون قد تمكنوا من إستعادة تبريز ، إلا أن بغداد بقيت في يد العثمانيين . وعلي الرغم من أن الأوضاع علي الجبهة الشرقية كانت تستدعي عملاً عسكرياً حاسماً من قبل الدولة ، إلا أن جبهة المجر كانت تستحوذ خلال هذه الفترة علي جل الإهتمام العثماني . ومن ثم تمكن الشاه طهماسب من إستعادة العديد من المناطق التي كان العثمانيون قد ضموها لأراضيهم في الحملة الأولي .

ولكن ، كان قيام شقيق طهماسب ووالي شيروان " القاص ميرزا " بحركة عصيان ضد أخيه ، وفراره إلي استانبول عقب فشله في السيطرة علي الحكم في إيران، حافزاً حاداً للسلطان سليمان للتفكير في محاولة الإستفادة من هذا الصراع. ولذلك قرر تجريد حملة جديدة علي إيران لإستعادة الأراضي التي احتلها الصفويون وتوطيد الحكم العثماني في المنطقة . وهكذا ، قام القانوني بإستدعاء أولامه باشا وتعيينه مستشاراً للقاص ميرزا وأميراً للأمراء علي أرضروم ، وأرسلهما إلي شرق الأناضول ، ثم تحرك السلطان بنفسه علي رأس الحملة من إستانبول في إبريل ١٥٤٨/صفر ٩٥٥ . دخل القانوني تبريز للمرة الثالثة دون مواجهة أية مقاومة ، حيث كان طهماسب قد غادر المدينة قبل وصوله . وأثناء إقامة السلطان بها ، تمكنت القوات العثمانية من إستعادة قلعة وان الإستراتيجية في أغسطس ١٥٤٨/ رجب ٩٥٥ . وإذا كان جيش طهماسب قد ظهر بعد عودة الجيش العثماني ، حيث راح يعتدي علي نواحي بحيرة وان ، إلا أن القوات العثمانية المتمركزة في تلك المناطق ألحقت به هزيمة شديدة بالقرب من كماه[٢٣٨] .

---

[238] بخصوص التجاء القاص ميرزا إلي الدولة العثمانية ومحاولة الدولة الإستفادة من ذلك بتجريد حملة علي إيران ، أنظر : J. R. Walsh, " The Recolt of Elkas Mırza", WZLM 68 (1976), s. 61-78; keza bk. Bekir Kütükoğlu, Osmanlı – İran Siyasi Münasebetleri, s. 79 vd.

فتوح بلاد الكرج : كانت تحركات الشاه طهماسب العسكرية في المنطقة قد دفعت السلطان الذي كان يقضي الشتاء في حلب للتحرك صوب دياربكر بجيشه في عام ١٥٤٩م/٩٥٦هـ . وكانت بلاد الكرج تقع علي الحدود العثمانية الإيرانية، ولذلك كان أمرائها يسلكون سياسة مزدوجه تميل أحياناً إلي العثمانيين وأحياناً أخري إلي الصفويين ، وذلك علاوة علي أنهم كانوا ينتهزون فرصة انشغال الدولة في حروبها الأوروبية والبحرية ويتعدون علي الحدود العثمانية من وقت لآخر . وهكذا ، قرر السلطان أثناء وجوده بدياربكر تأديب هؤلاء الكرج ، فأرسل إليهم وزيره قره أحمد باشا الذي استطاع خلال شهر ونصف من الحملات المستمرة في المنطقة فتح أكثر من عشرين قلعة علي رأسها قلعة طورطوم وأقچه قلعه ، حيث شكلت من هذه المنطقة إمارة سنجقية ، ثم قفلت الحملة عائدة إلي إستانبول.

وعقب عودة الجيش العثماني ، قام الشاه طهماسب باستعادة قلاع أرجيش وعادلجواز وبارگيري وأخلاط ، وذلك في الوقت الذي كان فيه ابنه إسماعيل ميرزا يقوم بالتعدي علي نواحي أرضروم ويحقق بعض الإنتصارات فيها . فلمّا وصلت هذه الأخبار لمركز الدولة قرر السلطان تجريد حملة جديدة علي إيران[٢٣٩] .

حملة سليمان الأخيرة علي إيران : لم يكن من المقرر خروج السلطان في هذه الحملة ، حيث عين عليها الصدر الأعظم رستم باشا ، إلا أن وصول الأنباء عن قيام بعض المؤيدين للشهزاده مصطفي بترويج الدعاية له بين جند اليكيجري ، جعل السلطان يخرج بنفسه علي رأس الجيش لغرض في نفسه (أغسطس ١٥٥٣/رمضان ٩٦٠) . والحقيقة ، كانت حلقات المكيدة التي أحيكت ضد مصطفي للحيلولة دون وصوله لكرسي العرش قد اكتملت ، حيث توقف السلطان في طريقه لحلب في قونية ، وأمر بقتل الشهزاده مصطفي بعد أن وصلته الأنباء بسعيه للسطو علي العرش . وإذا كان السلطان قد خرج من حلب قاصداً إيران في الربيع لمواجهة طهماسب ، إلا أن عدم

---

239 Fehmettin Kırzoğlu, Osmanlı Kafkas Ellerini Fethi (1451-1590), Ankara 1976, s. 183-203



خروج طهماسب للقاء السلطان ، يسر علي الجيش العثماني ضم مناطق نخجوان وأريوان (روان) وقره داغ .

معاهدة أماسيا بين القانوني وطهماسب : أثناء وجود السلطان سليمان في أرضروم ، أرسل إليه شاه إيران رسالة يدعوه فيها لعقد الصلح بين الطرفين . ولذلك ، قرر السلطان عودة الجيش العثماني في سبتمبر ١٥٥٤/ ذو القعدة ٩٦١ ، حيث توجه بعدها إلي أماسيا وأقام خيامه بها . وهناك عقدت مباحثات الهدنة بين سفراء طهماسب والسلطان سليمان ، ووقعت إتفاقية أماسيا التي أنهت ٣٧ عاما من الحروب بين الطرفين (٢٩ مايو ١٥٥٥/ ٨ رجب ٩٦٢) . وبموجب هذه الإتفاقية التي تعد الأولي من نوعها بين العثمانيين والصفويين ، بقيت أزربيجان ومركزها في تبريز ومنطقة شرقي الأناضول وعراق العرب تحت النفوذ العثماني . وقد استمر مفعول هذه المعاهدة خمسة وعشرين عاماً حتي وفاة طهماسب (١٥٧٦م/٩٨٤هـ)[٢٤٠] .

النشاط البحري العثماني في عهد القانوني

لقد كان سقوط دولة المماليك وضم أملاكها في مصر والشام والحجاز واليمن للأراضي العثمانية ، وتولي العثمانيين مسئولية القيادة في العالم الإسلامي ، واستمرار التعديات الأوروبية علي المسلمين في شمال أفريقيا وفي بلاد الهند وأندونيسيا ، من أهم الأسباب التي دفعت الدولة العثمانية للقيام بواجباتها الدفاعية عن المسلمين خلال عهد سليمان القانوني . فإذا كانت الدولة العثمانية قد استطاعت الحدّ من التعديات الأوروبية في البحر المتوسط عقب فتح رودس ١٥٢٢م/٩٢٨هـ، وفي البحر الأحمر بالسيطرة علي جدة ، إلا أن التطورات الدولية والأطماع الأوروبية قد دفعت بالدولة العثمانية

---

[240] بخصوص أول معاهدة تعقد بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية التي عرفت باسم " معاهدة آماسيا " ، أنظر : A. Ekber Diyanet, İlk Osmanlı – İran Anlaşması 1555, Amasya Mühahedesi, İstanbul 1971

للإضطلاع بمسئولياتها في حماية العالم الإسلامي عبر البحار وتأمين خطوط مواصــلاتها معه.

الصراع العثماني – الأوروبي في البحر المتوسط وشمال أفريقيا :

عقب سقوط إمارة بني الأحمر آخر معاقل المسلمين في الأندلس عام ١٤٩٢م/ ٨٩٧هـ ، أخذت القوات الأسبانية تتعقب المسلمين في شمال أفريقيا التي راحت ثغورها تتساقط الواحدة تلو الأخري ، وذلك في الوقت الذي عجزت فيه دولة المماليك والدولة العثمانية عن وقف هذا التريف . وهكذا ، ظهرت المقاومة المحلية في شمال أفريقيا ، حيث برز فيها شخصيات عديدة ياتي علي رأسها الأخوين عروج وخير الدين بربروس اللذين تمكنا من بسط نفوذهما علي الجزائر عام ١٥١٦م/ ٩٢٢هـ . إلا أنه عقب وفاة عروج بربروس عام ١٥١٨م/ ٩٢٤هـ، تعرض خير الدين بربروس لضغوط شديدة من قبــل أساطيل شارلكن ، الأمر الذي دفعه لطلب المساعدة من العثمانيين . ففي عام ١٥١٩م/ ٩٢٥هـ قام خير الدين بارسال وفد إلي السلطان سليم بصحبة أربــع ســفن محملــة بالأسري الأسبان مع بعض الهدايا ، فاستقبله السلطان استقبالاً حافلاً ، وأرسل معهم إلي خير الدين بربروس براءة الإمارة ، ونحو ثلاثة آلاف جندي ، علاوة علي الكــثير مــن لوازم بناء السفن واحتياجات الحروب ، وقرر له اللازم من جند الأناضول .

أثار دخول بربروس تحت الحماية العثمانية حكام تونس وتلمسان وجعلــهم يحرضون أهل الجزائر علي العصيان ، الأمر الذي أجبر خير الدين لمغــادرة الجزائــر إلي چيچل (١٥٢٤م/٩٣٠هـ) . وبعد ثلاث سنوات تمكن خير الدين من العودة للجزائر بعد هزيمة قائد العصاة ، حيث وطد أقدامه بها عقب فتحه لجزيرة " پنون " (أداقلعــة) التابعة للأسبان (١٥٣٠م/ ٩٣٦هـ) ، ونجاحه في التصدي لهجمات قائد الأسطول الأسباني أندريه دوريا ، واستئناف نشاطه في نقل المسلمين من سواحل أسبانيا إلي شمال افريقيا .

وكان نشاط أندريه دوريا في البحر المتوسط قد أشعر الدولة العثمانية الـتي كانت تحقق انتصارات عظيمة في الجبهات البرية شرقاً وغرباً بحاجتها الماسة لقائد فـذ يعكس مكانتها العالمية في البحار أيضاً . وبالفعل ، وقع اختيار سليمان القانوني علي خير الدين بربروس للقيام بهذا الدور ، حيث أرسل إليه بالحضور لإستانبول ، فوصل إليها في ١٥٣٣م/٩٤٠هـ. فلمّا التقي بالسلطان العثماني ، عينه أميرالاً علي جميع سفن الترسانة العثمانية برتبة أمير أمراء ، ثم قام الوزير الأعظم إبراهيم باشا الذي كان في حلب أنذاك كقائد لحملة إيران ، قام بتوجيه قبطانية غاليبولي مع إمارة أمراء الجزائر إليه ، ثم عـاد لإستانبول[٢٤١] .

بربروس قائداً للأسطول العثماني : خرج خير الدين بربـروس باشـا بالأسطول الهمايوني في أولي حملاته من استانبول في مايو ١٥٣٤/ ذو القعـدة ٩٤٠ . وفي الوقت الذي كان فيه السلطان سليمان في طريقه إلي إيران ، كان خير الدين باشا يتوجه بنحو ٨٠ قطعة بحرية إلي السواحل الإيطالية لمواجهة أندريه دوريا هناك. ولما لم يصادف خير الدين باشا أندريه دوريا ، قام بضرب سواحل جنوب أيطاليا ، ثم اتجه إلي الجزائر . وهناك علم باضطراب الأوضاع في تونس ، فخرج إليها ، وحاصر قلعتـها في حلق الواد ، حيث قام بابرار جنوده هناك ، ففر حاكمها مولاي حسن ، ودخلها خير الدين باشا منتصراً . وإذا كان مولاي حسن قد حاول عدة مرات استعادة تونس ، إلا أنه فشل ، الأمر الذي أجبره للإلتجاء إلي الإمبراطور شارلكن وطلب مساعدته[٢٤٢] .

---

241 Ercüment Kuran, "Osmanlı Döneminde Mağrib Tarihi", Osmanlı, I/398 vd.

242 بخصوص الفعاليات البحرية العثمانية خلال عهد خير الدين بربروس ، أنظر : Fahir İz, " Barbaros Hayreddin Paşa Gazavatnamesi Üzerinde Yeni Bir Araştırma", TDAY, Belleten 1972 (1989), s.81-92; Ersin Gülsay, " XVI-XVII Yüzyıllarda Akdeniz'de Osmanlı Hakimiyeti ", Türkler, Ankara 2002, IX/589-598; keza bk. Mıguela Angel De Bunes, "Kanunî, Barbaros Paşa ve V. Charles : Akdeniz Bünyasi", Osmanlı , I/ 392 vd.

وهكذا ، كلف شارلكن اندريه دوريا بقيادة اسطول يتشكل من ٥٠٠ سفينة لإحتلال تونس ، حيث تبعه الإمبراطور بنفسه ، وبعد حصار شديد لها ، اضطر خير الدين للتراجع والتخلي عن تونس ، حيث قامت قوات شارلكن باحتلالها في مايو ١٥٣٥/ ذي الحجة ٩٤١ . وبينما كان خير الدين باشا في طريقه لإستانبول ، وبالقرب من جزيرة ماريوكا ، تمكن من السيطرة علي سفن الأسري الذين نقلوا من تونس ، فحرر المسلمين ، وأسر الأسبان وأشعل النيران في السفن .

البندقية في التحالف الأوروبي : كانت البندقية تتبع سياسة مزدوجة تجاه العثمانيين ، ففي الوقت الذي حرصت فيه البندقية علي تحسين علاقتها معهم نظراً لمصالحها التجارية الحيوية الهامة في الأراضي العثمانية ، راحت تتفق سراً مع شارلكن ، وتقوم بالتعدي علي السفن العثمانية كلما سنحت لها الفرصة . وكان السبب وراء إعلان البنادقة للعداء هذه المرة يرجع لتحريض بابا روما بول الثالث الذي تمكن من إحداث تقارب بين شارلكن وملك فرنسا وتوقيع معاهدة سلام بينهما مدتها عشر سنوات ، وذلك في اطار سعيه لحشد القوي الأوروبية ضد العثمانيين . وهكذا ، كان توفيق والي البوسنة غازي خسرو بك في فتح جزيرتي صولين وكليس التابعتان للبنادقة محفزاً علي انضم البنادقة لهذا التحالف عام ١٥٣٧م/٩٤٣هـ .

تحرك الأسطول العثماني المكون من أكثر من ٤٠٠ قطعة بحرية تحت قيادة خير الدين بربروس أولاً إلي بحر الأدرياتيك ، حيث خرج السلطان سليمان في أثره متجهاً إلي ساحل أولونيا للقضاء علي حركة عصيان هناك (مايو ١٥٣٧/ ذي الحجة ٩٤٣) ، وأصدر أوامره للأسطول بضرب سواحل إيطاليا الشرقية ، وللوزير لطفي باشا بمحاصرة جزيرة قورفو التابعة للبنادقة . وبينما كان بربروس يحقق انتصارات مهمة بفتحه جزر شيرا وياتموص ، وناقصوص وغيرها ، رفع الحصار عن جزيرة قورفو لحلول الشتاء .

معركة بروزه (١٥٣٩م/ ٩٤٦هـ) : ولما علم خير الدين بربروس بأن أساطيل الحلفاء (أسبانيا ، البندقية ، البابوية ، والبرتغال) قد تجمعت عند جزيرة

قورفو، أخذ في تحصين بروه زه . فلما وصلت أساطيل الحلفاء إلي بروه زه ، فشلت في إبرار جنودها إلي الجزيرة . وإذا كانت المواجهة الأولي بين الطرفين قد فشلت بسبب هبوب الرياح الشديدة ، إلا أنه علي أثر إعلان بربروس النفير العام في الأسطول العثماني، راحت البحرية العثمانية تحت قيادة خير الدين بربروس تثبت كفاءتها في هذه المواجهة ، حيث أجبرت أندريه دوريا علي الفرار وترك بقية أساطيل الحلفاء تلقي الهزيمة المنكرة في المعركة (٢٨ سبتمبر ١٥٣٩/٥ جمادي الأولي ٩٤٦) . وهكذا ، شتت جيش الحلفاء وأسطوله ، وأستولي علي نحو ٣٦ قدرغة وفرقاطة ، وسقط في الأسر منهم نحو ألف فرد .

لقد حقق انتصار بروه زه سيطرة مطلقة للأساطيل العثمانية في البحر المتوسط، حيث ألحقت بالبندقية أضراراً مادية عظيمة ، و لم تتمكن من تحقيق أهدافها ، الأمر الذي أجبرها علي توقيع الصلح مع العثمانيين . وبموجب هذا الإتفاق تنازلت البندقية عن قلاعها الموجودة في سواحل المورة ودالماچيا والجزر التي قام بربروس بفتحها ، كما أجبرت علي دفع غرامة عسكرية تقدر بنحو ٣٠٠ ألف ذهبية[٢٤٣] .

محاولة شارلكن إحتلال الجزائر : لقد أحكم العثمانيون قبضتهم علي البحر المتوسط بعد معركة بروه زه ، فبينما كان السلطان سليمان يخرج علي رأس جيشه إلي بلاد المجر ، كان خير الدين بربروس يقوم بحماية سواحل الأدرياتيكي باسطوله . ولذلك ، حاول شارلكن الإستفادة من إنشغال الجيوش والأساطيل العثمانية ، وتعويض فشله في بروه زه ، فتوجه إلي الجزائر باسطوله وجنده سعياً لاحتلالها ، إلا أن المقاومة

---

243 فيما يتعلق بمعركة بروه زه وأثرها في سيطرة البحرية العثمانية علي مقدرات البحر المتوسط لفترة تتجاوز نصف قرن من الزمان ، أنظر : Afif Büyüktuğrul, " Preveze Deniz Muharebesine İlişkin Gerçekler" TTk Belleten, XXXVII/145(1973), s. 51-85; ayn. Mlf., "Preveze Muharebesine ilişkin Belgeler", Belleten,XLII/169,8(1978), s.629-665



الجزائرية ألحقت بقواته خسائر فادحة ، وأجبرته علي الإنسحاب بعد أربعة أشهر من المواجهات المستمرة (ديسمبر ١٥٤١/ رمضان ٩٤٨).

التعاون العثماني - الفرنسي : كانت فرنسا تتعرض لضغوط شديدة من البابوية سعياً لإنضمامها في حلف صليبي يشارك فيه شارلكن ضد العثمانيين ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه الحرب بين فرانسوا الأول وشارلكن لم تكن قد وضعت أوزارها بعد ، الأمر الذي أجبر فرنسا علي التعامل مع الدولة العثمانية بسياسة مزدوجة . وعلي الرغم من علم سليمان القانوني بتلك السياسة ، وافق علي تقديم المساعدات للأسطول الفرنسي الذي لم يكن في وضع يسمح له بمواجهة أساطيل الهابسبورج .

وهكذا ، خرج الأسطول العثماني (١٥٠ قدرغة ، و١٠ ماونه) في ربيع عام ١٥٤٣م/٩٥٠هـ تحت قيادة خير الدين بربروس إلي البحر المتوسط ، ووصل إلي نواحي رچيو بالقرب من نابولي ، حيث تمكن من فتحها ، ثم توجه إلي ميناء روما في اوستيا ، لإستيفاء احتياجات الأسطول ، ثم استأنف رحلته إلي مرسيليا التي وصلها في ٢٤ يونية ١٥٤٣/١٢ ربيع الأول ٩٥٠ . وبعد أن اُستقبل الأسطول العثماني استقبالاً رسمياً هناك ، قرر التوجه إلي مدينة نيس التي كانت في قبضة الدوق صاوا التابع لشارلكن . وبعد تضييق الحصار علي المدينة ، أعلنت حاميتها التسليم في ٢٠ أغسطس ١٥٤٣/ ١٠ جمادي الأولي ٩٥٠ ، ثم قضي الأسطول العثماني موسم الشتاء في ميناء طولون الفرنسي . وبينما كان بربروس في غربي البحر المتوسط ، قام بالإغارة علي سواحل أسبانيا ، وضرب جزيرة صاردونيا التابعة لشارلكن ، كما تمكنت القوات الفرنسية من الإستفادة من وجود الأسطول العثماني في المنطقة وحققت بعض النجاحات أيضاً . وأخيراً عاد بربروس إلي استانبول مصطحباً معه نحو ٤٠٠ من رجال التجديف الذين عملوا في الأسطول الفرنسي (١٥٤٤م/ ٩٥١هـ) .[٢٤٤]

---

[244] فيما يتعلق بالتعاون العثماني الفرنسي في الحوض الغربي للبحر المتوسط وأثره علي سيطرة العثمانيين على طرق البحار وتحقيق النفوذ المطلق في المنطقة خلال هذه الفترة ، أنظر : İsmail Soysal, " Türk – Fransiz Diplomasıı Münasebetlerinin İlk Devri

ضم طرابلس غرب للأراضي العثمانية : لم يمكث صقوللي محمد باشا في قبطانية البحر العثمانية بعد بربروس طويلاً ، حيث تولاها سنان باشا من بعـــده. وفي ربيع من عام ١٥٥١م/ ٩٥٨هـــ ، خرج الأسطول العثماني تحت قيادة سنان باشا صوب جزيرة مالطة التي كانت تُعد مركزاً لقراصنة أوروبا ، وبعد محاصرتها لفترة، رفع الحصار عنها واتجه إلي طرابلس غرب التي كانت في قبضة فرسان مالطة . وبعد محاصرة طرابلس غرب من البر والبحر لفترة ، سقطت في يد سنان باشا في ١٤ أغسطس ١٥٥١/٢ شعبان ٩٥٨.[٢٤٥]

حملات الأسطول العثماني غربي البحر المتوسط : خرج الأســـطول العثماني تحت قيادة القبطان سنان باشا في ربيع عام ١٥٥٢م/ ٩٥٩هـــ ، وذلك لمساعدة الأسطول الفرنسي للمرة الثانية . وصدر الأمر لطورغود رئيس بضرب سواحل سيجيليا حتي وصل إلي سواحل نابولي ، حيث نصب كميناً لأسطول أندريه دوريا الذي كـــان يتوجه إليها ، وأوقع به هزيمة شديدة فر علي أثرها إلي جزيرة صاردونيا . ولما لم يظهـــر الأسطول الفرنسي خلال ذلك عاد الأسطول العثماني إلي استانبول .

ولما تولي بيالة باشا قيادة البحرية العثمانية بعد سنان باشا ، خرج في ربيـــع ١٥٥٨م/ ٩٦٦هـــ في حملة جديدة إلي غربي البحر المتوسط ، حيث تمكن من فتح مدينة سيوداديلا ، وقام طورغود باشا بضرب السواحل الإيطالية حيث تمكن من فتح مدينـــة ريجيو ، وانتزاع أوراني علي الساحل الأفريقي من يد الأسبان ، الأمر الذي أحدث تقارباً

", Tarih Dergisi , sy. 3-4, 63-94 لم يخرج خير الدين بربروس في حملة أخري بعد عودته إلي استانبول ، حيث كانت الدولة قد عقدت معاهدة سلام مع فرديناند وشارلكن ، حيث توفي بعد سنتين (١٦ يوليه ١٥٤٦/٢ جمادي الأولي ٩٥٣) عن عمر يناهز الثمانين
Şerefeddin Turan, "Barbaros Hayreddin Paşa", DIA,V/65-67:

[245] قام الأسبان باحتلال طرابلس غرب عام ١٥١٠ ، ولما تمكن العثمانيون من انتزاع رودس ١٥٢٢م وانتقل فرسانها إلي جزيرة مالطة ، تنازل الأسبان عن طرابلس غرب لهم أيضاً في ١٥٣٠م :
Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/385

بين أسبانيا والباباوية والجمهوريات الإيطالية ، ومهّد لتشكيل تحالف جديد لمواجهة العثمانيين في البحر[246] .

معركة جربة (١٥٥٩م/ ٩٦٧هـ) : كان شارلكن قد تنازل عن الإمبراطورية لأخية فرديناند وعن أسبانيا لإبنه فيليب ، حيث سعي فيليب لعقد صلح مع فرنسا ، واتخذ التدابير لاستعادة إمارة أمراء طرابلس غرب التي عين عليها طورغود باشا . وكان طورغود يحاصر جربة سعياً لإنتزاعها من يد الأسبان . فلمّا وصل أسطول الحلفاء الذي تشكل من نحو ٢٠٠ قطعة بحرية ، انسحب طورغود إلي طرابلس غرب ، وأخبر مركز الدولة بالوضع . أستولي الحلفاء علي جربة وأسرعوا في تحصينها استعداداً لمواجهة الأسطول العثماني . وهكذا ، خرج پيالة باشا علي رأس الأسطول العثماني المكون من أكثر من ٢٠٠ قطعة بحرية . وبدأت مواجهة بين الطرفين ، أكد فيها الأسطول العثماني تفوقه ، وألحق بأسطول الحلفاء أكبر هزيمة بعد معركة بروه زه ، حيث أغرقت ٦٠ سفينة كبيرة ، وُقتل نحو ٢٠ ألف شخص ، وتمكن من الفرار نحو ١٧ سفينة فقط . وعقب المعركة ، شُدّد الحصار علي جربة ، حيث تم فتحها وإلحاقها بطرابلس غرب تحت قيادة طورغود باشا ، ثم عاد الأسطول العثماني إلي استانبول[247] .

حصار مالطة : لقد حرصت الدولة العثمانية خلال هذه المرحلة علي تأمين أملاكها في حوض البحر المتوسط وعلي سواحل ولاياتها المطلة عليه . وكانت جزيرة مالطة تمثل حجر عثرة لخطة الدولة الأمنية تلك ، الأمر الذي جعل فتحها والإستيلاء عليها ضرورة ملحة . وكانت أسبانيا تتحسب لعمل عسكري تقوم به الدولة علي مالطة ،

[246] Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/385 vd.

[247] لتفصيلات أكثر حول معركة جربة وأثرها في سيطرة العثمانيين علي حوض البحر المتوسط ، أنظر : Zekeriyazade, Ferah (Cerbe) Savaşı, sadeleştirme O. Ş. Gökyay, İstanbul 1980; keza bk. Meguel A. De Bunes İbarra, " Yavuz Sultan Selim ve Kanunî Sultan Süleyman Devirlerinde İspanya ve Osmanlı İmparatorlukları Arasında Deniz Savaşları ", Türkler, IX/599-607

فعملت علي تحصينها . وهكذا ، كان قيام بعض السفن الملطية بالإستيلاء علي سفينة عثمانية تحمل احتياجات السراي العثماني بينما كانت في طريقها إلي استانبول ، سبباً في إحياء رغبة الدولة في تجريد حملة علي جزيرة مالطا سعياً لفتحها .

صدر الأمر للأسطول العثماني للخروج لمحاصرة مالطة في ربيع ١٥٦٥م/ ٩٧٢هـ ، حيث كلف الوزير مصطفي باشا بقيادة القوات البرية وبيالة باشا بقيادة الأسطول الذي تشكل من ١٨٠ قطعة بحرية ، ثم التحق به أسطول طورغود باشا وصالح باشا ، فأصبح مجموع سفن الأسطول العثماني المعد للحصار أكثر من ٣٠٠ قطعة بحرية . وإذا كانت القوات العثمانية والأسطول قد باشرا حصار قلعة سنته لن ، حيث شُن هجوم عام علي القلعة وتم فتحها في ٢٤يونية ١٥٦٥/١٦ ذي القعدة ٩٧٢ ، إلا أن طورغود رئيس أصيب في المعركة ، حيث توفي متأثراً بجراحه ، ودفن في مسجده بطرابلس غرب . وعقب فتح قلعة سنته لن ، حوصرت مالطة ، غير أن اقتراب موسم الشتاء وقلة المؤن والزخائر ، ووصول المساعدات من فرنسا والباباوية وأسبانيا ، أجبر قائد الحملة علي رفع الحصار والعودة إلي استانبول دون إتمام الفتح[٢٤٨].

حملات الدولة في المحيط الهندي وبحر عمان :

عقب اكتشاف البرتغال طريق رأس الرجاء الصالح (١٤٩٨م/٩٠٣هـ)، راحوا يسيطرون علي طرق التجارة الشرقية ، حيث استطاعوا باستيلائهم علي جزيرة سوقطرة في مدخل البحر الأحمر وعلي مضيق هرمز في مدخل خليج البصرة (١٥١٥م/ ٩٢١هـ) ، استطاعوا قطع الطريق التجاري القديم علي سفن المسلمين . وكان حاكم گوجرات الهندي محمود خان قد طلب المساعدة من السلطان المملوكي قانصوه الغوري لمواجهة التعديات البرتغالية علي السواحل الهندية ، إلا أن الأسطول الذي أرسله الغوري

---

[248] فيما يتعلق بحصار مالطة ، أنظر : İ. Bostan-A. Gassola-T. Sheben, The 1565 Ottoman Malta Campaign Register, Malta 1998; keza bk. Ş. Turan, " Rodos'un Zaptından Malta Muhasarasına ", Kanunî Armağanı, Ankara 1970.

تحت قيادة حسين بك (١٥٠٨م/ ٩١٤هـ) لم يحقق النتيجة المرجوة بعد بعض المواجهات مع السفن البرتغالية في المنطقة ، كما عجز الأسطول الذي شكله الغوري لمواجهة تخريبات البرتغال في عدن والبحر الأحمر تحت قيادة سلمان رئيس ، عجز أيضاً عن التصدي للبرتغال في المنطقة .

ولما ورثت الدولة العثمانية أملاك المماليك وضمت البصرة وبغداد واليمن والحجاز ومصر ، أصبح اغلاق البرتغال لطريق التجارة القديم عبر البصرة والبحر الأحمر ضربة سياسية واقتصادية موجهة للدولة العثمانية . وفي عام ١٥٣٥م/٩٤١هـ، طلب سلطان گجرات بهادر شاه مساعدات عسكرية من السلطان سليمان لمواجهة اعتداءات البرتغال من البحر والمغول من البر . وهكذا ، تقرر تجريد حملة كبيرة صوب الهند ، حيث كُلف أمير أمراء مصر سليمان باشا الخادم باتمام انشاء الأسطول في ميناء السويس وقيادة هذه الحملة[٢٤٩] .

حملة الهند وفتح عدن : تحرك أسطول السويس المكون من ٧٦ قطعة بحرية والمشحون بنحو سبعة آلاف جندي في يونية ١٥٣٨/محرم ٩٤٥ تحت قيادة خادم سليمان باشا . والحقيقة أن سليمان باشا رأي أن ضم عدن التي تعد بوابة البحر الأحمر في بداية حملته إلي الهند سوف يُمكّن الدولة من السيطرة على البحر الأحمر ويوطد أقدامها في اليمن والحجاز ومصر . فقام بحيلة تمكن من خلالها من دعوة حاكم عدن من بني طاهر عامر بن داود ، ثم قام بالقبض عليه وتعيين برهام بك علي مدينة عدن ، ثم توجه إلي بلاد الهند .

وصلت المساعدات العثمانية والأسطول العثماني أمام جزيرة ديو بعد أن تمكن البرتغال من قتل حاكم گجرات بهادر خان وتعيين الشاه محمود الثالث تحت حمايتهم (١٥٣٧م/٩٤٤هـ) . وإذا كان سليمان باشا قد قام بإنزال المدافع الكبار وإبرار الجنود والشروع في محاصرة قلعة مدينة ديو ، وعلي الرغم من تمكن القوات العثمانية من فتح

---

[249] Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/391-395

عدد من أبراج قلعة المدينة ، إلا أنها صمدت أمام الهجوم الشديد الذي استمر عشرين يوماً، الأمر الذي أجبر سليمان باشا علي التراجع عن الحصار والعودة ، بعد أن علم أن الأسطول البرتغالي يتوجه إلي الجزيرة[٢٥٠] .

إلحاق بلاد اليمن بالأراضي العثمانية : عقب ضم الشام ومصر للأملاك العثمانية ، أعلن مماليك اليمن الاعتراف بالحكم العثماني . وفي عام ١٥٢٤م/٩٣٠هـ ، قام سلمان رئيس بإدخالها تحت الإدارة العثمانية ، حيث تمكن مع حسين بك من انتزاع جزيرة قومران من البرتغال . وهكذا ، وصل أسطول السويس تحت قيادة خادم سليمان باشا ، بينما كانت إدارة اليمن تحت إدارة حسين بك . ولما عاد الأسطول من حملة الهند إلي ميناء موخا ، قام سليمان باشا بدعوة أمير زبيد للقائه ، إلا أنه احتاط ولم يستجب لهذه الدعوة ، فقام سليمان باشا بإبرار جنوده إلي الساحل ، حيث ألحق الهزيمة بأمير زبيد وضم بلاده في ٩ مارس ١٥٣٩/ ٩ شوال ٩٤٥ .

عقب سقوط زبيد ، بدأ العثمانيون بضم بقية بلاد اليمن ، حيث تمكن أمير زبيد أويس باشا من الإستفادة من الإختلافات بين الأسرات الزبيدية ، واستولى على تعز إثر دعمه الأمير مطهر بن شرف الدين (١٥٤٥م/ ٩٥١هـ) . وبعد مقتل أويس باشا في حركة عصيان ، عين علي إمارة أمراء اليمن فرهاد باشا . وكما قام أوزدمير باشا الذي وصل لليمن مع حملة خادم سليمان باشا بالإستيلاء علي صنعاء ، استطاع أمير أمراء اليمن فرهاد باشا توطيد الحكم العثماني في عدن والجبل وتهامة ، ومصطفي باشا تأمين حالة الإستقرار في البلاد حتي نهاية عهد سليمان القانوني . وفي عام ١٥٦٧م/٩٧٥هـ ، خرج أحد أئمة الزيديين في حركة عصيان ، حيث قام بقتل أمير أمراء اليمن مراد باشا ، ثم سيطر علي صنعاء وعدن وغيرها من مدن اليمن . وهكذا ، صدرت الأوامر لعثمان باشا

---

250 Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/394

بن أوزدمير ولقبطان السويس قورد أوغلي خضر رئيس بالخروج لليمن لمواجهة **العصاة** ، واستعادة سلطة الدولة في البلاد[٢٥١] .

تشكيل إمارة أمراء الحبش : عند عودته من اليمن (١٥٣٩م/٩٤٥هـ) ، قام سليمان باشا الخادم بإنزال جنده في ميناء القصير علي البحر **الأحمر** . وهناك كلف الأمير المملوكي أوزدمير باشا باستطلاع المنطقة ، حيث وفق في استمالة بعض العشائر العربية . توجه أوزدمير باشا بعد ذلك صوب إبريم ، وسيطر على قلعتها، ثم على قلعة درر ومدينتي مغراق وساي ، ثم أنشأ قلعة عند ساي لحماية الحدود الجنوبية للدولة . وإذا كان أوزدمير باشا قد زحف بقواته علي ممتلكات دولة الفونج في بلاد الحبش ، لم يتيسر لقواته إلا السيطرة علي ميناء سواكن الإستراتيجي علي البحر الأحمر والمناطق المحيطة به . وهكذا ، شكلت في عام ١٥٥٤م/٩٦١هـ من هذه المنطقة إمارة سنجقية ، وألحقت بإيالة مصر . ونظراً لأهميتها الإستراتيجية علي البحر الأحمر ، شكل في العام التالي من سواكن ومصوّع والمناطق المحيطة بها إمارة أمراء مستقلة (١٥٥٥م/٩٦٢هـ)[٢٥٢] .

المواجهات العثمانية – البرتغالية في البحر الأحمر والمحيط الهندي : استمرت المواجهات العثمانية – البرتغالية عقب عودة حملة سليمان باشا إلي مصر . فقد استطاع الأسطول البرتغالي دخول البحر الأحمر وحاولوا التعدي علي بندر

---

251 لتفصيلات أكثر حول دخول بلاد اليمن تحت الإدارة العثمانية المباشرة ، أنظر : **İhsan** Süreya Sırma, " Yemen'in Jeo-politik Durumu ve Osmanlı Devletine Katılması ", Tarih Enstitüsü Dergisi, sy.12, 427-444; keza bk.Hulusı Yavuz, Kabe ve Haremeyn için Yemen'de Osmanlı Hakimiyeti 1517-1571, İstanbul 1984

252 بخصوص دخول بلاد الحبش في ظل الحكم العثماني ، وأثر ذلك في السيطرة علي بوابة البحر الأحمر وحركة التجارة الشرقية والتصدي لحصار البرتغال وتعدياتهم ، أنظر : Cengiz Orhunlu, Habeş Eyaleti, İstanbul 1974, 23-30; ayn. Mlf. "XVI. Asrın Ilk yarısında Kızıldeniz Sahillernde Osmanlılar", Tarih Dergisi, XVI (1962), 1-10;

جدة واحتلال ترسانة السويس وإحراق الأسطول هناك . إذا كانت محاولتهم هذه قد باءت بالفشل ، إلا أنهم استطاعوا إشعال النيران في منطقة طور سيناء (١٥٤٣م/٩٥٠هـ). وخلال هذه الفترة تمكن البرتغال من احتلال عدن لمدة قصيرة تقديراً لأهميتها ، إلا أن قبطان السويس پيري باشا استطاع حصار قلعتها وميناءها واستعادتها ثانية . وفي عام ١٥٥١م/ ٩٥٨هـ ، خرج پيري رئيس باسطول السويس لتوطيد الأمن في المنطقة ، فمر بجدة ثم بساحل عمان ، حيث سيطر علي مسقط جنوب شرق جزيرة العرب . وبينما كان اسطول السويس بالمنطقة التقي باسطول البرتغال ، وألحق بها الهزيمة ، ثم تعقبه حتي قلعة هرمز ، حيث قام بحصارها . وإذا كان پيري رئيس قد أسرع بمحاصرة قلعة هرمز ، وطلب المساعدة من والي البصرة ، إلا أنه قام بزفع الحصار لما علم بوصول الإمدادات للبرتغال ، حيث ترك سفن الأسطول العثماني هناك وفر إلي مصر بثلاث سفن، حيث أعدم هناك (١٥٥٣م/٩٦٠هـ).

عين سيدي علي رئيس قبطاناً علي أسطول السويس ، حيث أُمر بإعادة الاسطول من خليج البصرة (١٥٥٣م/٩٦٠هـ) . فلمّا وصل وسار بالأسطول إلى سواحل عمان ، واجه اسطولاً للبرتغال تمكن من هزيمته ، وبالقرب من مسقط التقي باسطول برتغالي آخر علم أنه لن يتمكن من مواجهته في المحيط ، حيث أرسي سفنه علي الساحل ، وبدأت معركة شرسة بين الطرفين استمرت حتي أعيت كلا المتحاربين فافترقا ، حيث عصفت الرياح الشديدة ببقية مراكب أسطول السويس ، فوصل إلى ديو وگجرات وصورات في حالة سيئة لا تصلح للحرب . وهكذا ، ترك سيدي علي رئيس ما بقي من سفن وتجهيزات حربية لدي سلطان گجرات في ميناء صورات ، وعاد براً إلي استانبول ، حيث وصلها في ١٥٥٦م/ ٩٦٣هـ[٢٥٣] .

---

[253] حول حملات الدولة التي قادها كل من بيري رئيس وسيدي علي رئيس في البحار الشرقية ، ونتائجها المتواضعة ، أنظر : C. Orhunlu, “Hind Kaptanlığı ve Piri Reis”, Belleten, XXXIV/134 (1970), s.235-254; ayn. Mlf., “ Seyidi Ali Reis”, Tarih Enstitüsü Dergisi, I, 1970, s39-56; keza bk.

كان البرتغال قد سيطروا علي الكثير من جزر المحيط الهندي ، وكان حاكم أقليم آچي السلطان علاء الدين يسيطر علي شبه جزيرة ملاكة وجزيرة سومطرة . ولما شعر السلطان علاء الدين بأطماع البرتغال في بلاده أرسل سفيراً إلي استانبول يطلب مساعدته ومده بالمدافع والبنادق والجنود ، حيث أخبر بأن البرتغال يحاربون حكام المسلمين في سيلان وكلكتا (١٥٦٥م/ ٩٧٢هـ) . وكان السفير قد وصل استانبول بينما كان السلطان سليمان القانوني يهم بالخروج إلى حملة سيگتوار التي توفي بها . وإذا كانت الدولة العثمانية قد وافقت علي تقديم المساعدات اللازمة ، حيث صدر الأمر لقبطان السويس قورد أوغلي خضر رئيس بإيصالها في عشرين سفينه، فقد حالت حركة عصيان الإمام الزيدي المطهر التي اشتعلت في بلاد اليمن دون وصول هذه الإمدادت إلي سلطان آچي ، حيث أمر خضر بك بمساعدة سردار اليمن سنان باشا في انهاء حركة العصيان تلك ، وإعادة فتح بلاد اليمن ، وأرسلت الإحتياجات إلي حاكم آچي بالسفن فيما بعد[٢٥٤] .

الصراع بين أبناء سليمان القانوني علي ولاية العهد : لقد أيقظ تقدم سليمان القانوني في السن وعدم وجود قاعدة أو قانون لوراثة العرش في الدولة ، أيقظ مشكلة صراع الأشقاء علي العرش ثانية . فقد كان لسليمان أربعة أبناء سليم وبايزيد وجهانگير وأكبرهم مصطفي . وكان الشهزاده مصطفي أكثر أبناء القانوني شبهاً به ، وكان قد حصّل تعليماً عالياً ، وكان محبباً سواء لجند اليكيجري أو لرجال الدولة والعلماء نظراً لخلقه وفضله وكماله وشجاعته . والحقيقة أنه إذا كان الشهزاده مصطفي يُعد الأمير الأنسب لتولي منصب السلطنة من بين أبناء القانوني ، إلا أن زوجة السلطان

Salih Özbaran, " Osmanlı İmparatorluğu ve Hindistan Yolu", Tarih Dergisi, XXXI/131-141

[254] فيما يتعلق برسالة حاكم اقليم آچي للسلطان سليمان القانوني طلباً للمساعدات لمواجهة هجمات البرتغال علي بلاده ، أنظر : Razanhak Şah, " Açe Padişah Sultan Ala'eddin'in Kanuni Sultan Süleyman'a Mektubu ", Tarih Araştırmaları Dergisi, c.V/8-9, (1967), 372-409.

روكسلانه (خرم سلطان) التي كان للسلطان منها أربعة أبناء هـــم ســـليم وبايزيـــد وجهانگير ومحمد ، كانت تميل إلي بايزيد وتسعي بكل طريق لجعله يلي السلطنة بعد أبيه سليمان . وحتي يمكنها تحقيق هذا الأمر كان عليها أولاً التخلص من الـــوزير الأعظـــم إبراهيم باشا الذي كان يؤيد الشهزاده مصطفي ، ثم إزاحة الشهزاده مصطفي من أمـــام إبنها بايزيد[٢٥٥] .

وهكذا ، قامت خرم سلطان بالتخلص من الوزير الأعظم إبراهيم باشا أولاً ، ثم بدأت أولي خطوات مسلسل التخلص من المرشح الأول لعرش الســـلطنة الشـــهزادة مصطفي ، حيث طلبت من السلطان نقله إلي ولاية بعيدة عن استانبول ، حيث نقل إلي ولاية قونية ، ونقلت ابنها بايزيد إلي كوتاهية ، ثم قام زوج ابنتها الوزير الأعظم رســـتم باشا الذي عين محل إبراهيم باشا بدور هام في السعي للتخلص من الشهزاده مصـــطفي ، وذلك بتزوير مراسلات بينه وبين شاه إيران طهماسب .

ولما كان السلطان سليمان قد أصابه المرض خلال هذه الفترة ، فقـــد قـــام بتكليف قره أحمد باشا بالخروج إلي أردل ، وتكليف الوزير الأعظم رستم باشا بالخروج للحملة علي إيران . فلما خرج رستم باشا بالحملة ، ووصل إلي أق سراي روّج اشـــاعة بأن جند اليكيجري يطالبون باقالة السلطان لأنه لا يستطيع الخروج للحملات لتقدمه في السن ، وأنهم يريدون الشهزاده سلطاناً عليهم ، ثم أرسل شمسي أحمد باشا أغا الســـباهية ورئيس الچاوشية بهذه الإشاعة إلي استانبول ، وطلب من السلطان الخروج علي رأس هذه الحملة وانتظره في آق سراي . وهكذا ، استدعي رستم باشا للعودة في أواخر أغســـطس ١٥٥٣/ رمضان ٩٦٠ ، وخرج بنفسه للحملة. فما أن وصل السلطان إلي منزل آق تبه حتي لحق بالجيش الشهزاده مصطفي الذي طُلب منه الخروج للحملة أيضاً . وبينما كان

---

[255] F. Emecen, " İbrahim Paşa Makbul ", DİA., XXI/333-335; : keza bk. İ. Rierce, Harem-i Hümayûn, Osmanlı İmparatorluğunda Hükümranlık ve Kadınlar, terc. A. Berktay, s.85 vd.

من العادة دخول الشهزاده مصطفي لخيمة أبيه لتقبيل يده ، إلا أنه لم يجد السلطان بالخيمة السلطانية ، ووجد بها سبعة من الجلادين أسرعوا بالإحاطة به وخنقوه . وما أن وصل السلطان إلي مشتاه في حلب حتي توفي إبنه الثاني جهانگير متأثراً بحادثة مقتل أخيه الشهزاده مصطفي[٢٥٦] .

وعقب مقتل الشهزاده مصطفي بقي لسليمان ابنين هما : سليم وبايزيد. وإذا كانت خُرَّم سلطان تحب بايزيد أكثر ، فقد كان رجال الدولة أيضاً أكثر انجذاباً له بعد مصطفي نظراً لتميزه عن أخيه سليم ، الأمر الذي جعل من حكم المؤكد أن الشهزاده بايزيد هو الذي سيخلف سليمان القانوني . وعلي الرغم من ذلك ، فقد استطاعت خرم سلطان المحافظة علي حالة الوئام بين ابنيها حتي وفاتها (١٥٥٨م/٩٦٥هـ) ، حيث بدأ الخلاف ينشب بين الأخوين بعد وفاتها سعياً للإستئثار بمقام السلطنة . وهكذا ، حاول السلطان الحيلولة دون نشوب مشاجرة بين الأخوين فنقل سليم إلي قونية ، ونقل بايزيد إلي أماسيا ، كما كلف الوزيران صقوللي محمد باشا وبرتو باشا بنصح الأخوين ، حتي أن السلطان هددهما بنقل مقام السلطنة إلي إبن أخيه إذا لم يقلعوا عن النزاع .

كانت خُرّم سلطان قبل وفاتها قد استطاعت إعادة رستم باشا إلي منصب الصدارة مرة أخري عام ١٥٥٥م/ ٩٦٢هـ ، وكان لالا مصطفي باشا المرافق للشهزاده سليم يتخذ موقفاً ضد رستم باشا الذي كان يؤيد بايزيد . وكان لالا مصطفي باشا من مؤيدي بايزيد في البداية ، الأمر الذي جعل بايزيد يأمن جانبه ، وجعل لالا مصطفي باشا يلعب دوراً مؤثراً في تعميق الخلافات بين الأشقاء . فقام بتحرير خطابات إلي بايزيد لإغفاله ، ثم راح يرسل ردوده إلي السلطان مباشرة مظهراً بايزيد أنه في حالة عصيان . فكما قام رجال لالا مصطفي باشا بالقبض علي حاملي رسائل السلطان إلي بايزيد والتي

---

[256] حول دور الوزير الأعظم رستم باشا في عملية الاطاحة بالشهزادة مصطفي بن سليمان ، أنظر :
T. Gökbilgin, " Rüstem Paşa ve Hakkındaki İtihamlar ", TD.VIII/11-12 (1956), s. 38

كانت تنصحه بعدم الشقاق والفوز بدعاء السلطان ، سقطت في يد لالا مصطفي باشا أيضاً العرائض التي كان يرفعها بايزيد للإعتذار لأبيه.

وهكذا ، أعلن أن بايزيد عاصياً للسلطان ، حيث جُرِّدت عليه حملة تحت قيادة صقوللي محمد باشا . وإذا كان بايزيد قد انتصر في المواجهة الأولي بين الطرفين، إلا أنه هزم بعد ذلك وفر إلي أماسيا . ولما عجز بايزيد عن الاتصال بأبيه سليمان القانوني ليحيطه علماً بحقيقة الأمر ، أخذ أبنائه الأربعة وخرج مع نحو ألف من أتباعه قاصداً إيران. والحقيقة أن بايزيد تمكن من الحاق الهزيمة بمن تعقبوه حتي دخل الأراضي الإيرانية ، حيث إلتجأ إلي والي روان شاه قولي سلطان في ٢١يناير ١٥٦٠/ ١٣ ربيع الآخرة ٩٦٧ . وعلي أثر اصرار سليمان القانوني علي طلب بايزيد وأبنائه من طهماسب ، وارساله الهدايا والأموال مع وفد كبير ، تم تسليم بايزيد وأبنائه الأربعة للوفد الذي كان لديه أوامر بقتلهم ونقلهم إلي مقابرهم في سيواس (١٥٦١م/ ٩٦٩هـ) . وهكذا ، أنفرد الشهزاده سليم بولاية العهد بعد السلطان سليمان القانوني المريض والمتقدم في العمر[٢٥٧].

حملة القانوني الأخيرة صوب المجر ووفاته :

كانت النمسا قد عقدت معاهدة مع الدولة مدتها ثمان سنوات ، وذلك عام ١٥٦٢م/ ٩٧٠هـ . وبعد مرور عامين من توقيعها مات فرديناند ، حيث حل محله إبنه ماكسيميليان الذي وافق علي تجديد المعاهدة ودفع المبالغ المتأخرة من الخراج عن الأراضي المجرية الموجودة تحت سيطرة النمسا . وفي هذه الأثناء قام أمير أردل سيجسموند الواقع تحت الحماية العثمانية بالتعدي علي الأراضي النمساوية واحتلال مدينة چاتمار . وفي الوقت الذي اشتكي فيه الإمبراطور الجديد للحكومة العثمانية من تصرف أمير أردل ، قام

---

[257] بخصوص اشتعال الصراع بين ابني روكسلانه (خرم سلطان) بعد وفاتها ، وتأييد بعض رجال الدولة طرف ضد الآخر ، في حلقة جديدة من حلقات الصراع علي العرش ، أنظر : Ş. Turan, Kanuni'nin Oğlu Şehzade Bayezid Vakası, Ankara 1961; ayn. Mlf., "Şehzade Beyazid'in Babası Kanunî Sultan Süleyman'a gönderdiği Mektupler", Tarih Vesikaları,I/16 (1955), 118-127

بتجاوز حدود أردل واحتلال توقاي وسره نج . ولما توفي الوزير الأعظم سميز علي باشا الذي لم يكن يميل إلي الخروج لحرب جديدة ، وتولي صقوللي محمد باشا الـــذي يؤيـــد الحرب ، أعلنت الحرب علي النمسا في آخر إبريل ١٥٦٦/ ٩ شوال ٩٧٣ .

كان الوزير الأعظم صقوللي محمد باشا قد رجح خروج السلطان بنفسه علي رأس هذه الحملة ، وذلك لتلافي التأثير السيئ لأخفاق الدولة في حملة مالطة . أما السلطان سليمان فكان قد تقدم به العمر وأصيب بالعديد من الأمراض ، وذلك علاوة علي تأثره كثيراً بفقد أبنيه الشهزاده مصطفي والشهزاده جهانگير في حملة إيران الأخيرة . وبالفعل ، تقرر خروج السلطان ، حيث تحرك الوزير الثاني برتو باشا قبل السلطان علي رأس فرق القابو قولي بنحو شهرين ، والتقي بقوات الأفلاق والبغدان والقـــرم وســـپاهية ويـــدين وسمندره ، حيث توجه الجيش صوب الحدود النمساوية من جهة أردل لتنفيـــذ الأوامـــر السلطانية بالإستيلاء علي گوله، واستعادة قلاع چانمار وتوقاي . فلمّا وصـــل الجـــيش الهمايوني تحت قيادة السلطان سليمان القانوني عن طريق بلجراد ، استقبله في صـــحراء زامون أمير اردل الذي لحق بعد ذلك بالجيش الذي يقوده برتو باشا .

فتح سگتوار : وفي الوقت الذي كانت فيه الحملة تتجه صوب أكـــري ، وصلت الأخبار بأن أمير سيگتوار الكونت زريني (زرينسكي مولقوش) قد تمكن من قتل أمير سنجق ترحالة وإبنه في شيكلوش ، حيث غيرت الحملة وجهتها إلي قلعة ســـيكت غربي بلاد المجر . وهكذا ، حوصرت قلعة سيگتوار في ٥ أغســـطس ١٥٦٦/ ٩ محـــرم ٩٧٤، وبعد ٣٤ يوماً من الحصار الشديد ، تمكنت المدفعية العثمانية من هـــدم أســـوار المدينة ، فانسحب المدافعون إلي القلعة بعد أن اضطروا لحرق المدينة . لم تصمد القلعـــة طويلاً حيث استسلمت حاميتها بعد أن سقوط زريني بين القتلي في يوم السبت ٧ سيتمبر ١٥٦٦/ ٢١صفر ٩٧٤ . ومن ناحية أخري ، كانت القوات التي أرسلت بصحبة برتو

باشا قد استطاعت فتح قلاع گوله ويانوا ولوگوس وغيرها علي الحدود بين أردل والنمسا[٢٥٨] .

وفاة سليمان القانوني : بينما كان الهجوم مستمراً علي قلعة سيگتوار، وفي ساعة متأخرة من الليلة السابقة للفتح توفي السلطان سليمان (٦ سبتمبر ١٥٦٦ / ٢٠ صفر ٩٧٤) عن عمر يناهز ٧٣ عاماً . ونظراً لخطورة إعلان خبر وفات السلطان ، أخفي الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا الخبر حتي عن وزراء الدولة في البداية ، وقام سرّاً بارسال خطاب مع أحد چاوشية الديوان إلي الشهزاده سليم والي كوتاهية طلب منه فيه اللحاق بالجيش بسرعة . وبعد ذلك قام الوزير الأعظم باعلام وزراء الدولة بوفاة السلطان، وأمر جعفر أغا الذي كان خطه يشبه خط السلطان بتحرير بعض الخطوط الهمايونية حتي يشعر جند القابو قولي (خدم الباب) بوجود السلطان علي قيد الحياة ، ثم قام بجمع نحو ١٢ ممن عرف بوفاة السلطان ، وأقاموا صلاة الجنازة علي جثمانه ، ثم أخفوه في خيمته .

وهكذا ، قام صقوللي محمد باشا بإرسال رسائل الفتح إلي مختلف البلدان، وأمر باصلاح القلعة وشحنها بالجنود والعتاد ، ووفقاً للعادة العثمانية أمر بتحويل كنيسة سيگتوار إلي جامع ، وقرأت قصيدة المولد في الخيمة السلطانية ، وأعلن انعقاد الديوان الهمايوني وكأن السلطان سليمان مازال علي قيد الحياة . بقي الجيش الهمايوني في سيگتوار حتي مجئ خبر وصول السلطان الجديد إلي بلجراد ، حتي إذا وصل الجيش إلي بلجراد كان خبر وفاة السلطان سليمان قد انتشر وصار في حكم المؤكد .

*　　*　　*

ومهما يكن من أمر ، فإنه يمكن القول بأن ما أطلق عليه اسم "العهد الذهبي" للدولة العثمانية والذي استغرق نحو ٤٦ عاماً يكون قد وصل إلى نهايته بوفاة السلطان

---

[258] بخصوص آخر حملات السلطان سليمان القانوني في سيكتوار ، أنظر : T. Gökbilgin, "Kanunî Süleyman'ın 1566 Sigetvar Sebepleri ve Hazırlıkarı", Tarih Dergisi, XVI/21 (1966), 1-14

سليمان القانوني . ومنذ ذلك الوقت ، أصبح عهد السلطان سليمان القانوني هو النموذج التي راحت تسعي الدولة بكل أجهزتها خلال مراحل تطورها التالية للوصول إليه مرة ثانية حتي يمكن للدولة أن تعود لسابق عزها وقديم مجدها .

لقد ترك سليمان القانوني لإبنه سليم الثاني إمبراطورية مترامية الأطراف تمدت من حدود موسكو وترانسلفانيا وقفقاسيا شمالاً وحتي بلاد الحبش والمحيط الهندي وشمال أفريقيا جنوباً ، ومن حدود آذربيجان والخليج الفارسي شرقاً وحتى أبواب فيينا وبلاد المغرب غرباً . وترك مع هذه الحدود الشاسعة والأجناس المتباينة والأديان المتعددة واللغات المختلفة مشكلات بنفس هذا الإتساع والتنوع والاختلاف .

وإذا كان سليمان القانوني صاحب الصفات الفذة قد نجح في حمل تبعات هذا الصرح العظيم باقتدار على مدي ما يقرب من نصف قرن من الزمان ، حيث ملأ مقام السلطنة كسلطان عالمي " جهانكير " خلال فترة حكمه فعرف بسليمان العظيم، ووضع الملامح الثابتة والدائمة لقواعد الملك ومؤسسات الإمبراطورية وتشكيلاتها فاطلق عليه السلطان سليمان القانوني ، وختم بذلك سلسة السلاطين العثمانيين العظام ييلدرم بايزيد ومحمد الفاتح وسليم الأول ، فإن شخصية وارث العرش العثماني سليم بن سليمان لم تكن على نفس النموذج الفذ الذي يمكنه حمل أعباء إمبراطورية مترامية الأطراف .

والحقيقة أن سليمان لم ينجح في بناء سياسة الدولة العثمانية الداخلية والخارجية فحسب ، وانما أمكن له خلال فترة حكمه الطويلة أن يربي جيلاً رائداً من القادة الأفذاذ والإداريين الخبراء ، شاركوه هذا الإنجاز العظيم ، وحملوا العبئ الثقيل من بعده ، وحافظوا علي كيان الدولة ومؤسساتها ونظمها والأعراف التي قامت عليها، وراحوا يقاومون عوامل الخلل التي بدأت تسري في كيان الدولة . وهكذا ، أصبح الجيل الذي نشأ في عهد القانوني حارساً أميناً علي انجازات هذا العصر لفترة طويلة من الزمان .

وإذا كان القرن ١٦م/١٠هـ قد شهد تغييرات عالمية كبري في الشرق والغرب ، إلا أن القوة الدافعة لفتوحات الدولة العثمانية وانجازاتها السياسية والعسكرية

وقوتها الإقتصادية واكتفائها الذاتي جعلها في منأي عن التأثير السلبي لهذه التحولات خلال عهدي سليم الأول وسليمان القانوني . ولما كان البناء الهرمي للدولة العثمانية قد جعل السلطان العثماني يمثل قمّة السلطة التشريعية والتنفيذية في الدولة ، فقد تمكن سليم وإبنه سليمان من الخروج من هذه الإزمات العالمية بمكاسب عظيمة ضاعفت مساحة الدولة وزادت من امكاناتها وقدراتها . غير أن الحلقة الأخيرة من حلقات الصراع علي عرش الدولة التي وقعت في أواخر عهد سليمان راحت تتمخض عن انفراد أقل أبناء سليمان قدرة علي حمل هذه الأعباء الثقيلة فضلاً عن الدفع بانجازات الدولة إلى الأمام .

وهكذا ، يعتبر فوز سليم الثاني بالعرش بعد سليمان بداية لمرحلة تحول كبري تعرضت لها الدولة العثمانية منذ وفاة القانوني ، راح يزيد أثرها في انحاء الدولة بالتدرج حتي أواخر القرن ١٦م/١٠م . والحقيقة أنه علي الرغم من أن سليم الثاني لم يكن من هؤلاء السلاطين الأفذاذ ، فإن قادة وإداريي عصر سليمان القانوني راحوا يقبضون علي مقاليد البلاد ، وأخذوا يديرونها وفقاً لأعراف عهد القانوني ، ويحافظون علي انجازات ومكاسب الدولة خلال عهدي سليم الثاني ومراد الثالث باقتدار ، فقاموا بإدارة شئون البلاد في الوقت الذي عزف فيه السلاطين سليم ومراد ومن بعدهم محمد الثالث عن مباشرة مسئولياتهم الإدارية ، وقادوا الجيوش في ميادين القتال بينما كان هؤلاء السلاطين قابعين وراء أسوار السراي العثماني ، وحافظوا على أعراف الدولة وقوانينها في حين لم يلق سلاطين هذه الحقبة بالاً أو حرمة لنظمها الراسخة . ومنذ ذلك الحين ، أصبحت مراحل تطور الدولة العثمانية التي ارتبطت منذ البداية بعهد السلطان وانجازاته ، أصبحت ترتبط بمؤثرات فاعلة في الداخل وفي الخارج .

وهكذا ، وعلي أثر تنازل هذه الفئة من السلاطين الضعاف عن سلطاتهم بالتدريج ، بدأ رجال الدولة وقواد الجيوش والولاة ونساء وأغوات السراي يتنازعون هذه السلطات ، وبدأت الإمبراطورية العثمانية تشهد تغييرات عميقة وشاملة سواء في المجتمع العثماني أو في مؤسسات الدولة ، ومن ثم راحت تتأثر بالمتغيرات العالمية من حولها .

ويمثل عهدي سليم الثاني ومراد الثالث المرحلة الإنتقالية التي شهدهما الدولة في رحلتها من الإزدهار إلي الضعف . وخلال هذه المرحلة ، لم تتوقـــف الفتوحـــات ، ولم تضطرب الإدارة ، ولم ينل أحد في الداخل أو في الخارج من سلطة الدولـــة . ولكـــن، فقدت الدولة خلالها السلطان صاحب السلطة العليا والكلمة الحاسمة الأخيرة في المواقف الصعبة وضامن وحدة مؤسساتها ، ومن ثم فتح الباب لمرحلة جديدة من مراحل تطـــور الدولة الدولة العثمانية .



بداية طريق العودة من القمة

عهد سليم الثاني

(١٥٦٦-١٥٧٤م/ ٩٧٤-٩٨٢هـ)

كان سليم الثاني قد انفرد بعرش السلطنة عقب فرار أخية بايزيد ومقتلــه. فلما بلغه خبر وفاة أبيه توجه الشهزاده سليم من كوتاهية إلي استانبول ، حيث جلس على عرش السلطنة في ٢٤ سبتمبر ١٥٦٦/سلخ صفر ٩٧٤ . وبينما كان السلطان الجديــد يسرع إلي بلجراد ، كان الجيش العائد من حملة سيگتوار قد وصل مع جثمان الســلطان سليمان إليها . وهكذا ، عاد السلطان الجديد بجثمان القانوني إلي استانبول في ظل حزن عام شمل كافة أرجاء الدولة ، حيث أقيمت الصلاة عليه في مسجد السليمانية ودفــن في تربته[٢٥٩] .

السلطان سليم الثاني ومشكلة إنعام الجلوس : لم يكد ســليم يتــولي الحكم حتي وُضِع على المحك أمام طلبات جنود الباب السلطاني . وكانت طائفة جنــد الباب قد حُرمت من أخذ " إنعام الجلوس " وفقاً للعادة العثمانية طول فترة حكم السلطان سليمان الطويلة . وفي الوقت الذي كان فيه جند الباب السلطاني يتطلعون إلى هذا العطاء بحرص شديد ، أعلن الوزير الأعظم صقوللي محمد باشا أنه ليس هناك أموال كافيــة في الخزينة لدفع إنعام الجلوس ، وأنه سوف يتم توزيعه فيما بعد ، ولكن لا ينبغي العجلة في هذا الشأن . ولكن السلطان الجديد سليم الثاني ومعلمه وندمائه راحوا يصرون على توزيع العطاء ، فلم يرض جند اليكيجري بما قُرّر لهم ، وراحوا يطالبون بزيادة هذا العطاء ، بل أخذوا يتطاولون علي السلطان باللسان . ولما وصل موكب السلطان لإستانبول تجمهروا في طريق السلطان معلنين العصيان . وهنا أدرك السلطان سليم صواب رأي الوزير الأعظم صقوللي محمد باشا ، وأمر بتوزيع العطاء كاملاً علي الجنود لخمد الفتنة قبل أن تستفحل.

Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/413-418 [259]

وهكذا ، ظهر سليم الثاني في وضع العاجز في أول مشكلة يتعرض لها أمـــام جند الباب الذين لم يتجرأوا علي التطاول علي سلطة الدولة ونفوذ السلطان لســـنوات طويلة ، كما تراجع السلطان الجديد خطوة أمام الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا الذي رسخت مكانته وارتفع مقامه درجة سواء أمام السلطان أو أمام جند الباب الســـلطاني . ومنذ ذلك الحين ، راح سليم الثاني يترك شئون الدولة الداخلية والخارجية ليديرها وزير والده القدير صقوللي محمد باشا ، حيث أصدر قراره بمنح الصدر الأعظم حرية مطلقة في إدارة شئون الدولة[260] .

وقد زادت مكانة صقوللي مرة أخري ، عندما استطاع انهاء مشكلة مطالبة نحو ثمانية آلاف شاب تركماني كانوا قد قدّموا الدّعم لسليم في مواجهته أمام أخيه بايزيد، مطالبتهم بالمكافئة التي وعدهم بها سليم . وكان سليم قد وعدهم بتسجيلهم كجنود في فرق الباب السلطاني عندما يصل إلي عرش السلطنة . فلمّا جلس على العـــرش حـــاؤوا يطالبون بحقهم في الانضمام لجيش القابو قولي (الباب السلطاني) . إلا أن صقوللي وقف مرة أخري مدافعاً عن نظم الدولة ، وقام بزجر أفرادهم ويوزيع بعض مقاطعات التيمـــار علي رؤسائهم ، ووأد فتنة أخري في مهدها كان من الممكن أن تستفحل[261] .

فتح جزيرة ساقيز : لقد حرصت الدولة العثمانية علي تـــأمين ســـواحل الأناضول بفتح الجزر المطلة عليها الواحدة تلو الأخري ، إلا أنها لما أخضعت جزيرة ساقيز تركت أمرائها يحكمونها مقابل دفع الخراج السنوي للدولة . ولكن ، قام أمـــراء ســـاقيز بتحويل الجزيرة إلي مركز للقرصنة يراقب تحركات الأسطول العثماني ، ويرسل المعلومات

---

[260] فيما يتعلق بسياسة صقوللي باشا المالية في أوائل عهد سليم الثاني ، أنظر : Taner Timur, "Osmanlı Devleti'nde Para ve Politika Sokollu Mehmed Paşa ve Yasef Nasi", Tarih Çevresi, XIV(Ocak-Şubat 1995), s. 6 vd.; keza bk. Mücteba İlgürel," Zirveden Dönüş: II. Selim'den III. Mehmed'e", Türkler, XIV/643-644

[261] Taner Timur, "Osmanlı Devleti'nde Para ve Politika Sokollu Mehmed Paşa ve Yasef Nasi", s. 8 vd.

للأعداء . ولما تأكدت الدولة من قيام أمراء ساقيز بمساعدة أعدائها أثناء حملة مالطـة (١٥٦٥م/ ٩٧٣هـ) وكانوا قد منعوا دفع الخراج السنوي منذ عدة سنوات ، قـررت تجريد حملة على ساقيز لضمها ضماً مباشراً خلال عصر القانوني . إلا أن الدولة كانـت تستعد في هذه الأثناء للخروج إلي حملة سيگتوار ، فأرجأت هذه الحملة إلي حين .

وهكذا ، كان خروج الأسطول الهمايوني لساقيز أمراً ضرورياً لتأمين نفـوذ الدولة في البحر المتوسط . فخرج قبطان البحر پياله باشا بنحو ٧٠ سفينة قدرغه في ١٤ إبريل ١٥٦٦/ ١٥ رمضان ٩٧٣ ، حيث رسي الأسطول عند ميناء چشمه المقابل لجزيرة ساقيز . ولما علم أمراء الجزيرة بهذه التطورات ، أسرعوا بتقديم الهدايا والإعتذار ، إلا أن پياله باشا حجز وفدهم وحاصر الجزيرة التي فتحت دون إراقة دماء. وبعد الفتح حصنت الجزيرة ووضع عدد كاف من المحافظين فيها وحُولت أكبر كنائسها إلي مسجد بحسـب العادة العثمانية . وهكذا ، كان فتح ساقيز خطوة أولي في طريق فتح قبرص التي كانـت تعد أحدّ المراكز الإستراتيجية للقراصنة في غرب البحر المتوسط[٢٦٢] .

توطيد الحكم العثماني في اليمن : لقد كانت منطقة اليمن ذات أهمية كبيرة بالنسبة للدولة ، وذلك نظراً لبعد هذه الولاية عن مركز الدولـة في إسـتانبول ، واستقرار البرتغال في المنطقة وقطعهم الطريق علي التجارة الشرقية ومحاولتهم التعدي علي الأراضي المقدسة . ولذلك ، لما خرج الإمام مطهر علي الدولة وقام بأسر أمير أمراء زبيد مراد باشا ، والأمر بقراءة الخطبة باسمه ، شعرت الدولة بالقلق من هـذه التطـورات ، وأصدرت أمراً بتجريد حملة علي اليمن تحت قيادة أمير أمراء مصر سنان باشا ، وبتعيين عثمان باشا إبن أوزدمير والياً إمارة أمراء اليمن .

وبينما كان عثمان باشا يواجه مطهر في البر ، كان قبطان السويس خضـر رئيس يحاصر عدن من البحر ، حيث وفق في إعادة السيطرة عليها ، ثم تمكن من بسـط

---

262 فيما يتعلق بدخول جزيرة ساقيز تحت الإدارة العثمانية ، أنظر : Turan S., "Sakız'ın Türk Hakimiyetine Alınması", Tarih Araştırmaları Dergisi, IV/6-7 , Ankara 1966, s. 175-193

نفوذه علي صنعاء وكوكبان . وبذلك ، أجبر سنان باشا مطهر علي إعـلان الطاعـة ، وعينت له مقاطعة ليقيم فيها . وبعد ذلك قام سنان باشا بوضع نظام جديد لإدارة اليمن وقام بتوجيهها إلي بهرام باشا . وإذا كانت الدولة قد تمكنت بهذه الحملـة مـن إعـادة السيطرة علي المناطق الحضرية من اليمن ومدنها وموانيها الرئيسـية ، إلا أن الزيـديين ، راحوا يحافظون علي سيطرتهم علي الجبال ، ليكونوا مصدر قلق دائم للإدارة العثمانية في اليمن[٢٦٣] .

السياسة الشمالية للدولة ومشروع شق قنال الدون – فولجا : لم تشعر الدولة العثمانية بأي خطر محدق بنفوذها علي حدودها الشمالية من جانـب الدولـة الروسية في موسكو حتي عام ١٥٣٠م/ ٩٣٦هـ. وعلي الرغم من مرور مملكة الجيش الذهبي (آلتون أوردو) بتحولات جوهرية خلال هذه الفترة ، فقد حافظـت الإدارة العثمانية علي علاقاتها الوطيدة والمؤيدة لمملكة القرم ، ولم تفرط في تحسين العلاقات مع مملكة موسكو ، حتي أن السلطان بايزيد الثاني وافق علي منح التجار الروس الحريـة في ممارسة الأعمال التجارية في طول البلاد العثمانية وعرضها (١٤٩٧م/ ٩٠٢ هـ) .

وإعتباراً من عام ١٥٣٢م/٩٣٩هـ ، بدأ العثمانيون يشعرون بالخطر الروسي عن قرب ، وذلك أثناء الحروب الطويلة التي اشتعلت بين موسكو ومملكة القرم من أجل الفوز بميراث مملكة الجيش الذهبي في أستراخان وقازان . وكان العثمانيون قد استطاعوا السيطرة التامة علي البحر الأسود وجعله بحيرة عثمانية بعد أن تمكنوا من انتزاع جنوبي بسارابيا من البغدان عقب حملة سليمان القانوني علي البغدان عام ١٥٣٨م/ ٩٤٥هـ ، حيث شكلت هناك إمارة " آق كرمان " . والحقيقة أن خان القرم راح ينافس الروس في الفوز بميراث دولة الجيش الذهبي في حوض الفولجا ، حيث راح يطلب المساعدة مـن العثمانيين . وعلي الرغم من محاولات خان القرم السيطرة علي استراخان وحماية قازان

---

[263] فيما يتعلق بتطور الأوضاع في اليمن خلال عهد سليم الثاني ، أنظر : Mücteba İlgürel," Zirveden Dönüş: II. Selim'den III. Mehmed'e", Türkler, XIV/644 vd.;keza bk. Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, III, Ankara 1951, s.26-28

من الخطر الروسي ، استطاع جار الروس إيفان الرابع الإستيلاء علي قازان في ١٥٥٢م/ ٩٥٩هـ ، ثم علي استراخان فيما بين ١٥٥٤-١٥٥٦م/ ٩٦١- ٩٦٣هـ ، ثم استقطب جماعات من الجركس والقازاق في عام ١٥٥٩م/ ٩٦٦هـ ، حيث قاموا لأول مرة بالهجوم علي آزاق وسواحل القرم[٢٦٤] .

وهكذا ، ظهرت البوادر الأولي للخطر الروسي علي العالم الإسلامي عموماً وعلي الحدود الشمالية للدولة العثمانية علي وجه الخصوص ، حيث وصلت للبلاط العثماني استغاثات ممالك وسط آسيا الإسلامية ، وطلبات المساعدة من أمراء شيروان وگورجستان إلي الدولة العثمانية للتصدي للزحف الروسي في المنطقة . ومنذ ذلك الحين بدأت الإدارة العثمانية توجه اهتمامها بالمسألة الشمالية ، حيث وضعت في عهد السلطان سليمان القانوني خطة للقيام بحملة شاملة علي استراخان عام ١٥٦٣م/ ٩٧٠هـ ، فعقدت هدنة مع الهابسبورج عام ١٥٦٢م/ ٩٦٩هـ ، إلا أن الحملة لم تتحرك إلا في عام ١٥٦٩م/٩٧٧هـ . وكان هذا المشروع العسكري الذي تقدم به الوزير الأعظم صوقوللي محمد باشا يستهدف حل مسألتي إيران وموسكو في وقت واحد ، حيث انحصرت هذه الأهداف في العناصر التالية :

- فتح قنال تصل بين نهري الدون والفولجا .
- إبعاد الروس عن حوض الفولجا الجنوبي بالسيطرة علي استراخان .
- اتاحة الفرصة للأسطول العثماني للوصول إلي بحر الخزر من البحر الأسود عن طريق القنال المزمع شقها.
- تطويق الدولة الصفوية من الشرق .
- بسط نفوذ الدولة العثمانية علي قفقاسيا وحكمها .
- عقد علاقات مباشرة مع حكام الممالك الإسلامية في وسط أسيا .

---

[264] فيما يتعلق ببدايات المنافسة العثمانية الروسية ، وحملة الدون – فولجا ، أنظر : Halil İnalcik, "Osmanlı-Rus Rekabetinin Menşe-I ve Don-Volga Kanalı Teşebbüsü", Belleten, III/46, s. 349-402; keza bk. Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, III/33-37

- السيطرة علي طريق التجارة خوارزم – استراخان – القرم ومحاولة إحيائه من جديد .

لم تتهاون الدولة العثمانية في الإعداد لهذه الحملة الإعداد المناسب ، حيث تمكن الجيش العثماني من الوصول بالإسطول إلي أقرب نقطة تصل نهر الفولجا بنهر الـــدون . ولما استيقنت القيادة العثمانية استحالة حفر قنال هناك بعد أن تم حفر ثلثهـــا تقريبـــاً ، انزلت الأسطول إلي الفولجا بمزالق السفن ، حيث وصلت به أمام استراخان، وباشرت حصار قلعتها في الحال . والحقيقة أن مقاومة الجيش الروسي لهذا الحصار كانت مقاومة شديدة ، حيث ألحقت خسائر فادحة بالجيش العثماني أثناء انسحابه إلي القرم . وهكذا، كان لهذا الإخفاق تأثير عظيم علي عدم تفكير الدولة خلال هذه الفترة في القيام بحملة أخري في المناطق الشمالية ، واضطرار السلطان العثماني للإستجابة لطلب جار الـــروس لعقد هدنة بين الطرفين ، حيث جاء في بنود هذا الإتفاق :

- فتح طريق استراخان .
- هدم القلاع التي أقامها الروس في منطقة قابارتاي .
- حماية وتأمين حالة السلم مع القرم .
- الإعتراف بحق السلطان العثماني في حماية بلاد القرم والأمراء الجراكسة في تلك النواحي
- تخلي الدولة عن مناطق قازان واستراخان التي بقيت في يد الروس[٢٦٥] .

ومهما يكن من أمر ، فقد أجبرت صراعات الدولة مع القوي الأوروبيـــة في البحر المتوسط وفي المجر ومع الشيعة في إيران ، أجبرت العثمانيين علي ترك خان القـــرم يدبر أمره بمفرده لصد الهجمات الروسية في الشمال والشرق . وخلال العقدين التاليين ،

---

[265] لتفصيلات أكثر حول التصدي العثماني لمحاولات الروس السيطرة علي المناطق الشمالية ، أنظر :
Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, III/33-37; Halil İnalcik, “Osmanlı-Rus Rekabetinin Menşe-I ve Don-Volga Kanalı Teşebbüsü”, Belleten, III/46, s. 349-402

أخذ چار الروس ينقض الإتفاقية بين الطرفين ، ويقوم ببناء الحصون والقـلاع شمـالي فقفاسيا ، ويعمل بخطي ثابته علي بسط نفوذه علـي منـاطق القـازاق والنوجـاي والچركس. وفي نفس الوقت ، كانت عصابات قازاق الروس التي جُهِّزت بالأسـلحة النارية تعمل علي نشر النفوذ الروسي في أنحاء صربيا .

التفكير في شق قنال السـويس : لقد كان تفاقم مشكلة نفوذ البرتغال في البحار الشرقية وقطعهم طريق التجارة الشرقية وتعديهم علي الموانى العثمانية وطـرق التجار والحجاج في البحر الأحمر ، وعدم استقرار الحكم العثماني في ولايتي اليمن والحبش ، وضرورة توفير الدعم اللازم والسريع والمستمر لمواجهة هذه التحدبات في هذه المنطقة ، وراء تفكير الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا في شق قنال تربط البحر المتوسط بـالبحر الأحمر . ولذلك أرسل إلي أمير أمراء مصر أمراً يشير إلي ضرورة مواجهة هذه الأخطـار بشق قنال تربط بين السويس والبحر المتوسط ، وضرورة بحث تنفيذ هـذا المشـروع ، وتوفير الاحتياجات اللازمة له من مهندسين وبنـائين (١٥٦٨م/ ٩٧٦هـ) . إلا أن انشغال الدولة في جبهات مختلفة خلال هذه الفترة ، وغياب الدعم الفعلي من السـلطان سليم الثاني ، جعل هذا المشروع فكرة لم يتم تحقيقها[٢٦٦] .

فتح قبرص وتوطيد النفوذ العثماني في شرق البحر المتوسـط:

لقد زاد حرص الدولة العثمانية علي توطيد نفوذها في الحوض الشرقي للبحر المتوسـط عقب ضمها لمصر الشام ، حيث كان فتح رودس عام ١٥٢٢م/٩٢٨هـ ثم فتح سـاقيز عام ١٥٦٦م/ ٩٧٣هـ خطوة في هذا الطريق . وكان أمراء قبرص يدفعون الخراج عـن الجزيرة لدولة المماليك ، فلما ضم العثمانيون مصر ، استمروا في دفع الخراج للدولـة . والحقيقة أن قبرص لم تكن تمثل أي خطر علي الدولة خلال عهد القـانوني . إلا أنـه في أواخر هذا العهد ، أخذ قراصنة قبرص يعتدون علي السفن التجارية للدولة ، مما أشـعر

---

[266] بخصوص الفرمان الصادر لأمير أمراء مصر لبحث موضوع شق قنال تربط بين البحر الأحمر والبحر المتوسط عبر خليج السويس ومدي ضرورته الإستراتيجية بالنسبة لتوطيد الدولة لنفوذها في البحار الشرقية ، أنظر : Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, III/32 vd.

الإدارة العثمانية بضرورة القضاء علي هذه البؤرة المعادية لها والموافقة علي اقتراح قبطان البحر بياله باشا بفتح الجزيرة .

ولما علم البنادقة بنية الدولة في تجريد حملة لفتح قبرص ، راحوا يرسلون السفراء إلي الإدارة العثمانية ليثنوها عن سعيها ، وذلك في الوقت الذي أخذوا فيه يتصلون بأوروبا لطلب المساعدات . وإذا كان البابا قد نجح في تشكيل تحالف يضم كل من ملك اسبانيا فيليب الثاني وفرسان مالطة ، وجنوه وصاوا وغيرها ، إلا أن هذا الأسطول لم يستطع الوصول في الوقت المناسب لإنقاذ قبرص .

فقد خرج الأسطول العثماني (٢٣٠ قطعة بحرية) تحت قيادة قبطان البحر مؤذن زاده علي باشا ، مع نحو ٢٥ ألف من القوات البرية تحت قيادة لالا مصطفي باشا من استانبول في مايو ١٥٧٠/ ذي الحجة ٩٧٧ ، حيث شرع في إبرار القوات ومحاصرة قلعة لفقوشة التي سقطت بعد ٥١ يوماً من الحصار . غير أن حصار مغوصه استمر لمدة عام كامل قبل أن يتم فتحها في أول أغسطس ١٥٧١/آخر صفر ٩٧٩ . وبعد فتح الجزيرة ، شكلت منها ومن طرسوس وعلائية وإيجل إمارة أمراء عين عليها مظفر باشا ، كما نقل إليها عدد كبير من سكان إمارات قونية وقره مان ونكيده وقيصري وفقاً للأعراف ا لعثمانية القديمة[٢٦٧] .

معركة لبانتو (إينه بختي) : وفي ٧ أكتوبر ١٥٧١/ ٨ جمادي الأولي ٩٧٩، وبينما كان الأسطول العثماني عائداً إلي لبانتو بعد فتح جزيرة قبرص وانتهاء موسم الحملات البحرية ، تعرض لهجوم مفاجئ وكبير من قبل اسطول الحلفاء الذي شكله البابا

---

[267] بخصوص الأسباب التي دعت العثمانيين لفتح قبرص ، ووقائع الفتح أنظر : Recep Dündar, "Kıbrıs'ın Fethi", Türkler, XIV/667-675; keza bk. Recep Dündar, Kıbrıs Beylerbeyiliği (1570-1670), basılmamış Dokrora Tezi, Malatya 1998, s. 14 vd.; Uzunçarşılı, "Kıbrıs'ın Fethi ile Lepant (İnebahtı) Muharebesi Sırasında Türk Devleti ile Venedik ve Müttefiklerinin Faaliyetlerine Dair Hazine-i Evrak Kayıtları", Türkiye Mecmuası, III (1935), s. 257

من قوات البندقية وأسبانيا والبابوية وفرسان مالطه تحت قيادة دون جوان. وفي المعركـــة التي وقعت بين الطرفين في خليج لبانتو بين المورة وتساليا مني الأسطول العثماني بنكســة مريرة ،لم ينج فيها من سفنه التي كانت تبلغ ٢٣٠ سفينة حربية سوي ثلاثين سفينة فقط كانت تحت قيادة اولوج علي بك[٢٦٨] .

والحقيقة أن هذا الانتصار الذي حققته أساطيل الحلفاء جعلـــهم يخططـــون للهجوم في العام التالي إما علي قبرص لإستعادتها إو علي استانبول نفسها . ولكن تمكُـــن الوزير الأعظم صقوللي محمد باشا من حشد كل قوي الدولة لإستيعاب هذا الإخفـــاق خلال موسم الشتاء ، وبناء اسطول أكثر قوة في وقت قياسي وإنزاله للبحر كعادة الدولة في موسم الربيع ، جعل الحلفاء يعيدون التفكير في مشروعاتهم البحريـــة ضـــد الدولـــة العثمانية. وكان سفير البندقية في استانبول قد التقي بالصدر الأعظم صقوللي محمد باشا ليعرف رد فعل الدولة علي هزيمة لبانتو ، فرد عليه صقوللي بقوله: " إننا قطعنا ذراعـــاً حيوياً لكم بإنتزاعنا قبرص من أيديكم ، وتلك الذراع لا يمكن أن تعـــود ثانيـــة ، أمـــا هزيمتكم الاسطول العثماني في إينه بختي ، فلم تكن أكثر من قطع شعرة من لحية السلطان لا تلبث أن تنبت أقوي وأشد مما كانت . "

وهكذا ، اضطرت البندقية لعقد صلح منفرد مع الدولة متخلية عن حليفاتها في مارس عام ١٥٧٣م/ ذي القعدة ٩٨٠ ، حيث ارتضت دفع خراج قدره ٣٠٠ ألـــف ذهبية للخزينة العثمانية كل عام ، وذلك علاوة علي دفع مبلغ ١٥ ألف دوقة عن تـــرك جزيرة زانتا ، والتنازل عن قلعتين على سواحل الأرناؤوط للدولة[٢٦٩] .

---

[268] فيما يتعلق بمعركة اينه بختي (لبانتو) والنتائج التي تمخضت عنها ، أنظر : İdris Bostan, " İnebahtı Deniz Savaşi", DIA, c. 22, s. 287-269; M. Cavid Baysun, "Lepanto", IA, VII/39-45; keza bk. S. Soncek, " İnabahti Savaşi (1571) Hakkında Bazı Mülahazalar", Tarih Enstitüsü Dergisi, sy. 4-5, s. 35-43

[269] فيما يتعلق بنتائج اخفاق اينه باختي ، أنظر : Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, III/19-26

إستعادة تونس : كان خير الدين بربروس قد انتزع تونس من يد الأسبان عام ١٥٣٤م/٩٤١هـ . إلا أن الأسبان أعادوا إحتلالها في العام التالي . وعقب هزيمة إينه بختي أراد الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا تأكيد النفوذ العثماني في البحر المتوسط، فاستصدر الأمر بخروج الأسطول العثماني الجديد لإستعادة تونس ، وكلف قبطان البحر قليج علي باشا كقائد للاسطول وسنان باشا كقائد للقوات البرية بهذه المهمة . وبالفعل ، تحركت الحملة في مايو ١٥٧٤/ صفر ٩٨٢ . وبعد حصار شديد لقلعة " حلق الـواد " الحصينة ، تم فتحها وغيرها من القلاع ، حيث سقطت البلاد في يد العثمانيين ، ومن ثم تم تشكيل إمارة أمراء تونس في المناطق المفتوحة[٢٧٠] .

اعلان نظام جديد لتولية العرش العثماني :

حرصت الدولة العثمانية في أواخر عصر القانوني على وضع بعض التدابير الجديدة لمواجهة مسألة صراع أبناء السلطان علي العرش . وكان علي رأس هذه التدابير منع تعيين أبناء السلاطين علي المناطق السنجقية وفقاً للعادة العثمانية القديمة ، وذلك عدا أكبر الأبناء سناً ، حيث أصبحت سنجقية معنيسا منذ ذلك الحين هي ولاية الشهزاده يعين عليها أكبر أبناء السلطان وولي عهد السلطنة . وكان الشهزاده مراد أكبر أبناء سليم الثاني قد عين علي سنجقية مغنيسا منذ عام ١٥٦٢م/٩٦٩هـ. فلما توفي سليم الثاني متأثر بمرض الحمي الذي أصيب به عن عمر يناهز الخمسين في ١٥ ديسمبر ١٥٧٤/ ٢١شعبان ٩٨٢ ، أرسل إلي إبنه مراد الموجود بمغنيسا لتولي العرش محل أبيه[٢٧١]

.

[270] بخصوص معركة حلق الواد واستعادة تونس ، أنظر : Mahmud Şakiroğlu, "Halku'l-Vâd", DİA, c. XV/375-376; keza bk. Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, III/29 vd.

[271] . Mücteba İlgürel," Zirveden Dönüş: II. Selim'den III. Mehmed'e", Türkler, XIV/649; keza bk. Feridun Emecen, XVI. Asırda Manisa Kazası, Ankara 1989

وإذا كان سليم الثاني هو أول سلطان يتوفي في استانبول ، وأول سلطان ترك شئون الدولة لوزيره الأعظم ، وأول سلطان ترك عادة الخـــروج علـــي رأس الجـــيش السلطاني في الحملات العسكرية ، ومن ثم يكون أول من وضع أعرافاً لعصر السلاطين الضعاف خلال الربع الأخير من القرن ١٦م/١٠هـــ ، فإن إبنه مراد الثالث ، هو آخر من أكتسب خبرة إدارية من سلاطين هذه المرحلة ، وأول سلطان قام عقـــب تســـلمه مقاليد الحكم في البلاد بقتل أخوته الخمسة حماية لنظام الدولة والحيلولة دون خروجهم عليه أو استخدامهم من قبل الأعداء ضد الدولة .

خطوة جديدة في طريق العودة من القمة

عهد مراد الثالث

(١٥٧٤- ١٥٩٥م/ ٩٨٢-١٠٠٣هـ)

لما وصلت رسالة الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا إلي الشهزاده مراد الموجود في مغنيسيا تخبره بوفاة أبيه ، وتطلب إليه الإسراع إلى استانبول ، توجه السلطان الجديد إلى مركز الدولة ، حيث جلس علي سرير العرش في ٢٢ ديسمبر ٢٨/١٥٧٤ شعبان ٩٨٢ ، واستقبل سفراء البندقية ولهستان وراجوزه والنمسا وإيران الذين أتوا للتهنئته بالجلوس السلطاني وتقديم الهدايا[٢٧٢] .

نفوذ النساء في السراي العثماني : استطاع الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا المحافظة علي مكانته كنائب مطلق للسلطان خلال السنوات الأولي من عهد مراد الثالث ، فبقي في منصبه ، وتزوج من أخت السلطان أسمهان سلطان ، الأمر الذي زاد من نفوذه وسلطته . وعلي الرغم من ذلك ، بدأ نفوذ نساء السراي العثماني يزداد بالتدريج خلال عهد السلطان الجديد ، حيث أخذن يتدخلن في كافة شئون الدولة . وقد ساعد على ظهور طائفة نساء السراي كعنصر فاعل في إدارة شئون الدولة ، عزوف السلطان مراد الثالث عن مباشرة سلطاته المركزية العليا ، وظهور فئة من رجال السراي أضمرت الحسد لمكانة صقوللي باشا لدى السلطان ونفوذه المطلق في أنحاء الدولة ، فسعت بكل طريق لإضعاف هذا النفوذ وتلك المكانة.

وقد كشف نفوذ نساء السراي عن نفسه خلال الشجار الذي كان يشب بين زوجة السلطان صفية سلطان والدة الشهزاده محمد وبين والدة السلطان نوربانو سلطان، حيث انعكس خلافهما في أحيان كثيرة علي الكثير من شئون الدولة ، وذلك بعد أن راحت كل إمرأة تبحث لها عن مؤيدين بين رجال ونساء السراي وأركان الدولة . وإذا

---

[272] بخصوص وصول سفراء الدولة لاستانبول لتقديم التهنئة بجلوس السلطان الجديد ، أنظر : Bekir Kütükoğlu, "Şah Tahmasb'ın III. Murad'a Cülüs Tebriki", Tarih Dergisi, sy.15, s. 1-24

كان الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا قد ضاق ذرعاً بهذا التدخل الذي نال من سلطته ونفوذه ، وراح يقاومه بحرص شديد ، إلا أن بُعد السلطان مراد عن شـئون الدولـة وإنغماسه في لهوه وملذاته ، والتدخلات المستمرة للندماء والنساء ، راح ينعكس سـلباً علي سيطرة الوزير الأعظم بالتدريج علي مختلف مؤسسات الدولة[٢٧٣] .

إضطراب الأوضاع في إيران وبدء حملات الشرق : استمر مفعـول معاهدة أماسيا ١٥٥٥م/ ٩٦٢هـ بين العثمانيين والصفويين حتي وفاة الشاه طهماسب عام ١٥٧٦م/٩٨٤هـ . والحقيقة أن الدولة الصفوية راحت تمر خلال السنوات الـتي تلت وفاة طهماسب بحالة اضطراب شديدة بسبب المنافسة علي العرش، حيث اقتـرح أمير أمراء وان على الدولة محاولة الإستفادة من تلك الإضطرابات . وإذا كان الصـدر الأعظم صقوللي محمد باشا قد أوضح للسلطان الآثار السئية التي يمكن أن تنـتج عـن تجريد حملة علي إيران خلال هذه الفترة ، إلا أن فقدان صقوللي لنفوذه القديم ، مكـن المتنافسين علي القيادة وتحقيق الشهرة من استصدار الأمر بخروج الحملة علي الشرق[٢٧٤] .

فتح بلاد الكرج (كرجستان) : خرجت الحملة تحت قيادة لالا مصطفي باشا في ربيع ١٥٧٧م/٩٨٥هـ ، حيث كان هدفها الإستيلاء علـي بـلاد الكـرج وشيروان . عبر لالا مصطفي باشا إلي أراضي الكرج من أردخان ، حيث خرج إليـه الجيش الصفوي في ٣٠ ألف فرد تحت قيادة توقماق خان ، ووقعت بين الطرفين المواجهة الأولي عند چيلدر عام ١٥٧٨م/٩٨٦هـ . وكان النصر من نصيب العثمانيين الـذي شرعوا في الإستيلاء علي بلاد الكرج ، حيث أعتنق أحد أمراء جنوبي گرجستان ويدعى مينوچهر الإسلام . اعترف مينوجهر بالنفوذ العثماني ووجهت إلي أخيـه حيريجـووار

---

[273] لتفصيلات أكثر حول نفوذ النساء في البلاط العثماني ، أنظر : İ. Pierce, Harem-I Hümayun, Osmanlı İmparatorluğunda Hükümdarlık ve Kadınlar, terc. A. Berktay, İstanbul 1996, s. 45 vd. ; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, III/I, s.43-44; M.Tayyib Gökbilgin, " Mehmed Paşa, Sokullu Tavil ", IA/VII., 268-272

[274] بخصوص دور لالا محمد باشا وغيره في إخراج حملة الشرق ، أنظر : Bekir Kütükoğlu, "Mustafa Paşa, Lala", IA/VIII, s.732-736

سنجق أولتي . ولما تمكن لالا مصطفي باشا بعد ذلك من فتح تفليس وأعلن أمراء ميرت وقارتلي الطاعة ، قام بتشكيل إمارة أمراء تفليس وعين عليها محمد باشا بن فرهاد باشا (١٥٧٨م/٩٨٦هـ) .

إنتقل لالا مصطفي باشا بعد ذلك إلي شيروان ، حيث تمكن من ضم مركزها في شماخي ، واتخذ دربند (دمير قابو) عاصمة لولاية شيروان . وبعد أن عين عليها أمير أمراء دياربكر أوزدمير أوغلي عثمان باشا ، وأمده بالجند اللازم لحمايتها ، عاد السردار لالا مصطفي باشا إلي مركز الدولة قبل حلول الشتاء .

وعقب عودة السردار قام جيش إيراني تحت قيادة خان شيروان السابق أوروس خان بدخول شيروان ، حيث توجه إلي شماخي التي كان يتحصن بها عثمان بن أوزدمير باشا ، حيث وقعت بين الطرفين مواجهة شرسة في ٩ نوفمبر ١٥٧٨/ ٩رمضان ٩٨٦ . وعلي أثر وصول فرقة من قوات القرم تحت قيادت شقيق خان القرم عادل گراي، اندحر هجوم أوروس خان، حيث سقط قتيلاً في أرض المعركة. إلا أن سقوط عادل گراي في الأسر بعد ذلك ، أجبر عثمان باشا علي الإنسحاب إلي دربند. ولما وصل خان القرم محمد گراي بقوة تقدر بـ ١٠٠ ألف رجل ، عاد عثمان باشا إلي شماخي. غير أن عودة خان القرم إلي بلاده بسرعة جعلت عثمان باشا ينتظر قوات الروميللي التي أرسلت إلي دربند تحت قيادة جعفر باشا في ١٥٨٢م/٩٩٠هـ[275] .

والحقيقة ، لم تنقطع المواجهات بين القوات الإيرانية والقوات العثمانية تحت قيادة سنان باشا (١٥٨٠-١٥٨٢م/٩٨٨-٩٩٠هـ) ، ثم تحت قيادة فرهاد باشا (١٥٨٣- ١٥٨٥م/ ٩٩١-٩٩٣هـ) ، ثم تحت قيادة عثمان باشا بن أوزدمير (١٥٨٥-١٥٨٦م/ ٩٩٣-٩٩٤هـ) ، وأخيراً تحت قيادة فرهاد باشا ثانية (١٥٨٧-١٥٩٠م/ ٩٩٥-٩٩٨هـ) . وعلي الرغم من تحقيق مكاسب مؤقته للدولة العثمانية في

---

[275] بخصوص تفصيلات أكثر حول المواجهات العثمانية-الصفوية خلال عهد مراد الثالث ، أنظر :
Bekir Kütükoğlu, Osmanlı-İran Siyasî Münasebetleri, İstanbul 1962, s.90-103; ayn. Mlf., "Murad III.", IA/VIII., s.615-625

المنطقة ، إلا أن هذه الحملات الطويلة راحت تستنزف خزينة الدولة وترهق الإقتصاد العثماني عموماً أيّما إرهاق[٢٧٦] .

معاهدة إستانبول (١٥٩٠م/٩٩٨هـ) : وعقب تحقيق النصر علي القوات الإيرانية ، وتمكن فرهاد باشا من رفع الحصار عن تبريز وضم گنجه وقره باغ، واستطاع چغاله زاده سنان باشا احتلال نهاوند وحدّد الحدود مع گورجستان، أُجبر الشاه عباس على ارسال شقيقه حمزة ميرزا علي رأس وفد لعقد الصلح مع العثمانيين . وقد جاء في المعاهدة التي وقعت في استانبول ٢١مارس١٥٩٠/ ١٥جمادي الأولي ٩٩٨ ، وأنهت الحرب بين الطرفين البنود التالية :

١. أن تبقي تبريز والمناطق المحيطة بها من أذربيجان وقره باغ وگنجه وقارص وبتليس وشهريزور ونهاوند ولوريستان تحت الإدارة العثمانية .
٢. أن يضمن الشاه منع الشتائم والسباب التي يطلقها علماء إيران علي الخلفاء الراشدين أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، وعلي أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ، ومنع تلقينها للناس .
٣. أن يبقي حمزة ميرزا محجوزاً كرهينة لدي العثمانيين ضماناً لتنفيذ بنود المعاهدة[٢٧٧] .

مقتل الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا ونهاية عصر الإزدهار :

كان صقوللي باشا قد حقق نجاحات عديدة خلال عهود سليمان القانوني وسليم الثاني ومراد الثالث ، مما جعل له مؤيدون كثيرون ، إلا أن إعتراضه علي خروج حملتي قبرص ثم إيران ، وتأييد السلطان العثماني لخروج هاتين الحملتين ، أعطي فرصة لمنافسيه للكيد ضده عند السلطان مراد الثالث ، الأمر الذي أضعف نفوذه كثيراً خلال

---

[276] حول حملات القفقاس ، أنظر : Fahrettin Kırzıoğlu, Osmanlıların Kafkas Ellerini Fethi (1451-1590), Ankara 1976, s. 152 vd.

[277] بخصوص بنود معاهدة استانبول ، أنظر : Bekir Kütükoğlu, Osmanlı-Iran Siyasî Münasebetleri, s. 193-198; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, III/I, s. 62-63

السنوات الأخيرة من صدارته . وفي ١٢ أكتوبر ١٥٧٩/ ١١شعبان ٩٨٧ ، تمكن أحد مريدي شيخ صوفي كان قد قتل في استانبول في وقت سابق من طعنه بخنجر في صدره أثناء عقده الديوان ، حيث توفي علي أثر هذه الطعنة بعد عدة أيام .

وكان صقوللي محمد باشا خلال فترة صـــدارته (١٥٦٤- ١٥٧٩م/ ٩٧٢-٩٨٧هـــ) رجل دولة بكل ما تعنية الكلمة ، فلم يتجاوز قوانيين الدولـــة في أي مـــن سياساته الداخلية ، وحالفه التوفيق في سياساته الخارجية ، وحافظ علي سلطة الدولـــة وأعرافها في الداخل وفي الخارج ، وكان أميناً علي كيان الدولة ، محافظاً علي مكانتـــها الدولية بعد عهد سليمان القانوني وخلال عهد سليم الثاني ومراد الثالـــث ، فوصـــلت خلال فترة صدارته إلي أقصي إتساع لها . والحقيقة أن الكثير من المؤرخين قد لاحظوا تغييرات واضحة في سياسة الدولة الداخلية الخارجية بعد مقتله ، حيث أعتـــبروا نهايـــة عهده ، نهاية لعصر إزدهار الدولة العثمانية ، وبداية لعصـــر طويـــل مـــن الضـــعف والإضطراب[٢٧٨] .

---

[278] بخصوص سيرة صقوللي محمد باشا ودوره في تثبيت سلطة الدولة في الداخل والخارج ، أنظر :
M. Tayyib Gökbilgin, “Mehmed Paşa Sokullu, Tavil”, IA/VII, s. 268-272



المصادر والمراجع

أولا - المصادر :

- إبن كمال (كمال باشا زاده) أحمد عاشقي ، تواريخ آل عثمان ، نشر ن. آتسز ، استانبول ١٩٤٩ (انظر الدفتر السابع ، تحقيق شرف الدين طوران ، أنقرة ١٩٩١ ، الدفتر الثامن ، تحقيق أحمد أوغور ، أنقرة ١٩٩٧ والدفتر العاشر ، تحقيق شرف الدين سورجان ، أنقرة ١٩٩٦)
- بجوي إبراهيم ، تاريخ ، جزءان ، نشر ب. س. بايقال ، استانبول ١٩٨٣
- تاجي زاده جعفر جلبي ، محروسهء استانبول فتحنامه سي ، تاريخ عثماني انجماني ، علاوه لر ، استانبول ١٣٣١
- جلال زادة مصطفي جلبي ، طبقات الممالك ودرجات المسالك ، نشر تيتزه ، ليدن ١٩٨١
- جلال زادة مصطفي جلبي ، سليم نامه ، نشر أحمد أوغور ، م. جوهادار ، أنقرة ١٩٩٠
- حسن بك زاده ، تواريخ آل عثمان ، نشر نزيهي أيقوت ، أنقرة ١٩٩٣
- حيدر أفندي ، " روزنامه " ، منشآت السلاطين لفريدون بك ، الجزء الأول ، استانبول ١٢٧٤
- خواجه سعد الدين ، تاج التواريخ ، استانبول ١٢٧٩ (كذا أنظر نشر عصمت بارماقسزأوغلي ، انقره ١٩٩٢)

- سلاحشور ، فتح نامهء ديار عرب ، نشر صلاح الدين طانسل ، مجلة الوثائق التاريخية ، عدد ١٧ ، استانبول ١٩٥٨ ، ص. ٣٨ — ٦٤
- صولاق زاده محمد همدمي جلبي ، عثمانلي تاريخي ، استانبول ١٢٩٨ (كذا انظر نشر وحيد جابوق ، أنقره ١٩٨٩)
- طوسون بك ، تاريخ أبو الفتح ، تاريخ عثماني أنجماني ، استانبول ١٣٣٠ (كذا انظر نشر مرتول طولوم ، استانبول ١٩٧٧)
- عالي مصطفي ، كتاب تاريخ كنه الأخبار ، نشر أحمد أوغور وأ. كول وم. جوهادار ، قيصرية ١٩٩٧
- فريدون أحمد بك ، منشآت السلاطين ، جزءان ، استانبول١٢٧٤
- قوامي ، فتحنامه سلطان محمد ، نشر بابنجر ، استانبول ١٩٥٥
- قره جلبي زاده عبد العزيز ، روضة الأبرار ، بولاق ١٢٤٨
- كاتب جلبي ، تحفة الكبار في أسفار البحار ، نشر أورخان شايق كوكياي ، استانبول ١٩٧٣
- لطفي باشا ، تواريخ آل عثمان ، نشر علي بك ، استانبول ١٩٤١
- هامر فون ، دولت عثمانية تاريخي ، ترجمة محمد عطا ، استانبول ١٣٣٠
- مجدي أفندي ، شقايق نعمانية وذيللري ، نشر عبد القادر أوزجان ، استانبول ١٩٨٩
- منجم باشي أحمد دده بن لطف الله ، ترجمة جامع الدول (صحائف الأخبار) ، استانبول ١٢٨٥ (كذا انظر نشر أحمد اغيراقجه لوقائع ١٢٩٩-١٤٨١ ، استانبول ١٩٩٥)

ثانياً – المراجع :

١ – التركية :

- Agoston Gabor, " Macaristan'da Osmanlı-Habusburg Serhadı (1541-1699) : Bir Mukayese" (الحدود العثمانية الهابسبورجية في بلاد المجر (١٥٤١-١٦٩٩)), Osmanlı , I/434-451
- Akdağ Mustafa, Celali İsyanları (حركات عصيان الجلالي), İstanbul 1995
- Altindağ Şınası, "I. Selim"(سليم الأول), IA.,428-429;
- Angel De Bunes Mıguela, "Kanunî, Barbaros Paşa ve V. Charles : Akdeniz Bünyasi" (القانوني ، بربروس باشا وتشارلز الخامس ، وعالم البحر المتوسط), Osmanlı , I/ 392 vd.
- Arat R.R. Ahmedi, "Fatih Sultan Mehmed'in Yarlığı", Türkiyat Mecmuası, VI, 1939, s.303 vd.
- Akgündüz Ahmed, Osmanlı Kanunnameleri ve Hukukî Tahilleri (القوانين العثمانية وتحليلها القانوني), I.cilt, İstanbul 1990
- M. Aknan, Osmanlı Devletinde Kardeş Katli (قتل الأخ في الدولة العثمانية), İstanbul 1997
- Ayverdi Ekrem H., " Fatih", Türkler, IX/338-354
- Barbaro Nicolo, Kostantıniyye Muhasarası Ruznamesi (يوميات محاصرة القسطنطينية)1453, çev. Ş. T.Diler, İstanbul 1953
- Basso Enrıco, " İşbirliğinden Ayrılığa : XIV ve XV. Yüzyıllarda Cenevizliler ve Türkler" (من التعاون والإتفاق إلي الإختلاف والإنفصال ، الترك والجنويون خلال القرنين ١٤-١٥م), Türkler, IX/357-358
- Bastav Serif, " Bizans Imparatorlugu Tarihi Son Devir (1261-1461), Osmanli Turk-Bizans Munasebetleri (تاريخ

(الإمبراطورية البيزنطية ، المرحلة الأخيرة (١٢٦١-١٤٦١) العلاقات التركية البيزنطية), Ankara 1989

- Bayır Önder, "Çağ Açan Fetih İçin Yapılan Hazırlıklar"(الإستعدادا التي أجريت للفتح الذي فتح عصر جديد), Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 2002, IX/322-324
- Baysun M.Cevid, " Merc-i Dabık ", IA, VII/752-754
- Baysun M. Cavid, "Lepanto", IA, VII/39-45
- Birdoğan Nejat, Alevîlerin Büyük Hükümdarı Şah İsmail(حاكم العلويين العظيم إسماعيل الصفوي), Hatai 1991
- İdris Bostan, " İnebahtı Deniz Savaşi" (المعركة البحرية ، اينه بختي), DIA, c. 22, s. 287-269
- Bunes İbarra Meguel A. De, " Yavuz Sultan Selim ve Kanunî Sultan Süleyman Devirlerinde İspanya ve Osmanlı İmparatorlukları Arasında Deniz Savaşları " (الحروب البحرية بين الإمبراطوريتين الإسبانية والعثمانية خلال عصري سليم الأولي وسليمان القانوني), Türkler, IX/599-607
- Büyüktuğrul Afif, " Preveze Deniz Muharebesine İlişkin Gerçekler" (حقائق حول المعركة البحرية بروه زه) TTk Belleten, XXXVII/145(1973), s. 51-85
- ayn. Mlf., "Preveze Muharebesine ilişkin Belgeler" (الوثائق المتعلقة بمعركة بروه زه), Belleten,XLII/169,8(1978), s.629-665
- Chakıb Benafri, "Endülüs'te Son Müslüman Kalıntısı Morisko'ların Cezayir'e Göçü ve Osmanlı Yardımı" (هجرة الموريسكيين من بقايا المسلمين في الأندلس إلي الجزائر والمساعدة العثمانية), Hacettepe Ün. Sosyal Bilimler Enstitüsü, Ankara 1989
- Çavdaroğlu M, Fatih Sultan Mehmed Hân-i Sânî ve İstanbul'un Fethi (فتح استانبول للسلطان محمد الفاتح خان الثاني), İstanbul 1953

- Demircan Yesemin, “Ege Adalarında Osmanlı Hakimiyeti”(النفوذ العثماني في جزر بحر إيجه), Türkler, IX/365-366
- Ditimtekin Feridun, “Fatih Önce İstanbul” (استانبول قبل الفاتح), 511 Yıldönümü Konferansları, İstanbul 1964
- Diyanet A. Ekber, İlk Osmanlı – İran Anlaşması 1555, Amasya Mühahedesi (المعاهدة العثمانية الإيرانية الأولي ، معاهدة أماسيا ١٥٥٥م), İstanbul 1971
- Dukas , Bizsans Tarihi (تاريخ البيزنطيين), çev. Mirmiroğlu, İstanbul 1962
- Dündar Recep, “Kıbrıs’ın Fethi” (فتح قبرص), Türkler, XIV/667-675
- Dündar Recep, Kıbrıs Beylerbeyiliği (1570-1670) (إمارة أمراء قبرص ، ١٥٧٠-١٦٧٠), basılmamış Dokrora Tezi, Malatya 1998
- Emecen Feridun, “İstanbul’un Fethi”(فتح استانبول), Türkler, IX/312-320
- Feridun Emecen, " Sultan Süleyman Çağı ve Cihan Devleti " (عصر السلطان سليمان والدولة العالمية), Türkler, IX/501-518
- Feridun Emecen, “Hicaz’da Osmanlı Hakimiyetinin Tesisi ve Ebu Numey” (تأسيس الحكم العثماني في الحجاز وأبو نمي), Tarih Enstitüsü Dergisi, sy.14, 1994, s.90-112
- Feridun Emecen, “ Canberdi Gazali ”, DIA., VII/142-143
- Feridun Emecen, “İrakayin Seferi” (حملة العراقين), DIA, XIX/117-118
- Emecen F., “ İbrahim Paşa Makbul “ (مقبول إبراهيم باشا), DİA., XXI/333-335
- Emecen Feridun, XVI. Asırda Manisa Kazası (المنطقة القضائية مغنيسيا خلال القرن ١٦م), Ankara 1989

- Ekinci Mustafa, “Yavuz Sultan Selim Döneminde Osmanlı Safavî İlişkileri” (العلاقات العثمانية الصفوية خلال عهد ياووز سلطان سليم), Türkler, XI/448-455
- Feridun Emecen, “İrakayin Seferi”, DIA, XIX/117-122
- Fabrıs Marıa Pıa Pedanı, “XV-XVIII Yüzyılda Osmanlı Venedik İlişkileri”, Osmanlı, Yeni Turkiye Yayınları, Ankara 1999, I/259-264
- Gıakoumıs Konstantınos, “Osmanlıların Otranto ve Apulia Seferi (1480-1481)” (حملة العثمانيين علي أوترانتو), çev. Kürşat Akpinar, Türkler IX/373-380
- Göğebakan Göknur, “Doğu Anadolu’nun Osmanlı Hakimiyetine Girişi”(دخول شرقي الأناضول تحت الحكم العثماني), Türkler, IX/463-464;
- Gökbilgin Tayip, “ Çaldıran “, IA, c. III/329-331
- Gökbilgin M. Tayib, " Kanunî Sultan Süleyman'ın Macarıstan ve Avrupa Siyasetinin Sebep ve Amilleri Geçirdiği Safhaları " (المراحل التي مرت بها دوافع سياسة السلطان سليمان القانوني في المجر وأوروبا), Kanunî 'ya Armağan, TTK.yay. Ankara 1970
- Gökbilgin T., “Kanunî Süleyman’ın 1566 Sigetvar Sebepleri ve Hazırlıkarı” (اسباب واستعدادات سليمان القانوني لحملة سيكتوار عام ١٥٦٦), Tarih Dergisi, XVI/21 (1966), 1-14
- M.Tayyib Gökbilgin, “ Mehmed Paşa, Sokullu Tavil “, IA/VII., 268-272
- Gökbilgin T., " Rüstem Paşa ve Hakkındaki İtihamlar "(رستم باشا والإتهامات المحيطة به), TD.VIII/11-12 (1956), s. 38
- Göyünç Nejat, XVI. Yüzyılda Merdin Sancağı (سنجق ماردين في القرن السادس عشر), Ankara 1990

- Grammont J. İ. Bacque, " XVI. Yüzyılın İlk Yarısında Osmanlılar ve Safavîler " (العثمانيون والصفويون خلال النصف الأول من القرن السادس عشر) Prof. Dr. Bekir Kütükoğlu'na Armağan, İstanbul 1991
- Guboglu M., " Kanunî Sultan Süleyman'ın Boğdan Seferi ve Zaferi" (حملة السلطان سليمان القانوني علي البغدان ، وانتصاره فيها), Belleten, L/198, (1987), s. 727-805
- Ersin Gülsay, " XVI-XVII Yüzyıllarda Akdeniz'de Osmanlı Hakimiyeti " (الحكم العثماني في البحر المتوسط خلال القرنين ١٦-١٧م), Türkler, Ankara 2002, IX/589-598
- Hins Walter, Uzun Hasan ve Şeyh Cüneyd XV. Yüzyılda İran'ın Milli bir Devlet Haline Yükelişi (أوزون حسن والشيخ جنيد وازدهار دولة قومية في إيران خلال القرن ١٦م), çev. T. Bıyıklıoğlu, Ankara 1992
- İlhan Mehmet Mehdi, Amid (Diyarbakır), Ankara 2000
- İlgürel Mücteba," Zirveden Dönüş: II. Selim'den III. Mehmed'e" (العودة من القمة : من عهد سليم الثاني إلي عهد محمد الثالث), Türkler, XIV/643-644
- İnalcik Halil, Fatih Devri Üzerinde Tetkikler ve Vesikalar (دراسات ووثائق حول عهد الفاتح), Ankara 1954
- İnalcık Halil, "Yeni Vesikalara göre Kırım Hanlığı'nın Osmanlı Tabiliğine Girmesi ve Ahidname Meselesi" (دخول خانية القرم للتبعية العثمانية ومسألة العهدنامه وفقاً للوثائق الحديثة), Belleten VIII/30, 1944, 185-129
- İnalcik Halil, "Osmanlılarda Saltanat Veraseti Usûlü ve Türk Hakimiyet Telekkisi ile İlgili" (أوصول وراثة السلطنة لدي العثمانيين ، وما يتعلق بها من أعراف الحكم العثماني), AUDTCFD., CXIV, (1959), s. 144

- İnalcik Halil, " Mehmed II.", IA., s.521-532
- Halil İnalcik, "Osmanlı-Rus Rekabetinin Menşe-I ve Don-Volga Kanalı Teşebbüsü" (محاولة شق قنال الدون- الفولجا وبداية التنافس العثماني الروسي), Belleten, III/46, s. 349-402
- İnan Kenan, "Fatih Sultan Mehmed İstanbul'un Fethi ve Etkileri" (فتح السلطان محمد الفاتح استانبول وتأثيراته), Türkler, IX/286-293
- İz Fahir, " Barbaros Hayreddin Paşa Gazavatnamesi Üzerinde Yeni Bir Araştırma" (دراسة حديثة حول غزواتنامه بربروس خير الدين باشا), TDAY, Belleten 1972 (1989), s.81-92
- Karaca Begset, "Safevî Devleti'nin Ortaya Çıkışı ve II. Bayezid Dönemi Osmanlı-Safevî İlişkileri" (ظهور الدولة الصفوية والعلاقات العثمانية الصفوية في عهد بايزيد الثاني), Türkler, XI/409-417
- Karadeniz Hasan Basrı, " Osmanlı Devletinin Beylikleri İlhak Siyaseti ve Dulkadırlı Beyliği'nin İlhakı " (سياسة إلحاق الدولة العثمانية للإمارات ، وإلحاق إمارة ذوالقدر), Türkler, Ankara 2002, IX/490
- Kırzoğlu Fehmettin, Osmanlı Kafkas Ellerini Fethi (1451-1590)(الفتح العثماني لولايات القفقاس), Ankara 1976
- Kuran Ercüment, "Osmanlı Döneminde Mağrib Tarihi" (تاريخ المغرب خلال العصر العثماني), Osmanlı, I/398
- Kumrular Ö., " İspanyol Kaynakları Işığında Kanunî'nin Alman Seferi "(حملة القانوني علي الألمان في ضوء المصادر الإسبانية), Tarih ve Toplum, XXXVI/216, Aralık 2001.
- Kurşun Zekeriye, "Osmanlı Devleti İdaresinde Hicaz"(الحجاز تحت الإدارة العثمانية), Türkler, XI/317-321
- Küçükdağ Yüsüf, "Osmanlı Devletinin Şah İsmail'in Anadolu'ya Şiileştirme Çalışmalarını Engellemeye

Yönelik Önlemleri" (تصدي الدولة العثمانية لمنع فعاليات الشاه إسماعيل لنشر التشيع في الأناضول), Osmanlı, Ankara1999, c.I,

- Kütükoğlu Bekir, " (Hadim) Sinan Paşa ",İA, X/663-664
- Kütükoğlu Bekir, Osmanlı – İran Siyasi Münasebetleri (العلاقات العثمانية – الإيرانية), İstanbul 1962
- Bekir Kütükoğlu, "Mustafa Paşa, Lala", IA/VIII, s.732-736
- ayn. Mlf., "Murad III.", IA/VIII., s.615-625
- Bekir Kütükoğlu, "Şah Tahmasb'ın III. Murad'a Cülüs Tebriki" (تهنئة الشاه طهماسب بجلوس مراد الثالث), Tarih Dergisi, sy.15, s. 1-24
- Miroğlu İ., " Kanunî Sultan Süleyman'ın Estergon Seferi"(حملة السلطان سليمان القانوني على استرغون), Osmanlı Araştırmaları, X, (1990), 137-159
- Nicol D., Bizans'in Son Yüzyılları (1291-1453) (القرون الأخيرة لبيزنطة), tec. B. Umur, Isatnbul 1999
- Cengiz Orhunlu, Habeş Eyaleti (ولاية الحبش), İstanbul 1974
- ayn. Mlf., "XVI. Asrın Ilk yarısında Kızıldeniz Sahillernde Osmanlılar" (العثمانيون في سواحل البحر الأحمر في النصف الأول من القرن ١٦م), Tarih Dergisi, XVI (1962), 1-10;
- C. Orhunlu, "Hind Kaptanlığı ve Piri Reis" (قبطانية الهند وبيري رئيس), Belleten, XXXIV/134 (1970), s.235-254
- ayn. Mlf., " Seyidi Ali Reis", Tarih Enstitüsü Dergisi, I, 1970
- Özdemir Mehmet, "Endülüs Müslümanlarına Osmanlı Yardımı"(المساعدات العثمانية لمسلمي الأندلس), Türkler, IX/393-396

- Özbaran Salih, " Osmanlı İmprartorluğu ve Hindistan Yolu " (الإمبراطورية العثمانية وطريق الهند), Tarih Dergisi, XXXI. /131-141 (Mart 1977), İstanbul 1978
- Perjes Geza, Mohac Meydan Muharabesi(معركة موهاج), özet ve tanıtma: Şerif Baştav, Ankara 1988
- Panaite Viorel, " Osmanlı Hakimiyetinin Tuna Nehrinin Küzeyinde Yayılışı : XIV ve XVI Yüzyıllarda Eflak ve Boğdan " (انتشار النفوذ العثماني شمالي نهر طونه : الأفلاق والبغدان خلال القرون ١٤-١٦م), Türkler, Ankara 2002, UX/206-218
- Pierce İ., Harem-I Hümayun, Osmanlı İmparatorluğunda Hükümdarlık ve Kadınlar (الحرم الهمايوني ، الحكم والنساء في الإمبراطورية العثمانية), terc. A. Berktay, İstanbul 1996
- Razanhak Şah, " Açe Padişah Sultan Ala'eddin'in Kanuni Sultan Süleyman'a Mektubu " (خطاب سلطان آجي السلطان علاء الدين إلي السلطان سليمان القانوني), Tarih Araştırmaları Dergisi, c.V/8-9, (1967), 372-409.
- Savaş Ali İbrahim, Osmanlı Devleti ile Habsburg İmparatorluğu Arasındaki Biplomatık İlişkileri" (العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية وإمبراطورية الهابسبورج), Türkler IX/555-565.
- Seyyid M. Es-Seyyid, "Kansu Gavrî", DIA. cilt XXIV/314-316
- Seyyid Muhammed es-Seyyid, "Mısır Eyaleti'nde Osmanlı Nizamının Kuruluşu" (تأسيس النظام العثماني في إيالة مصر), Osmanlı, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999, I/291
- Seyyid M. Es-Seyyid, XVI. Asırda Mısır Eyaleti (إيالة مصر في القرن ١٦م), İstanbul 1990

- Sırma İhsan Süreya, " Yemen'in Jeo-politik Durumu ve Osmanlı Devletine Katılması " (الوضع السياسي لليمن وضمها للدولة العثمانية), Tarih Enstitüsü Dergisi, sy.12, 427-444
- Soysal İsmail, " Türk – Fransiz Diploması Münasebetlerinin İlk Devri "(المرحلة الأولى للعلاقات التركية الفرنسية), Tarih Dergisi , sy. 3-4, 63-94
- Soncek S., " İnabahti Savaşi (1571) Hakkında Bazı Mülahazalar" (ملاحظات حول معركة اينه بختي ١٥٧١), Tarih Enstitüsü Dergisi, sy. 4-5, s. 35-43
- Sümer Faruk, Safevî Devletinin Kuruluşu ve Gelişmesinde Anadolu Türklerinin Rolu (تأسيس الدولة الصفوية ودور تركمان الأناضول في تطورها), Ankara 1976
- Şakiroğlu M.H., "Cem Sultan", DIA, VII/284-286
- Şakiroğlu Mahmud, "Halku'l-Vâd", DİA, c. XV/375-376
- Tacizade Cafer Çelebi, Mahruse-i İstanbul Fetihnamesi (فتحنامه استانبول المحروسة), TOEM., ilaveler
- Taksay Ahmed,"II. Bayezid Döneminde Osmanlı-Safavî İlişkileri"(العلاقات العثمانية الصفوية خلال عهد بايزد الثاني), Türk Yurdu, Aralık 1999- Ocak 2000
- Tansel Selahattin, Fatih'in Askerî ve Siyasî Faaliyetleri(الفعاليات العسكرية والسياسية للفاتح), Ankara 1953
- Tansel S., Sultan II. Bayezid'in Siyasî Hayatı (الحياة السياسية لبايزيد الثاني), İstanbul 1966
- S. Tansel, "Yeni Kaynak ve Vesikalar Karşısında Sultan II. Bayezid Hakkında Bazi mutala'alar" (بعض المطالعات حول السلطان بايزيد الثاني وفقاً للمصادر والوثائق الحديثة), Belleten, c.XVII, sy. 106, s.44-57

- Tansel S., Osmanlı Kaynaklarına gore Fatih Sultan Mehmed'in Siyasî ve Askerî Faaliyetleri (الفعاليات السياسية والعسكرية لمحمد الفاتح وفقاً للمصادر العثمانية), Ankara 1999
- Tekindağ Ş., " Son Osmanlı Karaman Münasbetleri Hakkında Araştırmalar"(دراسات حول العلاقات العثمانية القرمانية الأخيرة), TD., XIII./17-18, İstanbul 1964
- Tekindağ Ş., " II. Bayezid Devri'nde Çukurova'da Nüfus Mücadelesi ve İlk Osmanlı Memlük Savaşları" (الصراع علي النفوذ في حقوراووا في عهد بايزيد الثاني، والحروب العثمانية المملوكية الأولي), Belleten, XXXI/123, 1969, s.345-373
- Tekindağ Ş., "Bayezid II.'nin Tahta Çıkışı Sırasında İstanbul'da Vukua Gelen Hadiseler Üzerine Notlar" (ملاحظات حول الحوادث التي وقعت في استانبول اثناء اعتلاء بايزيد الثاني العرش), Tarih Dergisi, X/14, 1959, s. 85-96
- Tekindağ Ş., "Korkut Çelebi ile ilgili İki Belge" (وثيقتان تتعلقان بقورقود حلبي), Belgelerle Türk Tarihi Dergisi, sy.17/1969
- Tekindağ Ş., "Şahkulu Baba Tekeli İsyanı" (حركة عصيان تكه لي لشاه قولي بابا), Belglelerle Türk Tarihi Dergisi, sy. 3-4, Ankara 1967
- Tekindağ Ş., "Bayezid'in Ölümü Meslesi"(مشكلة وفاة بايزيد), Tarih Dergisi, sy.24, Mart 1976
- Tekindağ Ş., "Yeni Kaynak ve vesikaların Işığı Altında Yavuz Sultan Selim'in İran Seferi" (حملة سليم الأول علي إيران في ضوء الوثائق والمصادر الحديثة), TD, XVI./22(1968), s. 49-78
- Timur Taner, "Osmanlı Devleti'nde Para ve Politika Sokollu Mehmed Paşa ve Yasef Nasi" (النقود والسياسة في الدولة العثمانية وصقوللي محمد باشا ويوسف الناسي), Tarih Çevresi, XIV(Ocak-Şubat 1995), s. 6

- Turan Ş., " Rodos'un Zaptından Malta Muhasarasına " (من فتح رودس وحتى حصار مالطه), Kanunî Armağanı, Ankara 1970, s. 33
- Turan Ş., Kanuni'nin Oğlu Şehzade Bayezid Vakası, Ankara 1961
- ________., "Şehzade Beyazid'in Babası Kanunî Sultan Süleyman'a gönderdiği Mektupler" (الخطابات التي أرسلها الشهزاده بايزيد لأبيه السلطان سليمان القانوني), Tarih Vesikaları,I/16 (1955), 118-127
- Şerefeddin Turan, "Barbaros Hayreddin Paşa", DIA,V/65-67
- Turan S., "Sakız'ın Türk Hakimiyetine Alınması" (دخول ساقيز تحت الحكم العثماني), Tarih Araştırmaları Dergisi, IV/6-7 , Ankara 1966, s. 175-193
- Uluçay Çağatay, " Yavuz Sultan Selim Nasıl Sultan Oldu? "(كيف اصبح ياووز سلطان سليم سلطاناً ؟), Tarih Dergisi, c. VIII, s. 138-145
- Memet Ali Unal, XVI. Yüzyılda Harput Sancağı (سنجق خربوط خلال القرن ١٦م), Ankara 1989
- Uzunçarşili İ.H , Osmanlı Tarihi (التاريخ العثماني), I., 4. bas., Ankara 1982
- ____________., Osmanlı Tarihi(التاريخ العثماني), II. Cilt, Ankara 1983, s.20 vd.
- ___________, Osmanlı Tarihi(التاريخ العثماني) , III,Ankara 1951
- ___________, Osmanlı Devletinin Merkez ve Bahriye Teşkilati (تشكيلات المركز والبحرية في الدولة العثمانية), Ankara 1943

- ____________, "Kıbrıs'ın Fethi ile Lepant (İnebahtı) Muharebesi Sırasında Türk Devleti ile Venedik ve Müttefiklerinin Faaliyetlerine Dair Hazine-i Evrak Kayıtları" (قيود خزينة الأوراق المتعلقة بفعاليات الدولة التركية والبنادقة وحلفائها أثناء معركة ليانتو وفتح قبرص), Türkiye Mecmuası, III (1935), s. 257
- Yınanç R., Dulkadır Beyliği (إمارة ذوالقدر), Ankara 1989
- Hulusı Yavuz, Kabe ve Haremeyn için Yemen'de Osmanlı Hakimiyeti 1517-1571 (الحكم العثماني في اليمن من أجل الكعبة والحرمين), İstanbul 1984
- Yurdaydın H.G., " Kanunî'nin Cülûs ve İlk Seferleri (جلوس القانوني وحملاته الأولى), Ankara 1961
- Yücel Y., Anadolu Beylikleri Hakkında Araştırmalar (دراسات حول الإمارات الأناضولية) I., Ankara 1991
- Zekeriyazade, Ferah (Cerbe) Savaşı(معركة حربه), sadeleştirme O. Ş. Gökyay, İstanbul 1980

- غير التركية :

- Bostan İ. -A. Gassola-T. Sheben, The 1565 Ottoman Malta Campaıgn Register, Malta 1998
- Chrıstıne Isom, "An Ottoman Report abuot Martin Luther and the Emperor,Turcıca, XXVIII(1996)299-318
- Boser C., The Portauguse Seaborn Empire 1415-1825, London 1969
- David Geza - P. Fodor, " Hungarian – Ottoman Feace Negatiations İn 1512-1514, Hungorian-Ottoman Military and Diplomatic Telations İn The Age Of Süleyman The Magnificent, Budapeste 1994
- Walsh J. R., " The Recolt of Elkas Mırza", WZLM 68 (1976)

- Jensen Delamar,"The Ottoman Turks in Sixteenth Century French Dıplomacy", Teh Sixteenth Century Journal, XVI/4(1985), 451-466
- İnalcık Halil, The Ottoman Empire Teh Classical Age, 1300-1600, London 1963



تاريخ	وحدث
١٤٥١	- جلوس محمد الثاني (١٨ فبراير) .
---	- حملة محمد الثاني علي أبناء قره مان (مايو – يونية) .
---	- تجديد العثمانيين لمعاهدة السلام مع البنادقة (١٠ سبتمبر) ومع
---	المجر (٢٠ نوفمبر) .
١٤٥٢	- إنشاء قلعة روميلي حصار لإحكام السيطرة علي مضيق البسفور.
---	- بداية المواجهة بين العثمانيين والبيزنطيين .
١٤٥٣	- محاصرة استانبول (٦ إبريل – ٢٩ مايو) .
١٤٥٤	- عقد الفاتح معاهدة السلام مع البنادقة (١٨ إبريل) .
---	- حملة الفاتح علي بلاد الصرب .
---	- نزول الأسطول العثماني في البحر الأسود .
---	- إجبار المستعمرات الجنوية علي البحر الأسود علي دفع الخراج.
١٤٥٥	- إلزام مولدافيا علي دفع الخراج .
---	- حملة الفاتح الثانية علي بلاد الصرب .
١٤٥٦	- إلزام إمبراطورية الروم في طربزون علي دفع الخراج .
١٤٥٨	- حملة محمود باشا علي بلاد الصرب .
---	- غزو محمد الفاتح للمورة .
١٤٥٩	- فتح سمندره (يونية) .
---	- فتح أماصرا .
١٤٦٠	- فتح المورة .
١٤٦١	- ضم أراضي إمارة أبناء جندار إلي الأملاك العثمانية .
---	- القضاء علي إمبراطورية الروم في طرابزون .
١٤٦٢	- فتح محمد الثاني لبلاد الأفلاق .
---	- دخول محمود باشا جزيرة ليمني .

١٤٦٣	- بداية الحرب مع البنادقة ، سيطرة البنادقة علي بلاد المورة .
---	- فتح السلطان محمد الثاني لبلاد البوسنة ، ودخول ملـك المجـر
---	لعاصمتها في يايجه .
١٤٦٤	- إستعادة العثمانيين لبلاد المورة من جديد .
---	- محاصرة محمد الفاتح لمدينة يايجه .
---	- موت إبراهيم بن قره مان ، وبدء الصراع الداخلي في الإمارة.
١٤٦٧	- حملة محمد الفاتح علي إسكندر بك العاصي في بلاد الأرناؤوط .
---	- إلتجاء شهسوار إبن ذوالقدر إلي العثمانيين .
١٤٦٨	- ضم محمد الفاتح لولاية قره مان .
١٤٧٠	- فتح محمد الفاتح لجزيرة أكري بوز .
١٤٧١	- عقد أوزون حسن اتفاق دفاعي مع البنادقة وأمراء قبرس ورودس
---	ضد العثمانيين .
١٤٧٢	- استيلاء جيش الآق قويونلي — القره ماني علي قره مان .
---	- قتل المماليك لأمير ذوالقدر شهسوار .
١٤٧٣	- معركة أوتلق بلي (١١ أغسطس) .
١٤٧٨	- محاصرة مدينة أشكودرا ، وإستسـلام قلعـة قوريـا في بـلاد
---	الأرناؤوط .
١٤٧٩	- عقد اتفاقية السلام بين العثمانيين والبنادقة (٢٥ يناير) .
١٤٨٠	- محاصرة مسيح باشا لجزيرة رودس ، ودخول أحمد باشا أوترانتو
١٤٨١	- وفاة محمد الفاتح (٣ مايو) .
---	- جلوس بايزيد الثاني (٢٠ مايو)
---	- الحرب بين بايزيد وجم سلطان (٢٠ يونية) .
١٤٨٢	- عقد بايزيد الثاني للإتفاقية مع فرسان رودس حول حجز جم في
---	رودس .

١٤٨٤	- حملة بايزيد الثاني علي مولدافيا ، وضم أراضي كيلي وآق كرمان
---	للعثمانيين .
١٤٨٤-١٤٩١	- الحرب العثمانية – المملوكية .
١٤٩٥	- وفاة جم سلطان (٢٥ فبراير)
١٤٩٩-١٥٠٣	- الحرب مع البنادقة .
١٤٩٩	- انتصار العثمانيين البحري في نوارين (١٢ أغسطس) ، وفتح
---	اينه بختي .
١٥٠٤	- دخول الشاه إسماعيل الصفوي لبغداد .
١٥١٢	- إجبار سليم الأول أبيه بايزيد علي النزول عن العرش بتأييد
---	اليكيجري (٢٤ إبريل) .
---	- وفاة بايزيد الثاني (٢٦ مايو) .
١٥١٢-١٥١٣	- هزيمة سليم لإخوته وقتلهم .
---	- القضاء علي أتباع إسماعيل الصفوي في الأناضول .
١٥١٤	- هزيمة السلطان سليم الأول للشاه إسماعيل الصفوي في معركة
---	چالديران (٢٣ أغسطس) .
١٥١٥	- عصيان جند اليكيجري (فبراير) .
---	- ضم كماه وإمارة ذوالقدر للأراضي العثمانية .
١٥١٦	- ضم دياربكر ، وخضوع شرقي الأناضول للعثمانيين .
---	- معركة مرج دابق بين العثماينن والمماليك ، ودخول سليم الأولي
---	لحلب .
١٥١٧	- معركة الريدانية (٢٢ يناير) . قيادة طومانباي القاومة
---	المملوكية في القاهرة .
---	- تقديم شريف مكة فرض الطاعة للسلطان سليم في القاهرة .
١٥٢٠	- وفاة ياووز سلطان سليم .

---	- تولية سليمان القانوني .
١٥٢١	- فتح بلجراد (٢٩ أغعسطس) .
---	- عصيان جانبردي الغزالي في الشام ، والقضاء علي حركته وقتله (
---	فبراير) .
١٥٢٢	- فتح رودس (٢١ يناير) .
١٥٢٣	- تعيين إبراهيم باشا وزير أعظم .
١٥٢٤	- عصيان أحمد باشا في مصر .
١٥٢٥	- توجه إبراهيم باشا إلي مصر ، ووضعه لنظامها الدائم في العصر
---	العثماني .
١٥٢٦	- معركة مهاج (٢٩ أغسطس)
---	- دخول سليمان القانوني لبودين(١٠ سبتمبر)، وإجلاس زابوليـا
---	علي عرش المجر(١٠نوفمبر)
١٥٢٧	- دخول فرديناند ملك النمسا لبودين .
١٥٢٩	- إستعادة سليمان القانوني لبودين (٨ سبتمبر)، إلباس زابوليا تاج
---	مملكة المجر(١٤سبتمبر) .
---	- محاصرة سليمان القانوني لمدينة فيينا بالنمسا (٢٦ سبتمبر — ١٦
---	أكتوبر) .
١٥٣٢	- حملة سليمان القانوني علي النمسا .
١٥٣٣	- عقد الهدنة مع ملك النمسا فرديناند (٢٢ يونية) .
---	- تعيين خير الدين بربروس في قيادة الأسطول العثماني (أغسطس).
---	- فتح قورون (١٢ سبتمبر) .
---	- الحرب مع إيران (أغسطس) .
١٥٣٤	- فتح تبريز (١٣ يوليه) .
---	- دخول السلطان سليمان القانوني لبغداد .

السنة	الحدث
١٥٣٥	- دخول شارلكن (شارل الخامس) لتونس (٢١ يولية) .
١٥٣٦	- إعدام إبراهيم باشا ((٥ مارس) .
١٥٣٧	- بداية الحرب مع البنادقة .
١٥٣٨	- دخول سليمان القانوني لمولدافيا ، ضم جنوبي مولدافيا للأراضي
---	العثمانية
---	- وصول سليمان باشا أمام ديو (٤ سبتمبر) .
---	- انتصار بروه زه البحري (٢٩ سبتمبر) .
١٥٤٠	- عقد اتفاق السلام مع البنادقة (٢ أكتوبر)
---	- موت زابوليا ، ومحاصرة النمسا لبودين .
١٥٤١	- حملة ايستابور علي فرديناند .
---	- ضم بلاد المجر للأراضي العثماني .
---	- وصول شارل الخامس للجزائر .
١٥٤٣	- استيلاء اسطول التحالف العثماني — الفرنس علي نـيس (٢٠
---	أغسطس) .
---	- دخول السلطان سليمان بلاد المجر وفتحه والبو وبشته وشيكلوس
---	وجراند .
١٥٤٥	- الهدنة بين سليمان القانوني وفرديناند .
١٥٤٧	- عقد معاهدة السلام بين العثمانيين والهابسبورج والبابا والبناقـة
---	وفرنسا (١ أغسطس) .
١٥٤٨	- حملة سليمان القانوني علي إيران ، وضم وان (٢٥ أغسطس).
١٥٤٩	- الفتوح العثمانية لبلاد گرجستان
١٥٥١	- دخول العثمانيين للبغدان ، وفتح واراد وجناد وليبا .
١٥٥٢	- فتح طمشوار والمدن الأخري في نواحي بناط .
---	- إحتلال الروس لقازان .

١٥٥٣	- الحرب مع إيران .
---	- إعدام الشهزاده مصطفي .
١٥٥٤	- حملة سليمان القانوني علي إيران ، وفتح نخجوان وأريوان .
---	- احتلال الروس لإستراخان .
١٥٥٥	- عقد العثمانيين معاهدة سلام في أماسيا مع إيران .
١٥٥٩	- مشاجرة أبناء سليمان سليم وبايزيد علي ولاية العهد ، وفـــرار
---	بايزيد إلي إيران .
١٥٦٠	- دخول الأسبان إلي جربه ، وفتح قبطان البحر بيالة باشا للجزيرة
---	(٣١ يولية) .
١٥٦١	- إعدام الشهزادة بايزيد (٢٥ سبتمبر) .
١٥٦٥	- محاصرة جزيرة مالطة (٢٠ مايو – ١١ سبتمبر) .
١٥٦٦	- محاصرة سيگتوار (٥ أغسطس – ٧ سبتمبر) .
---	- وفاة السلطان سليمان القانوني امام سيگتوار (٦ سبتمبر) .
---	- إعتلاء سليم الثاني العرش (٢٤ سبتمبر) .
---	- فتح جزيرة ساقيز .
١٥٦٧	- حركة عصيان الزيدية وآل مطهر في اليمن .
١٥٦٨	- عقد السلام مع إمبراطور النمسا .
١٥٦٩	- حملة العثمانيين ضد الروس .
---	- مشروع قنال الدون – فولجا ، ومحاصرة استراخان (سبتمبر).
١٥٧٠	- ضم ألوج علي تونس للأراضي العثمانية .
---	- حملة قبرص ومحاصرة لفكوشة .
١٥٧١	- تشكيل التحالف المقدس ضد العثمانيين (٢٠ مايو) .
---	- فتح العثمانيين لماغوسة (١ أغسطس) .
---	- معركة إينه بختي (٧ أكتوبر) .

١٥٧٢	- إستيلاء خان القرم دولت گراي علي موسكو .
---	- احتلال ملك النمسا دون جوان لتونس .
١٥٧٣	- عقد اتفاق السلام مع البنادقة (٧ مارس) .
١٥٧٤	- وفاة سليم الثاني (١٢ ديسمبر) .
---	- إعادة سنان باشا لفتح تونس (٢٤ أغسطس) .
١٥٧٩	- بداية الحرب مع إيران ، انتصار لالا مصطفي باشا في چيلدر (
---	١٠ أغسطس) .
---	- مقتل الوزير الأعظم صقوللي محمد باشا .
---	- ضم گورجستان وشيروان ودربند للأراضي العثمانية .

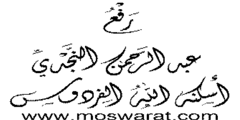

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الفصل الثالث

عوامل الخلل وأسباب الانهيار


رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الدولة العثمـــانية
في الرحلة من عصر النشأة والازدهار إلي عصر الضعف والانهيار

يرتبط انهيار دولة من الدول ارتباطا أصيلا بضعف الدعائم التى قامت عليها هذه الدولة ، وبخبو القوة الدافعة التى حققت لها الانطلاقة الأولى ، وبالتخلى عن المثل العليا التى ضمنت سلامة هذه الدعائم من التداعى ، وحافظت على استمرار الحيوية في تلك القوة الدافعة .

ولما كان لكل حدث مقدماته التى تتناسب مع حجمه وقوة تأثيره في المحيط الزمانى والمكانى ، ولكل واقعة أسبابها التى تتفق أهميتها مع مدى ما تمخضت عنه تلك الواقعة من نتائج ، فإن النتائج بعيدة المدى لانهيار الدولة العثمانية تجعلنا دائما نرجع إلى الوراء لنلقى نظرة متفحصة على الأسباب التى أدت إلى هذا الانهيار ، ومن ثم إلى ظهور العديد من بؤر الصراع في العالم اليوم .

والحقيقة أن أسباب انهيار الدولة العثمانية لم تكن وليدة القرنين الأخيرين من حياة الدولة ، وإنما امتدت جذورها إلى عصر النشأة ، وارتبطت بنظام الحكم فيها ، وبسياستها الداخلية والخارجية . ولذلك ، لزم علينا ، بداية ، أن نعرض في لمحةٍ سريعةٍ لظهور الدولة العثمانية على ساحة التاريخ ، والدعائم التى قامت عليها وكان لتزلزلها أثر عظيم في عملية الإنهيار .

الدولة العثمانية فى عصر النشأة والازدهار :

لقد كان للموقع الفريد الذى اتخذته قبيلة آل عثمان منطلقا لها في شمال غربى الأناضول وعلى طول خط الحدود السلجوقية – البيزنطية[٢٧٩] ، أثر عظيم في

[٢٧٩] محمد فؤاد كوبريلى ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمه وقدم له أحمد السعيد سليمان ، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٢٧ ، ١٨٣ .

تحديد الهدف الإستراتيجي للإمارة الوليدة ، ثم للدولة العثمانية بعد ذلك ، وفى تشكيل الطبيعة العسكرية لها ، ومن ثم في جعل كافة مؤسساتها تعمل في خدمة هذا الهدف المتمثل في عمليات الغزو والجهاد .

وهكذا ، لم يكن للإمارة العثمانية منذ ظهورها ، ثم استقلالها على يد عثمان غازى (١٢٩٩م/٦٩٩هـ) وحتى عصر مراد الأول (١٣٦٢-١٣٨٩م/٧٦٣-٧٩١هـ) عدو سوى مركز الكنيسة الشرقية في "بيزنطة" ، ولا جبهة إلاّ الجبهة الغربية المفتوحة على أوروبا[٢٨٠] ، الأمر الذي مكنها من سرعة التوسع والنمو على حساب الأراضي البيزنطية . وهكذا راح الغزاة العثمانيون تحت قيادتهم الموحدة ، ومن خلال مؤسسة عسكرية ذات قوة ضاربة ومدد معنوي ومادي لا ينضب ، يديرون دولتهم في الداخل ويحققون الانتصارات المتتالية في الخارج ، حتى استطاعت الدولة العثمانية خلال قرن واحد من الزمان أن تتبنى فكرة حكم العالم بنظام مركزي مطلق وأن توفق في تنفيذها عقب فتح " القسطنطينية " (١٤٥٣م/٨٥٧هـ) على يد السلطان محمد الفـــاتح (١٤٥١-١٤٨١م/٨٥٥-٨٨٦هـ)[٢٨١] .

وقد تزامنت مرحلة ازدهار الدولة العثمانية مع ظهور تحديات جديدة لها في الشرق وتتمثل في قيام الدولة الصفوية (١٥٠١م/٩٠٧هـ) التى راحت تتصدى للتقدم العثمانى السنى صوب الشرق ، وتنشر المذهب الشيعى بين التجمعات

---

[٢٨٠] خليل اينالجق ، " العثمانيون في عصر النشأة والازدهار " ، دراسات في التاريخ العثمانى ، ترجمة وتقديم وتعليق سيد محمد السيد ، القاهرة ١٩٦٦، ص ٣٧-٤٥؛كوبريلى ، قيام الدولة العثمانية ، ص ١٨٠-١٨٢ ؛ Paul Wittek , Osmanli Imparatorlugunun Kurulusu " cev.Guzin Yalter ,Bati Dillerinde Osmanli Tarihleri , Ist. 1971, s. 33,42

[٢٨١] خليل اينالجق ، " العثمانيون في عصر النشأة والازدهار ، ص ٦١-٧٠ ؛ Paul Wettik , " Ankara Bozgunundan Istanbul"un Fethine Kadar " cev. Mualla Suerdim , Bati Dillerinde Osmanli Tarihleri , 55, 76 .

التركمانية[282] ، وفى الغرب بقيام دولة الهابسبورج التى أخذت تواجه الزحف العثماني في عمق أوروبا وفى البحر المتوسط ، وتعمل كرأس حربة للعالم المسيحى حتى مطلع القرن ١٨م/١٢هـ[283] ، وفى الجنوب بالتفاف البرتغال حول العالم الإسلامي لقطع موارده الاقتصادية[284] . فقامت الدولة العثمانية بدورها ، باعتبارها قائدة العالم الإسلامي آنئذ ، في حماية العالم الإسلامي السنى من التعديات الشيعية والصليبية ، وتوسيع حدوده ناحية الغرب ، ونشر نفوذه على مناطق شاسعة من العالم من خلال توجيه السياسة العالمية في الشرق والغرب .

دعائم قيام الدولة العثمانية وازدهارها :

لقد قامت الدولة العثمانية على دعائم ضربت بجذورها في أعماق التاريخ الإسلامي وتشعبت فروعها في أنحاء العالم الإسلامي ، وحددت وجهتها منذ اليوم الأول من وجودها السياسى على مسرح الأحداث ، وانطلقت إليه دون أن يشغلها شاغل حتى ظهور عوامل الخلل وأسباب الانحطاط .

وإذا كانت الدولة العثمانية تدين بوجودها السياسى للهدف الإستراتيجي الذى قامت عليه ، وهو الغزو والجهاد ، فإن ازدهارها يرجع في المقام الأول إلى نجاح القيادة العثمانية في توظيف امكاناتها المادية والمعنوية ، وفى الاستفادة من التطورات الخارجية لتحقيق هذا الهدف . وبذلك يمكن أيضا ربط اضمحلالها وزوالها بعجز هذه القيادة عن حماية ما تحقق من انجاز ، فضلا عن الاستمرار في تحقيق الهدف

---

[282] -Ismail Aka , " X. yuzyildan XX. Yuzyila Kadar Siilik " Milletlerarasi Tarihte ve Gunumzde Siilik Sempozyumu (13-15 Subat 1993) Istanbul 1993 , s. 90 .

[283] - I. H. Uzuncarsili , Osmanli Tarihi , II. 4.bas. , Ank. 1983 ,s.482

[284] فاروق عثمان اباظة ، أثر تحول التجارة العالمية الى رأس الرجاء الصالح ، وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، القاهرة د.ت. ، ص ٥٤-٥٦ ، ٧٢-٧٣ ، كذا انظر بول كولز ، العثمانيون في اوروبا ، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، القاهرة ١٩٩٣، ص ١٠٦ .

المنشود . ويمكننا حصر الدعائم الأساسية التي قامت عليها الدولة العثمانية في العناصر التالية :

أ - **وضوح الهدف** : لقد كانت حماية العالم الإسلامي من الحملات الصليبية ، وتوحيده في مواجهتها ، وانطلاق الغزو والفتح توسيعاً للدولة الإسلامية غرباً ، هي الأهداف التي سعى العثمانيون لتحقيقها في انطلاقتهم صوب أوروبا ، منذ تأسست دولتهم، وحتى ظهور عوامل الخلل فيها[٢٨٥] .

ب - **القيادة القادرة على تحقيق الهدف** : لقد تولى الدولة العثمانية في عصر النشأة والازدهار عشرة أمراء غزاة وسلاطين عظام ، توفرت فيهم صفات الشجاعة والجدية والإقدام ومحبة الجهاد ، وحسن القيادة العسكرية ، والحنكة السياسية والمقدرة على الإدارة الحكيمة والتنظيم ، وذلك علاوة على الخلال الكريمة من عدل ، وإنصاف وكرم . استطاع أربعة منهم [يلدرم بايزيد(١٣٨٩-١٤٠٢م/٧٩١-٨٠٥هـ) ، محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١م/ ٨٥٥-٨٨٦هـ) ، ياووز سليم (١٥١٢-١٥٢٠م/٩١٨-٩٢٦هـ)، وسليمان القانوني(١٥٢٠-١٥٦٦م/ ٩٢٦-٩٧٤هـ)][٢٨٦] نقل الدولة من مصاف الإمارات الحدودية الصغيرة إلى دولة عالمية ، صارت محورا للسياسة الدولية حتى القرن العشرين .

ج- **الطبيعة العسكرية للدولة** : لم تكن الطبيعة العسكرية للعثمانيين طارئة عليهم ، بل كانت أصيلة استمدوها من بيئتهم وعززتها الغاية التي حملها العثمانيون على عاتقهم . فقد كانت قبيلة آل عثمان ، إحدى القبائل التي كانت ترابط على الثغور الغربية للدولة السلجوقية تعمل لخدمة الغزاة الذين كانوا في حالة

---

٢٨٥ - Feridun Emecen , " Osmanli Siyasi Tarihi , Kuruluştan Küçük Kaynarcaya " , Osmanli Devleti ve Medeniyeti Tarihi , Editor: Ekmeleddin Ihsanoglu , I. Ist. 1996 , 8-9

٢٨٦ I. H. Uzuncarsili , Osmanli Devletinin Saray Teskilati , 3. bas. Ank. 1984,s. 80-85

حرب دائمة مع الإمارات البيزنطية[287] . ولذلك عرف الجيش العثمانى الأول وظيفتان هما : الحرب في ميدان القتال ، وحكم الأراضي المفتوحة. فكان الأمراء يقودون الغزاة وقت الحرب ، ويحكمون الولايات ويديرون شئونها وقت السلم[288] . فلما اتسعت حدود الدولة ، انقسم الجيش إلى قسمين :

الأول – جيش المركز : وعرف باسم " قابو قولى " أي خدم الباب ؛ وكان يتشكل من جند المشاة (يكيچرى/ أى الانكشارية) ، والفرسان (سوارى)، ثم القوات المساعدة . وكان هذا الجيش يمثل القوات الخاصة المرتبطة بشخص السلطان العثمانى ، والقوة الدافعة للدولة خلال فترة النشأة والإزدهار[289] . وقد انبهر المستشرق " لوبولد رونكه " بأخلاقيات وأدآب وتربية وتدريب وفدائية وإخلاص هذا الجيش النظامى للسلطان العثمانى وللدولة ، فلم يملك إلا أن يصفهم بقوله : " *... انهم لم يكن لهم وطن غير السراى السلطانى ، ولم يكن لهم سيدا سوى السلطان العثمانى ، فلم يعرفوا إلاّ أوامره وإرادته ، ولم يطمعوا إلاّ في رعايته ، .. وإنهم لم يعرفوا حياة غير الانضباط الجاد ، والطاعة العمياء ، ولم يكن لهم عمل غير الحرب والقتال تحت قيادة السلطان ، ولم تكن لهم رغبة إلاّ في العزّة في الحياة ، ودخول الجنة التى تفتح أبوابها للمجاهدين بعد الممات ...* "[290]

---

[287] محمد فؤاد كوبريلى ، قيام الدولة العثمانية ، ص. ١٢٧-١٣٤؛ Uzuncarsili,Osmanli Tarihi, I.4.bas. Ank.1982,s.79

[288] Uzuncarsili , Osmanli Tarihi , I. , s. 504-506

[289] Uzuncarsili , Osmanli Devleti Teskilatinden Kapukulu Ocaklari , I. 2.bas. , Ank. 1984 ,1-4

[290] Leapold Von Renke , " on altinci ve on yedinci asirda Osmanlilar ve Ispanya Kiralligi " cev. Halid Ilteber , Bati DillerindeOsmanli Tarihleri , s. 131 .

الثاني – جيش الولايات : وهو ما عرف أفراده بإسم " سپاهية التيمار" (تيمار سپاهيلري) . وكان هذا الجيش يتشكل من خلال " نظام التيمار" ، حيث كان كل أمير يتولى مقاطعة تيمار يلتزم بإعداد وتجهيز عدداً محدداً من الفرسان ، فيخرج على رأسهم وقت الحرب ، ويدير هذه المقاطعة وقت السلم ، وذلك مقابل أن تترك الدولة له خراج هذه المقاطعة[٢٩١] .

وقد اعتبر هذا الجيش ، الدعامة الأساسية للدولة العثمانية ، فهو يمثل الميمنة والميسرة في ميدان القتال ، وهو جيش غير دائم ، تقوم على عاتق أفراده مسئوليات عديدة داخلية وخارجية ؛ فيقوم بحماية الولايات من أهل الفساد ، وتعمير أراضيها في الداخل ، والمرابطة عند ثغور الدولة . وكان " نظام التيمار " ييسر للدولة توفير أعداد كبيرة من الفرسان المحاربين من كافة ولاياتها وقت الحاجة ، دون أن تتحمل الخزينة أية أعباء مالية ، وإدارة ولاياتها وحمايتها دون أن تلتزم بدفع رواتب دورية أو غير دورية للأمراء وللجند ، وزراعة أراضيها وتوفير احتياجات ولاياتها الاقتصادية والمالية ؛ فكان نظام التيمار بمثابة نظام عسكري – اقتصادي – اجتماعي مثالي لدولة قامت على سياسة الغزو والجهاد .

الدولة العثمانية في طور الضعف والانهيار :

لقد اتفق المؤرخون المعاصرون على أن عصر السلطان سليمان القانوني ، هو العصر الذهبي للدولة العثمانية ، وأكد الكثير منهم على أنّ أولى مظاهر ضعف وانهيار هذه الدولة قد بدأت في الظهور أيضا خلال هذا العصر[٢٩٢] ؛ غير أن هؤلاء المؤرخين

---

[٢٩١] - Uzuncarsili , Osmanli Tarihi , I , s. 516-517 ; Abdulkadir ozca, " Osmanli Askeri Teskilati " , Osmanli Devleti ve Medeniyeti Tarihi , s. 351-353 .

[٢٩٢] محمد انيس ، محاضرات في تاريخ الشرق الاوسط الحديث ١٥١٦-١٩١٤ ، القاهرة د.ت. ، ص ٩٩ ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في اصول التاريخ العثمانى ، ط٢، القاهرة ١٩٩٣، ص ١٠٠-١٠٤ ؛ اوموند تيلور ، سقوط الأسر الحاكمة ، ترجمة علي عزت الانصارى ، مراجعة محمد انيس ،

اختلفوا حول الأسباب التي أدت إلى هذا الضعف ، وذلك الاضمحلال . ففى الوقت الذى يرى فيه البعض أنّ العوامل الداخلية كضعف سلطة السلطان العثمانى ، وفساد النظم العسكرية والإدارية هى أصل الداء[٢٩٣] ، فإن البعض الآخر راح يؤكد على أن العامل الخارجي الذي يتمثل في يقظة أوروبا في مواجهة الزحف العثماني ، هو العامل الحاسم الذي تمكن من القضاء على الدولة في النهاية[٢٩٤] . والحقيقة أن كلا من هذين العاملين كان سبباً ونتيجةً للآخر ، فهما متداخلان توالدت فيهما الأسباب والنتائج ، فتشعبت آثارهما السلبية في مختلف مؤسسات الدولة العثمانية حتى آلت للسقوط مع مطلع القرن ١٩م/١٣هـ .

الإدراك المبكر لمظاهر الانهيار :

لقد أدرك بعض رجال الدولة العثمانية ، منذ وقت مبكر ، بعض مواطن الضعف التي تسللت لمؤسسات دولتهم خلال عصر سليمان القانونى ، إلاّ أنّ عظمة الدولة وقوتها في هذه الفترة حالت دون أخذ الملاحظات التي طرحها الوزير الأعظم المخلوع لطفى باشا (١٥٣٩-١٥٤١م/ ٩٤٦-٩٤٨هـ) حول السلبيات التي كانت موجودة في جهاز الدولة ومؤسساتها آنئذ[٢٩٥] مأخذ الجدّ ، حتى بدأت هذه السلبيات تظهر بوضوح منذ الربع الأخير من القرن ١٦م/١٠هـ .

القاهرة ١٩٦٢ ، ص١٧٣-١٧٤ ، ١٧٨ ؛ V. Ronke , " XVI. ve XVII. asirda Osmanlilar ve Ispanya Kiralligi " , s. 161 ; Uzuncarsili , Osmanli Tarihi , II. / 401-408

[٢٩٣] - Halil Inalcik , " Turkler (Osmanlilar) " , IA. XII/2 , s. 296 .

[٢٩٤] فيما يتعلق بهذا الرأى انظر : نادية محمد مصطفى وآخرون ، " العصر العثمانى من القوة والهيمنة الى بداية المسألة الشرقية " ، العلاقات الدولية في التاريخ الاسلامى ، ج١١، القاهرة ١٩٩٦ ، ص ١١١٤-١١٥.

[٢٩٥] - Mubahat Kutukoglu , " Lutfu Pasa Asafnamesi " , Prof. Dr. Bekirkutukoglu'na Armagan , TEM.(Tarih Enstutusu Dergisi) , Ist. 1991 , s. 49-99

وإذا كان التقدم العثماني نحو الغرب قد شغل أوروبا أيضا منذ القرن ١٤م/٨هـ، حيث مثّل العثمانيون الخطر الإسلامي الداهم على الشعوب المسيحية في أوروبا منذ سقوط القسطنطينية (١٤٥٣م/٨٥٧هـ) ، وبدأ ملوكها وقادتها ومفكروها يبحثون عن الوسائل لمواجهة هذا الخطر في الداخل وفى الخارج ، ويرصدون تلك التغييرات التى بدأت تظهر ملامحها في أجهزة الدولة منذ الربع الأخير من القرن ١٦م/١٠هـ [٢٩٦] ، فإن النجاح الأول الذى حققه التحالف الصليبى ضد العثمانيين عند لبانتو (اينه باختى) عام١٥٧١م/ ٩٧٩ هـ ، جعل رجال الدين والسياسة الأوروبيون يعلنون أن الدولة العثمانية تتعرض لتغييرات هامة في نظامها الأساسي قد تؤدى بها إلى الانهيار ، وأنه يجب البحث عن عوامل قوتها لإضعافها ، ومظاهر الضعف فيها لنشرها[٢٩٧] .

ومن ناحية أخرى ، لما بدأ علماء الدولة العثمانية ومؤرخوها يسجلون أخبارها وفتوحاتها في الشرق والغرب ، ويفسرون أحداثها ووقائعها ، ويتتبعون تطورها خلال النصف الثانى من القرن ١٦م/١٠هـ ، استطاعوا أن يضعوا أيديهم على العديد من مواطن الضعف التى بدأت تظهر ملامحها في مؤسسات الدولة ، ويحذرون من خطر هذه العوامل التى يمكن أن تؤدى إلى اضمحلالها . فكما كشف المؤرخ مصطفى عالى (ت. ١٥٩٩م/ ١٠٠٨هـ) عن هذه المظاهر في العديد من آثاره مثل " موائد النفائس في قواعد المجالس"[٢٩٨]، " نصحة

---

[٢٩٦] يبين كولز شغف أوروبا بتتبع أوضاع الدولة العثمانية ورصدها لما يحدث من تغييرات فيها بقولة : " ففى فرنسا وحدها ظهر في الفترة ما بين ١٤٨٠-١٦٩٠م أكثر من ثمانين كتابا عن الدولة العثمانية، بينما لم يصدر إلاّ أربعون كتابا عن الأمريكتين " : العثمانيون في اوروبا ، ص ١٦٠-١٦١ .

[٢٩٧] شكيب أرسلان ، " التعصب الاوروبى لم التعصب الاسلامة ، ومائة مشروع لتقسم تركيا "، حاضر العالم الاسلامى ، لوثروب ستودارد ، ترجمة عحاج نويهض ، ج٣ ، القاهرة ١٣٥٢ ، ص ٢٤٠ .

[٢٩٨] طبع في استانبول عام ١٩٥٧

السلاطين "[٢٩٩] ، فإن المؤرخ مصطفى سلانيكى (ت. ١٥٩٩م/١٠٠٨هـ) لم يتردد ، عند سرده لوقائع الدولة العثمانية خلال عصور السلاطين سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤م/٩٧٤-٩٨٢هـ) ومراد الثالث (١٥٧٤١٥٩٥م / ٩٨٢١٠٠٣هـ) ، ومحمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣م/١٠٠٣-١٠١٢هـ) في الإشارة إلى مظاهر الخلل في جهاز الدولة والجيش .

وإذا كان سلانيكى لم يشر من قريب إلى ضعف السلاطين ، إلاّ أنّ كافة المظاهر التي أومأ إليها ، كانت نتيجة مباشرة لهذا ضعف ؛ فيشير إلى حالة الجند المعنوية وكيف أنهم فقدوا حمية الغزو والجهاد في غياب قيادة السلطان الذي يمكن أن يقود جيشه بقوله : " في الحقيقة ، لما غابت الحمية في عسكر الإسلام،... وصار أكثرهم طالبين حطام الدنيا ، لم يتجنبوا ارتكاب الذنوب قط."[٣٠٠] . ولما تطرق لأوضاع الدولة الإدارية ، ومدى ما وصلت إليه من فساد واضطراب ، أكد أن مثل هذا الوضع لابد وان يصل بالدولة إلى حافة الانهيار بقوله : " .. والآن (عصر مراد الثالث) ، لما وقع زمام أمور الملك والسلطنة في أيدي الجهلاء ، أصبح مدبرو ومباشرو مصالح المسلمين غير لائقين ولا مستقيمين، نتيجة لسوء نواياهم ، فليجعل الله تعالى العاقبة خيراً . .. "[٣٠١] . ويتحدث في موضع آخر عن حالات التزوير التي انتشرت بين الكتبة ، فيقول : " لقد ظهرت طائفة من الكتبة تقوم بمحو الخطوط

---

[٢٩٩] قام تيتزه A. Tietze بنشره في جزئين في فيينا عامي ١٩٧٩، ١٩٨١ .

[٣٠٠] " في الحقيقه ، عسكر اسلامده غيرت قالميوب ، اسلامه ضعف كلوب ، أكثرى حطام الدنيا طالب اولمغله ، قطعا حرامدن احتناب اولنمايوب .. " : سلانيكى تاريخى ، استانبول ١٢٨١، ص ١١٠ .

[٣٠١] " حاليا ، زمام امور ملك وسلطنت ناكاردنلر النه دوشمكله ، مصالح مسلمين مدبرلرى غرض نفس ايله مغشوش ومشوش حاكملرده در . حق سبحانه وتعالى انجامن خير ايليه . " : سلانيكى تاريخى ، ص ٣٣٩

المحررة على الأوراق المختومة ، وكتابة ما تريد فيها .."[302] . وأخيرا يسجل خشيته من عاقبة هذا الفساد الإداري ، والرشوة ، وأثارها على سلامة الدولة وبقائها عندما قال : " .. أن باب الرشوة الذى فتح في هذه الدولة لا يشير إلى بقائها طويلا .." [303].

ومع ازدياد إدراك علماء الدولة العثمانية لمظاهر الضعف والاضطراب التي راحت تطرأ على مختلف مؤسسات الدولة ، بعد أن بدأت آثارها تنتشر في أنحاء البلاد خلال القرن ١٧م/١١هـ ، تضاعف عدد مؤلفاتهم حول تلك التغييرات ، حتى اضطرت الدولة لبحث هذه الأوضاع المضطربة خلال إحدى جلسات الديوان الهمايوني (١٩ مارس ١٦٥٣م/ ١٩ربيع الآخرة ١٠٦٣هـ)، حيث كلف كاتب جلبي (١٦٠٨-١٦٥٧م/١٠١٧-١٠٦٧هـ) بوضع تقرير حول حالة الخلل العامة هذه[304] ، فوضعه ، وسماه " دستور العمل في إصلاح الخلل "[305] . ومن أهم المؤلفات التي راحت تكشف عن أسباب الخلل وعوامل التغيير تلك " أصول الحكم في نظام العالم " لحسن كافى[306] ، كما أن هناك رسالتان لمصطفى قوچى بك (وفاته ١٦٥٠ م/ ١٠٦١هـ) قدم إحداها للسلطان مراد الرابع (١٦٢٣-

---

[302] " كاتبلر بر جنس .. بيدا ايتمشلركه جمله كتابت اولنان خط ينه كاغددن سلينوب ، واستدكلرين بازوب .." : نفس المصدر،ص٢٧٢

[303] " بو دولتده باب رشوتكه آجلدى ، بقاى سلطنته دلالت ايلمز .. " . وقد ذكر سلانيكى هذه العبارة على لسان محمد باشا النيشانجى : نفس المصدر، ص١٦١ ، كذا انظر ص ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٤١٨ .

[304] - Orhan Saik Gokyay , " Dusturu'l-Amel " , TDV. Islam Ansiklopedisi , cilt X. / 50-51

[305] طبع في استانبول عام ١٢٨٠ .

[306] قام محمد ايبشرلى بنشر الاثر بالحروف اللاتينية في العدد التاسع من مجلة المعهد التاريخى(.TED) في استانبول عام ١٩٨١ .

١٦٤٠م/١٠٣٢-١٠٥٠هـ)[٣٠٧] . ولما كان قوچي بك ، هو أحد المستشارين المقربين لهذا السلطان الذي كان يسعى لإصلاح الأوضاع المضطربة في الدولة ، فقد أخذ صاحب الرسالة يعرض في مقارنة فريدة الفرق بين ما كانت عليه الدولة من عوامل استقرار خلال عصر السلطان سليمان القانوني وبينها في ظل الخلل الذي بدأت تتعرض له أجهزة مؤسساتها منذ عهد مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥م/٩٨٢-١٠٠٣هـ) .

ومهما يكن من أمر ، فقد حاول المؤرخون والعلماء العثمانيون الوقوف على أسباب هذه التغييرات ، وتلك الاضطرابات التي انتشرت في أنحاء الدولة منذ القرن ١٦م/١٠هـ ، وذلك بحسب المفهوم السائد عن الدولة آنذاك ، حيث اتفقوا جميعا على حصر أسباب هذا الخلل في عنصرين أساسيين ، تفرعت عنهما عناصر أخرى عديدة ، كان كل منها معول هدم في بناء الدولة العثمانية على مدى أكثر من ثلاثة قرون متتالية :

العنصر الأول – ضعف سلطة السلطان وتجزئتها : لقد اعتبر هذا العنصر سبباً أساسياً لفساد النظم العثمانية ، منذ أواخر عصر السلطان سليمان القانونى . وكانت حالة الضعف هذه ، نتيجة أسباب عديدة أخرى أهمها :

أ- ضعف السلاطين العثمانيين بعد القانونى ، وتهاونهم في رعاية شئون الدولة عن قرب ، وقيادة الجيوش .

ب- ظهور مراكز قوى في الإدارة والجيش والسراى العثمانى كنتيجة مباشرة لضعف السلاطين وضعف سلطتهم .

---

[٣٠٧] نشرت رسالة قوحى بك لمراد الرابع لأول مرة عام ١٠٤٠هـ في استانبول ؛ ثم قام على كمالى آقسوت بنشرها بالحروف اللاتينية في استانبول ايضا عام ١٩٣٩ . ونظرا لأهمية هذه الرسالة ، فقد ترجمت لعدة لغات اجنبية : Franz Babinger , Osmanli Tarih Yazarlari ve Eserleri , cev. Coskun Ucok , Ank.1982, 203 -204.

ج- انتشار التجاوزات في تطبيق قوانين ونظم الدولة ، وعدم إطاعة أوامر السلاطين .

العنصر الثاني – اختراق الفساد لنظم ومؤسسات الدولة : لقد وضع هؤلاء المؤرخون على رأس هذه النظم وتلك المؤسسات التى تطرق إليها الفساد ، " نظام الديوشيرمة " ، و " نظام التيمار " . وقد تفرع عن فساد هذه النظم أسباب أخرى كان لها الأثر العميق في التغييرات التى طرأت على الدولة خلال هذه الفترة :

أ - استخدام الدولة الرعايا العثمانيين بدلا من أفراد الديوشيرمه في السراى وفى الجيش.

ب- توزيع مقاطعات " التيمار" و "الزعامة "على رجال القصر وأعيان الدولة .

ج- زيادة أعداد جند " القابو قولى " بمركز السلطنة زيادة عظيمة ، الأمر الذي أدى إلى صعوبة توفير المرتبات لهذه الأعداد ، فكان ذلك سببا للعديد من حركات العصيان في الدولة .

د- اهتزاز حالة التوازن بين جيش "سباهية التيمار" الذى بدأ في الضعف ، وجيش "القابو قولى" ، وبالخاصة فرقة المشاة (يكيجرى/ اى الانكشارية) ، مما أدى إلى زيادة نفوذ جند "القابو قولى" سواء في مركز الدولة أو في ولاياتها .

هـ- زيادة مصاريف خزينة الدولة ، مما أجبر الدولة على فرض ضرائب ورسوم جديدة على الرعايا ، فهجر هؤلاء قراهم فخربت أراضيهم .

وإذا كان هؤلاء المؤرخون قد أكدوا أيضا على أن الملامح الأولى لهذه التغييرات قد بدأت خلال عصر سليمان القانونى ، إلاّ أنّهم يعتقدون أن المفاسد التى هوت بالدولة إلى حافة الانهيار ، قد بدأت في الظهور في عصر مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥م /٩٨٢ -١٠٠٣هـ) ، حيث ربطوا عوامل انهيار الدولة هذه بما كان يجرى خلال هذه المرحلة من عدم التقيد بالقوانين والنظم التي وضع أساسها

محمد الفاتح ثم سليمان القانوني . وكانوا يعتقدون أن كل شئ يمكن أن يعود إلى نصابه بمجرد التقيد بهذه القوانين وتلك النظم تحت قيادة سلطان قوى[٣٠٨] .

التهاون بالتحديات الخارجية :

والحقيقة أن المؤرخين العثمانيين حصروا أنفسهم عند تحديد أسباب الخلل الذى طرأ على الدولة ، في عوامل التغيير التى ظهرت في بناء الدولة الداخلي ؛ ولم يتجاوزوا ذلك إلى تلك التى تمت خارج نطاق الدولة وكان لها انعكاسات بعيدة المدى عليها ، حيث انشغلوا بأوضاعهم الداخلية ، وغابت عنهم تلك التطورات الإيجابية التى كانت تمر بها أوروبا الغربية ، أو انهم لم يستطيعوا إدراك حجمها الطبيعي ومدى ما يمكن أن تمثله من تحديات خارجية للدولة في مرحلة تالية . على أن روح تفوق الدولة العثمانية التى رسخت على مدى القرون الماضية كانت لا تزال تفعل فعلها ، حيث راح العلماء ورجال الدولة على حد سواء يتهاونون بما كان يحققه الغرب من إنجازات واكتشافات ، وبجدوى رصد التطورات التى أخذت تسير بخطى سريعة في أوروبا خلال القرنين ١٦-١٧م/١٠-١١هـ.

ولذلك ، فانه في الوقت الذى كانت فيه أوروبا تهلل بهزيمة العثمانيين في موقعة لبانتو(اينه باختى) عام١٥٧١م/ ٩٧٩ هـ ، عبرت الدولة العثمانية عن رأيها من خلال تصريح الوزير الأعظم محمد صقوللى (١٥٦٥-١٥٧٩م/٩٧٢-٩٨٧هـ) الذى أدلى به عندما التقى بسفير البندقية باربارو Barbaro الذى أراد أن يعرف مدى ميل الحكومة العثمانية للصلح بعد نجاح التحالف الصليبى في تحطيم الأسطول العثمانى قائلا : " .. انك ترى أن حسارتنا لم تخمد بعد معركة اينه باختى، فهناك فرق بين خسائرنا وخسائركم ، فنحن استطعنا قطع ذراعاً لكم بفتحنا لجزيرة قبرص ، وأخذها منكم ، أما انتم بهزيمتكم أسطولنا ، تكونون كما لو كنتم

---

[٣٠٨] خليل اينالجق ،" العثمانيون في عصر النشأة والازدهار " سيد محمد السيد ، دراسات في التاريخ العثمانى ، ص ٨٨ -٩١ ؛ Feridun Emecen , Osmanli Siyasi Tarihi , Kurulustan Kucuk Kaynarcaya " , s. 45 - 46 .

قد حلقتم شعرةً من لحيتنا . فالذراع المقطوعة لا يمكن إعادتها ثانية، أما اللحية التي حلقت ، فلسوف تنمو أقوى مما كانت "[٣٠٩] .

بـذور الضعـف والانهيـار :

إنّ تتبعنا لأحداث ووقائع الدولة العثمانية ، أثبت أنّ عوامل الضعف والانهيار التي راحت تعاني منها الدولة العثمانية منذ أواخر القرن ١٦م/١٠هـ وخلال القرن ١٧م/١١هـ ، لم تظهر فجأة ، ومن ثم لم تنعكس آثار تلك العوامل على وضعها العسكري والسياسي في الخارج إلاّ بالتدريج . فليس معنى نمو الدولة شرقاً وفتوحاتها غرباً، وتضخم مؤسساتها وعظم مواردها خلال فترة النشأة والازدهار أنها كانت تخلوا من عوامل الفناء . والحقيقة أن القوة الدافعة للدولة آنذاك ، كانت تستطيع من خلال قيادتها الحازمة، وجيشها الصارم أن تقضى على كافة التحديات الداخلية والخارجية التي كانت تواجهها ، فضلاً عن توظيفها توظيفاً إيجابياً يخدم مصالحها في الداخل وفي الخارج . فقد كانت كل حالة فساد أو تجاوز أو عصيان إداري أو عسكري في الدولة آنذاك ، تجعل القيادة أكثر حرصاً على تنقية الجيش والإدارة من عناصر الشغب ، وكل مواجهة خارجية أو حركة عصيان داخلية، تزيد من اتساع فتوحات الدولة ونفوذها شرقاً وغرباً .

وهكذا ، يمكننا القول بأن تغير العوامل التي كانت سبباً جوهرياً لقيام الدولة العثمانية ، وتبدل الظروف الداخلية والخارجية التي ساعدتها على الازدهار، كانت من أهم أسباب عجز الدولة عن مقاومة هذه التحديات ، ومن ثم ظهور الاضطرابات في مؤسساتها الداخلية ، وسياستها الداخلية والخارجية ، فتوقفت الفتوحات ، وتقلصت الحدود تدريجيا حتى أدى ذلك بالدولة إلى الانهيار التام .

---

[٣٠٩] Uzuncarsili , Osmanli Tarihi , cilt III./I. Kisim , 3.bas., Ank.1983 , s. 23 وقد اورد شكيب ارسلان هذا الحوار تعليقا على نفس المناسبة في مقالته المطولة " مائة مشروع لتقسم تركيا " ، ولكنه ذكر ان قائل هذه العبارة هو السلطان سليم الثاني المعروف باسم " سليم السكير " ! ! : ص ٢٣٦ .

لقد اتبعت الدولة العثمانية نظم الدول الإسلامية والتركية السابقة عليها مع إضافة بعض التغييرات التى كانت ترتبط بالتقاليد التركية في الحكم . ويرى الباحث أن دولة آل عثمان راحت تطبق بعض هذه النظم وتلك السياسات في عصر نشأها ، فتطورت بتطورها حتى أصبحت في عصر الاضمحلال من أهم أسباب انهيارها . ويمكن تقسيم هذه النظم وتلك السياسات إلى قسمين أساسيين : ١- نظم وسياسات داخلية ، ٢- وسياسات خارجية

١- النظم والسياسات الداخلية :

وتتضمن بعض نظم وسياسات الدولة العثمانية التى قامت عليها ، وكان لها اثر عظيم في إحداث الخلل في مختلف مؤسسات الدولة وتشكيلاتها منذ أواسط القرن ١٦م/١٠هـ ، وأهمها : أ- الحكم المركزى المطلق ب- ولاية العهد ج- الديوشيرمه د- استمالة البلدان المفتوحة وأهلها هـ - جمود مؤسسات الدولة .

أ - الحكم المركزى المطلق :

لقد ارتبطت سياسة المركزية في الدولة العثمانية بسياسة الحكم المطلق منذ عصر النشأة ، حيث ظهرت المحاولة الأولى لإقامة دولة مركزية في عهد يلدرم بايزيد(١٣٨٩-١٤٠٢م/٧٩١-٨٠٥ هـ) بضمه أراضى إمارات الأناضول ، وجعلها ملكا للدولة ، تديرها من خلال إدارة مركزية في العاصمة[٣١٠] . ولما تأكدت مركزية الدولة في عهد محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١م/ ٨٥٥-٨٨٦هـ) ، وتم وضع القوانين اللازمة لها ، بدأ السلطان في اتخاذ الخطوة التالية التي تمثلت في التخلص من الأسرات ذات النفوذ في الدولة ، حيث شرع في جمع كافة السلطات في

---

٣١٠ - Feridun Emecen , Osmanli Siyasi Tarihi , s. 17 -18 .

يده ، ثم راح سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م/٩٢٦-٩٧٣هـ) يقنن لسياسة المركزية هذه ويرسخها ضمن نظام الحكم المطلق الذى اتبعته الدولة [٣١١] .

ومنذ ذلك الحين ، أصبح السلطان هو صاحب الدولة الذى له الحق في التصرف فيما تحت يده . فهو يرأس الجيش والديوان ، ولا ينفذ أمراً إلاّ بإذنه ، حيث يعتبر الأمر الذي يقره السلطان في حكم القانون الواجب الإتباع . وعلى الرغم من ذلك ، كان يحّد من تلك السلطات المطلقة للسلطان ، ضرورة تطابق أوامره مع أصول الشريعة الإسلامية ، وعدم تعارضها معها[٣١٢] .

وإذا كان السلاطين العثمانيين حتى الربع الأخير من القرن ١٦م/١٠هـ ، قد عرفوا خطورة هذه المهام ، وتمكنوا من إدارة شئون الدولة الداخلية والخارجية على الوجه الأكمل ، ولم يعطوا الفرصة لأحد من أجل الانتقاص من سلطانهم ، إلاّ أنّه على أثر وصول سلاطين ضعاف إلى مقام السلطنة ، وتركهم قيادة الجيوش ومتابعة شئون الدولة عن قرب ، وانغماسهم في الترف[٣١٣] ، راحت تنتقل هذه السلطات المطلقة ، والحكم المركزي ، ومن ثم مقدرات الدولة عامةً ، بالتدريج إلى مراكز القوى التي أخذت تنمو باطراد ، حتى أُعتبر ضعف سلطة هؤلاء السلاطين عاملًا هاماً من عوامل انهيار الدولة العثمانية .

ب- ولايـــة العهـــد :

لم يكن لدى العثمانيين قانوناً ثابتاً يتعلق بولاية العهد فانحصرت منذ عصر مراد الأول (١٣٦٢-١٣٨٩م/٧٦٣-٧٩١هـ) في أسرة أمير الغزاة الذى كان هو

---

[٣١١] خليل اينالجق ، العثمانيون في عصر النشأة والازدهار ، ص٦١-٦٨ ؛ F. Emecen , 139 -140

[٣١٢] Ahmed Akgunduz , Osmanli Kanunnameleri , ve Hukuki Tehlikeleri , I. Ist. 1990 , 205-207 .

[٣١٣] Uzuncarsili , Saray Teskilati , s. 87 - 100 ; Osmanli Tarihi, III., s. 114 , 119 -122 .

رئيس العشيرة في نفس الوقت . فكان ينتخب بمعرفة الأمراء الغزاة الذين يديرون أمور الدولة وجماعة "الآخيان" التي لعبت دوراً عظيماً في تأسيسها . ولم يكن يرفع إلى مقام السلطنة ، في ذلك العصر إلاّ من يثبت أنّه صاحب المقدرة والكفاءة من أفراد أسرة آل عثمان . عندئذ ، كان السلطان الجديد يسعى للتخلص من أخوته ، منافسيه على العرش ، وذلك للمحافظة على الأمن والاستقرار في البلاد . وقد أخذت هذه العادة شكل القانون في عصر محمد الفاتح فيما عرف آنذاك باسم " نظام العالم "[٣١٤].

ولمّا كان أبناء السلاطين حتى ذلك الوقت ، يعينون كأمراء سناجق في بعض الولايات تدريباً لهم على الحكم والسياسة ، ويخرجون على رأس الحملات تمرساً في ساحات القتال[٣١٥] ، كان لكل منهم طموح في تولى أمر السلطنة . ويرى الباحث أنّه على الرغم من أنّ الصراع الذى كان ينشب بين الأخوة على العرش ، كان يجعل الدولة في حالة فراغ سياسي ويؤدى إلى انقسام رجالها لفترة من الزمن ، إلاّ أنّه كان من ناحية أخرى ، يمثل اختبار عملي لقدرات ولى العهد العسكرية والسياسية ، ومن ثم لم يكن يتولى هذا المقام حتى عصر سليمان القانوني ، إلاّ من كان أهل له وجدير به .

ومنذ أواخر عصر القانوني ، بدأت أمهات السلاطين وزوجاتهم ورجال ونساء السراى وأغوات " باب السعادة " ، وجند " القابو قولى " (خدم الباب) يلعبون دوراً بارزاً في عزل وتولية ولى العهد ، حيث أدّى ذلك إلى وصول أفراد ضعاف أو أطفال لم يبلغوا الحلم إلى سدة الحكم[٣١٦] . وقد ازداد الأمر سوءاً إثر ترك عادة تعيين أبناء السلاطين على بعض سناجق الدولة ، ومن ثم عدم خروجهم لساحات القتال منذ عهد السلطان محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣م/١٠٠٣-

---

[٣١٤] Saray Teskilati , s. 45 - 49

[٣١٥] Saray Teskilati , s. 117 -121 , 144 - 145

[٣١٦] Saray Teskilati, s.151-158; Osmanli Tarihi, III., s.137- 142

١٠١٢هـ) الأمر الذي حرم ولي العهد من أية كفاءة سياسية أو عسكرية عملية ، فأصبح أكبر أبناء آل عثمان سناً وليس أقدرهم وأكفأهم ، هو المرشح لولاية العهد[٣١٧] . وهكذا ، زادت تدخلات السراى والجند في مثل هذه التعيينات، فكان صدى هذا المعول هو الأكثر عمقا على الأوضاع الداخلية والخارجية في الدولة منذ أواخر القرن ١٦م/١٠هـ .

ج - الديوشيرمة :

لقد اعتمدت الإمارة العثمانية منذ بداية نشأتها سواء في الحكم والإدارة أو في الغزو والجهاد على أمراء وأفراد العشيرة العثمانية ، إلا أنه منذ عصر مراد الأول ، بدأ التفكير في الاستفادة من أسرى الحروب لتشكيل فرق عسكرية من نسبة خمس (بنج يك) الأسرى التي كانت تخصص للدولة ؛ وبذلك ، تشكلت فرقة " غلمان العجم " (عجمى اوغلان) . وبعد موقعة أنقرة (١٤٠٢ م/ ٨٠٥هـ) وعلى أثر انقطاع سيل الأسرى ، استحدث " قانون الديوشيرمة " أي الجمع والالتقاط ، حيث كان يؤخذ الصبية من الولايات الأوروبية التابعة للدولة بأعداد معينة ، ثم ينضمون إلى فرق غلمان العجم بعد تعليمهم العادات والتقاليد الإسلامية والتركية وتلقينهم اللغة التركية . فكان الصبية من أصحاب الصفات المميزة يرسلون إلى السراي العثماني ليكونوا خدماً للسلطان ، أمّا الآخرين فكانوا ينضمون إلى فرق اليكيچرى أي مشاة الباب السلطاني أو المدفعية أو المهمات أو البحرية ، بحيث كان من يرقى من هؤلاء ، ينضم إلى فرقة عرفت باسم "سوارى القابو قولى"[٣١٨] .

وهكذا ، ومنذ عصر مراد الثانى (١٤٢١-١٤٤٤م/٨٢٤-٨٤٨هـ) بدأ يظهر رجال للدولة وقواد للجند ممن تربى في هذه الفرق العسكرية ، وفى السراي العثماني ، حيث أطلق على هذه الفئة اسم " ديوشيرمة " ، أى الذين دخلوا في خدمة

---

[٣١٧] Saray Teskilati , s. 46 -49

[٣١٨] Uzuncarsili , Osmanli Devleti Teskilatinden Kapukulu Ocaklari , I., 2.bas., Ank.1984, s. 5vd.,22-25.



الدولة بنظام الديوشيرمه . فلما أراد السلطان محمد الفاتح القبض على أزمة الحكم في الدولة ، وتنحية أمراء الأسرات التركمانية ذات النفوذ ، والذين شاركوا آل عثمان الحكم والقيادة ، وكان لهم اليد الطولى في تعيين ولى العهد ، أصبح المجال متسعاً للذين دخلوا خدمة الدولة بطريق "بنج يك / الخمس " ، و"نظام الديوشيرمه " . وقد راح هؤلاء يتدرجون في مناصب الدولة حتى وصلوا إلى مقام الصدارة العظمى[٣١٩] . ومنذ ذلك الحين ، اعتمدت الدولة العثمانية في مؤسساتها الإدارية والعرفية والعسكرية والملكية على هذه الفئة ؛ فصار منهم الجنود والقواد والأمراء والوزراء والقباطنة .

وإذا كانت الدولة العثمانية قد استطاعت العناية بهذا النظام عناية فائقة ، وتأمين تخريج أجيال من القواد الأفذاذ والجنود الشجعان والإداريين المخلصين والساسة المحنكين خلال عصر نشأة الدولة وازدهارها ، فكان لهم الدور العظيم في علو شأن الدولة ، إلاّ أنّ تطرق الفساد إلى هذا النظام ، منذ أواخر القرن ١٦م/ ١٠هـ ، كما أدّى إلى وصول أفراد غير أكفاء إلى المناصب الإدارية والعسكرية العليا في الدولة ، ساعد أيضا على اضطراب نظام جيش المركز " قابو قولى " ، وانتشار الفساد في أجهزة الحكم والإدارة والجيش . وقد زاد من هذا الاضطراب وذلك الفساد ، ضعف سلطة السلطان الذى كان يعجز عن القبض على أزّمة الأمور ، وأعطى الفرصة لظهور مراكز قوى من هؤلاء الرجال في الجيش والسراى والإدارة ، حيث راحت تسلب منه ما تبقى له من سلطة .

ومن ناحية أخرى ، كان نتيجة لعدم خضوع الديوشيرمه للبرامج الدينية والتربوية اللازمة بحسب النظام المعمول به ، أن قل الإخلاص ، والبذل والتضحية لدى هؤلاء ، الأمر الذي جعل العديد منهم يرتد عن الإسلام ، وينحاز بما لديه من

---

[٣١٩] خليل ايناجق ، العثمانيون في عصر النشأة والازدهار ، ص ٦٩ .

فرق عسكرية أو سفن حربية إلى الدول المحاربة للدولة ، أو تسليم الولايات أو القلاع المكلف بحمايتها إلى الأعداء عندما وجد نجم آل عثمان آخذ في الأفول[٣٢٠] .

د - استمالة البلدان المفتوحة وأهلها :

لما انطلق العثمانيون كإمارة حدودية غازية ، وسقطت في أيديهم الممالك الأوروبية الواحدة تلو الأخرى ، كانوا يعطونها في البداية لأمراء من الأسرات الحاكمة في تلك الممالك بشروط الاعتراف بالسيادة العثمانية عليها ودفع الجزية والخراج ، والاشتراك بفرق عسكرية مع الجيش العثماني في حروبه عند اللزوم . وبذلك ، كان هؤلاء الأمراء يديرون بلادهم بحسب قوانينهم السابقة ، وعاداتهم القديمة مع ربطها بقوانين الدولة العثمانية ، الأمر الذي كان يجعلهم يخرجون على الدولة ، كلما أتيحت لهم الفرصة . عندئذ كانت الدولة العثمانية تقوم بضم هذه المملكة ضماً مباشراً ، وتعين عليها أمراء عثمانيين وهيئة إدارية عثمانية ، معتمدة في تغيير الطبيعة الطبوغرافية للبلاد المفتوحة على عمليات الهجرة التركمانية إلى تلك المناطق[٣٢١] .

وإذا كانت الدولة العثمانية قد نجحت إلى حد كبير في دمج مساحات شاسعة من الأراضي المفتوحة في الدولة ، حيث كانت سياسة التسامح والاستمالة التي اتبعتها مع غير المسلمين من رعاياها وبالخاصة من كانوا في المناطق الأوروبية ، وعدم تعرضها لهم ولا لتشكيلاتهم الدينية أو جمعياتهم المحلية ، ذات نتائج عظيمة على عملية الانتشار السريع التي حققتها في أوروبا خلال عصر قوتها وانطلاقها ، إلا أن شعور مسيحيي الدولة ، وبالخاصة ممن كانوا يقطنون في ولايات الروميلي ، بضعف الآستانة واضطراب أحوالها الداخلية ، ورؤيتهم هزيمتها على يد التحالفات الصليبية ، جعلهم يزيدون من اتصالاتهم بتلك الدول الأوروبية المحاربة للدولة ، ويحيون

---

[٣٢٠] كولز ، العثمانيون في اوروبا ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

[٣٢١] خليل اينالجق ، العثمانيون في عصر النشأة والازدهار ، ص ٤٨-٤٩ ، ٥١ .

تشكيلاتهم مستجيبين للدعوات البابوية لطرد العثمانيين من أوروبا ، حتى صاروا شوكة في ظهر الدولة في هذا الوقت العصيب ، واستطاعت الدول الأوروبية استخدامهم لإضعاف الجبهة الداخلية للدولة بإثارة حركات العصيان كلما أتيحت لهم الفرصة[٣٢٢] .

ومن ناحية أخرى ، فقد أبقى العثمانيون بعد ضمهم للولايات الشرقية، على النظم والتشكيلات القديمة والجارية في تلك البلاد ، وربطوها بنظم وتشكيلات الدولة ؛ كما أنهم لم يفكروا في القضاء على القوى المحلية ، وسعوا للاستفادة من خبراتها في إدارة شئون البلاد المفتوحة . وهكذا ، راحت الدولة تقنن لهذه النظم القديمة ، وتضع نظاماً متوازناً للعلاقة معها . إلاّ أنّ انضباط هذا النظام كان رهين قوة القيادة العثمانية ، وانضباط الإدارة المركزية ، بحيث ما إن شعرت تلك القوى المحلية بملامح الضعف تسرى في جسد المركز ، حتى راحت تستولي على السلطة المحلية ، ثم بالتدريج على السلطة المركزية بالولايات وتّهمش دور الإدارة العثمانية بها[٣٢٣] ؛ فكان ذلك من أهم عوامل انفراط عقد المركزية العثمانية ، ومن ثم انهيار الدولة من أطرافها .

هـ - جمود مؤسسات الدولة :

لقد ورثت الدولة العثمانية ، عند قيامها ، ميراثاً حضارياً امتزجت فيه حضارة الإسلام بتقاليد الترك ، وتدعم هذا الميراث الحضاري بضم أملاك الدولة السلجوقية ودولة المماليك في الشرق . وإذا كانت دولة آل عثمان ، منذ ظهورها ، حريصة على أن تدعّم قوتها العسكرية بوسائل وتقنيات العصر ، بحيث أصبحت

---

[٣٢٢] عصمت بارماقسز اوغلى ،" الدولة العثمانية في القرن ١٧م "، دراسات في التاريخ العثماني ، ص ١٣٣- ١٣٥ .

[٣٢٣] سيد محمد السيد ، " دستور العمل في النظام الاداري والمالي في ايالة مصر في مطلع القرن ١٨م/١٢هـ " ، بحث مقبول للنشر في مؤتمر الشرق الاوسط الاول الذى تنظمة جامعة الفرات بمدينة الازيغ بتركيا خلال هذا العام .

صاحبة أعظم قوة ضاربة في العالم آنذاك ، إلاّ أنّها لم تدرك أن الفتوحات التي حققتها في الغرب والشرق تتطلب رصد دقيق لأوضاع الدول المتحاربة معها على امتداد حدودها الواسعة ، حتى لا تتخلف عنها في مجال التقنيات الحديثة ، وتتمكن من المحافظة على أملاكها الواسعة فضلا عن استمرار الانطلاق إلى الأمام .

ويرى الباحث أن تعظيم العثمانيين لإنجازات سلاطينهم الأوائل ، وعدم تجرئهم على تعديل النظم والقوانين التي وضعوها تعديلاً اختيارياً بما يتناسب مع متغيرات العصر ، ولمواجهة التحديات المتجددة في الدولة ، كان من أهم عوامل حالة الجمود التي أصيبت بها المؤسسات العثمانية خلال فترة الضعف والانهيار . والواقع، أن اعتقادهم في القوانين التي وضعت في عصر السلطان سليمان القانوني، قد زاد إثر شعور رجال الدولة وعلمائها بدبيب عوامل الضعف والانهيار يسرى في جسد الدولة، حتى صرحوا بأن كل شيء يمكن أن يعود إلى سابق عهده بمجرد الالتزام بتطبيق هذه القوانين كما ينبغي . غير أنّه إذا كانت قوانين القانوني تصلح للتطبيق خلال عصره ، فإن الدولة العثمانية وأوروبا والعالم بأسره كان خلال هذا العصر يتعرض لتغييرات عظيمة ، تحتم على الدولة العثمانية أن تُعدل من مفاهيمها القديمة ، ونظمها وقوانينها بما يتفق مع هذه التطورات في الداخل وفى الخارج . فكان هذا الاعتقاد في قوانين سليمان القانوني، هو الحائل الحقيقي أمام محاولات الإصلاح التي راحت الدولة تطبقها سعياً لإعادة حيويتها من جديد ؛ وكان الاعتقاد في قدرة هذه القوانين على مواجهة تحديات العصر هو المانع الذي حال دون وضع نظم جديدة للدولة العثمانية لمواجهة عصر الانقلابات في أوروبا .

وفى الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتعرض لتغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية عظيمة خلال القرن ١٦م/١٠هـ ، كان العثمانيون يؤكدون تفوقهم العسكري ، وينظرون إلى ما كان يحدث في أوروبا من تطورات نظرة تهاون ، غير مدركين لما يمكن أن تتمخض عنه هذه الانقلابات من آثار سلبية على كيان الدولة

العثمانية[٣٢٤] . فقد كان اعتقاد العثمانيين بمبدأ السيادة العالمية وشعورهم بالتفوق الدائم على الغرب ، من أهم العوامل التي حالت دون رصد التطورات على الساحة الأوروبية ، ومحاولة مجاراة هذه التطورات في مؤسسات الدولة على نفس الأسس العثمانية الإسلامية ، ومن ثم أدت لمفاجأة أوروبا للدولة العثمانية بتفوقها العسكري والتقني خلال القرن ١٧م/١١هـ ، وتقديمها البديل الحضاري الغربي ، الأمر الذي أدى فيما بعد لاختراق مؤسسات الدولة وبالخاصة العسكرية منها ، وإحداث التغييرات على النمط الغربي فيما عرف باسم "الإصلاحات" . فكان مبدأ قبول الدولة لتلك التغييرات على النمط الأوروبي من أهم معاول تفكيك مؤسساتها الأصلية من الداخل قبل إلغائها ، واستبدالها بأخرى أوروبية ، تمهيدا لتنفيذ حكم الإعدام في الرجل المريض .

٢ - السياسة الخارجية :

لقد قامت سياسة الدولة العثمانية الخارجية على " فكرة العالمية " التي حاول بايزيد الأول تطبيقها في الروميلي والأناضول ، فاصطدمت في المرة الأولى بتيمورلنك الذي تمكن من إجهاضها (١٤٠٢م/٨٠٥هـ) ، فأعاد إمارات الأناضول إلى أصحابها ثانية ، أعطى الفرصة للممالك الأوروبية لاستعادة ما فقدته في الفترة ما بين (١٤٠٢-١٤١٣م /٨٠٥-٨١٦هـ) . فلما اعتنق محمد الفاتح هذه الفكرة ، ونجح في وضع ملامحها في عصره ، تيسر لسليم الأول تحقيق قسمها الشرقي بضم أملاك المماليك في مصر والشام (١٥١٦-١٥١٧ م/ ٩٢٣هـ) ، وتمثيل العالم الإسلامي باعتباره خادم الحرمين الشريفين ، وراح سليمان القانوني يرسخ من مفهوم الدولة العالمية في أوروبا حتى أواسط القرن ١٦م/١٠هـ[٣٢٥] .

---

[٣٢٤] Uzuncarili , Osmanli Tarihi , II. , s. 512

[٣٢٥] Feridun Emecen , Osmanli Siyasi Tarihi , s. 45

ومنذ ذلك الحين ، أخذ الصفويون في الشرق ، والنمسا ثم روسيا في الغرب والشمال يحاولون بشكل مباشر أو غير مباشر وقف هذا الزحف ، والقضاء على ذلك المفهوم حتى نجحوا في ذلك على مدى القرن ١٧م/١١هـ ، في الفترة ما بين عقد معاهدة " زسيتوا تورروك " عام ١٦٠٦م/١٠١٥هـ ، وعقد معاهدة " كارلوفيجه " عام ١٦٩٩م/١١١١هـ ، وخلال القرن ١٨م/١٢هـ حتى معاهدة كوچك قاينارجه (١٧٧٤م/١١٨٨هـ) ؛ فكان ذلك بمثابة الهيار لأحد عناصر قوة الدولة الأصيلة التي ظهرت ثم نمت بنموها .

أ - الجبهة الغربية :

لقد ظهرت إمارة آل عثمان كواحدة من الإمارات التركمانية التي استوطنت منطقة الحدود الغربية للدولة السلجوقية ، استطاع أميرها عثمان غازى (ت.١٣٢٤م/٧٢٤هـ) أن يجذب الغزاة في هذه المنطقة الحدودية تحت لوائه ، ويقودها في حركة دائبة لا تنقطع من الغزو والجهاد ؛ فاتسع نفوذه تدريجياً في المنطقة إثر فتحه " قره جه حصار " (١٢٨٨م/٦٨٧هـ) ثم " بروصة " (١٣٢٦م/ ٧٢٦ هـ) ، " وازنيق/ نيقيه " (١٣٣١م/٧٣١هـ) ، واستطاع أورخان غازى (١٣٢٤-١٣٦٢م/٧٢٤-٧٦٣هـ) نقل فتوحاته إلى الطرف الأوروبي ، فسقطت غاليبولى في يده (١٣٥٤م/٧٥٥هـ) ، ثم أدرنه وتراقيا الشرقية (١٣٦١م/ ٧٦٢هـ)[٣٢٦] . ومنذ ذلك الوقت ، بدأ التحدث في أوروبا عن الخطر العثماني .

ولما توالت الفتوحات العثمانية في أوروبا ، وسقطت ممالك البلغار (١٣٨٦م/٧٨٨هـ) ، والصرب (١٣٨٩م/٧٩١هـ) ، وانكشفت القسطنطينية ، وحوصرت عدة مرات حتى فتحت (١٤٥٣م/ ٨٥٧هـ) ، فانساح العثمانيون في أوروبا ووصلوا إلى أبواب فيينا (١٥٢٩م/ ٩٣٥هـ) ، حيث راحت حصون شرق

---

[٣٢٦] خليل اينالجق ، ص ٤٦-٤٧ ، ٥٠-٥٣

ووسط أوروبا تتساقط ، وسيطرت الأساطيل العثمانية على حوض البحر المتوسط[٣٢٧] ، بدأت أوروبا تفكر في كيفية مواجهة هذا الخطر الإسلامي ، ووقف زحفه نحو أوروبا .

وهكذا ، سعت الدول الأوروبية للتحالف فيما بينها لشن هجوم شامل على العثمانيين لتحرير مسيحيى أوروبا من الحكم الإسلامي ، وطرد العثمانيين من أوروبا . غير ان هذه التحالفات لم تستطع النيل من العثمانيين إلا عند لبانتو (اينه باختى) عام ١٥٧١م/٩٧٩هـ[٣٢٨] . والحقيقة ، انه إذا كانت القوة الدافعة العثمانية قد استطاعت دحر هذه التحالفات حتى نهاية القرن ١٦م/ ١٠هـ ، إلا أن هذا التحدى الخارجى المتمثل في التنسيق بين الدول الأوروبية لجعل الدولة العثمانية في حالة حرب مستمرة ، استطاع أن يشكل على مدى أكثر من ثلاثة قرون متتالية من الزمان ، السبب الخارجي الرئيسي لانهيار الدولة العثمانية .

ب - الجبهة الشرقية :

لقد استطاع العثمانيون بسط نفوذهم على إمارات الأناضول الواحدة تلو الأخرى، فتمكن بايزيد الأول حتى عام ١٣٩٨م/٨٠٠هـ من ضم إمارات وسط وشرق الأناضول ، حيث استطاع محمد الفاتح بعد ذلك القضاء على هذه الإمارات تماما وضمها ضماً مباشراً للأملاك العثمانية ، بعد إيقاعه الهزيمة بحاكم آق قويونلى اوزون حسن في عام ١٤٧٣م/ ٨٧٨ هـ . عندئذ ، راح العثمانيون يصطدمون بالدولة الصفوية التى قامت على المذهب الشيعى (١٥٠١م/٩٠٧هـ) ، وحاولت توظيف القبائل التركمانية في المنطقة لنشر مذهبها في شرق الأناضول ، وبسط نفوذها السياسي على المنطقة[٣٢٩] ، فكان ذلك سبباً لظهور تحدياً خارجياً آخر للدولة

---

[٣٢٧] خليل ايناجلق ، ص ٦١ ، ٨٠ .

[٣٢٨] شكيب ارسلان ، " مائة مشروع لتقسم تركيا " ، ص٢٢٧ -٢٢٨ ، ٢٣٢ ؛ كولز ، العثمانيون في اوروبا ، ص ١٠٩ ، ١٥٦

[٣٢٩] Uzuncarsili, Osmanli Tarihi , II. s. 257 vd.

العثمانية ، كان له الفضل الأكبر في نجاح المخططات الأوروبية ضدها ؛ فلم يتردد هذا التحدي في التنسيق مع أعداء الدولة لاستتراف القوة العثمانية حتى أواسط القرن ١٨م/ ١٢هـ ، فكان ذلك من أهم المعاول التي فتّت في المقاومة العثمانية لما كانت تواجهه في الداخل وفي الخارج .

مما سبق يتضح لنا أن هناك العديد من عوامل الضعف والانهيار التي احتلت مكانها في نظم ومؤسسات الدولة الداخلية والخارجية منذ نشأتها ، وان هذه العوامل ظلت راقدة بلا حراك طوال الفترة التي كانت القيادة العثمانية تحافظ فيها على سلامة دعائمها الأساسية من الخلل ، وأنها راحت تنتفض وتسرى فيها الحيوية مع كل معول يضرب في تلك الدعائم، حتى أعلنت عن نفسها في شكل حالة من الاضمحلال العام في كل أنحاء الدولة .

* * *

لقد قامت الدولة العثمانية على عقيدة ذات حضارة راسخة ، فامتدت بها امتداداً عظيماً ، فوصلت إلى أبواب فيينا غرباً ، وإيران شرقاً ، وجنوب روسيا شمالاً ، وبلاد الحبش جنوباً ، وضمت شعوباً مختلفة الأعراق متباينة اللغات والأديان . ولذلك ، لم يكن إنهيار هذا الكيان العظيم انهياراً مفاجئاً ، ولم تكن محاولة تفكيك أجزاءه وفصلها عن القلب أمراً يسيراً ، بل راحت عوامل المقاومة تفعل فعلها في مواجهة عناصر الانهيار في هذا البناء الضخم لمدة تربو على ثلاثة قرون متتالية (أواخر القرن١٦م/١٠هـ - أوائل القرن ٢٠م/١٤هـ) . ولما بدأت عناصر قوة الدولة ، والعوامل الأساسية التي قامت عليها تضعف منذ الربع الأخير من القرن ١٦م/١٠هـ ، بحيث كان ضعف كل عنصر يمثل حالة انهيار جزئية في مقاومة الدولة ، هوت هذه المقاومة أمام معاول الهدم حتى باستسلام الدولة لعوامل الانهيار منذ الربع الأخير من القرن ١٨م/١٢هـ .

ومهما يكن من أمر ، فقد اختلف الباحثون حول بداية انهيار الدولة العثمانية والنهاية الفعلية لها اختلافهم حول نقاط التحول الداخلية والخارجية التي كان لها الدور الأكبر في تحديد مراحل هذا الانهيار . غير أن المؤرخين القدماء والمحدثين اتفقوا على أنّ عصر سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م/٩٢٦-٩٧٤هـ) قد شهد البوادر الأولى لعوامل الضعف والانهيار ، وأنّ هذه العوامل لازالت تتوالد في الداخل حتى انتشرت أثارها في مختلف مؤسسات الدولة وتشكيلاتها ، ثم راحت تنعكس بالتدريج على كافة إنجازاتها وعلى مدى قدرتها على مواجهة التحديات حتى انهارت دفاعاتها في الخارج إثر توقيع معاهدة كارلوفيجة عام ١٦٩٩م/١١١١هـ .

والحقيقة أنه خلال هذه الفترة ، بدأت تتبلور العوامل الداخلية والخارجية لانهيار الدولة العثمانية ، حيث كانت التداعيات التي ظهرت في المراحل التالية من تاريخ هذا الانهيار تعتبر نتائج مباشرة أو غير مباشرة لهذه العوامل . ولذلك ، فإن الباحث سوف يحاول تتبع عوامل وأسباب اضمحلال الدولة خلال هذه الفترة تتبعاً تاريخياً موضحاً كيف أنّ هذه الأسباب الداخلية وتلك العوامل الخارجية كانت متداخلة ، تتوالد ويتشعب بعضها من بعض حتى أنها لم تدع عنصراً سليماً من عناصر الدولة إلاّ واخترقته ، الأمر الذى أدّى إلى سقوط مقاومتها في الداخل وفى الخارج ، ومن ثم سقوط كيانها السياسي في النهاية .

عوامل اضمحلال الدولة العثمانية

(١٥٥٣-١٦٩٩م/٩٦٠-١١١١هـ)

لقد امتزجت في بداية هذه الفترة الملامح الأولى لضعف الدولة العثمانية بمظاهر القوة التي كانت تتمثلها خلال القرن ١٦م/١٠هـ . وإذا كان عصر السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م/٩٢٦-٩٧٤هـ) قد مثل عصر قوة الدولة وازدهارها ، فقد أعتبر في نفس الوقت البداية الحقيقية لرحلة الدولة الطويلة نحو السقوط والانهيار . فقد بدأ السلطان نفسه في ضرب المعول الأول في حائط الدولة المنيع . ففي الوقت الذي كان فيه القانوني حريصاً على وضع القوانين المنظمة لشئون الدولة ، صدر منه أول تجاوز لهذه القوانين ، وذلك بتعيينه أغا باب السعادة إبراهيم أغا وزيراً أعظماً ، مما أدى إلى تمرد الوزير الثاني أحمد باشا وعصيانه في مصر عام ١٥٢٣م/٩٢٩هـ . وفي النصف الثاني من عهد القانوني ، راح يخضع لرغبات زوجته خرّم سلطان (روكسلانة) التي كانت تسعي لأن يتولى أحد أبنائها عرش السلطنة بدلاً من أكبر أبناء السلطان ولي العهد الأمير مصطفى . وفي هذا السبيل ، بذرت بذور الخلاف بين السلطان والصدر الأعظم إبراهيم باشا الذي كان يؤيد الأمير مصطفى ، مما أدي لعزله وتعيين رستم باشا بدلاً منه ، ثم تزويج الأخير إحدى بناتها . وهكذا استطاعت بمساعدة الوزير الأعظم الجديد رستم باشا إيهام السلطان سليمان بان الأمير مصطفى يسعى للاستقلال وتنحيته ، وتولية السلطنة بدلا منه[٣٣٠]. وبذلك ، تمت المؤامرة و ُغرّر بالسلطان ، فأمر بقتل أفضل أبنائه على الإطلاق وأقدرهم على تحمل المسئوليات العالمية للدولة عام ١٥٥٣م/٩٦٠هـ . وهكذا ، وضعت روكسلانة البذور الأولى لمفاسد وفتن السراى العثماني ، ومن ثم تدخل نساء ورجال السراى في شئون الدولة ، ولبداية تولية سلسلة طويلة من السلاطين الضعاف .

---

[٣٣٠] Osmanli Tarihi , II , s. 318 , 401 -408 .

لم تنته هذه المرحلة حتى كانت هذه العوامل قد عمّت آثارها في مختلف مؤسسات الدولة وتشكيلاتها ، وراحت تنعكس بالتدريج على إنجازاتها الخارجية. فخلال الحرب العثمانية النمساوية (١٥٩٣-١٦٠٦م/١٠٠١-١٠١٥هـ) التي استمرت أربعة عشر عاماً، كشف عن ضعف قدرات الدولة العسكرية ، وعدم جدوى جيش سباهية التيمار ، وضرورة زيادة أعداد الجنود المسلحين بالبنادق[٣٣١] ، مما أدى إلى ضعف جيش السباهية ، وفساد جيش المركز ؛ فكانت لذلك كله آثاراً عميقة على النظم الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في الدولة خلال النصف الأول من القرن ١٧م / ١١هـ . وبذلك ، وضعت معاهدة زسيتواتوروك/ Zitvatorok (١٦٠٦م/ ١٠١٥هـ) النهاية لفكرة السيادة العالمية التي انطلق على أساسها العثمانيون في فتوحاتهم وفي تعاملاتهم مع الأمم الأخرى ، واهتزت في الداخل وفي الخارج فكرة الدولة الأبدية[٣٣٢] .

وإذا كان السلطان عثمان الثاني (١٦١٨-١٦٢٢م/١٠٢٧-١٠٣١هـ) قد أدرك هذا الأثر الخارجي لحالة الخلل التي أصيبت بها أجهزة الدولة ، فخرج على رأس الجيش ، ورأى بعينه الحالة المتردية التي وصل إليها ، وشعر بضرورة تطوير قدرات الجيش العثماني ، إلا انه لم يجد من بين رجال الدولة من يعينه على تحقيق هذا الإصلاح ، فذهب ضحية لمحاولته هذه[٣٣٣] . وعلى الرغم من تمكن السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠م/١٠٣٢-١٠٥٠هـ) من إجراء العديد من الإصلاحات في نظم الدولة ، ومنها الجيش[٣٣٤] ، ثم تمكن أسرة الصدور العظام " كوپريلي " من إعطاء دفعة جديدة للدولة من خلال بسط نفوذها على مقاليد الأمور مرة أخرى[٣٣٥] ،

---

[٣٣١] خليل ايناجلق ، ص ٩٣-٩٤ F. Emecen , s. 44-45

[٣٣٢] F. Emecen , s. 45 .

[٣٣٣] Osmanli Tarihi , III. 133, 137 , 141

[٣٣٤] Osmanli Tarihi , III. / 186 vd

[٣٣٥] Osmanli Tarihi , III/367 , 370 , 373 , 394 , 401

إلاّ أنّ هذه الإصلاحات لم تتطرق إلى أسباب الخلل الحقيقية ، وراحت تعالج مظاهر الداء فقط ، وارتبطت بأشخاص منفذيها ، فلم تتعد عصورهم ، حيث كانت الأوضاع بعدهم تعود إلى أسوأ مما كانت عليه من قبل .

وأخيراً ، كان إخفاق حصار فيينا الثاني عام ١٦٨٣م/١٠٩٤هـ ، ونجاح الحلف الصليبي في الإيقاع بالعثمانيين في عدة مواقع أخرها في زانتا عام ١٦٩٧م/١١٠٨هـ ، ومن ثم توقيع معاهدة كارلوفيجه عام ١٦٩٩م/١١١١هـ بين الدولة العثمانية والأطراف الأوروبية المحاربة لها ، وفقدان الدولة لجزء عظيم من أراضيها في أوروبا[٣٣٦] ، من أهم النتائج الخارجية لحالة التردي التي كانت تتقدم باطراد في مختلف أنحاء الدولة ومؤسساتها في الداخل وفى الخارج والتي كانت بمثابة أسباب خارجية جديدة لمرحلة انهيار جديدة تمر بها الدولة العثمانية .

أولا -عوامل الانهيار الداخلية :

لقد كان الترابط بين العناصر الأساسية لحالة الخلل الداخلى التى كانت تمر بها الدولة ، هي السّمة التي تميزت بها هذه المرحلة ، فكان كل عنصر يؤثر تأثيراً سلبياً في العنصر الآخر ، الأمر الذي أحدث خللاً تاماً في نظام الدولة الهرمي المتشابك لا يمكن إصلاح عنصر منه في غياب بقية العناصر الأخرى . والحقيقة أنّ حالة الخلل هذه ، كانت تتمثل في ضعف السلاطين أصحاب الحكم المركزي المطلق ، وعدم ظهور صدور عظام يمكنهم أنْ يملأوا فراغ السلطة هذا ، ومن ثم يضعوا الخطط الجادة للإصلاح . وهكذا ، راحت عوامل الخلل تتفشى في كافة مؤسسات الدولة دون أن تجد من يمكنه أن يوقف تقدمها نحو الهاوية . وكانت أهم هذه الأسباب :

أ – **ضعف سلطة السلاطين العثمانيين** : لقد أصاب المؤرخون العثمانيون عندما وضعوا على رأس عوامل ضعف الدولة ، ضعف سلطة السلاطين . فلما كان السلطان العثماني ، هو مدار الدولة ، والعمود الفقري للنظام الإداري والعسكري ،

---

[٣٣٦] F. Emecen , “ Osmanli Siyasi Tarihi “ , s. 54 -44

وصاحب كافة السلطات فيها[٣٣٧] ، كان أي ضعف يصيبه أو يصيب سلطته ، يمثل ضعفاً للدولة بكل مؤسساتها ، وللسلطة التي تسّير دفة الحكم فيها ، فيكون ذلك سبباً في عدم التقيد بقوانين الدولة ، وبفرمانات السلطان ، فيضعف نفوذه على مؤسسات الدولة ، وتتفكك سلطاته ، فتتنازعها مراكز القوى التى كانت تجد ، عندئذ ، مجالاً رحباً للظهور في السراي العثماني [أمهات السلاطين وزوجاتهم ، وأغوات دار السعادة وغيرهم] وفى أجهزة الدولة الإدارية والعسكرية [الوزراء والأمراء ، والقوى المحلية ، وجنود القابو قولى وبالخاصة فرق الانكشارية] بمركز الدولة والولايات ، الأمر الذى أدّى إلى حالة من الخلل العامة في الدولة[٣٣٨] .

وإذا كان المؤرخون قد أقروا بأن سليم الثاني (١٥٦٦- ١٥٧٤م/٩٧٣-٩٨٢هـ) كان فاتحة السلاطين الضعاف ، نظراً لأنه أوّل من سنّ عدم خروج السلاطين على رأس الجيوش في الحملات ، وأوّل من لم يرع شئون الدولة عن قرب، وأوّل من انزوى في القصور غارقاً في نزواته مفتتناً بالنساء خاضعاً لرغباتهن[٣٣٩] ، إلاّ أنّ هذا السلطان ترك شئون الدولة للوزير الأعظم صقوللي محمد باشا ، فساس هذا الوزير أمورها بحكمة ، وحافظ على مكانتها الخارجية باقتدار طوال فترة حكمه . أمّا مراد الثالث (١٥٧٣-١٥٩٥م/٩٨٢-١٠٠٣هـ) الذي أضاف إلى ما استحدثه والده من عادات سيئة بضعف إرادته الشديد ، وعدم احاطته بما يدور حوله ، خضوعه لمن كان حوله من نساء ورجال القصر ؛ فجمع في يده جميع السلطات التي راحت تعبث بها أمه وزوجته وأغا دار السعادة[٣٤٠] . وازداد الوضع سوءا في عصر السلطان محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣م /١٠٠٣-١٠١٢هـ) الذي

---

٣٣٧ Ahmed Akgunduz , Osmanli Kanunnameleri , I/ 205 -207

٣٣٨ Uzuncarsili , Saray Teskilati , s. 156 - 158 , 175 ; Osmanli Tarihi , III./119 -122

٣٣٩ Osmanli Tarihi , III. / 40 -42

٣٤٠ Osmanli Tarihi , III. / 42 -44

اعتبر آخر السلاطين الذين تولوا إمارة سنجق خلال فترة ولايتهم للعهد تدريباً لهم على الحكم والقيادة[341] ، الأمر الذي أضعف الأمل في ظهور سلاطين على مقدرة عسكرية أو كفاءة سياسية في الدولة فيما بعد .

فلما تولى احمد الأول العرش (١٦٠٣-١٦١٧م/١٠١٢-١٠٢٦هـ) ، ولم يتعد سنه أربعة عشر عاما ، ثم أعقبه مصطفى الأولى (١٦١٧-١٦١٨م/١٠٢٦-١٠٢٧هـ) وكان معتوها ، ثم عثمان الثاني (١٦١٨-١٦٢٢م/١٠٢٧-١٠٣١هـ) وكان صغير السن عديم الخبرة ، ومراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠م/١٠٣١-١٠٥٠هـ) ولم يكن مدركا لما حوله حتى عام ١٦٣٣م/١٠٤٠هـ ، استمر فراغ السلطة ، وازداد الصراع على كسب النفوذ بين رجال ونساء السراى العثماني . فلما توفى مراد الرابع ، تردت أوضاع الدولة أكثر، حيث تولى بعده إبراهيم (١٦٤٠-١٦٤٨م/١٠٥٠-١٠٥٨هـ) ثم محمد الرابع الذي كان لا يزال في السابعة من عمره (١٦٤٨-١٦٨٧م/١٠٥٨-١٠٩٨هـ)[342]. وقد استمرت حالة التفكك في سلطة السلاطين العثمانيين حتى تولية كوپريللى محمد باشا الصدارة العظمى عام ١٦٥٦م/١٠٦٦هـ ، وذلك بعد أن اشترط استعادة السلطات المطلقة للسلطان . وهكذا ، استعاد كافة السلطات في يده مرة أخرى ، ثم في يد أسرته من بعده حتى انتهاء هذه المرحلة بإخفاق فيينا عام ١٦٨٣م/١٠٩٤هـ ، وما تبعه من أحداث مأساوية انتهت بتوقيع معاهدة كارلوفيجه عام ١٦٩٩م/١١١١هـ .

ب – عدم كفاءة الصدور العظام : لقد أطلقت الدولة عليهم ألقاب عديدة أوضحت مكانتهم العظيمة في بنائها . فالصدر الأعظم هو الوزير الأول في الدولة ، صاحب الخاتم السلطاني ، والوكيل المطلق للسلطان ، بل هو" نظام

---

[341] Saray Teskilati , s. 119 – 121

[342] Osmanli Tarihi , III./ 116 , 127 , 223 , 137

العالم"[٣٤٣] . فقد كان سلاطين الدولة الأوائل يعرفون سمات الرجال العظام ، فيعينوهم في هذا المنصب ، حتى صاروا دعامة قوية في تحقيق إنجازاتهم في الداخل وفي الخارج[٣٤٤]. وقد استطاع بعض هؤلاء الصدور ملئ الفراغ السياسي الذي تركه ضعف السلاطين ، حيث تمكن صقوللى محمد باشا من ممارسة سلطاته الكاملة في الدولة ، فلم تظهر عوامل الانهيار الداخلي إلاّ بعد عزله عام ١٥٧٩م/٩٨٧هـ . وبعد صقوللي ، لم تجد الدولة رجل على نفس الطراز والمقدرة والكفاءة ؛ ففي ظل عزوف السلطان مراد الثالث عن النظر في شئون الدولة ، وتولية صدور عديمي الخبرة والكفاءة ، ازدادت تدخلات نساء ورجال السراي وندماء السلطان حتى أطلق بعض المؤرخين على الدولة في هذه الفترة اسم "سلطنة النساء والندماء"[٣٤٥] .

وكان من أهم نتائج ضعف الصدور ، أن تناوب على هذا المنصب تسعة عشر وزيرا خلال ثمانية عشر عاما فقط (١٥٨٠-١٥٩٨م/٩٨٨-١٠٠٧هـ) ، ممّا أدّى إلى عدم استقرار الإدارة في الدولة ، وانتقال مقاليد الحكم لنساء السراي وأغوات باب السعادة والمقربين من السلطان ، وأخذ التعيين في وظائف الدولة الهامة لا يخضع للكفاءة والمقدرة ، والتسلسل الوظيفي بحسب القوانين والأعراف التي كانت جارية من قبل ، وإنما راح يتم بطريق الالتماس والحماية والرشوة التي كانت تدفع للوالدة سلطان وللوزير الأعظم ، ولمن لهم تأثير على السلطان[٣٤٦] . وقد ساعد على نمو نفوذ السراي ، وتدخلاته في شئون الدولة، انغلاق السلاطين على أنفسهم وعدم احاطتهم بالأوضاع الداخلية والخارجية في الدولة . ولما كان الوزراء عديمي

---

[٣٤٣] Akgunduz , Osmanli Kanunnameleri , I. / 211 -121

[٣٤٤] V. Ronke , XVI. XVII. asirda Osmanli ve Ispanya Kiralligi , s. 148 - 149

[٣٤٥] Osmanli Tarihi , III./ 43 , 118 .

[٣٤٦] Osmanli Tarihi , III. / 118 - 119

الخبرة أو الكفاءة ، كانت توجه إليهم من أصحاب النفوذ الأوامر التي لم يكونوا يملكون أمامها سوى الخضوع .

وهكذا ، سحبت إدارة شئون الدولة من يد هؤلاء الوزراء ، فلم تعد للفرمانات التي كانت تصدر بمعرفتهم عن الديوان الهمايوني نفس الأهمية القديمة ، بعد أن صار أصحاب النفوذ يستصدرون خطوطاً همايونية بما يريدون من السلطان نفسه[٣٤٧] ؛ فكانت ضربةً عظيمةً لمنصب الصدارة العظمى الذي كان الدعامة الثانية بعد السلطان لنظام الدولة الداخلي ، وكانت لها آثاراً بعيدةً على ولايات الدولة في الداخل ، وعلى جبهات القتال في الخارج .

والحقيقة ، أنه لم يستطع أحد من الوزراء استعادة نفوذه ، ومن ثم استعادة سيطرته، كوكيل مطلق للسلطان ، على مقاليد الإدارة والحكم وقيادة الجيوش حتى تولية آل كوبريلى الصدارة العظمى (١٦٥٦م /١٠٦٦هـ) . فقد حملت هذه الأسرة على عاتقها مهمة الإحياء الأخيرة للدولة العثمانية ، واستعادة السلطات من مراكز القوى ، والقضاء على العصاة ، وإصلاح الحالة المالية ، ثم الانطلاق إلى وسط أوروبا مرة أخرى ، في صحوة ما قبل الهزيمة والانهيار الكامل . على أن هذه الحيوية، لم تستطع القضاء على أصل الداء الذى كان كامناً في السراى العثمانى ، وقابعاً في جنبات الروح المعنوية لرجالات الدولة وجندها . ومنذ ذلك الحين ، بدأ البناء العثماني في الانهيار من الداخل ، حيث راحت تتردد بين جنباته أصداء الضربات من الخارج .

ج – تدهور التشكيلات العسكرية : لقد احتل التهاون في تطبيق قوانين التشكيلات العسكرية في الدولة المقدمة من الأسباب التي أدّت إلى ضعف هذه التشكيلات. والحقيقة أنّ امتناع سليم الثاني عن توزيع هبة الجلوس على جنده ، وعدم خروجه على رأسهم في الحملات افقده هيبته أمام جند القابو قولي. على أنّ

---

[٣٤٧] Osmanli Tarihi , III. / 122

التدهور الحقيقي في هذا التشكيل بدأ في عهد مراد الثالث ، إثر تهاون الدولة في تطبيق" قانون الديوشيرمه" ، وتسرب الغرباء إلى صفوف جند المركز بطرق عديدة ، وبدون تعليم أو تدريب ، تحت اسم " قول قارداشى " ، وذلك للإستفادة من امتيازات جند الإنكشارية . ولّما احتاجت الدولة أعداداً إضافية من جند المشاة في حروبها مع النمسا (١٥٩٣-١٦٠٦م/١٠٠١-١٠١٥هـ) ، سعت الدولة لزيادة جند الانكشارية ، وذلك بإلحاق العديد من القرويين بالفرقة تحت اسم " سكپان " نظرا لتعذر توفير جند من خلال نظام " الديوشيرمة " . فكان لزيادة هؤلاء الجند زيادة كبيرة خلال مطلع القرن ١٧م/١١هـ ، أثر عظيم في زيادة أعباء الخزينة العامة للدولة ، وعجزها عن أداء مرتبات الجند ، ومن ثم ظهور حركات عصيان متكررة سواء في مركز الدولة أو في ولاياتها[٣٤٨] .

وإذا كانت الحاجة إلى زيادة أعداد جند المشاة المسلح بالبنادق في الحروب قد أثرت تأثيراً سلبياً على جدوى جيش سپاهية التيمار الذي كان يعد القوة الضاربة في الجيش العثماني ، إلاّ أنّ تأثر نظام التيمار بحالة الخلل التي كانت تعانى منها أجهزة الدولة وبفساد الأوضاع الإدارية في المركز كان أشد . فقد بدأت مقاطعات التيمار والزعامة والخاص توجه لغير المستحقين لها بطريق الرشوة والمحسوبية ، وبحسب " نظام الالتزام "، مما أدّى إلى اختلال" نظام التيمار " منذ عهد مراد الثالث ، وانتشار آثار ذلك السلبية على الحالة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة خلال القرن ١٧م/١١هـ[٣٤٩] .

ولّما كانت القوة العسكرية في الدولة هي العنصر الأساسي في قيامها ، وأوّل ما انعكست عليه آثار الخلل الداخلي وفي ساحات القتال ، فقد فكر بعض السلاطين إصلاح هذه المؤسسة كالسلطان عثمان الثاني الذي دفع حياته ثمناً لذلك ثم السلطان

---

[٣٤٨] Uzuncarsili , Kapukulu Ocaklari , I./ 477 vdd.

[٣٤٩] Mehmed Ipsirli , " Osmanli Devleti Teskilati " , Osmanli Devleti veMedeniyeti Tarihi , s. 241 vd

مراد الرابع بعد ذلك ؛ كما سعى لذلك أيضا الصدور العظام من آسرة كوبريللى .
إلاّ أنّ هذه المحاولات الإصلاحية ، لم تكن جذرية تتعدى التدابير العنيفة والإجراءات الزجرية ؛ ولذلك ، راحت هذه القوة العسكرية تسير بخطى سريعة نحو الانهيار .

د – الخلل الاقتصادى والمالى : لقد كان تحول الكثير من أراضى الدولة إلى نظام الالتزام ، ثم تحولها بعد عام ١٥٩٠م /٩٩٨هـ إلى أملاك خاصة تحت اسم "مالكانه" لمن بأيديهم هذه الالتزامات ، من أهم نتائج اختلال " نظام التيمار " ، حيث أدى ذلك إلى إحداث الخلل بالحالة الاقتصادية للدولة ، وزيادة نفوذ الأعيان في الولايات . ولما تضاعفت أعداد الجنود من ذوى المرتبات ، ومطالبتهم بالحصول على امتيازات الانكشارية المالية ، ازدادت أعباء الخزينة المثقلة[٣٥٠] .

ومن ناحية أخرى ، فقد كان لإغراق الأسواق العثمانية بالفضة التي جلبت من العالم الجديد في التسعينات من القرن السادس عشر (١٥٨٠م/٩٨٨هـ) أثر عظيم في الارتفاع المفاجئ للأسعار ، ومن ثم في معاناة فئات رجال الدولة من أصحاب الدخول الثابتة ، وفى مقدمتهم جند القابو قولى (الباب السلطانى) من ضغوط اقتصادية ومالية كبيرة[٣٥١] . ويمكننا ربط حركات العصيان التي راح جنود القابو قولى يقومون بها والتجاوزات التي أقدم عليها جند سپاهية التيمار وأصحاب الوظائف الأخرى في الولايات وحتى القضاة ، وسعيهم لجمع وتحصيل رسوم وعائدات مخالفة للقانون من الرعايا ، وهجرة هؤلاء من قراهم وتركهم الأرض خرابا، ربطها بهذه الأزمة المالية التي واجهت الدولة ، وتسببت في فقدان العملة العثمانية لقيمتها وفى إلحاق العجز بميزانية الدولة ، ومن ثم زيادة الضرائب الدورية وتحصيل ضرائب " العوارض" الاستثنائية من الأهالي بشكل سنوي دائم . وهكذا ، أدى هذا الخلل الاقتصادي والمالي في الدولة إلى اضطراب عام في الأوضاع الأمنية

[٣٥٠] B. Yediyildiz , " Osmanli Toplumu " , a.g.e. , s. 502 .
[٣٥١] خليل ايناجق ، العثمانيون في عصر النشأة والازدهار ، ص ٩٣ -٩٦ .

والاجتماعية في الدولة منذ أواخر القرن ١٦م/١٠هـ ، وعلى مدى القرن١٧م/١١هـ .

هـ - حـركـات العصـيان : لم تر الدولة العثمانية حركات عصيان من قبل على النحو الذي شهدته منذ أواخر القرن ١٦م/١٠هـ ، وخلال القرن ١٧م/هـ ، حيث كانت أسباب هذه الحركات تنحصر من قبل في مطالبة الجند بالهبات والعطايا ، أو التذمر لسوء الأحوال في الجبهات . ولكن تلك الحركات التي ظهرت خلال هذه الفترة استندت على عوامل الخلل التي راحت تعانى منها الدولة من ضعف سلطة السلطان ، وعدم خبرة نائبه المطلق ، ومن ثم عصيان أوامرهما ، وسيطرة نساء ورجال القصر على مقدرات البلاد ، وإدارة شئون العباد بحسب المصالح الشخصية ، وانتشار الترف وسؤ الخلق بين رجال الدولة ، مما نشر الشعور بعدم الرضاء بين الجند وأصحاب الحرف في مركز الدولة ، وحتى بين الولاة أنفسهم في الولايات[٣٥٢] .

وقد كان الانهيار الاقتصادي الذي نتج عن الأزمة المالية في الدولة ، وفقدان قيمة العملة الذي أدى إلى آثار اجتماعية في أنحاء البلاد ، وتسريح جند " السكپان " بعد انتهاء الحروب ، وزيادة نفوذ جند المركز وبالخاصة الإنكشارية ، واهتزاز نظام التيمار ، وتحويل أراضيه إلى التزامات ، وفرار القرويين نظراً لثقل الضرائب الواقعة عليهم ، واستعمال وظائف الدولة لجمع الثروات ، واستيلاء قواد الفرق العسكرية على الوظائف المحلولة ، وبيعها لغير المؤهلين بطريقة المزايدة ، واختراق الفساد للمؤسسة العلمية ، وتعيين القضاة في المناصب ببذل الرشاوى، مما كان سبباً في ضياع الحقوق بين الناس ، وتعذر أيجاد من ترفع إليه الشكاوى فينصف المظلوم ويقيم العدل ، كل هذه العوامل المتداخلة ، كانت أسباباً مباشرةً لتفجر حالات العصيان العسكري والمدني في مركز الدولة وفى أنحاء البلاد ، وبالخاصة في الأناضول .

---

[٣٥٢] Uzuncarsili , Kapukulu Ocaklari , I./ 507 - 517 ; Osmanli Tarihi , III./ 99 - 100

ففي ظل فراغ السلطة في استانبول ، راح رجال الدولة يستخدمون جند القابو قولى ويثيروهم كوسيلة ضغط على بعضهم البعض في صراعاهم لنيل الوظائف الهامة ، الأمر الذي أدّى إلى بذر بذور الشقاق بين عنصري الجيش العثماني في المركز، "الانكشارية" و"السوارى"[٣٥٣] . وقد وصلت تجاوزات هؤلاء إلى حد تمكنهم من قتل السلطان عثمان الثانى (١٦٢٢م/١٠٣١هـ) الذي حاول إصلاح مؤسستهم ، حيث انتقلت مقاليد الأمور في البلاد إليهم منذ ذلك الحين ، وصاروا من أهم مراكز القوى التي يحسب حسابها في مركز الدولة . وقد استمرت حركات العصيان حتى استطاع كوبريلى محمد باشا (١٦٥٦-١٦٧٩م/١٠٦٦-١٠٩٠هـ) إخمادها في مركز الدولة واستعادة سلطة الدولة المسلوبة .

ومهما يكن من أمر ، فقد وقعت خلال القرن ١٧م/١١هـ فقط ، نحو ثلاثة عشر حركة عصيان كبرى في الدولة ، اشتركت فيها الفرق العسكرية ، وأرباب الحرف ، ورجال الدول ونساء السراي ، فكانت بحق مظهراً جلياً لحالة الانهيار التي كانت تتعرض لها الدولة في مؤسساتها العسكرية والسياسية والاقتصادية والإدارية والقضائية . وإذا كانت الحركات التي قامت في أعوام ١٦٥١م/ ١٠٦١هـ، و١٦٥٦م/ ١٠٦٦هـ، ١٦٨٨م/ ١٠٩٩هـ تحمل أسبابا اقتصادية ، فإن الحركات العشرة الأخرى كانت نتيجة التحريض والصراع على السلطة والنفوذ في الدولة ، حيث راح ضحيتها بعد السلطان عثمان ، السلطان إبراهيم أيضا ، وبعض الوزراء العظام ووالدات السلاطين[٣٥٤] .

و – **ضعف تماسك أرجاء الدولة :** لّما كانت ولايات الدولة جزءاً لا يتجزأ من كيانها السياسي ، فقد أثرت عوامل ضعف سلطة السلطان ، والتهاون في تطبيق القوانين ، وسيطرة رجال ونساء القصر واضطراب أوضاع الجيش وخلل

---

[٣٥٣] عصمت بارماقسزاوغلى ، " الدولة العثمانية خلال القرن ١٧ " ، دراسات في التاريخ العثماني ، ترجمة وتقديم وتعليق سيد محمد السيد ، ص١٣٩ -١٤٢ ؛ F. Emecen , s. 46 - 47 .

[٣٥٤] " الدولة العثمانية في القرن ١٧ "، ص ١٤١ – ١٤٥ .

الحالة الاقتصادية والمالية ، تأثيراً سلبياً بشكل مباشر على مدى تماسك العلاقة بين مركز الدولة وولاياتها . فقد بدأ يتولى خلال هذه الفترة ، الولايات ولاة تعوزهم الكفاءة والمقدرة ، وحسن سياسة الأمور ، فانعكس ذلك على مدى نجاحهم في إدارة البلاد ، وبدء ظهور القوى المحلية التي راحت في ظل ضعف هؤلاء الولاة تسيطر على مقاليد البلاد ، وتسلب من ممثل السلطان سلطاته تدريجيا ، وتوجيه الأحداث بما يخدم مصالحها ، ويرسخ أقدامها[٣٥٥] .

وإذا كانت هذه القوى المحلية لم تسع ، في محاولتها لاستعادة نفوذها وسلطتها في البلاد ، للخروج على سلطة الدولة ، خلال هذه المرحلة ، إلاّ أننا نلاحظ أن الولايات الأوروبية للدولة كان هدفها الأساسي الخروج على الحكم الإسلامي للدولة العثمانية ، الأمر الذي جعل هذه الولايات ذات الأغلبية المسيحية [اليونان ، المجر ، الافلاق والبغدان ، صربيا وبلغاريا] تتحين فرصة هذه الاضطرابات في مركز الدولة ، وبدأت تتصل بالباباوية ، والدول الأوروبية المحاربة للدولة ، وتتلقى منهم الدعم والمادي والمعنوي في خروجهم على الإدارة العثمانية في حركات عصيان مستمرة[٣٥٦] ، الأمر الذي زاد من ضعف تماسك هذه العلاقة بين الدولة العثمانية وتلك الولايات بصفة خاصة ، ومهد لها السبيل للمطالبة بالاستقلال عن الدولة العثمانية .

وهكذا ، يمكننا أن نقرر أنّ عوامل الانهيار الداخلية ، كانت البداية الحقيقية لتاريخ انهيار الدولة العثمانية الطويل ، وأنّ محاولات الإصلاح لمؤسسات الدولة تلك التي أصابها الخلل ، خلال هذه المرحلة ، والتي استمرت حتى أواخر القرن ١٧م/ ١١هـ واستهدفت إصلاح نظم الدولة العسكرية والمالية في المقام الأول على نفس الأصول القديمة التي وضعها محمد الفاتح ، وسليم الأول ، وسليمان القانوني ، وتمت

---

[٣٥٥] محمد انيس ، الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ - ١٩١٤) ، القاهرة د.ت. ، ص ١٥٢ وما بعدها .

[٣٥٦] " الدولة العثمانية خلال القرن ١٧ " ، ص ١٢٠ -١٢١ ، ١٣٣ - ١٣٥ .

على يد مراد الرابع وصدور عظام آل كوبريللى ، استطاعت أن تمد في مرحلة الانهيار هذه لأكثر من قرن من الزمان ، وان العوامل الخارجية التي كان لها تأثير على حالة الانهيار في الدولة ، لم تؤت ثمارها إلاّ بعد أن شبّ الخلل في أنحاء الدولة ، وتصّدع بنيانها على نحو ما رأيناه بالفعل .

ثانيا - عوامل الانهيار الخارجية :

لقد كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية ، قامت على هدف إستراتيجي هو الغزو والجهاد . وكانت مؤسستها العسكرية ، هي دعامة قوتها ، حيث مثلت مؤسساتها الأخرى ، الجبهة الداخلية التي تقف وراء قوتها العسكرية ، ولذلك ارتبط نموها وازدهارها بمدى ما كان يحققه هذا الجيش من إنجازات على الصعيد الخارجي للدولة .

وهكذا ، كانت الإنجازات الخارجية للدولة ، أثر من آثار القوة العسكرية العثمانية. فمن خلالها ، استطاع العثمانيون الانتقال بإمارتهم الصغيرة إلى مصاف الدول العظمى ؛ فاتسعت شرقاً وغرباً معتنقة فلسفة الدولة العالمية ، ووجهت السياسة العالمية حتى أواخر القرن ١٧م/١١هـ . وقد حافظ السلاطين العثمانيين الأوائل على هذه المكانة الخارجية للدولة . فكما حرص القانوني حتى نهاية حياته (١٥٦٦م/٩٧٤هـ) على ترسيخ مكانة الدولة العالمية في الخارج ، استطاع صقوللي محمد باشا بخبرته العسكرية ، وحنكته السياسية المحافظة على هذه المكانة طوال فترة حكم سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤م/٩٧٤-٩٨٢هـ) ، ومن ثم لم تنعكس مظاهر الخلل الداخلي على الدولة في إنجازاتها الخارجية إلا في عهد مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥م/٩٨٢-١٠٠٣هـ) . فكانت لعوامل الاضطراب التي طرأت على كافة مؤسسات الدولة ، ومنها المؤسسة العسكرية ، أعظم الأثر على بدء فقدان فلسفة الغزو والجهاد لتأثيرها لدى العثمانيين ، واهتزاز فلسفة الدولة العالمية في الداخل والخارج .

ومن ناحية أخرى ، إذا كانت الدعوات الصليبية لمواجهة الزحف العثمانى في أوروبا ، بدأت تستيقظ مرة أخرى إثر هزيمة الأسطول العثماني في لبانتو (اينه باختى) عام ١٥٧١م/٩٧٩هـ ، إلاّ أنّ هذه الدعوات لطرد العثمانيين من أوروبا المسيحية ، راحت تزداد كثافتها ، بعد أن بدأت عوامل الخلل الداخلية في الدولة تتكشف آثارها في ساحات القتال وعلى موائد المفاوضات ، وإثر إخفاق الدولة في إصلاح مؤسساتها ، ووقف حالة التردي فيها ، فضلاً عن تطوير نظامها القديم الذي كان سبباً في قوتها وازدهارها .

وكانت عناصر القوة الأوروبية التي راحت تتراكم على مدى القرنين ١٦-١٧م/ ١٠-١١هـ ، ومن خلال الاكتشافات البحرية ، والتوسع التجاري، والتطور العلمي والتكنولوجي في الزراعة والصناعة ، وإعادة بناء النظم الاقتصادية ، قد بدأت تؤتى أوكلها عقب حرب الثلاثين عاما بين الدول الأوروبية (١٦١٨-١٦٤٨م/١٠٢٧-١٠٥٨هـ) التي انتهت بعقد مؤتمر " وستفاليا " عام ١٦٤٨م/١٠٥٨هـ ، مما زاد أركان التحالف الأوروبي تماسكا[٣٥٧] . وبذلك ، تمخض الوفاق الأوروبي عن نجاح التنسيق بين هذه الدول لمواجهة الدولة العثمانية ، ومحاولة طردها من أوروبا ؛ وتجسد هذا الوفاق فيما عرف باسم " التحالف المقدس " الذي جمع بين الأعداء من الدول الأوروبية ضد العثمانيين إثر هزيمتهم أمام فيينا عام ١٦٨٣م/١٠٩٤هـ [٣٥٨] .

والحقيقة ، أن هذه المرحلة قد تمخضت عن نقطتي تحول ، انتهي كل منها بعقد معاهدة بين الطرف الأوروبي والعثماني ، تنازل فيه الثاني للأول ، في المرة الأولى (زسيتوا توروك١٦٠٦م/١٠١٥هـ) عن عنصر من عناصر تفوقه السياسي ، وفى المرة الثانية (كارلوفيجة ١٦٩٩م/١١١١ هـ) عن الشريط الحدودي الذي

---

[٣٥٧] نادية محمود مصطفى ، " العصر العثمانى من القوة والهيمنة الى بداية المسألة الشرقية " ، ص ٧٩ - ٨٠ ، ١٠٢ .

[٣٥٨] Uzuncarsili , Osmanli Tarihi , III. / 460 vd

كان يفصل بين الطرفين (بلاد المجر ، ومملكة اردل ، وبولونيا ، ومقاطعة اوكرانيا) ، حيث انتقلت المواجهات بعد ذلك إلى عقر دار الدولة العثمانية .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان القرن ١٧م/١١هـ عصر التحولات الحضارية العالمية بحق ، حيث أثبتت الأحداث أن الدعوات الأوروبية لحشد القوى العسكرية والدبلوماسية والاقتصادية ، وتوجيهها من خلال تحالف صليبي متماسك للقضاء على الحكم الإسلامي في أوروبا ، ومن ثم على جزء عظيم من كيان الدولة العثمانية فيها ، كانت أقوى تأثيراً في المتغيرات العالمية من محاولات الإصلاح السطحية وغير الجذرية للمؤسسات العثمانية على نفس الأسس التي قامت عليها ، والسعي لإحياء روح الغزو والجهاد من جديد[٣٥٩] .

والحقيقة أنّ عوامل انهيار الدولة العثمانية الخارجية قد ارتبطت ارتباطاً مباشراً بمدى نجاح التحديات الخارجية في تقوية جبهتها الداخلية ، وانعكاس ذلك على مواجهتها مع الدولة العثمانية ؛ ومدى تأثير ذلك في النيل من مقوماتها الأساسية ، وتحطيم دفاعاتها الداخلية والخارجية ، ومحاولة فصل أطرافها أو إضعاف روابطها مع المركز .

لقد واجهت الدولة العثمانية تحدياً خارجياً أساسياً ، تَمَثّل في أوروبا المسيحية ، وكان وراء معظم عوامل الانهيار الخارجية التي واجهتها الدولة العثمانية منذ القرن ١٧م/١١هـ ، وتحدياً خارجياً ثانوياً ، تمثل في الدولة الصفوية الشيعية ، وكان دعامة هامة للتحدي الأول بإستنزافه القوى العثمانية في حروب لا طائل ورائها .

١ - التحدي الأوروبي :

لقد قام هذا التحدي على مقومات ثلاثة هي :

[٣٥٩] " العصر العثماني الى بداية المسألة الشرقية " ، ص ٨٠ .

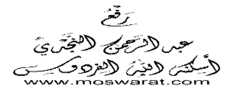
أ - العداء القديم بين الإسلام الذي تمثله الدولة العثمانية ، والمسيحية التي تمثلها أوروبا ، واعتبار الصراع بين الطرفين جولة ، هي امتداد لما مضى من جولات .

ب - الرغبة العارمة في استعادة المناطق التي فتحها المسلمون عموماً ، والعثمانيون خصوصاً ، وعلى رأسها " بيت المقدس " ، ومركز الكنيسة الشرقية في القسطنطينية .

ج - الحرص على تخليص المسيحيين في أنحاء العالم ، وبالخاصة في أرجاء الدولة العثمانية من الحكم الإسلامي ، والسعي لتحويل المسلمين إلى أكثرية مستضعفة .

لقد أدرك الغرب أنه لا يمكنه تحقيق هذه الأهداف الاستراتيجية بعيدة المدى، طالما كان هناك تشكيل سياسي للدولة الإسلامية ، يحميه جيش يعتنق فلسفة الغزو والجهاد . ولذلك ، سعى هذا التحدي الأوروبي لتماسك العالم المسيحي ، واتخاذ الأسباب المادية والمعنوية لحيازة القوة والتفوق ؛ وسعى من ناحية أخرى لمحاولة تفريق العالم الإسلامي وتفكيكه ، واتخاذ الأسباب المادية والمعنوية الموجبة لإضعافه والهيمنة عليه[٣٦٠] . وفي سبيل ذلك ، راح هذا التحدي يتلمس السبل للنيل من كيان الدولة العثمانية وتفكيكه بالتدريج ، ثم إذابته جزءاً جزءاً ، وذلك من خلال عوامل ثلاثة ، كان كل منها نتيجة مباشرة للأخرى، وتفرعت عنها عوامل ثانوية عديدة ، أخذت تفتت مقاومة الدولة العثمانية الداخلية والخارجية بالتدريج حتى انهيارها .

[٣٦٠] شكيب ارسلان ، " مائة مشروع لتقسيم تركيا " ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ - ٢٤٤ ، ٢٥٨-٢٥٩ .



العامل الأول -التحولات التقنية والمالية والاقتصادية الأوروبية :

بينما كانت الدولة العثمانية تعيش فترة مخاض عميقة الأثر واسعة الامتداد ، منذ أواخر القرن ١٦م/١٠هـ وخلال القرن ١٧م/هـ ، راحت نتائج اليقظة الأوروبية تتراكم وتتمخض عن تحدٍ عظيمٍ يهدد وجود الدولة العثمانية العالمي . فقد تزامن انتشار روح الابتكار في العديد من الأقطار الأوروبية مع الرغبة في توظيف ما نتج عن هذه الابتكارات من ثورة صناعية لمواجهة العالم الإسلامي ، ومحاولة الالتفاف حوله عبر البحار الشرقية[٣٦١]. وإذا كان العثمانيون قد استطاعوا مواجهة أولى تلك المحاولات التي تتمثل في سعي البرتغاليين لقطع طريق التجارة الشرقية خلال النصف الأول من القرن ١٦م/١٠هـ ، إلاّ أنّه على أثر سيطرة الهولانديين والإنجليز على المحيط الهندي بعد عام ١٥٩٠م/٩٩٨هـ ، وقطعهم لطريق تجارة الهند تماماً عن منطقة الشرق الإسلامي ، بدأت تجارة البهار تأتي إلى الأراضي العثمانية عن طريق أوروبا[٣٦٢] ؛ فكان لهذا التطور أثر عظيم في تعرض الخزينة العامة للدولة لضربة قوية في دخلها من الجمارك التي كانت تفرضها على هذه التجارة عند مرورها عبر الأراضي والموانى العثمانية . وقد أدى ذلك إلى انحصار نشاط التجار المسلمين داخل العالم الإسلامي ، واحتلال رعايا الدولة من غير المسلمين مقام الصدارة في حركة التجارة الخارجية .

ولما تمكن الإنجليز من فتح طريق تجارى جديد عبر روسيا شمالاً ، منذ أواسط القرن ١٦م/١٠هـ ، وعلى اثر اتخاذ الشركة الروسية - الإنجليزية من موسكو مركزاً تجارياً للأقمشة الصوفية ، والحديد والسلاح المتوجه نحو الغرب ،

---

[٣٦١] كولز ، العثمانيون في اوروبا ، ص ١١٢ -١١٣ ، ١٤٢ - ١٤٣ .

[٣٦٢] خليل اينالجق ، العثمانيون في عصر النشأة والازدهار ، ص ٩٦ -٩٧ ؛ فاروق عثمان اباظة ، أثر تحول التجارة العالمية الى رأس الرجاء الصالح على مصر .. ، ص ١٣٢ - ١٣٣.

حيث استطاعت موسكو حينئذ إحكام السيطرة على تجارة الفرو العالمية ، ضعف المركز الإستراتيجي لتجارة الدولة العثمانية شمالي البحر الأسود أيضا[٣٦٣] .

وفى ذلك الحين ، راحت الآثار السلبية للاكتشافات الأوروبية في أمريكا تنعكس على الدولة العثمانية منذ العقدين الأخيرين من القرن ١٦م/١٠هـ ، في شكل إغراق الأسواق العثمانية بالفضة الأمريكية التي جلبها التجار الأوروبيون من العالم الجديد ، الأمر الذي أخلّ بميزان العرض والطلب في الأسواق العثمانية . فكان هؤلاء التجار يقومون بشراء المواد الخام والمصنعة من الأهالي والمنتجين بأسعار تفوق ما يدفعه التجار والحرفيون المحليون، مما جعل هذه الطاقة الشرائية الجديدة ، سبباً في زعزعة الاقتصاد العثماني وارتفاع أسعار الحبوب والمواد الخام في الأسواق العثمانية ، الأمر الذي كان له آثار بعيدة المدى أيضا على معاناة أرباب الحرف والصنائع في الدولة والقضاء على العديد من الصناعات[٣٦٤] .

والحقيقة ، أن هذه التحولات التقنية والاقتصادية والمالية الغربية ، قد استفادت كثيرا من الوضع المتميز الذي احتله رعايا الدولة من غير المسلمين ، ومن المعاهدات التي كانت تعطى للتجار الأجانب حقوقا تجارية متميزة في طول الأراضي العثمانية وعرضها ، حيث راحت هذه الامتيازات تتطور سريعاً بفعل هذه المتغيرات ، وأخذت منذ أواخر القرن ١٧م/١١هـ تسلب من الدولة نفوذها على حركتها الاقتصادية الداخلية ، فضلا عن الخارجية منها[٣٦٥] .

---

[٣٦٣] خليل ايناجلق ، العثمانيون في عصر النشأة والازدهار ، ص ٩٨ .

[٣٦٤] - B. Yediyidiz , " Osmanli Toplumu " , s. 499 - 500 ; Mubahat Kutukoglu , Osmanli Iktisadi Yapisi " , Osmanli Devleti Tarihi ve Medeniyeti , s. 573 - 577 .

[٣٦٥] Mehmed Ipsirli , " Osmanli Devlet Teskilati " , s. 205 - 206 Osmanli Tarihi , III. 2 Kisim, s. 116 -117

العامل الثانى - تتابع المواجهات العسكرية :

إذا كانت الخلافات المذهبية والانقسامات السياسية قد مثلت السبب المباشر لفشل التحالفات التي عقدت بين الدول الأوروبية خلال القرنين ١٥-١٦م/ ٩-١٠هـ ، فقد كان تأجج روح الجهاد لدى العثمانيين في فتوحاتهم صوب أوروبا ، هو العامل الحاسم في إلحاق الهزائم المتتالية بهذه التحالفات . فمنذ انتقال العثمانيين للطرف الأوروبي ، لم تتوقف البابا وية في روما عن دعوة دول وشعوب أوروبا لنبذ الخلافات والتحالف لطرد العثمانيين ، وفى نفس الوقت ، لم يتوان العثمانيون عن توسيع نطاق حملاتهم في الغرب[٣٦٦] .

والواقع أنّ هذا الصراع العثماني - الأوروبي الذي استمر لعدة قرون من الزمان ، كان صراع مصير ، لم يتخل عنه طرف من الطرفين في أحلك الظروف[٣٦٧] . غير أن تراكم عوامل القوة الاقتصادية والعسكرية الأوروبية ، منذ أواخر القرن ١٦م/١٠هـ وعلى مدى القرن ١٧م/١١هـ ، وتوالد عوامل الخلل في مختلف مؤسسات الدولة العثمانية خلال نفس الفترة تقريباً ، كان له آثاره المدمرة على الكيان العثماني برمته خلال العقدين الأخيرين من القرن ١٧م/١١هـ .

لقد اعتبرت دولة الهابسبورج نفسها الدرع الواقى لجميع المسيحيين في أوروبا ، حيث راحت تستقطب الكثير من المتطوعين البروتستانت والكاثوليك في مواجهاتها ضد الدولة العثمانية . وإذا كانت هذه التحالفات المسيحية قد أوقعت ضربة شديدة بالعثمانيين عام ١٥٧١م/٩٧٩هـ في لبانتو (اينه باختى) ، حيث تحطم لأول مرة حاجز الرهبة من الجيش العثمانى ، إلا أنها لم تلق نجاحا يذكر في بلاد المجر حتى العقدين الأخيرين من القرن ١٧م/١١هـ . وعلى الرغم من أن الحرب العثمانية - النمساوية (١٥٩٣-١٦٠٦م/ ١٠٠٠-١٠١٥هـ) لم تحدث

---

[٣٦٦] شكيب ارسلان ، مائة مشروع لتقسيم تركيا ، ص ٢٣٦ -٢٣٧ .

[٣٦٧] Paul Wittek, Osmanli Imparatolugunun Kurulusu , s. 8 - 9

أي تغيير يذكر في خط الحدود بين الطرفين ، إلاّ أنّ حركة إحياء الغزو والجهاد التي قادها الوزير الأعظم أحمد باشا كوبريللي نحو أوروبا ، وفرضه على أثرها سيادة الدولة على أردل عام١٦٦٤م/١٠٧٥هـ، وعلى كريت عام ١٦٦٩م/١٠٨٠هـ، وعلى القازاق عام ١٦٧٨م/١٠٨٩هـ وعلى بولندا وأوكرانيا عام ١٦٨١م/١٠٩٢هـ ، كانت سببا في عودة موجة الرعب من العثمانيين في أوروبا مرة أخرى[٣٦٨] .

وقد زاد من حشد هذا الشعور العدائي الأوروبي ، توجه الصدر الأعظم قرة مصطفى باشا في حملة صوب المجر مرة أخرى ، ودخولها عام ١٦٨٢م/١٠٩٣هـ؛ فأعلن الهابسبورج أن هذه الحرب موجهة ضد العالم المسيحي الغربي ، وسعوا لجمع المساعدات من الدول الأوروبية . وعلى الرغم من أنّ العثمانيين استطاعوا الزحف حتى أبواب فيينا ، ومحاصرتها عام ١٦٨٣م/١٠٩٤هـ، إلاّ أنّ هزيمتهم أمامها ، ثم انسحابهم السريع وغير المنظم ، شجع أوروبا لعقد حلف مسيحي ضم كل من النمسا وبولندا والبندقية عام ١٦٨٤م/١٠٩٥هـ، ثم انضمت إليه روسيا عام ١٦٨٦م/١٠٩٧هـ؛ وبذلك اجبروا العثمانيين على الحرب في أوروبا فوق جبهات متعددة[٣٦٩] .

وهكذا ، بدأ انهيار الحكم العثماني في أوروبا ، فتخلت الدولة عن بودين أي بودابست (١٦٨٦م/١٠٩٧هـ) ، والموره (١٦٨٧م/١٠٩٨هـ) ، وبلاد المجر حتى بلغراد. وخلال هذه الحرب راحت روسيا تمثل معول هدم ثنائي مع النمسا للكيان العثماني في أوروبا ، وذلك باحتلالها ميناء " آزاق " على البحر الأسود . وأخيرا أعلنت هزيمة الجيش العثمانى عند " زانتا " عام ١٦٩٧م/ ١١٠٩هـ، النهاية للطموحات العثمانية في حكم أوروبا[٣٧٠] ؛ حيث كشف هذا التراجع الكبير للجيش

---

[٣٦٨] F. Emecen , s. 45-46 ,54 - 55 .

[٣٦٩] " الدولة العثمانية في القرن ١٧ " ، ١٢٧ -١٢٨ .

[٣٧٠] F. Emecen , s. 55 - 56 .

العثمانية على طول الجبهات الأوروبية شمالا وغربا وجنوبا ، عن إخفاق محاولات آل كوبريللى لبث الحيوية في مؤسسات الدولة ، وروح الجهاد في جيشها مرة أخرى ، ومن ثم إيذانا ببدء انهيار الجبهة الغربية ، وسقوط خط دفاعها الأول ، فضلا عن توقف الفتوحات العثمانية في أوروبا نهائياً. فكان لهذا العامل السلبي أثاراً عميقة على الأوضاع الداخلية للدولة العثمانية ، كان أهمها :

١- الانهيار المعنوي للمؤسسة العسكرية العثمانية التي حُمّلت نتيجة هذا الإخفاق، الأمر الذي أدّى من ناحية إلى الشعور بالعجز التام أمام الجيوش الأوروبية فيما بعد ، ومن ناحية أخرى إلى التذمر وإحداث الاضطرابات في مركز الدولة لأتفه الأسباب .

٢- بدء موجات الهجرة العكسية للمسلمين من الأراضي المفقودة إلى مختلف ولايات الدولة الأوروبية ، مّما أدّى إلى أزمات اجتماعية واقتصادية حادة.

٣ - ازدياد الأعباء المالية على خزينة الدولة ، لمواجهة النقص في مواردها من الأراضي المفقودة .

٤ - تشجيع الشعوب الأوروبية التابعة للدولة ، وبالخاصة غير المسلمين منهم ، على الخروج على الإدارة العثمانية ، ورفع راية العصيان .

٥ - تشجيع الجبهة الشرقية على الاستفادة من ضعف الحالة العسكرية للجيش العثماني ، من ثم من حالة عدم التوازن التي كانت تمر بها الدولة خلال هذه الفترة .

العامل الثالث - المعاهدات السياسية :

لقد ارتبطت المعاهدات السياسية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية سلباً وإيجاباً ارتباطاً وثيقاً بالنتائج العسكرية التي كان يحققها كل طرف . فنتيجةً لامتداد الفتوحات العثمانية الواسعة في أوروبا لعدة قرون متتالية ، ترسّخت بين الطرفين أعرافاً دبلوماسية فرضت على الطرف الأوروبي - وكان الطرف الأضعف آنذاك -

مبدأ التبعية للطرف العثماني . وقد استمر هذا الوضع قائماً حتى توقيع معاهدة زسيتوا توروك (١٦٠٦/١١١٥هـ) التي أعقبت حرباً بين الطرفين دامت أربعة عشر عاماً . فقد أقرت المادة الأولى من هذه المعاهدة التي تضمنت سبعة عشر مادة ، إلغاء الجزية التي كان قد فرضها سليمان القانوني على النمسا في معاهدة ١٥٣٣م/٩٤٠هـ اعترافاً من العثمانيين بتنازلهم عن المطالبة بأراضي المجر الموجودة تحت الإدارة النمساوية ، وأنهت المادة الخامسة فعالية حقيقة التفوق العثماني ، وذلك برعاية حق المساواة بين السلطان العثماني وإمبراطور النمسا دبلوماسياً ، ووضعت المادة السابعة الأساس لتدخل عناصر خارجية في أي خلاف يقع بين الدولة العثمانية وأي من الدول الأوروبية[٣٧١] .

وتعتبر معاهدة كارلوفيجة نقطة تحول في السياسة العثمانية بحق ، حيث تحولت الدولة العثمانية أمام التكتلات الأوروبية إلى دولة مهزومة ، وشعرت بالحاجة الماسة لتعويض ما فقدته في جبهات القتال على مائدة المفاوضات ، ولكن ، هل نجحت في ذلك ؟ فقد عقدت هذه المعاهدة بين الطرف العثماني من ناحية والحلف الأوروبي (النمسا ، وبولندا ، والبندقية ، وروسيا) من ناحية أخرى ، إثر هزيمة زانتا عام ١٦٩٧م/١١٠٩هـ، حيث راحت الدول الأوروبية تتعامل مع الدولة العثمانية كدولة مهزومة . ولذلك ، أخذت مواد هذه المعاهدة توطد أقدام الحلفاء فيما استولوا عليه من أراضي في أوروبا ؛ فاعترف العثمانيون بموجبها بسيادة النمسا على المجر عدا ولاية "طمشوار" ، وأصبحت "بلغراد" منطقة فاصلة بين الدولتين ، وتنازلت عن " المورة " و" دالماجيا " للبنادقة ، وعن "قمانيجه" و"بودوليا" لبولندا ، وعن " آزاق " لروسيا التي وطأت أقدامها بذلك البحر الأسود لأول مرة[٣٧٢] .

---

[٣٧١] " العثمانيون الى بداية المسألة الشرقية " ، ص ٧٨ ؛ Osmanli Tarihi , III./ 96

[٣٧٢] " العثمانيون الى بداية المسألة الشرقية " ، ص ٨٠ -٨١ ؛ - Osmanli Tarihi , III/91

فكانت هذه هي الخطوة الأولى في الانسحاب العثماني من أوروبا ، ومن ثم في عملية تفكيك أوصال الدولة العثمانية التي استمر لأكثر من قرنين ونصف من الزمان .

والحقيقة أن بحث بنود المعاهدة في مؤتمر أوروبي ضم الدولة العثمانية كطرف مهزوم إلى جانب التحالف المسيحي ، وبوساطة إنجلترا وهولندا ، إشارة إلى بدء التنسيق الدبلوماسي بين الدول الأوروبية لتحقيق أكبر مكاسب ممكنة على مائدة المفاوضات ، كما كان ارتضاء الدولة العثمانية وساطة أوروبية على هذا النحو ، بداية لقبولها التدخلات الأوروبية في علاقاتها الدبلوماسية ، الأمر الذي كانت له آثار بعيدة المدى خلال القرنين ١٨-١٩م/ ١٢-١٣هـ على توجه الدولة السياسي في الداخل والخارج .

٢ - التحدي الصفوي :

لقد قام هذا التحدي على دعائم أساسية يمكن إيجازها في النقاط التالية :

أ - العداء الشديد لأهل السنة ، ومحاولة إضعاف دولتهم .

ب - الحيلولة دون توحيد العالم الإسلامي السني في الشرق وفي الغرب.

ج - الادعاء بالأحقية في حكم العراق وشرق الأناضول ، ومحاولة نشر المذهب الشيعي .

لم تتردد الدولة الصفوية ، منذ قيامها ، في الإعلان عن تلك المبادئ إعلاناً عملياً ، الأمر الذي جعل الدولة العثمانية السنية المذهب تفتح جبهة قتال دائمة في الشرق ، كانت من أهم عوامل استنزاف قوتها حتى أواسط القرن ١٨م/١٢هـ . وإذا كانت الدولة العثمانية ، في عصر الازدهار ، قد استطاعت أن تنال بعض المكاسب بفضل قياداتها الحكيمة ، إلاّ أنّ الدور الذي لعبته الدولة الصفوية في إعاقة الاتصال بين الشعوب الإسلامية السنية في وسط آسيا والهند وبين الدولة العثمانية ، وفي التنسيق بينها وبين الجبهة الأوروبية للنيل من العثمانيين وفرض حلولاً إجبارية عليهم ، قد مثل معول هدم ذا أثر فعال منذ أواخر القرن ١٦م/ ١٠هـ وطوال

القرن ١٧م/ ١١هـ . فكما كان الصفويون يوجهون تحركات التجمعات التركمانية الشيعية في شرق الأناضول ، ويثيرونها في الأوقات الحرجة ، لم يتأخروا عن تأجيج نيران حركات عصيان الجلالي التي كان لها آثار مدمرة على هيكل الدولة الاجتماعي والاقتصادي والعسكري[٣٧٣] .

وهكذا ، حاول الشاه عباس الأول الاستفادة من الأوضاع المضطربة في الدولة ، وبالخاصة في منطقة الأناضول ، فراح يستولى على تبريز وروان وگنجه ودريند ونخجوان ؛ وسعى للتضييق على العثمانيين اقتصاديا محاولاً تحويل طريق الحرير إلى ميناء "بندرعباس" الذي أقامه على خليج البصرة ، والاستعانة بطريق موسكو ، حيث عقد الاتصالات مع الإنجليز لهذا الغرض . وقد وجه العثمانيون العديد الحملات العسكرية للتصدي لسياسة الشاه هذه ، غير أن المعاهدة التي عقدت بين الطرفين عام ١٦١٢م/١٠٢٧هـ ، أسفرت عن الاعتراف للصفويين بالسيادة على تلك المناطق ، ثم أن الهزيمة التي تلقتها الجيوش العثمانية في الحرب التي اشتعلت مرة أخرى فيما بين ١٦١٥-١٦١٨م/ ١٠٢٤-١٠٢٧هـ، والاضطرابات التي وقعت في مركز السلطنة في استانبول ، قد شجعت الشاه على الاستيلاء بغداد وشمالي العراق عام ١٦٢٤م/١٠٣٣هـ . وإذا كانت الحملات التي جردتها الدولة صوب الشرق لاستعادة بغداد ذات الأهمية الاقتصادية العظيمة للدولة أعوام ١٦٢٥م/ ١٠٣٤هـ ، ١٦٢٩-١٦٣٠م/ ١٠٣٩هـ ، لم تسفر عن نتيجة تذكر غير استتراف القوى العثمانية بشكل متزايد ، فقد تمكن السلطان مراد الرابع من استعادتها عام ١٦٣٨م/١٠٤٨هـ، حيث عقدت بين الطرفين معاهدة " قصر شرين " (١٦٣٩م/ ١٠٤٩هـ) التي رسمت الحدود بين الدولتين بشكل نهائي[٣٧٤] .

وإذا كانت الدولة العثمانية قد اضطرت أحيانا لإعادة فتح الجبهة الشرقية مرة أخرى لوقف تعديات إيران على الأراضي العثمانية ، إلا أنها كانت تحاول

---

[٣٧٣] Osmanli Tarihi , III./229 -230 , 345 vd.

[٣٧٤] F. Emecen , s. 47 - 48

الاستفادة من حالة الاضطراب الداخلي في إيران خلال القرن ١٨م/١٢هـ لتعويض ما كانت تفقده من أراض على الجبهة الأوروبية وعلى موائد المفاوضات . غير أن هذه الحملات الشرقية للدولة لم ينتج عنها سوى استتراف جديد للقوى العثمانية ، الأمر الذي يسر على التحالفات العسكرية ، والوساطات الدبلوماسية الأوروبية مهمتها في إضعاف وتفكيك الدولة العثمانية.

مما سبق يتضح لنا أنّ ضعف السلاطين العثمانيين ، وتعذر ظهور وكلاء لهم على مقدرة وكفاءة ، أدّى إلى تفكك السلطة المركزية ، والحكم المطلق للسلطان ونائبه ، حيث راحت تتنازعها مراكز القوى في السراي العثماني . والحقيقة أنّ المؤسسة العسكرية وتشكيلاتها المركزية والمحلية ، كانت أكثر مؤسسات وتشكيلات الدولة تأثراً بهذه الأوضاع المتردية ، مما كان له آثار عميقة ، نتج عنها ظهور حركات عصيان وتجاوزات ليس لها حدود في الداخل وهزائم عسكرية في الخارج . وكما كانت لعوامل الخلل هذه آثارها المدمرة في مركز الدولة ، كان لها أيضاً انعكاسات خطيرة على تماسك أرجائها في الولايات.

ومما لاشك فيه ، أن التداعيات الخارجية لعوامل الخلل في الدولة العثمانية ، كانت أشد وطأة ، وأعظم أثراً على كيان الدولة منذ مطلع القرن ١٧م/١١هـ ، حيث تمكنت التكتلات المسيحية الأوروبية من الاستفادة من تفوقها التقني والعسكري والاقتصادي والدبلوماسي ، وراحت تحاصر الدولة العثمانية عسكرياً وسياسياً واقتصادياً ، وتفرض عليها إعادة التفكير في جدوى التمسك بنظمها ومؤسساتها بل وقيمها الأصيلة . وهكذا ، راحت الدولة العثمانية تتخلى عن مبدأ الغزو والجهاد ، وتلتزم بمبدأ المسالمة ، والتعلق بأهداب الدبلوماسية الأوروبية ، وتتراجع عن اعتقادها بعالمية الدولة ، وسيادتها على الممالك الأوروبية ، ومن ثم اهتزت ثقتها بما يمكن أن يحققه إصلاح المؤسسات والنظم العثمانية القديمة من حيوية للدولة حتى تستطيع مواجهة التفوق الأوروبي المتزايد .

فإذا كانت عوامل الخلل في الدولة العثمانية قد ظهرت لأول مرة في مؤسساتها الداخلية ، حيث انعكست آثارها على إنجازاتها الخارجية ، فإنه على أثر استسلام الجبهة الداخلية للدولة ، انفسح الطريق للتحدي الأوروبي ، وانتقلت إليه توجيه مقدرات الدولة العثمانية خلال القرن ١٨م/ ١٢هـ ، وأصبح مستقبل الدولة رهينة لطموحات الدول الأوروبية المتصارعة ، روسيا والنمسا في القسم الأوروبي ، وفرنسا وإنجلترا في الشرق الإسلامي . وقد عبر المستشرق الفرنسي بيستيل G. Pistel عن هذا التحول الإستراتيجي الذي أنهى مراحل الصراع الطويلة مع الدولة العثمانية في صالح الطرف الأوروبي بقوله :

" .. أن محاولة فهم الأوروبيون للنظم العثمانية ، برهن على المدى الطويل أنه خير ضمان لكفاءة أوروبا ، وخير دافع لها للثورة على العثمانيين والتغلب عليهم ، وان مثل هذه الدراسات المتأنية برهنت على أنها أفضل لأوروبا من التعصب الأعمى ، حتى أن العثمانيين لم يحاولوا فهم أوروبا الغربية بنفس القدر الذي حاول فيه الأوربيون فهم النظم العثمانية."[٣٧٥] .

* * *

كانت تلك هي أسباب انهيار الدولة العثمانية ، حيث بدأ التفاوض منذ ذلك الحين على تقسيم أملاكها بين الدول الأوروبية . إلاّ أنّ إدراك التحالف الأوروبي المسيحي لما كان يمكن أن يحدثه تقسيم الدولة العثمانية من أزمات قد تهدد الكيان الأوروبي نفسه لتضارب مصالحهم، جعله يتبنى سياسة هدم البناء العثماني من الداخل ، مع بقاء هيكله الخارجي . وقد اعتمدت أوروبا في تنفيذ هذه السياسة على عدة عناصر مرحلية ، بدأت بالضغوط العسكرية لتمزيق أوصال الدولة العثمانية، والضغوط الدبلوماسية لترسيخ المكاسب العسكرية ، وفتح الأبواب للتمثيل الدبلوماسي الدائم ، وتوسيع محيط الامتيازات الأجنبية في أنحاء الدولة ، وللسيطرة

---

[٣٧٥] العثمانيون في اوروبا ، ص١٦٠-١٦١

على الاقتصاد العثماني ، وفرض تبعيته لأوروبا ، وحماية رعايا الدولة من غير المسلمين ، وتشجيع السلاطين ورجال الدولة على إحداث التغييرات على النمط الأوروبي وبالخاصة في النظم العسكرية .

والحقيقة أن هذه التغييرات أي ما عرف أنئذ باسم الإصلاحات ؟! ، قد اتسعت حتى شملت كافة نظم الدولة الإدارية والمالية والاقتصادية والقضائية ، وعاداتها وتقاليدها الاجتماعية . ولم يأت القرن ١٩م/١٣هـ حتى كانت الدولة العثمانية قد سلمت قيادها تماما للدول الأوروبية التي راحت تعرف منذ ذلك الوقت باسم " الدول الكبرى " ، وذلك بإعلان فرمان " التنظيمات " عام ١٨٣٩م ، ثم " الإصلاحات " عام ١٨٥٦م ، وأخيرا "المشروطية " أي الدستور والبرلمان عام ١٨٧٦م ثم عام ١٩٠٨م ، عن نهاية الدولة العثمانية، حيث لم يبق من كيانها القديم سوى اسمها " الدولة العلية العثمانية " .

أن القضية التي كانت تؤرق أوروبا لم تكن الخلاف حول تقسيم الدولة العثمانية ، ولكن الطريقة التي يمكن بها تقسيم أملاكها الشاسعة ومناطق نفوذها الممتدة ، والنتائج التي يمكن أن تتمخض عن هذا التقسيم . ولذلك ، لم تختلف دول أوروبا حول ضرورة طرد العثمانيين من أوروبا ، ومنح الاستقلال لولاياتها الأوروبية : وإنما قامت بتنفيذ هذا الهدف بشكل تدريجي منظم ، بالتنسيق فيما بينها. فلم ينقض القرن ١٩م/١٣هـ ، حتى لم يبق للعثمانيين قوة تذكر في أوروبا . أما على صعيد ولايات الدولة العربية والإسلامية ، فقد راحت أوروبا المسيحية تتقاسمها فيما بينها ، وتقضى على أية محاولة يمكنها أن تحدث بعثا جديدا بأي شكل . والواقع أن الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م ، جاءت لترسيخ تقسيم العالم الإسلامي بين الدول الأوروبية ، تنفيذا لإحدى مشروعات التقسيم القديمة ، ومن ثم إعلان الانتصار المسيحي الأوروبي على العالم الإسلامي . ولم يكن إعلان مصطفى كمال أتاتورك عن إلغاء السلطنة ١٩٢٢م ، ثم إلغاء الخلافة ١٩٢٤م ، سوى تأبين لدولة استمرت على فراش الاحتضار لأكثر من قرنين ونصف من الزمان .

المصادر والمراجع

أولا - العربية :

– أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، ط٢، القاهرة ١٩٩٣.

– بول كولز ، العثمانيون في أوروبا ، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ القاهرة ١٩٩٣ .

– خليل اينالجق ، " العثمانيون في عصر النشأة والازدهار " ، دراسات في التاريخ العثماني ، ترجمة وتقديم وتعليق سيد محمد السيد، القاهرة ١٩٩٦ .

– سيد محمد السيد ، " دستور العمل في النظام الإداري والمالي في ايالة مصر خلال مطلع القرن ١٨م/١٢هـ " ، مجلة كلية العلوم الإجتماعية ، جامعة الفرات ، الازيغ ، العدد الأول ٢٠٠٥

– شكيب ارسلان ،" التعصب الأوروبي لم التعصب الإسلامي ، ومائة مشروع لتقسيم تركيا ". حاضر العالم الإسلامي لوثروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض، ج٣ ، القاهرة ١٣٥٢ .

– عصمت بارماقسز اوغلو ، "الدولة العثمانية في القرن ١٧ "، دراسات في التاريخ العثماني ، ترجمة سيد محمد السيد ، القاهرة ١٩٩٦

– فاروق عثمان اباظة ، أثر تحول التجارة العالمية الى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن ١٦ ، دارالمعارف د.ت

– محمد أنيس ، محاضرات في تاريخ الشرق الأوسط الحديث١٥١٦- ١٩١٤ القاهرة د. ت.

– ــــــــ ، الدولةالعثمانية والشرق العربي (١٥١٤-١٩١٤)، القاهرة د.ت

ثانيا - التركية :

- Aka Ismail , " X. yuzyildan XX.yuzyila kadar Siilik"(التشيع من القرن العاشرة إلي القرن العشرين) , Milletlerarasi Tarihte ve Gunumuzde Siilik Sampozyumu (13-15 Subat 1993) Istanbul 1993
- Akgunduz Ahmed , Osmanli Kanunnameleri ve Hukuki Tahlilleri (القوانين العثمانية وتحليلاتها الشرعية) , I. , Istanbul 1990
- Babinger,Franz, Osmanli Tarih Yazarlari ve Eserleri (المؤرخون العثمانيون وآثارهم),cev. Coskun Ucok , Ankara 1982
- Emecen , Feridun , " Osmanli Siyasi Tarihi, Kurulustan Kucuk Kaynarcaya " (التاريخ السياسي العثمانية من مرحلة التأسيس حتى

(معاهدة كجوك قينارجه) , Osmanli devleti ve Medeniyeti Tarihi , Editor Ekmeleddin Ihsanoglu , I. , Istanbul 1994

- Gokyay , Orhan Saik , " Dusturu'l-amel " , TDV. IA. , cilt X. _ Inalcik , Halil , " Turkler (Osmanlilar)" , XII. /2
- Ipsirli , Mehmed , " Osmanli Devleti Teskilati" (تشكيلات الدولة العثمانية) , Osmanli Devleti ve Medeniyeti Tarihi (الدولة العثمانية وتاريخها الحضاري), Istanbul 1994
- Kutukoglu , Mubahat , "Lutfu Pasa Asafnamesi " (آصاف نامه لطفي باشا) , Prof. Dr. Bekir Kutukoglu'na Armagan , Tarih Arastirma Merkezi, Istanbul 1991
- ________ , " Osmanli Iktisadi Yapisi " (البناء الإقتصادي العثماني), Osmanli Devleti ve Medeniyeti Tarihi , Istanbul 1994
- Ozcan , Abdulkadir , " Osmanli Askeri Teskilati "(التشكيلات العسكرية العثمانية) , a.g.e. , Istanbul 1994
- Renke , Von Leapold , " on altinci ve on yedinci asirda Osmanlilar ve Ispanya Kiralligi " (العثمانيون ومملكة أسبانيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي)cev. Halid Ilteber, Bati Dillerde Osmanli Tarihleri (التواريخ العثمانية في اللغات الغربية), Istanbul 1971
- Selaniki , Mustafa , " Tarih-i Selaniki "(تاريخ سلانيكي) , nsr. M. Ipsirli , I.-II. , Istanbul 1989.
- Ismail Hakki Uzuncarsili , Osmanli Tarihi (التاريخ العثماني) , I. 4.bas., Ankara 1982
- ________ , Osmanli Tarihi (التاريخ العثماني), II. 4. bas. , Ankark 1983
- ________ , Osmanli Tarihi (التاريخ العثماني) ,III./ bolum I. , 3.bas. , Ankara 1983
- ________ , Osmanli Devletinin Saray Teskilati , 3. bas. Ank.1984

- __________ , Osmaanli Devleti Teskilatinden Kapukulu Ocaklari (اوجاقات القابوقولي من التشكيلات العثمانية) , I.,2.bas.,Ank.1984
- wittek Paul , "Osmanli Imparatorlugunun Kurulusu" (تأسيس الإمبراطورية العثمانية), cev. Guzin Yalter , Bati Dillerinde Osmanli Tarihleri , Istanbul 1971
- __________ , " Ankara Bozgunundan Istanbul Fethine kadar " (الدولة العثمانية من هزيمة أنقرة وحتى فتح استانبول) ,cev. Mualla Suerdem , Bati Dillerinde Osmanli Tarihleri, Istanbul 1971

الفصل الرابع

المظاهرة الحضارية للدولة العثمانية

خلال مرحلتي التأسيس والإزدهار



المظـــاهر الحضـــارية للدولة العثمـــانية

خلال مرحلتي التأسيس والإزدهار

(١٢٩٩-١٥٧٩م/ ٦٩٩- ٩٨٧هـ)

من المعروف أن المجتمع العثماني نشأ كبقية المجتمعات التركمانية التي سكنت الأناضول خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري ، مجتمعاً قبلياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من ملامح . وقد تميز هذا المجتمع القبلي العثماني الذي سكن مناطق الحدود السلجوقية – البيزنطية من الأناضول ، تميز بما تميزت به مجتمعات غربي الأناضول الحدودية الأخرى من ثقافة الغزو والجهاد والحركات الصوفية التي شملت أغلب مناطق الأناضول خلال هذه الحقبة والأعراف التركمانية . وقد شهد هذا المجتمع العثماني في أقصي الحدود الشمالية الغربية من الأناضول تطوراً ملحوظاً خلال أواخر القرن ١٣م/ ٧هـ ، بعد أن بدأ أفراده يسكنون المدن المفتوحة ويقيمون بؤر حضارية شكلت نواة لمجتمعات حضرية صغيرة غربي الأناضول . ومن ثم ، يعتبر فتح بورصة عام ١٣٢٦م/ ٧٢٦هـ ، واتخاذ أورخان هذه المدينة الهامة عاصمة لإمارة آل عثمان ، ثم فتح العاصمة البيزنطية القديمة " نيقية " (إزنيق) عام ١٣٣٧م/ ٧٣٧هـ ، مرحلة هامة من مراحل تحول المجتمع العثماني من مرحلة التنقل والترحال إلي مرحلة التحضر والإستقرار . والحقيقة أن هذا التحول كان تحولاً جزئياً للمجتمع العثماني ، ففي الوقت الذي كان فيه قسم من المجتمع العثماني دائم التنقل مع الفتوحات المستمرة للإمارة الناشئة ، كان قسم آخر يفضل الإستقرار سواء في المدن أو المناطق الخصبة المفتوحة حتى أن المؤرخين يؤكدون استمرار عمليات نقل وإسكان العشائر التركمانية في المناطق المفتوحة من شرقي أوروبا حتي أواسط القرن ١٦م/١٠هـ .

ولما كانت الإمارات الحدودية التي نشأت غربي الأناضول تخضع خلال مراحل تطورها المختلفة لدولة السلاجقة الكبار ، ثم لسلاجقة الأناضول ، ثم للإلخانيين (مغول الأناضول) ، فقد انتقلت أغلب النظم والأعراف الإدارية والمالية والعسكرية والقضائية والإجتماعية لهذه الدول إلي تلك الإمارات الحدودية . وعلى الرغم من أن التراث التاريخي والحضاري والثقافي لهذه الإمارات الحدودية ومنها إمارة آل عثمان يؤكد الإرتباط الأصيل بين نظم وقوانين وتشكيلات إمارة عثمان والإمارات التركمانية الأخرى بنظم وقوانين وتشكيلات الدول الإسلامية السابقة على هذه الإمارات والمعاصرة لها ، فإننا نصادف بعض المؤرخين الأوروبيين يروّج للإدعاء بأن الكثير من نظم وتشكيلات الإمارة ثم الدولة العثمانية قام العثمانيون بنقله عن بيزنطة .

والحقيقة أن المؤرخين العثمانيين راحوا يردون على هذه الفرية في عدد من الدراسات الأكاديمية المؤثّقة ، ويؤكدون بأن الدول الإسلامية المتعاقبة راحت تطور نظمها وتشكيلاتها وتتناقلها عصر بعد عصر . فمثلما تأثرت دولة السلاجقة الكبار بنظم العباسيين والقره خانيين والغزنويين ، تأثرت أيضاً بالمظاهر الحضارية في المناطق التي خضعت لهم في إيران وخوارزم وأذربيجان والعراق وإيران والشام ومصر والأناضول. وكما ورث المغول والمماليك أملاك الدولة العباسية والدولة السلجوقية، استفادوا من نظم وتشكيلات العباسيين والسلاجقة وخوارزمشاه والأيوبيين والإلخان . وبناء علي ذلك فإن العثمانيين الذين اعتنقوا الإسلام علي المذهب السني الحنفي ، ورثوا أملاك سلاجقة الأناضول ، ثم راح إلخان المغول يسيطرون عليها بعد ذلك ، فتأثروا بالنظم والتشكيلات المختلفة لهؤلاء السلاجقة والإلخان في الأناضول تأثرهم بنظم المماليك في مصر والشام وتشكيلاتهم [٣٧٦] .

---

[376] تشير هذه الدراسات إلي أن تأثر العثمانيين بالدول الإسلامية السابقة عليها والمعاصرة لها والمشتركة معها في العقيدة ، أقرب منها إلي تأثرها لمثل هذه النظم والأعراف البيزنطية التي كانت موجودة في الأناضول ، وحتي إذا سلمنا جدلاً بأن الدولة العثمانية تأثرت ببعض نظم وأعراف السكان الروم في الأناضول ، فإن الثقافة الإسلامية التي حملها العثمانيون راحت تصبغ مثل هذه النظم والأعراف

يتضح لنا مما سبق أن العثمانيين تأثروا احياناً ونقلوا أحياناً أخري العديد من نظمهم عن الدول الإسلامية السابقة عليهم والمعاصرة لهم ، وأن الأعراف التركمانية وثقافة الجهاد والمجتمع الصوفي ، كلها كشفت عن نفسها عند صياغة هذه النظم والتشكيلات ، وأن نظم وتشكيلات العثمانيين راحت تتطور وفقاً لمراحل تطور المجتمع العثماني من مجتمع قبلي إلي مجتمع شبة قبلي ومن تشكيل إمارة تحت قيادة الأمير الغازي ، إلي تشكيل دولة ومجتمع حضري تحت قيادة السلطان العثماني، وذلك حتى وصوله إلي شكل إمبراطورية مترامية الأطراف تحت قيادة شخصيات فذة من السلاطين والأمراء[٣٧٧].

أسرة آل عثمان :

أشرنا في الأبواب السابقة إلى أن أسرة آل عثمان تنتسب لعشيرة قايي من عشائر الأوغوز التي انتقلت خلال النصف الثاني من القرن ١٣م/٧هـــ إلي أقصي شمال غرب الأناضول تحت ظروف قاسية ، وأن هذه الأسرة سكنت منطقتي سكود ودومانيج، حيث احتلت موقعها في المجتمع الحدودي بسرعة ، وراحت تباشر حركات الغزو والجهاد تحت قيادة أبناء جوبان . وعلى أثر انهيار دولة سلاجقة الأناضول ، وقيادة عثمان غازي لغزاة الحدود في منطقة امتدت من اسكيشهر وحتي بورصة ، وانتساب

بالصبغة الإسلامية وتوجه وفقاً لمبادئ الدين الإسلامي . وراح هؤلاء المؤرخون يسوقون أمثلة كثيرة حول تأثر النظم والقوانين والتشكيلات العثمانية بمثيلتها في الدول الإسلامية السابقة عليها والمعاصرة لها ، كانتقال نظام التيمار من الغزنويين إلى السلاجقة ومنهم إلي العثمانيين ، وانتقال منصب قاضي عسكر من المماليك إلي العثمانيين ، وانتقال نظام المماليك كحرس السلطان الخاص من دولة المماليك إلي العثمانيين في شكل جند الباب السلطاني ، وغيرها: M.F.Köprülü, Bizans Müesseselerinin Osmanlı Müesseselerine Te'siri Hakkında bazı mülahazalar, THITM, sy.I, s.190; I.H.Uzunçarşılı, Osmanlı Devleti Teşkilâtına Medhal, Ankara 1941,IX-XIV, 1vd.

377 بخصوص علاقة الدين بالدولة لدي العثمانيين وأثر هذه العلاقة في تأسيس الكيان العثماني الأول ، أنظر: Kapatepe Şürü, " Osmanlı'da Din-Devlet İlişkisi", Osmanlı , Ankara 1999, I/56-66; Dursun Davut, "Osmanlı Devleti'nde Din-Devlet İlişkileri Üzerine Bazı Notlar", Osmanlı, VI/67-74

هذه الفتوحات للأمير الغازي عثمان ، راحت تسمي الإمارة من بعده باسم " إمارة عثمان " ، والأمراء الذين خلفوه في إدارتها باسم " أبناء عثمان ". وهكذا ، تعاقب أبناء عثمان في حكم المناطق التي فتحها عثمان غازي ورفاقه بعد أن أثبتوا جدارتهم في قيادة العشيرة من فتح إلي فتح ، حيث راحوا يسندون المناطق التي المفتوحة إلي أمراء العشيرة من رفاق الجهاد .

مشكلة اعتلاء العرش لدي العثمانيين : وكان الأمير الغازي ينتخب من بين أفراد أسرة عثمان وبمعرفة رجال الإمارة وأمرائها من رفاق الجهاد أصحاب النفوذ . وإذا كان تعيين الأمير ثك السلطان العثماني قد تم بهذه الطريقة حتي معركة أنقرة ١٤٠٢م/٨٠٥هـ ، إلا أن صراع أبناء بايزيد علي الإنفراد بالعرش ، جعل هذه الطائفة ثم الأمراء أصحاب النفوذ في الدولة ينقسمون في تأييدهم لأبناء بايزيد . ولذلك استمر هذا الصراع لأكثر من أحد عشر عاماً حتي تمكن محمد جلبي من الإنفراد بالحكم وتوحيد جناحي الدولة عام ١٤١٣م/٨١٧هـ . وعلي الرغم من أن الكثير من أفراد هذه الأسر صاحبة النفوذ في الدولة قضي عليهم خلال مرحلة الفتور هذه ، فقد استمرت بعضها وعلي رأسها أسرة جاندارلي تمارس نفوذها في تعيين وعزل السلطان العثماني حتي بداية عهد محمد الفاتح (١٤٥١م/٨٥٥هـ) . وهكذا ، بدأ السلطان العثماني منذ عهد محمد الفاتح يقبض علي مقاليد السلطة ، ويستبدل تلك أمراء تلك الأسرات صاحبة النفوذ في الدولة بخدمه الخاص ، فعين من خدم الباب العالي هؤلاء الولاة والوزراء وقواد الجيوش ورجال الدولة ، وقادهم في تحقيق مشروع الدولة العالمية .

والحقيقة أنه اعتباراً من عصر محمد الفاتح ، راح رجال الدولة وجند السلطان الخواص المعرفون باسم " يكيجري " يلعبون دوراً هاماً في ترشيح أحد أبناء السلطان العثماني للجلوس علي العرش . وذلك ، حتي تم اقرار قاعدة تعيين أكبر أبناء السلطان العثماني سناً خلفاً لوالده اعتباراً من سلطنة مراد الثالث (١٥٧٤/ ٩٨٢هـ) .

والحقيقة أنه لم يكن لدي أسرة آل عثمان قانون أو عرف معين لإعتلاء عرش السلطنة ، فلم نصادف تقليد ثابت أو قاعدة مطردة لتعيين الإبن الأكبر أو الأصغر

محل أبيه السلطان . ولما كان السلاطين العثمانيين يحرصون علي اعداد أبناءهم جميعاً لتولي أحدهم مهمة السلطنة مستقبلاً بتعيينهم علي بعض الإمارات الهامة لتدريبهم علي الحكم والإدارة وقيادة الجيوش ، وكان مفهوم وراثة العرش عندهم يعطي هذا الحق بشكل متساو لكل أبناء الحاكم بلا استثناء ، وأن تمكين أحدهم للجلوس علي العرش أمر بيد الله تعالي ، وأنه إذا تمكن أحد أبناء الحاكم الجلوس علي العرش أولاً يكون قد اكتسب الصفة الشرعية للإعتراف به وأن أخوته المنافسين له يكونوا عندئذ خارجون علي السلطة الشرعية للدولة ويحق له قتالهم .

وهكذا ، كانت مسألة الصراع علي العرش لدي العثمانيين التي شهدناها خلال مرحلتي تأسيس الدولة وازدهارها ، كانت نتيجة مباشرة لهذا المفهوم . وهذا، ما دعى السلطان محمد الفاتح لإقرار مبدأ قتال من تيسرت له السلطنة من أبناء السلطان لأخوته لخمد الفتنة في البلاد ، وجعل سليم الثاني يقرر عدم تعيين جميع أبناءه علي الولايات للتدريب علي الحكم والقيادة ، واقتصاره علي الابن الأكبر سناً فقط وحجز بقية الأبناء في السراي السلطاني حتي إذا تولي الأخ الأكبر السلطنة قام بقتل بقية أخوته اتقاءاً للفتنة التي هى أشدّ من القتل . ومن الواضح أن عملية القتل هذه في مثل هذه الحالات لا يجوزها الشرع لأن هؤلاء الأخوة لم يخرجوا علي الحاكم و لم يحدثوا أي فتنة، وإنما قتلهم كان من باب التقية . وكان هذا النظام قد شرع في تطبيقه ابتداءاً من عهد مراد الثالث (١٥٧٤م/٩٨٢هـ) واستمر حتي عصر السلطان أحمد الأول (١٦٠٣م/ ١٠١٢هـ) . وبذلك ، انتهى عصر قتل الأخوة والإكتفاء بحجزهم في السراي ، وأصبح تعيين أكبر أبناء السلطان سناً قانوناً معمول به حتي نهاية الدولة[٣٧٨] .

[378] أنظر في هذا الخصوص : Uzunçarşılı, Osmanlı Devletinin Saray Teşkilâti, Ankara 1984, s.39-42, 45-59; keza bk. Yusuf Halacoğlu, XVI-XVII. Yüzyıllarda Osmanlılarda Devlet Teşkilâtı ve Sosyal Yapı, Ankara1996, s.1-6; Özcan Abdulkardır, “ Fatih’in Teşkilât Kanunnamesi ve Nizâm-i Alem için Kardeş Katli Meselesi”, İÜ. EF. Derih Dergisi, İstanbul



سلطاته السلطان العثماني : لقد كان السلطان العثماني وفقاً للنظام المركزي الذي أرسى دعائمة محمد الفاتح ورسخه السلاطين من بعده ، كان هو مصدر جميع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية . وكان يساعده في تنفيذ كل هذه السلطات تشكيلات الدولة المركزية ومؤسساتها . فكان يساعده في سلطاته التشريعية جميع أعضاء الديوان الهمايوني . وكان يعونه في سلطاته القضائية والشرعية شيخ الإسلام وقضاة عسكر ونوابهم سواء في مركز الدولة أو في الولايات . أما سلطاته التنفيذية فكانت تتمثل في اقرار ما تقره دواوين الدولة وعلي رأسها الديوان الهمايوني ، وتنفيذ هذه القرارات بمعرفة الصدر الأعظم والوزراء وأمراء الأمراء والدفتردارية وقضاة العسكر والولاة وقواد الجيوش ومختلف الفرق العسكرية والأقلام الإدارية في الدولة .

وهكذا ، كان للسلطان العثماني الحق في استعمال أي فرد من أفراد الدولة بقوة الصلاحيات المخولة له ووفقاً للعادات التركمانية الجارية والنظم الإدارية المتعارفة . وعلي الرغم من هذه الصلاحيات المطلقة كان علي السلطان عرض شئون الدولة علي الديوان ، أو تحويلها إلي مؤسسات الدولة المتخصصة المختلفة لإتخاذ قرارها الفني أولاً قبل اصدار أي قرار قطعي فيها ، حيث يكون القرار الأخير للسلطان . وهكذا ، كان أي قرار يصدرة السلطان بخصوص موضوع ما ويطرح علي الديوان ويلقي قبولاً من الناحية الشرعية ، قانون معمول به في أنحاء الدولة . ومما تقدم يتضح لنا أن قرارات السلطان العثماني كان مقيدة في الواقع بالعديد من القيود الشرعية والقانونية والعادات والأعراف التركمانية ، وذلك علاوة قرارات الديوان الهمايوني .

وكان السلاطين العثمانيين يباشرون شئون الدولة في وقت السلم والحرب، حيث كانوا حتى عهد محمد الفاتح يرأسون الديوان الهمايوني بأنفسهم ، فينظرون في كافة شئون الدولة الهامة ، ويصدرون القرارات بخصوصها . واعتباراً من أوائل عهد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١م/٨٥٥-٨٨٦هـ) ، بدأ السلطان العثماني يتابع مناقشات

1982, sy. 33, s.7-57 ; Mumcu Ahmed, Osmanlı Devleti'nde Siyaseten Katl- Ankara 1985, s. 37 vd.

الديوان الهمايوني من غرفة أعلي الديوان تعرف باسم " قصر العادل " ، حيث كانت تعرض الأمور الهامة التي تحتاج رأي السلطان عليه في " غرفة العرض " . وفي حالة مرض السلطان كان ينوب عنه في رئاسة الديوان وزيره الأعظم . وقد استمر تقليد حضور السلطان لجلسات الديوان الهمايوني ومتابعته لشئون إدارة الدولة بنفسه حتي وفاة سليمان القانوني (١٥٦٦م/٩٧٤هـ) ، حيث عزف السلطان سليم الثاني ثم السلاطين العثمانيين من بعده عن حضور جلسات الديوان والإكتفاء بعرض الوزير الأعظم والوزراء والدفتردارية القضاة وآغا اليكيجري لشئون الدولة الهامة عليه في غرفة العرض .

ومن ناحية أخري ، كان السلاطين العثمانيين خلال عصري التأسيس والإزدهار يخرجون علي رأس جيوشهم في الحملات العسكرية الكبري ، ويبعثون بقوادهم وأمرائهم إلي مختلف الجبهات ، ولم نصادف أي من هؤلاء السلاطين يتقاعس عن الخروج وقيادة جيوشه بنفسه حتي عهد سليم الثاني (١٥٦٦م/ ٩٧٤هـ) . وكان هؤلاء السلاطين يقومون بإدارة شئون الدولة من جبهات القتال ، فيصحبون معهم أعضاء الديوان الهمايوني وممثلين عن أقلامه المختلفة ، فيعقدون الديوان كعادتهم ، ويعينون التعيينات ويصدرون القرارات في كافة شئون الدولة ، ويرسلون الفرمانات إلي جميع الجهات . وعندما كان السلطان يضطر للبقاء في مركز الدولة ، كان يعين الصدر الأعظم أو أحد وزراء الدولة نائباً عنه ليقوم مقامه في قيادة الجيوش تحت اسم " سردار أكرم "[٣٧٩] .

نظم الدولة العثمانية ، تشكيلاتها ومؤسساتها :

المقصود بتشكيلات الدولة رجال الدولة ووزرائها وأمرائها وقوادها وقضاتها ونوابها وجندها وإدارييها وكافة موظفيها الذين يباشرون أعمالهم في مختلف مؤسساتها ويتقاضون مرتبات عينية أو مادية دورية من الخزينة العثمانية . والحقيقة أن الإنجازات

---

[379] بخصوص صلاحيات السلطان العثماني التشريعية والتنفيذية والقضائية ومسئولياته المختلفة ، أنظر :
Akgündüz Ahmed, Osmanlı Kanunnameleri ve Hukukî Tehlîlleri, c.I., İstanbul 1990, s.204-207

التي حققتها الإمارة العثمانية في مراحلها الأولي قامت علي أكتاف الغزاة الأوائل من رفاق عثمان غازي . فلما اتسعت مساحة الإمارة اضطر الأمير العثماني لتشكيل ديوان للنظر في شئون الإمارة المتزايدة ، وراح يستعين برفاق الجهاد بتوجيه الأراضي المفتوحة إليهم لإدارتها . وبذلك راحت مساحة المساهمات في إدارة شئون الدولة الداخلية والخارجية تزداد بزيادة رقعتها ، حيث راح يساهم في بناء صرح الدولة جهاز كبير من خلال مؤسسات عديدة خضعت كلها من خلال نظام مركزي محكم للسلطان العثماني.

وكانت الإمارة العثمانية ثم الدولة العثمانية التي نشأت كواحدة من الإمارات التركمانية المستقلة عن الدولة السلجوقية في الأناضول ، قد خضعت لكافة المظاهر الحضارية التي كان متعارف عليها في الدولة الإسلامية . ولذلك ، تميزت الملامح الحضارية للإمارة العثمانية منذ البداية بامتزاج العادات والتقاليد التركمانية التي كانت سائدة في الأناضول آنذاك بالعلوم والأعراف الإسلامية التي انتقلت إليهم من خلال احتكاكهم بالدولة الإسلامية في الشرق . فكانت نظم وتشكيلات الدولة المركزية واحدة من أكثر المظاهر التي عكست هذا الامتزاج الحضاري في الدولة العثمانية .

الديوان الهمايوني :

أطلق اسم " ديوان همايون " علي ذلك الديوان الكبير الذي يعد المرجع الأول المسئول عن إدارة كافة شئون الدولة العثمانية . ولقد عرف العثمانيون أصول الديوان منذ عصر اورخان غازي . ومما لا شك فيه أن العثمانيين قد تأثروا في ذلك بما كانت عليه تشكيلات الدولة الإسلامية السابقة ، خاصة دولة سلاجقة الأناضول .

ويعتبر الديوان الهمايوني القلب النابض للدولة العثمانية حتي أواخر القرن ١٧م؛ فكان ينظر في كافة شئون الدولة السياسية والعسكرية والإدارية والمالية والعرفية والشرعية والقضائية ويصدر القرارات بخصوصها بعد مناقشتها من قبل الهيئات المتخصصة بالديوان ، ويشرف علي ادارتها بما يحقق الترابط والتفاعل بين مؤسسات الدولة المختلفة .

وكان الديوان الهمايوني يعقد يومياً تحت رئاسة السلطان العثماني نفسه في أي مكان يحل به ، وذلك حتي أوائل عهد السلطان محمد الفـاتح (١٤٥١-١٤٨١م) ، حيث تركت رئاسة الديوان المباشرة بعد ذلك لوكيله المطلق الصدر الأعظم . ومنـذ ذلك الحين أصبح السلطان يتابع مناقشات الديوان وأعماله من شرفة تطلق على صـالة الديوان أطلق عليها اسم " قصر العادل " .

وكانت هيئة الديوان ، وعلي رأسها السلطان والوزير الأعظم والوزراء وقضاة العسكر والدفتردارية والتوقيعي (النيشانجي) ورئيس الجاويشية (چـاوش باشـي) وكتخدا البوابين (قپوجيلر كتخداسي) ، تبدأ أعمالها بأمور الدولة الهامـة ، حيـث كانت تناقش المسائل الخاصة بالسفراء ، والردود علي مختلف الإستفسارات ، والنظر في احتياجات الولايات ، ومشاكل العلاقات الثنائية مع الـدول الأخـري ، وشـكاوي الأهالي، ودعاوي الأراضي وغيرها . وعقب اصدار القرارات النهائية في مثـل هـذه الأمور، كان يبلغ محتواها للجهات المعنية . وكان الوزير الأعظم ينظر في أمور الدولـة الإدارية والعرفية عموماً ، حيث كان يقوم بالإستماع للدعاوي والشكاوي والطلبـات سواء من إداريي الدولة أو رعاياها ، وتحويل أعمال الديوان علي الأعضاء ، كل حسب تخصصه . وكان التذكره جي (كاتب التذاكر) يقرأ أمامه تلك الطلبات والعـروض بصوت مرتفع بالمناوبة مع الكتبة الآخرين ؛ ثم يقوم بتسجيل القرارات الصادرة في ذلك الخصوص . وكان الوزير الثاني يقوم بمعاونة الوزير الأعظم في النظر في الدعاوي إذا لزم الأمر ، علي ألاّ يصدر قرار عزل أو تعيين أو حتي علاوة .

أما الدعاوي الشرعية والمرافعات ، فكانت تحول إلي قاضي عسكر الروميلـي وقاضي عسكر الأناضول ، وقاضي استانبول ، حيث كان كل منهم يستمع للدعاوي الخاصة به في حدود صلاحياته ، ويقوم بتحويلها بعد ذلك إلي المحاكم المختصة في أرجاء الدولة . وكان الوزير الأعظم يستفسر من القاضـي عـن الـدعاوي ذات الأهميـة الاستراتيجية للدولة ، حيث كان يطلب إعادة النظر فيها إذا ما راوده الشك في الحكم الصادر . أما أمور الأراضي ، فكانت تحول إلي النيشانجي (التوقيعي) الذي كان مكلفاً

بوضع علامة طغراء السلطان علي الفرمانات والبراءات والمناشير في الديوان الهمايوني ؛ كما كان يسمح للوزراء في الديوان بمساعدة التوقيعي في وضع علامات الطغراء إذا لزم الأمر ذلك . أما رئيس الدفتردارية (الدفتردار باشي) فكان يضع توقيعه المعروف بـ "التوقيع المذيل" (بنجه) علي أوراق ومعاملات الأمور المالية التي يقوم الوزير الأعظم بتحويلها إليه ، حيث كان يبين كلما اقتضت الضرورة ذلك الوضع المالي للمسائل المختلفة المعروضة عليه .

وكانت الأمور التي لم تنته معاملاتها في الديوان والتي لا تحتاج إلي العرض علي السلطان سواء الرسمية منها أو الخاصة ، كانت تناقش في ديوان الصدر الأعظم عقب انتهاء اجتماعات الديوان الهمايوني .

وكانت أعمال هذا الديوان تبدأ بعد صلاة الصبح وحتي وقت الظهيرة يومياً حتي النصف الثاني من القرن ١٦م ، حيث صارت الإجتماعات تعقد بعد ذلك أربعة أيام أسبوعياً فقط ، هي السبت والأحد والإثنين والثلاثاء . وفي أواخر القرن ١٧م ، انخفض عدد جلسات الديوان الهمايوني إلي يومين ، هما الأحد والثلاثاء من كل أسبوع . واعتباراً من النصف الأول من القرن ١٨م ، أهملت اجتماعات الديوان الهمايوني تماماً ، حيث حولت أعماله إلي ديوان الوزير الأعظم الذي اطلق عليه اسم " الباب العالي " . وأصبح لا يدعي الديوان الهمايوني للإنعقاد إلا مرة واحدة كل ثلاثة أشهر ، وذلك لتوزيع مرتبات جند خدم الباب (قابو قولي) أو لإستقبال حملة عسكرية أو سفير أجنبي من الخارج . إلاّ أنه في النصف الثاني من القرن ١٨م ، سمح لهيئة الديوان الهمايوني بالإجتماع يوماً واحداً في الأسبوع للنظر في شكاوي الرعية .

وعقب انتهاء أعمال الديوان كان الوزير الأعظم والوزراء وقضاة العسكر والدفترادارية وأغا اليكيجرية ، يعرضون تقاريرهم الموجزة علي السلطان في " حجرة العرض " أربعة أيام في الأسبوع . ثم صار العرض بعد ذلك يومي الأحد والثلاثاء أسبوعياً . وقبل دخول أعضاء هيئة للعرض علي السلطان ، كان الوزير الأعظم يحصل أولاً علي الإذن بالمقابلة ، وعندئذ كان أغا اليكيجري يبدأ بالدخول إلي الحضرة

السلطانية ، حيث كان يعرض الأمور اللخاصة باوجاقه علي السلطان بعد أن يكون قد عرضها من قبل علي الوزير الأعظم . وبعد خروجه ، كان يتقدم كل من قاضي عسكر الروميلي وقاضي عسكر الأناضول إلي حجرة العرض ، حيث كانوا يقرأون تلخيصاتهم علي السلطان ، وينتظرون أوامره . وعقب خروج قضارة العسكر ، كان الوزير الأعظم وبقية الوزراء ودفتردار الروميلي والأناضول والنشانجي يدخلون تباعاً ، فيعرضون علي السلطان تلخيصاتهم ، ويحصلون علي موافقته في أمور الدولة الهامة . وبعد انتقال أعمال الديوان الهمايوني إلي الباب العالي ، كان الصدر الأعظم يطلب الإذن لمقابلة السلطان وعرض تلخيصاته والفرمانات والبراءات التي يلزمها توقيع السلطان ، حيث يبلغ بيوم وساعة ومكان مقابلته مع السلطان[380] .

الوزير الأعظم (الصدر الأعظم) : وهو وكيل السلطان المطلق في كافة شئون الدولة العثمانية الإدارية والعسكرية والعرفية . وقد عرف العثمانيون في البداية منصب الوزارة علي النحو الذي كان مطبقاً في الدول الإسلامية السابقة ، حيث كان الوزير مكلفاً بإدارة كافة شئون الدولة عدا العسكرية منها ، وكان يتم اختيار لهذا رجلاً من رجال العلم والفضل لشغل هذا المنصب . وقد استمر توجيه هذا المنصب لهذه الفئة من رجال الدولة حتي وصول جاندارلي خليل خير الدين باشا لمنصب الوزارة في اواسط عهد مراد الأول .

وكان جمع القيادة العسكرية مع منصب الوزارة وتوجيهه لخير الدين باشا أثناء فتوحات الروميلي ، نتيجة للنجاحات التي أحرزها الوزير المذكور هناك بحسن تصرفه في استخدام الصلاحيات الواسعة التي منحت له سبباً ، الأمر الذي أوجب ضرورة جمع شئون الدولة الإدارية والعسكرية في يد رجل واحد في الدولة منذ ذلك الحين . وهكذا ،

[380] بخصوص تفصيلات أكثر حول الديوان الهمايوني وأعضائه ومسئولياته وأعماله وأقلامه ، أنظر :
Uzunçarşılı, Osmanlı Devleti Merkez ve Bahriye Teşkilâti, s.1-64; Mumcu Ahmed, Hukuksal ve Siyasal Karar Organı Olarak Divan-i Hümayûn, Ankara 1976, s.24-71

علا منصب الوزارة ، فأخذ صورة أكثر تطوراً عما كان موجود في الدول الإسلامية السابقة في المنطقة ، حيث حاز الوزراء الذين أتوا بعد جاندارلي باشا علي نفس الصلاحيات الواسعة في شئون الدولة الإدارية والعسكرية ، وصاروا المرجع الأساسي فيها .

وقد بدأ اطلاق اسم " وزير أعظم " علي الوزير الأول في الحكومة العثمانية بعد منح صاحب المنصب لهذه الصلاحيات المطلقة وبالخاصة بعد أن صار في الدولة أكثر من وزير . ولما زاد عدد الوزراء اعتباراً من النصف الأول من القرن ١٦م/١٠هـ لم يتجاوز عددهم عن أربعة وزراء حتي أواخر عهد السلطان القانوني . وهكذا ، أقر القانون العثماني تعيين الوزير الثاني في منصب الوزير الأعظم . وعقب اختيار السلطان للوزير الأعظم ، بحسب ما جري عليه العرف في الدولة ، كان السلطان يدفع إليه بخاتمه السلطاني كناية علي وكالته المطلقة في كافة شئون الدولة .

كان الوزير الأعظم هو أكبر رئيس للدولة بعد السلطان ، وكانت كلمته وأمره تعتبران إرادة السلطان وفرمانه . وفكان ينظر في كافة مصالح الدين والدولة في البلاد ، ويحافظ علي نظام السلطنة ، فيقر الحدود والقصاص ويأمر بالحبس والنفي ، وبتطبيق أحكام التعزير والاعدام ، ويستمع للدعاوي ، وينفذ أحكام الشريعة الغراء ، ويرفع المظالم ، ويدير عموم شئون السلطنة ؛ كما كان يجري تعيينات الأيالات والولايات والسناجق وغيرها ، ويوجه الوظائف العلمية إلي مستحقيها ، ويوزع علوفات عسكر القابو قولي كل ثلاثة شهور بالديوان ، فكانت كل هذه الأمور وغيرها تنفذ بعد موافقته وتحت اشرافه ، وذلك بوضعه علامة " بيورلدي " علي معاملاتها . أما بخصوص معاملات الوزراء وقضاة العسكر وشيخ الإسلام ، فكان الوزير الأعظم يحصل أولاً علي موافقة السلطان قبل إجرائها . وكان الصدر الأعظم يدير كافة شئون الدولة هذه من خلال الديوان الهمايوني أولاً ، حيث كان يتم النظر في هذه الأمور في دواوينة الخاصة "ديوان العصر" (اكندي ديواني) ، و" ديوان الجمعة " ، و" ديوان الأربعاء " .

ومن ناحية أخري ، كان السلاطين العثمانيين العظام خلال مرحلتي التأسيس والإزدهار ، يكلفون الوزراء العظام بقيادة بعض الحملات العسكرية ، إلا أنه عقب ترك السلاطين الخروج علي رأس الحملات الحربية اعتباراً من عهد سليم الثاني ، كلف الوزراء العظام بهذه المهمة كوكلاء عن السلاطين ، حيث كان يطلق عليهم عندئذ لقب " سردار أكرم " . وقبل خروجهم للحملات ، كان الصدور العظام يعينون وكيل عنهم لمباشرة شئون الدولة في المركز اطلق عليه اسم " قائمقام الصدارة " . وكان الصدر الأعظم يتقاضي مقاطعة " خاص " مقابل خدماته في الدولة[٣٨١] .

وزراء القبة : وهم وزراء الديوان الهمايوني ، أطلق عليهم هذا الإسم نسبة للديوان الجديد الذي أنشأ في عهد سليمان القانوني تحت اسم " قبه نشين " . ونظراً للقانون الذي كان معمول به في الدولة العثمانية فإنه كان علي الوزير أن يتدرج في مناصب إمارة السنجق " سنجق بكلك " ، ثم إمارة الأمراء (بكلربكلكي) ، ثم إمارة أمراء الروميلي ، والخدمة في كل منها لفترة طويلة حتي يصل في النهاية إلي منصب الوزراة . وقد ظل هذا القانون ساري المفعول حتي النصف الثاني من القرن ١٦م ، حيث دب الفساد في هذا التشكيل وصار لا يراعي فيه هذا التدرج الوظيفي ، فكان أمراء أمراء الولايات يعينون في منصب الوزراة مباشرة دون تقلدهم لمرتبة إمارة أمراء الروميلي قبلها .

وكان وزراء الديوان الهمايوني يأخذون مكانهم في مقدمة رجال الدولة ، حيث كان يستفاد من تجارهم وكفاءاتهم ومطالعاتهم في مناقشات شئون الدولة المختلفة داخل الديوان الهمايوني وخارجه أو بخصوص أمور الدولة السياسية الهامة ، كما كانوا يقومون

---

381 أنظر في هذا الخصوص : Uzunçarşılı, Merkez ve Bahriye Teşkilati, s. 111-170; keza bk. Ayn. Mlf., Osmanlı Tarihine ait yeni bir vesikanın ehemmiyeti ve izahı ve bu münasebetle Osmanlılarda İlk vezirlere dâir mütala'a", Belleten, III/9, Ankara 1939, s. 99; Aydın Taneri, Osmanlı İmparatorluğu'nun Kuruluş Döneminde Vezir-i A'zamlık, Ankara 1974

بمعاونة الوزير الأعظم في الإستماع للدعاوي وأيضاً مساعدة أعضـاء هيئـة الـديوان الآخرين كالنشانجي في وضع علامات الطغراء السلطانية عند زيادة أعمـال الـديوان الهمايوني . وبالإضافة إلي هذه المهام الإدارية التي كان وزير القبة مكلف بها في مركـز الدولة ، فقد كان يكلف أحياناً بالخروج علي رأس أحدي حملات الدولة ، وعندئـذ كان يحمل لقب " سردار " أو " سر عسكر " أي قائد العسكر .

ولما كانت طائفة الوزراء في الدولة العثمانية صاحبة أعظم صلاحيات إدارية وعسكرية بعد الصدر الأعظم مباشرة ، كان أقدم وزير يطلق عليه اسم " وزير ثان " ، حيث كان يحتل المكانة العظمي في الديوان بعد الوزير الأول أي الوزير الأعظم ، وكان المرشح الأول لمنصب الصدارة العظمي بحسب القانون العثماني .

وكانت رتبة الوزراءة تنحصر في وزراء القبة الذين يباشرون مهامهم في مركز السلطنة وعلي رأس الحملات العسكرية حتي أوائل القرن ١٦م/١٠هـ . إلا أنه علي أثر ضم أملاك الدولة المملوكية في الشرق ، والشعور بالحاجة لتعيين أشخاص من أصحاب الصلاحيات الواسعة لتوطيد حكمها وسيطرتها علي هذه المناطق المفتوحة حديثاً والبعيدة عن المركز وذات الأهمية الإستراتيجية للدولة كمصر ، وجهت هذه المهام أولاً لبعض من وزراء القبة كمصطفي باشا الوزير الثاني ، وأحمد باشا الوزير الثاني أيضاً الذين عينا علي التوالي ولاة علي مصر . وقد شرعت الدولة بعد ذلك في تعيين وزراء غير وزراء القبـة علي أيالاتها الهامة مثل مصر وبغداد واليمن وبودين . وبناءاً علي ذلك ، انقسمت فئـة الوزراء في الدولة إلي قسمين :

الأول – وزراء داخل : وكانوا يمثلون وزراء القبة الموجودين بـالمركز . وفي أوائل القرن ١٧م بدأ منح رتبة الوزارة هذه أيضاً للدفتردار والنشانجي والقبطان باشا ، حيث كان عدد وزراء الداخل هؤلاء يتأرجح فيما بين ٨-١٠ وزراء . ولكن في أواخر القرن ١٧م ،صار عدد وزراء القبة فقط ثلاثة وزراء ، وذلك علاوة علي الوزراء مـن أصحاب المناصب .

والثاني – وزراء خارج : وهم وزراء الولايات الهامة بالدولة . وكـــان وزراء الخارج هؤلاء يقعون في المرتبة الثانية بعد وزراء الداخل بحيث كان وزير الخارج يرقـــي لرتبة وزير الداخل بمركز السلطنة . ويذكر مصطفي سلانيكي أفندي في تاريخه أنـــه في أواخر القرن ١٦م ، كان بالدولة ١٣ وزيراً منهم سبعة وزراء الداخل وستة من وزراء الخارج أي وزراء الولايات . وفي القرن ١٧م زاد عدد الوزراء جميعاً إلي أكثر من ٢٣ وزيراً ، حتي أن الدولة اضطرت لتعيينهم في الأيالات التي كانت توجه لإمراء الأمراء من قبل . وبذلك ضعف منصب الوزارة بالدولة ، وبالخاصة عقب انتقال كافـــة أعمـــال الديوان الهمايوني إلي الباب العالي في أوائل القرن ١٨م[٣٨٢] .

قاضيعسكر الأناضول وقاضيعسكر الروميلي (الصدرين) : هم رجال العدل الذين كانوا يقومون بإقرار الشرع في أرجاء الدولة وينظرون في أمور الدولة ورعاياها الشرعية والقضائية . وتؤكد المصادر المعاصرة علي أن منصب قاضي العسكر بالدولة العثمانية قد انتقل عن تشكيلات دولة المماليك أو دولة سلاجقة الأناضول بطريق مباشر أو غير مباشر .

ففي عهد أورخان بك كان منصب قضاء بروسة هو أعلي منصب قضائي في الدولة ، ولم يكن قد ظهر منصب قاضي العسكر بعد . إلا أنه بعد ذلك عرف منصب قاضي العكسر في التشكيلات العثمانية كمنصب علمي يصل صاحبه في النهاية إلي مرتبة الوزارة . وحتي عام ١٤٨٠م ، كان هناك قاضعسكر واحد فقط ، وكان يشغل أعلي مقام في الدولة بعد الوزير الأعظم والوزراء . وفي أواخر عهد محمد الفاتح ، انقسم منصب قاضي العسكر إلي قسمين : قاضيعسكر الروميلي وقاضيعسكر الأناضول ، وذلك بعد أن وطدت الدولة سيطرتها علي جناحيها في الأناضول والبلقان ، وزادت مسئوليات قاضي العسكر فيهما . وعقب ضم السلطان سليم الأول لمناطق شرق الأناضول ونواحي مرعش وملاطية ، استحدث منصب قضاء ثالث بإسم " قاضيعسكر

---

[382] بخصوص وزراء القبة وأهم المهام المكلفين بها في الدولة أنظر : Uzunçarşılı, Merkez ve Bayriye Teşkilati, s. 186-210

العرب والعجم " للنظر في أمور تلك النواحي . وفي البداية ، كان قاضي العسكر هذا يتخذ من ولاية دياربكر مركزاً له ، إلا أنه بعد بسط السلطان سليم لنفوذه علي سوريا ومصر نقل مركزه إلي استانبول ، حيث صار ضمن هيئة الديوان الهمايوني . ولكن ، سرعان ما ألغي هذا المنصب بعد ذلك وحولت أعماله إلي قاضيعسكر الأناضول .

فحتي أواسط القرن ١٦م ، لم يكن هناك تدرج واضح للوصول لمنصب قاضي العسكر ، إلا أنه بعد ذلك أصبح تعيين القاضي المعزول عن قضاء استانبول أو أدرنه في منصب قاضيعسكر الأناضول قانون معمول به ، كما تقرر ترقية قاضيعسكر الأناضول أو من هو في مرتبته ليتولي منصب قاضيعسكر الروميلي . ولكن ، إعتباراً من أواخر القرن ١٦م ، لم ترعي هذه القاعدة في أحيان كثيرة . وبعد أن اكتسب منصب شيخ الإسلام الصدارة في التشكيلات العلمية في الدولة ، صار هذا المنصب يوجه إلي القضاة المعزولين عن قضاء الروميلي . وكانت المدة العرفية لبقاء قضاة العسكر في مناصبهم حتي القرن ١٧م سنتين متتاليتين ، ولكن انخفضت هذه المدة بعد ذلك إلي سنة واحدة ، توجه بعدها المنصب إلي أحد قضاة العسكر القدامي أو إلي قاضيعسكر جديد حسب التدرج الوظيفي في المؤسسة القضائية بالدولة .

كان قاضيعسكر الروميلي أعلي مرتبة من قاضيعسكر الأناضول ، حيث كان يرجع إليه في كافة أمور الدولة الشرعية التي تحوز علي أهمية استراتيجية ، وذلك علاوة علي ما كان ينظر فيه من الأمور القضائية والشرعية للولايات الموجودة ضمن منطقة الروميلي . وكان قاضيعسكر الأناضول يقوم بمساعدة قاضيعسكر الروميلي أثناء قيامه بالإستماع للدعاوي الشرعية والقضائية في الديوان الهمايوني وفي مجلس الوزير الأعظم ، وذلك في حالة زيادة الدعاوي الشرعية والمعاملات القضائية التي يلزم نظرها في تلك الدواوين . وكان قضاة العسكر يعرضون مطالعاتهم وتعييناتهم والأمور الشرعية والقضائية الخاصة بمنطقة كل منهم والتي تحتاج للعرض علي السلطان في أيام العرض عقب انتهاء أعمال الديوان الهمايوني ، وكانوا في عرضهم يقرأون دفاتر القضاة " أقضيه دفترلري " التي كانوا يبينون فيها أسماء القضاة المرشحين للتعيين . وكان قاضيعسكر

الروميلي يقوم بنفسه بالإشراف علي دفاتر تسجيل المرشحين لمناصب القضاء أو التدريس في الدولة ، ودفاتر ملازمتهم علي الحضور إلى مجلسه بشكل منتظم للحصول علي شهادة بأهليتهم لمنصب القضاء أو التدريس حسب اختيارهم ، ثم تعيينهم بالدور وفقاً لأقدميتهم ومراتبهم في ملازمة مجلس قاضي العسكر .

وكان يمكن لقضاة العسكر تعيين القضاة ممن يتقاضوا يومية قدرها ١٥٠ والمدرسين من ذوي يومية ٤٠ أقجه . أما المناصب القضائية الكبري التي يطلق عليها "مولوية" من ذوي يومية ٣٥٠ – ٥٠٠ أقجه ومناصب التدريس التي تزيد يوميتها عن ٤٠ أقجه فكان تعيينها ينظر من قبل الوزير الأعظم بنفسه . وبعد ظهور منصب شيخ الإسلام ، صارت معاملات تعيين هذه المناصب الكبري تجري بعرض شيخ الإسلام ، حيث كان شيخ الإسلام يقوم بعرض تلخيص هذه التعيينات علي الصدر الأعظم الذي يقوم بدوره بعرضها علي السلطان والحصول علي موافقته عليها .

ومن ناحية أخري ، كان قاضيعسكر الروميلي وقاضيعسكر الأناضول يعقدان ديوانيهما كل يوم عدا يومي الثلاثاء والأربعاء في منازلهم ، حيث كانوا ينظرون في الأمور التي حولت إليهم . وكان يعمل تحت أشراف قضاة العسكر هيئة من كتبة الديوان للقيام بشتون التحريرات الشرعية والقضائية يطلق علي كل منهم اسم " تذكره جي " ، وذلك علاوة علي المحضرين الذين كان عددهم يتجاوز العشرين ، وكانوا يقومون بعملية احضار المدعي والمدعي عليه للديوان

وكانت مناصب القضاء بالدولة العثمانية عموماً تتفاوت بحسب مقدار المرتب اليومي الذي يحصل عليه أصحابها . فحتي عهد محمد الفاتح ، كانت مرتبات قضاة العسكر اليومية تؤدي لهم من الحاصلات الشرعية للممناطق القضائية لكل منهم ، حيث كان كل منهم يحصل علي يومية قدرها ٥٠٠ اقجه ، إلا أن هذه المرتبات اليومية صارت بعد ذلك توزع عليهم من الخزينة . ومن ناحية أخري ، كان قاضيعسكر الروميلي يحصل علي مقدار آخر من الأموال من القسمة العسكرية الخاصة بالولايات والجزر الملحقة بالروميلي . أما قاضيعسكر الأناضول فكان يحصل علي مثل تلك الأموال



من واردات القسمة العسكرية الخاصة بمناطف الأناضول وبمصر وسوريا والعراق . وفي القرن ١٦م ، كانت نصف رسوم البراءة التي كانت تحصل من المناطق القضائية التي يقوم كل من قاضيعسكر الروميلي وقاضيعسكر الأناضول بتعيينها تضبط للخزينة ونصفها الآخر يوزع علي قضاة العسكر وأتباعهم من الكتبة والمحضرباشي والدوادارية . أما قضاة العسكر المحالين للتقاعد ، فكانت تخصص لهم محصولات أحدي المناطق القضائية التي يطلق عليها اسم " أربالق " كمرتبات معاش سنوية ، أو يمنحوا ما قدره ١٥٠ أقجه كتقاعديه[٣٨٣] .

الدفتردار : لقد أطلق العثمانيون لقب " دفترداريء ممالك " علي من يقوم بإدارة شئون الدولة المالية . وبالرغم من أنه ليس هناك معلومات صريحة عن بدء استخدام تعبير " دفتردار " عند العثمانيين ، إلا أنه من المرجح أن يكون العثمانيون قد استحدثوا هذه الوظيفة في عصر ييلدرم بايزيد (١٣٨٩-١٤٠٤م) . وقد أكدت المصادر العثمانية أن منصب " الدفتردار " كان موجوداً في تشكيلات الدولة العثمانية في النصف الأول من القرن ١٥م .

وطبقاً لما أورده قانون نامهء السلطان محمد الفاتح ، فإن الدفتردار في تشكيلات الدولة يعتبر وكيل السلطان للشئون المالية . أما الصدر الأعظم وكيل السلطان المطلق فكان يعتبر ناظراً لكافة الشئون المالية العامة في الدولة . وكانت خزائن أموال ودفاتر الدولة المالية لا تفتح ولا تغلق إلا في حضور الدفتردار .

وفي النصف الثاني من القرن ١٥م ، كان تعيين دفتردار الأموال ، أو أمين الدفتر أوشهر أميني أو القضاة من ذوات ٣٠٠ أقجة يومياً ، تعيينهم في منصب دفتردار باشي قانوناً معمولاً به ، كما كان رئيس الكتاب يعين أحياناً في منصب الدفتردار . وبعد زيادة عدد الدفتردارية في مركز الدولة ، كان دفتردار الأناضول عادة ما يرقي

---

383 فيما يتعلق بمنصب قضاء العسكر في الدولة العثمانية وتطور صلاحياته ، أنظر :
Uzunçarşılı, Osmanlı Devletinin İlmiye Teşkilâtı, Ankara 1984, s.151-159; ayn. Mlf., Merkez ve Bahriye Teşkilatı, s.228-237; Akgündüz, Osmanlı Kanunları ve Hukukî Tahlilleri, I/226-228

فيعين في منصب رئيس الدفترداية (باش دفتردار/ روميلي دفترداري) . وقد قرر قانون نامهء الفاتح منح الدفتردار لمقاطعة " خاص " كراتب سنوي له.

في البداية ، كان يرأس المؤسسة المالية في الدولة العثمانية ، دفتردار واحـــد ، حيث زاد عدد الدفتردارية باضطراد مع اتساع الدولة وتشعب شئونها المالية . وبـــذلك أطلق علي الدفتردار الأول اسم " باش دفتردار " أو " روميلي دفترداري " ، وكان ينظر في الأمور المالية الخاصة بمنطقة الروميلي ، ومعاملات الدولة المالية الهامة . ويأتي بعـــده "دفتردار الأناضول" الذي اختص بالنظر في الشئون المالية الخاصة بمنطقة الأناضــــول . ويرجح أن يكون منصب دفتردار الأناضول قد استحدث في عهد بازيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢م) . وعقب دخول ولايات شرق الأناضول وسوريا ومصر تحت إدارة الدولة في عهد سليم الأول (١٥٢١-١٥٢٠م) ، استحدث منصب دفتردار ثالث بإسم "دفتردار العرب والعجم" للنظر في شئون تلك المناطق المفتوحة ، حيث كان هذا الدفتردار يقيم في حلب إقامة دائمة حتي يتيسر له إدارة الأمور المالية هناك عن قـــرب . وفي أواســـط القرن ١٦م ، انفصلت الشئون المالية للمناطق الساحلية التي كانت ملحقة مـــن قبـــل بدفتردااية الروميلي والأناضول ، وألحقت بها مقاطعات استانبول ، حيث شكل منـــها جميعاً منصب دفترداري آخر لإدارة شئونها المالية عرف باسم " شق ثان دفترداري " .

وبذلك صار هناك ثلاثة مناصب للدفتردار في مركز السلطنة هـــي : بـــاش دفتردار ، ثم يأتي بعده " أناضولي دفترداري ، وأخيراً شق ثان دفترداري . وكان بـــاش دفتردار بمثابة الناظر علي الدفتردارية الآخرين ، حيث كان ينظر في الأمور المالية اللازمة العرض علي الديوان الهمايوني والتي ترد من قبل دفتردارية الآيالات ودفتردارية الحـــدود أيضاً . وفي عهد السلطان محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣) استحدث منصب دفترداري رابع باسم " شق رابع " للنظر في الشئون المالية الخاصة بمقاطعات " خاص " الموجـــودة بسواحل " طونه " ، إلا أنه سرعان ما ألغي بعد ذلـــك بفتـــرة وجيـــزة . وفي عـــام ٩٨١هـــ/١٥٧٣م انقسم منصب دفتردارية العرب والعجم إلي خمســـة أقســـام هـــي دياربكر ، الشام ، أرضروم ، طرابلس شام ، وحلب . وفي عام ٩٩٢هـــــ/١٥٨٤م

انفصلت عن دفتردارية الأناضول أيالتي سيواس وقرمان ، حيث صار لكل منها دفتردارية مستقلة . وهكذا أطلق علي مناصب الدفتردارية المستقلة هذه في الأيالات اسم " كنار دفتردارلقلري " . وبعد ذلك وعقب انضمام مناصب دفتردارية التيمار إليها تغير اسمها فصارت تدعي " خزينه دفتردارلقلري " .

ويعتبر الدفتردارية أعضاء أساسيون في الديوان الهمايوني ، فيتابعون مناقشاته ، وتُحول إليهم المسائل التي تتعلق بالأمور المالية والتي تخص كل منهم . وكانوا يدخلون لغرفة العرض مع الوزراء في أيام الثلاثاء فقط من كل أسبوع ، حيث كانوا يقومـــون بعرض ملخصات للأمور المالية التي تخص كل منهم وتقديم الإيضاحات حولها . وكانت العادة المتبعة تقضي بمقابلة الدفتردار للصدر الأعظم ومناقشته معه المسائل المالية الواردة بالتلخيص الذي سوف يعرض علي السلطان في حجرة العرض ، وحصوله علي موافقته قبل دخوله للحضرة السلطانية . وبعد عرض الدفتردار أموره المالية علي السلطان كان يقبل الأرض ، ثم يهم بالخروج . أما إذا كان الدفتردار علي رتبة وزير ، كـــان يقـــف بجوار الوزراء في الحضرة السلطانية .

وكان دفتردارية المركز يقومون بالنظر في الأمور المالية الخاصة بكل منـــهم في الديوان الدفتري الذي يطلق عليه أيضاً " دفتردار قابوسي " ، حيث يسمعون الدعاوي والشكاوي المالية ، وتوجيه المقاطعات التي تتبع منطقتهم ، وتتبع تحصيل الأموال الميرية من الملتزمين ، وحبس المتهاونين منهم والذين عليهم ديوان ، واصـــدار الأحكـــام ذات الطغراء في تلك الأمور إذا استدعت الضرورة ذلك . وكان كل دفتردار يضع توقيعــه خلف كل ورقة معاملات تصدر عن دائرته .

وهكذا ، كان باش دفتردار مسئول عن كاة المعاملات المالية في الدولة بالدرجة الأولي . وبالرغم من أن دفتردار الأناضول ودفتردار الشق الثاني كانا يصحبونه في كل تحركاته ، إلا أنهما لم يكونا يتدخلان في الأمور المالية العامة للدولة ، عدا مـــا يخـــص مناطقهما . أما إذا تقرر خروج باش دفتردار لإحدي الحملات العسكرية للدولة ، كان دفتردار الأناضول يقوم بالوكالة عنه في مركز الدولة باستانبول . وكان جميع أعضـــاء

هيئة الباب الدفتري يعتبرون من أتباع الباش دفتردار . إلا أنه كان هناك خمسة أفراد من أرباب الوظائف يقومون بتنفيذ الأحكام المالية وتتبع اجراءات التنفيذ وتحصيل الواردات وغيرها من الأمور المالية للدولة[٣٨٤] .

النيشانجي (التوقيعي) : وهو أحد أعضاء الديوان الهمايوني الأساسيين ، بل هو الرئيس الأعلي للديوان الهمايوني خلال القرن ١٦م . وقد عرف النشانجي أو التوقيعي بإسم " طغرائي " أيضاً . وتبين المصادر أن وظيفة التوقيعي أو " الطغرائي " هذه قد عرفت في الدول الإسلامية السابقة ، حيث انتقل لقب طغرائي عن تشيكلات مؤسسة ديوان الطغراء السلجوقية إلي العثمانيين ، ولم يعرف تعبير نشانجي في التشكيلات العثمانية إلا ابتداءا من النصف الأول من القرن ١٥م .

وكان النشانجي الذي كان يطلق عليه أيضاً اسم " مفتي القانون " ، ينتخب ممن تتوافر فيهم قدرات الإحاطة الكاملة بقوانيين الدولة وتشريعاتها التنظيمية ، وبتنظيم وتأليف القوانيين واستخلاصها من مصادر الشرع الشريف ، وكان يستفاد من أفكارهم وتوصياتهم في هذه الأمور أثناء مناقشات الديوان الهمايوني ، حيث كان هذا يتطلب ضرورة احاطتهم بعلوم الفقه والشريعة والتاريخ والأدب واللغات الإسلامية بدرجة تتيح لهم الإيفاء بمتطلبات مثل هذه الوظائف الهامة . وكان النشانجي بإعتباره رئيساً للديوان الهمايوني يقوم بالنظر في أمور المكاتبات المختلفة وبالخاصة الرسائل التي كانت توجه للحكام ومناشير وبراءات الوزراء وتدقيق مسوداتها ، كما كان وضعه للطغراء الذي يمثل توقيع السلطان أعلي المعاهدات والمناشير والأحكام والفرمانات ، يعتبر أحدي وظائفه الأساسية المباشرة التي أكتسب من خلالها صفته كـ " طغرائي " لتحريرات الدولة الرسمية . وكان رئيس الكتاب وأمين الدفتر وكافة رؤساء أقلام الديوان أتباعاً له . كما كان له حجرة خاصة به بجوار الديوان الهمايوني ، يقوم فيها بالنظر في أمور الدولة المناط بها مع أعضاء هيئته ومساعدية بعد انتهاء أعمال الديوان ، وبخاصة توجيهات

---

384 بخصوص الدفتردار والتشكيلات المالية في الدولة العثمانية ، أنظر : **Uzunçarşılı,** Osmanlı Devletinin Merkez ve Bahriye Teşkilâtı, s.319-337

أراضي الدولة . وكان النشانجي يطلع علي المناشير والقوانيين المحررة من قبل رئيس الكتاب والتي لا تتعلق بالمناصب ، حيث كان يجري عليها التصحيحات اللازمة . ولما كان النشانجي ليس من أعضاء الهيئة التشريعية أوالتنفيذية في الدولة ، وإنما كان رئيس هيئة التحريرات بالديوان الهمايوني ، فلم يكن لديه من الشئون الخاصة بوظيفته ما يعرضه علي السلطان في " غرفة العرض " ليأخذ موافقته عليها .

وكان النشانجية ينتخبون من بين أرباب المناصب العلمية عموماً ، وممن كانوا علي كفاءة عالية في أمور الكتابة والتحرير . فكانوا يعينون من مدرسي الداخل أو من مدرسي صحن ثمان حتي أوائل القرن ١٦م ، وبعد ذلك صار هذا المنصب يوجه لرئيس الكتاب الذي يظهر كفاءة ومقدرة للقيام بإعباء هذا المنصب . وكان النيشانجي يمنح مقاطعة " خاص " كمرتب له من الدولة[٣٨٥] .

أمير الأمراء (بكلربكي) : انتقل هذا المنصب للعثمانيين عن الدولة السلجوقية . وكان يوجد في التشكيلات العثمانية الأولي أميرأمراء واحد فقط للإشراف علي كافة شئون الجيش العثماني ، حيث كان صاحب نفوذ في أمور الدولة بعد السلطان مباشرة . وأول أمير أمراء كان سليمان باشا إبن أورخان غازي ، حيث وجهت هذه الوظيفة بعد وفاة سليمان باشا للالا شاهين باشا . وخلال عهد مراد الأول ، وعلي أثر تعيين جاندارلي خليل باشا قائداً للجيوش انخفضت أهمية منصب أمير الأمراء . ولما اتسعت فتوحات الروميلي انقسم هذا المنصب إلي قسمين : أمير أمراء الأناضول ، وأمير أمراء الروميلي ، حيث كان الأخير أعلي مقاماً ونفوذاً من الثاني . ومع توسع الدولة العثمانية خلال القرن ١٥م/٩هـ ، ازداد عدد أمراء الأمراء في الدولة ، حيث أضيف لصاحب هذا المنصب العديد من الصلاحيات الإدارية علاوة علي وظائفه العسكرية ، وأصبح منذ ذلك الحين أمير الأمراء والياً علي ولاية أطلق عليها اسم " إمارة امراء " .

---

[385] بخصوص وظيفة التوقيعي في الديوان الهمايوني ، أنظر : Uzunçarşılı, Merkez ve Bahriye Teşkilatı, s. 215-237

ولما كانت الأعراف العثمانية تقضي بتوجيه الأراضي المفتوحة للأمراء الــذين قدموا خدمات جليلة للدولة ، فقد نقلت الدولة عن الدول السابقة عليها نظام التيمار ، حيث كانت توجه لهؤلاء الأمراء الولايات والمقاطعات وفقاً لهذا النظام . فكان يوجــه لأمير الأمراء ولاية زعامت أو خاص بحسب درجته ، حيث كان يترك له خراجها مقابل خدماته العسكرية والإدارية التي يقدمها للدولة . ومنذ ذلك الحين ، أصبح هذا المنصب منصباً إدارياً عسكرياً يباشر صاحبه صلاحياته في الولاية التي أُقطعها بما فيهــا المنــاطق السنجقية . وهكذا ، تعددت مناصب إمارة الأمراء ، وأصبحت مرادفــه للمنصــب الإداري أو المنطقة الإدارية التي عرفت بـــ " الولاية " . ولكن ، بقي منصبي إمارة أمراء الروميلي وإمارة أمراء الأناضول يحافظات علي تميزهما بين امارات أمراء الدولة ، حيث كانا من الأعضاء الأساسيين في الديوان الهمايوني يتحدث كل منهما عن شئون الولايات التابعة له . غير أن كان صاحب منصب أمير أمراء الروميلي أعلي درجة من صــاحب منصب أمير أمراء الأناضول ، في حالة ترقيته يصبح من وزراء الدولة .

وعقب سقوط الدولة المملوكية وضم ولاياتها الشرقية للأملاك العثمانية ، بدأت توجه هذه المناطق المفتوحة حديثاً لأمراء أمراء ليس بطريق التيمار ، ولكـــن بطريــق الساليانه . وبذلك يكون هذا منصب إمارة الأمراء قد أخذ شكلاً إدارياً بحتاً ، حيت بدأ تعين هؤلاء لإدارة هذه الولايات (إمارات الأمراء) مقابل مرتب سنوي عرف باســم "ساليانه" .

وكان أمير الأمراء يقع تحت ولايته جميع الأمراء السناجق الموجودين في نطاق مقاطعة الخاص التابعة له ، حيث كان يقودهم وقت الحرب في الحمــلات العســكرية عندما تصدر الأوامر له بذلك . وكان أمير الأمراء بقيم بصفة دائمة في مقر ولايته وقت السلم ، حيث يقوم بإدارة شئونها بمعاونة هيئة ديوانية تشبه إلي حد كبير هيئة الــديوان الهمايوني . وهكذا ، أصبح أمير الأمراء صاحب صلاحيات عسكرية وإداريــة وماليــة وقضائية مطلقة في ولايته باعتباره وكيل السلطان المطلق في الولاية . وكان علي أمــير

الأمراء القيام بالتفتيش علي شئون الأمراء السناجق في ولايته ، ويرفع المشكلات الهامة والمتعلقة بولايته علي مركز الدولة لمناقشتها ، واصدار قرار بشأنها .

ولما كان أمير الأمراء يدعي للحرب ، كان عليه أن يقوم بالخروج علـــي رأس الأمراء السناجق التابعين لولايته وسباهية مقاطعات التيمار والزعامة والخاص . وعندئذ ، كان أمير الأمراء يترك في مركز ولايته من ينوب عنه في إدارة شئون الولاية ، وغالبـــاً كان يقوم بهذه الوظيفة القائمقام في مركز الولاية ، والقضـــاة في المنـــاطق الســـنجقية والقضائية المختلفة في الولاية ، وذلك حتى عودة الأمراء من الحملات .

الأمراء السـناجق : وكانوا يتبعون إدارياً وعسكرياً لأمير الأمراء . وكـــان الأمير السنجق هو المسئول عن كافة الأمور الإدارية والعســكرية والأمنيــة للمنـــاطق السنجقية الواقعة تحت إدارته بما فيها مقاطعات التيمار . وكان مرتب الأمير الســـنجق عبارة عن خراج مقاطعة تيمار تكبر أو تصغر بحسب درجته وأقدميته . وعند الإعـــلان عن خروج حملة ، كان أمير السنجق يقوم بجمع كافة أصحاب مقاطعات التيمار الواقعة تحت إدارة سنجقيته ، ويتوجه بهم إلي الحملة تحت قيادة أمير الأمراء التابع له . وكـــان أبناء السلاطين الذين كان يطلق عليهم اسم " چلبي سلطان / شهزاده لر " والذين كانوا يعينون عن مناطق سنجقية في الأناضول أو في الروميلي ، يحصلون علي صلاحيات أعلي من الأمراء السناجق الأخرين ، حتي أنهم كانوا يتقدمون في بعض الأحيان علي أمـــراء الأمراء في الدولة .

التقسيمات الإدارية : كانت الأراضي العثمانية تنقسم إلي أربعة منـــاطق إدارية متتالية في الإتساع ، وهي إمارة الأمراء التي تحتوي علي مناطق سنجقية ، والمناطق السنجقية التي تحتوي علي مناطق قضائية ، والمناطق القضائية التي كانت تنقسم إلي قري أو ضواحي .

كنا قد أشرنا آنفاً بأن إدارة الولايات العثمانية كانت توجه بصفة أساسية يإلي أمراء الأمراء حتي أواخر القرن ١٥م/٩هـــ . وقد قسم العثمانيون فتوحاتهم الأولي إلي

إمارتين في البداية ، هما : إمارة أمراء الروميلي ، وإمارة أمراء الأناضول . وعلاوة علي هاتين الإمارتين ، كان هناك في الأناضول عدة سناجق مختارة توجه إلي أبناء السلاطين ، بالإضافة إلي بعض السناجق الإستراتيجية الهامة في المناطق الحدودية من الروميلي أطلق عليها " سنجقية أقينجي " ، وكان أمراء هذه السناجق أكثر حرية من غيرهم . وبعد القضاء علي إمارة قرمان والسيطرة علي منطقة سيواس في الأناضول ، صارت كل منهما إمارة أمراء مستقلة تحت إدارة أمير أمراء . وبذلك ، تعددت المناطق الإدارية في انحاء الدولة .

وهكذا ، اكتسب اصطلاح إمارة الأمراء منذ ذلك الحين معنى المنطقة الإدارية . ولما تعددت إمارات الأمراء في منطقتي الروميلي والأناضول إعتباراً من أواسط القرن ١٥م/٩هـ ، أصبح مركز إمارة أمراء الأناضول مدينة أنقرة ، ثم نقلت إلي كوتاهية . أما مركز إمارة أمراء الروميلي فكان مناستير ثم نقل إلي فيليبة . وعقب فتح المناطق الشرقية والجنوبية من الأناضول ، وضم سوريا ومصر والعراق ومناطق المجر ، أضيفت إي ولايات الدولة ولايات جديدة وهامة ، حيث اعتبرت الجزائر وتونس منطقة إدارية تابعة لقبطان البحر العثماني ، ثم شكل منها خلال النصف الثاني من القرن ١٦م/١٠هـ إيالات مستقلة . وقد بلغ عدد ولايات الدولة خلال هذه الفترة ٣٦ ولاية ، منها تسعة تدار بنظام الساليانه ، أما بقيتها (٢٧) فكانت تدار بنظام التيمار .

وهكذا ، كانت الإيالات (الولايات) العثمانية تنقسم إلي قسمين ، قسم يتقاضي أميرها مرتب سنوي ويطلق عليه اسم " ساليانه لي " ، وقسم آخر لا يحصل علي مرتب سنوي ويطلق عليه اسم " ساليانه سز " . وكانت أكثر إيالات الدولة لا يحصل أمرائها علي ساليانه سنوية . ومن الولايات التي لا يحصل أميرها علي راتب سنوي : الروميلي وبودين والأناضول وقرمان وذو القدر وسيواس وأرضروم ودياربكر وحلب والشام وطرابلس ، وكان أميرها يوجه إليه بدلاً من الراتب السنوي مقاطعة زعامت أو خاص .

أما الولايات التي كان يحصل أميرها علي مرتب سنوي ، فكانت عبارة عن إيالات مصر والحبشة وبغداد والبصرة واليمن ومنطقة الحجار وبعض السناجق في إيالة قبطان البحر في الجزائر . فكانت الدولة تقوم بتوجيه الموارد المالية لهذه الولايات إلي ملتزم كل عام ، حيث كان قسم من الواردات السنوية لهذه الولايات يوزع كمرتبات علي أمير الأمراء والسناجق والجنود وموظفي الدولة ، وقسم آخر علي خدمات الدولة الميرية ، وإلتزامات الولاية ، وما يتبقي يرسل إلي خزينة الدولة كخزينة إرسالية .

وعلاوة علي هذه الولايات ، كان هناك في شرق الأناضول سناحق وولايات أخري اعترفت بالنفوذ العثماني عليها ، حيث حررت لأمرائها براءات باعتبارهم مالكين لها مدي الحياة ، تعطيهم الحق في توريثها لأعقابهم ، حيث كان هؤلاء يدفعون قدراً من الضرائب السنوية للدولة ويقدمون الخدمات العسكرية المطلوبة منهم عند الضرورة ، واطلق علي هذه المناطق الإدارية اسم " سربست ميرميرانلق "[٣٨٦] .

---

[386] بخصوص منصبي إمارة الأمراء وإمارة السنجق ودورهما العسكري والإداري في تشكيلات الدولة العثمانية ، وتحول هذين المنصبين إلي مناصب إدارية ، ومكانتهما في التقسيم الإداري العثماني ، أنظر: Metin Kunt, Sancaktan Eyalete : 1550-1650 Arasında Osmanlı Ümerası ve İl İdaresi, İstanbul 1978; Orhan Kılıç, “Klasik Dönem Osmanlı Taşra Teşkilâtı : Beylerbeyiler / Eyaletler, Kaptanlıklar, Voyvodalıklar, Melikler (1362-1799)”, Türkler, c. X/887-898; Fatma Acun, “Klasik Dönem Eyalet İdare Tarzı Olarak Timar Sistemi ve Uygulaması”, Türkler, c. X/899-908; Nejat Göyünç, “Osmanlı Devleti’nde Taşra Teşkilâtı”, Osmanlı, c.VI/77-88; Mehmet Ali Ünal, Osmanlı Devleti’nde Merkezî Otorite ve Taşra Teşkilâtı”, Osmanlı, c.VI/111122



التشكيلات العسكرية لدي العثمانيين

لقد كان للنظم العسكرية لدي سلاجقة الأناضول والإلخانيين والمماليك تـأثر متفاوت علي التشكيلات العسكرية العثمانية . فقد كانت القوات العثمانية تنقسم إلي ثلاثة أقسام أساسية :

- قوات القابوقولي .
- قوات الولايات (وتشمل قوات الحدود) .
- القوات البحرية .

كان جند القابوقولي يتشكل من فرق أو ما عرف باسم " اوجاق " من المشاة والفرسان . وكان يمثل المشاة في هذه المرحلة ، اوجاقات الـ " يكيچري " (يكي چري/ الإنكشارية) ، والجبه جي (المهمات) وطوبجي (المدفعية) . أما الفرسان ، فكانت فرقة واحدة في البداية . وكانت هذه القوات المركزية تتقاضي مرتبات دورية وترتبط بالسلطان ارتباطاً شخصياً ، حيث كانت تصحبه أينما وجد .

أما جند الولايات ، فكانوا يتشكلون من جند " السواري " ويعرفون باسم "تيمارلي سباهي" أي سباهية التيمار ، وجند المشاة ، والمسلم والعزب وقوات الغزاة المهاجمين (آقينجيلر) الذين كانوا يتمركزون علي الحدود الغربية للدولة . وقوات البحرية في هذه المرحلة كانت عبارة عن البحارة التركمان وبعض فرق العزب ، حيث كان سباهية التيمار يشاركون في الخدمة في الأسطول العثماني في زمن الحرب .

أولاً – قوات مركز الدولة / الـ" قابو قولي " (الدركاه العالي) :

كان أورخان قد قام بوضع أساس أول تشكيل عسكري عامل في الإمارة العثمانية بتوصية من أخيه علاء الدين والقاضي جاندارلي قره خليل ، حيث تم اختيار عدد زاد مع زيادة الفتوحات من الشبان التركمان ، وتشكيل جماعتين منهم ، الأولي من المشاة ، وهم جند الـ "يايا" والثانية من الفرسان وهم جند الـ "سواري" (مسلم) .

وقد قامت هذه قوات العشائر التركمانية بتحقيق نجاحات عظيمة في زمن أورخان غازي وأوائل عصر مراد الأول . وعلي الرغم من تشكيل جماعات جديدة عرفت باسم "القابو قولي" منذ ذلك الحين ، إلا أن هذه القوات التركمانية استمرت تعمل في تشكيلاتها علي نفس النظام القديم حتي أواسط القرن ١٥م ، حيث راحت تستخدم بعد ذلك في خدمات الجيش كالنقل وسبك المعادن وانشاء القلاع وأعمال الترسانة البحرية وغيرها .

وعلي أثر اتساع الفتوحات في مناطق البلقان وسقوط عدد كبير من الأسري في يد القوات العثمانية وتزايد مقدار الخمس الذي يؤخذ من هؤلاء الأسري للحاكم في الوقت الذي زادت فيه حاجة الدولة لأعداد اضافية من الجنود ، اقترح جاندارلي خير الدين باشا ارسال هؤلاء الشبان من الأسري إلي العائلات التركمانية في الأناضول ليخضعوا للتربية الإسلامية ويتعلموا اللغة التركية ، ثم يتخذ منهم بعد عودتهم جند جديد " يكي چري " . وبالفعل بدأ تنفيذ هذه الفكرة من خمس الأسري القادرين علي الحرب، وتم تشكيل فرق " عجمي اوغلان" و " يكي چري " لأول مرة في زمن مراد الأول .

فرقة " عجمي أوغلان " : أسست هذه الفرقة لأول مرة بغرض تشكيل أوجاق الكيچري في منطقة غاليبولي . وكان الشبان الأسري يسجلون في هذه الفرقة بعد عودتهم من الأناضول ، حيث كانوا يقيمون هناك لفترة حتي يتعلمون العادات والتقاليد الإسلامية واللغة التركية . وكانوا يتقاضون يومية مقدارها أقچه واحدة . وبعد خدمتهم في هذه الفرقة (اوجاق) لفترة كانوا يرسلون إلي أوجاق (فرقة) الكيچري ، حيث كانوا يتقاضى كل منهم ٢ أقچه يومياً .

وكانت فرقة أبناء العجم (عجمي أوغلان) هذه تنقسم إلي ثمان بلوكات ، حيث كان هؤلاء يعرفون أيضاً باسم " پنچيك اوغلاني " (أبناء الخُمس) نظراً لأن هذه الفرقة كانت تشكل من خمس الأسري المقررين كضريبة للدولة .

وعقب موقعة أنقرة ، ونتيجة لتوقف الفتوحات العثمانية والصراع الـــداخلي علي العرش ، لم تقع معارك يمكن للدولة من خلالها وقوع القدر اللازم من الأسري لبقاء فعالية فرقة عجمي أوغلان . ولذلك شُرع في الحصول علي أطفال النصاري بمقـــادير معينة من الرعايا في منطقة الروميلي بموجب قانون عرف باسم " ديوشيرمه " . وبعـــد تنشأة هؤلاء الغلمان ، كانوا يرسلون إلي قري الأناضول للخدمة هناك لفترة ، حيـــث يسجلون عند عودتهم أيضاً في فرقة عجمي أوغلان . وكان ذوي المميـــزات الخاصـــة والملكات الفطرية من هؤلاء الديوشيرمة يرسلون للسراي العثماني ، حيث كان هـــؤلاء يخضعون لنشأة خاصة في القصور السلطانية الخارجية ، ثم يرسلون إلي السراي السلطاني بعد ذلك . وكان بقية الذين يتخرجون من هذه الفرقة يتوجهون بعد ذلك إلي اوجاق الكيچري وأوجاق الجبه (المهمات) واوجاق الطوپجي (المدفعية) والترسخانه[٣٨٧] .

اوجاق الكيچري/ الإنكشارية : وهم فرقة المشـــاة الخاصـــة بالســـلطان العثماني، شكلت في عام ١٣٦٣م . وكان هذا الأوجاق يأخذ أفراده من اوجاق عجمي أوغلان ، حيث كان يوزع عليهم مرتبات دورية وفقاً لكفائة كل منهم ولأقدميتـــه . وكان أوجاق الكيجري أعلي فرق القابوقولي مكانة ونفوذاً في مركز الدولة ، وكـــانوا يلتفون حول السلطان وقت الحرب . وقد انقسم اوجاق الكيجري إلي بلوكين في عام ١٤٥١م . وكان لكل بلوك معسكرات خاصة يقيم فيها يعرف باســـم " أورطـــه " ، حيث كان يرأس البلوك " چوربه جي " أو " بلوكباشي ".

وكان أغا اليكيجري أكبر قائد لفرقة الكيجري ، حيث كـــان يـــأتي بعـــده "سكبان باشي" . كما كان هناك ضباط آخرين في هذه الفرقة منهم كتخدا الأوجـــاق وباش چاوش ومحضر أغا وغيرهم . كما كان كاتب اوجـــاق الكيجـــري أو أفنـــدي الكيجري من أعظم أفراد هذه الفرقة مكانة بعد أغا الكيجري وسكبان باشي ، حيث كان يرأس هيئة من أرباب القلم لمعاونته للنظر في شئون الأوجاق وبالخاصة المتعلفة منها

---

387 بخصوص نظام الديوشيرمه ، انظر : Nejat Göyünç, “Kuruluş Devrinde Askerî Teşkilât ve Devşirme Düzeni”, Osmanlı, c.VI/558-560

بالمرتبات الدورية للفرقة ، وكان الوزير الأعظم شخصياً يقوم بتعيينة وعزله . وكـــان أفراد فرقة اليكيجري يتقاضون مرتباتهم مرة كل ثلاثة شهور في ديوان يعرف باسم "غلبه ديواني" .

وقد تعددت وظائف جند اليكيجري بين المهام الإدارية والعسكرية والأمنية ، حيث كان قسم منهم يقفون لحماية الديوان أثناء اجتماعاته بطريق المناوبة . وعقـــب انتهاء أعمال الديوان ، كانوا يعودون إلي ثكناتهم ثانية . أما عندما يخرج الســـلطان إلي احدي الحملات فكانوا يخرجون معه ، بحيث لا يترك في المعسكرات ســـوي المســـنين منهم. وفي حالة عدم خروج السلطان إلي الحملة كانت فرق اليكيجري تخرج تحت قيادة أكبر ضباط الأوجاق ، وذلك لأن آغا اليكيجري كان لا يخرج إلا بصحبة الســـلطان نفسه . وكانت هذه الفرقة تأخذ موقعها في موضع القلب من الجيش العثماني عن يمين ويسار السلطان ومن حوله ، حيث كان يصطف أمامهم فرق المدفعية ، وأمام المدفعية كانت فرق العزب الخفيف تأخذ موقعها في مقدمة الجيش .

وكان أغا اليكيجري هو القائد الأعلي للأوجاق ، وهو المسئول عـــن كافـــة شئون الفرقة أمام السلطان . فكان يعقد ديوان تحت رئاسته يعرف باسم " أغا ديواني " يدير من خلاله شئون الفرقة ، وذلك بالإشتراك مع أغوات الفرق الأخري في الجيش ، فكان يناقش فيه كافة الأمور المتعلقة بالأوجاق ، وكان أفندي اليكيجري أو كاتـــب الأوجاق أحد أعضاء هذا الديوان الرئيسيين . وكان أغا اليكيجري يرقـــي إلي مرتبـــة سواري القابوقولي أو يرقي كسباهية تيمار . أما جندي اليكيجري فيرقي إلي ســـواري القابو قولي أو سباهية تيمار . وقد وصل عدد أفراد فرقة اليكيجري حتي نهايـــة عصـــر القانوني إلي حوالي ١٢٠٠٠ فرد ، ولم يزد عن هذا القدر خلال مرحلة إزدهار الدولة.

اوجاق جبه جي / الصمات : وتعني كلمة " جبه " الدرع وما يلزم الجندي في ساحات القتال . وقد حمل هذا الاسم لدي العثمانيين معني اصطلاحي ، حيث اطلق علي فرقة " جبه جي " التي تقوم بأعمال صناعة وصيانة آلات السلاح وكافة احتياجات جند اليني چري كالأقواس والسهام والدروع والسيوف والبنادق والـــبلط والبـــارود

والرصاص وغيرها . وكان جند هذه الفرقة يقومون بنقل لوازم الحرب اللازمة لجنـــود اليكي چري بالحمال والعربات ، حيث يوزعونها علي الجنود في جبهات القتـــال ، ثم يقومون بجمعها بعد الحرب ، واصلاح ما يحتاج إلي اصلاح ، ومن ثم يحفظ بها في مخازن الأسلحة .

وكان جنود هذه الفرقة أيضاً يأتون من فرقة " عجمي أوغلان " . قد قسم هذا الأوجاق إلي بلوكات متعددة يعرف كل منها باسم " اورطه " . وكان أكبر ضابط في اوجاق الجبه جي ، هو " جبه جي باشي " ، حيث يأتي بعده كتخدا الأوجاق . وكان لكل أورطه ضابط يعرف باسم " بلكباشي " .

اوجاق الـ " طوبجي " / المدفعية : كان هذا الأوجاق قد اســتحدث لسبك المدافع وصناعة قذائفها والعمل عليها . ويعد هذا الأوجاق احــدى أوجاقــات مشاة القابوقولي . وكان العثمانيون قد استخدموا المدافع لأول مرة في الجيش العثماني في معركة قوص أووا عام ١٣٨٩م. وقد انقسمت هذه الفرقة إلي بلوكات بعضها يقــوم بسبك المدافع وبعضها الآخر تقوم بالعمل عليها . ولم تكن المدافع تُسبك في المصــانع الموجودة بمركز الدولة ، حيث كانت الضرورة تقتضي في أحيان كثيرة سبك هذه المدافع أمام القلاع أثناء حصارها ، وذلك كما حدث في حملات المورة والأرناؤوط في عهــد مراد الثاني وأثناء فتح استانبول .

وكان الجنود المنتسبين لهذه الفرقة يأتون أيضاً من أوجاق أبناء العجم . أما أكبر ضباط أوجاق الطوبجي فهو " طوبچي باشي " . وكان أفراد بلوكات هــذه الفرقــة يصطفون وقت الحرب أمام جند الييي چري ، حيث كانوا يقومــون بحمايتــهم مــن هجمات الأعداء بالمدافع التي كانت تأخذ موقعها من المقدمة . أما في وقت السلم فكان جند المدفعية يقومون بمهام خاصة لحماية قلاع استانبول أو قــلاع الدولــة المختلفــة وبالخاصة في المناطق الحدودية ، وذلك بطريق المناوبة . وفي أواخر القرن ١٥م/٩هــــ تفرع من هذه الفرقة فرقة أخري ، عرفت باسم " اوجاق سائقي عربات المــدافع " ،

وكان العرض من انشائها هو سد العجز في تحمل أعباء نقل المدافع الضخمة في ميادين القتال .

أوجاق سواري القابوقولي : وإذا كان أوجاق الييني جري (يكيچـــري) الذي يمثل مشاة فرق القابوقولي قد حاز علي اهتمام عظيم من الدولة ، فقد كان نصيب فرسان فرق القابوقولي من هذا الاهتمام منقطع النظير . ولذلك راحت أوجاقات الـــيني جري والسواري تحقق انجازات مبهرة علي مدي قرنين ونصف من الزمان خلال مرحلتي تأسيس الدولة وازدهارها .

وكان جند السواري يصلون إلي هذا الأوحاق بعد ترقيتهم من قســـم خــدم السراي الداخلي والخارجي ، أو من أوجاق الييني جري أيضاً . وكان الوزير تيمورطاش باشا كان قد اقترح تشكيل هذا الأوجاق في عصر مراد الأول ، حيث قسم في البدايــة إلي بلوكين أساسيين : بلوك سپاه وبلوك سلاحدار . وبعد ذلك ارتفع عدد بلوكــات هذا الأوجاق إلي ستة بلوكات ، وذلك باضافة أربعة بلوكات جديدة هي : علوفه جيان يمين وعلوفه جيان يسار ، وغرباء يمين وغرباء يسار . وكان أوجاق السواري يــرتبط بشخص السلطان نفسه كارتباط فرق الييني جري تماماً ، إلا أنهم كانوا أعلـــي درجـــة ومرتبة من فرقة الييني جري التي كانت أكثر نفوذاً في الدولة .

واعتباراً من أواسط القرن ١٥م أصبح بلوك السپاه أعظم سواري القابو قـــولي مقاماً ، حيث كان يؤخذ أبناء رجال الدولة إلي هذا البلوك في المرحلة الأولي من تشكيل الدولة العثمانية . وقد انقسم هذا البلوك بمرور الوقت إلي ثلاثمائة بلوك ، وكان عـــدد أفراد كل بلوك يتراوح مابين٢٠-٣٠ سواري، وكان يطلق عليه اسم "قيرمزي بايراق". وبعد ذلك استحدث بولك السلاحدار أو ماعرف أيضاً باسم " صـــاري بـــايراق " . وكان بلوك السلاحدار يتقدم في المرتبة علي بلوك السپاه حتي عصر محمد الفاتح ، إلا أن دخول أبناء رجال الدولة إلي بلوك السپاه منذ ذلك الحين رفع مقام هذا البلوك فـــوق بلوك السلحدارية الذي انقسم بدوره إلي ٢٠٠بلوك بالتدريج. وكان بلوك السپاه أكثر

بلوكات السواري يومية ، حيث كانت كافة المرتبات اليومية لكافة البلوكات الأخري أقل منه ، وذلك بحسب درجة كل منها .

وكان جند أوجاق سواري القابوقولي يخرج إلي الحملات الحربية مع السلطان ، حيث كانوا يحيطون به عن اليمين واليسار ، فيسير السپاه عن اليمين ، أما السلاحدارية فيسيرون عن اليسار . وكان جند هذين البلوكين يقومون في الحرب بحماية معسكر السلطان ، أما البلوكات الأخري فكانت تقوم علي حماية سناجق السلطنة سواء وقت الحرب أو في المعسكرات وحماية أحمال الجيش ومؤنه وخزائنه . وكان أفراد أوجاق سواري القابوقولي يقيمون في مناطق مراع خضراء لا تبعد عن مركز السلطنة كثيراً ، وذلك لرعي حيواناهم . أما أسلحتهم فكانت عبارة عن السهام والأقواس والقلقان والدروع والحراب والبلط والخناجر والسيوف القصيرة وغيرها .

وكان لكل بلوك من بلوكات سواري القابوقولي أغا مستقل ، فكان سپاه أغاسي وسلاحدار أغاسي أعلاهم مرتبة ، وكان لكل بلوك رئيس يعرف باسم "بلوكباشي"، كما كان هناك ضباط آخرون في تلك البلوكات مثل الـ "كتخدا"[٣٨٨].

ثانياً - قواته الأيالاته / طشره قوتلري :

وتمثل هذه القوات القوة الدافعة الأساسية في الجيش العثماني . تحتوى هذه القوات علي عنصر أساسي يتمثل في قوات سواي التيمار ، وعناصر مساعدة تختلف باختلاف نوع الولاية وطبيعتها الإدارية الجغرافية والعرفية . وأغلب هذه القوات لا تتقاضي مرتبات من خزينة الدولة ، إلا أن بعضها يشبه كثيراً قوات المركز من حيث نظمها الإدارية والمالية . والرئيس الأعلي لهذه القوات هو أمير الأمراء في كل ولاية .

---

[388] فيما يتعلق بتفصيلات أكثر حول جند الباب السلطاني الذي يطلق عليه اسم " قابو قولي " ، أنظر: Uzunçarşılı, Osmanlı Devleti Teşkilâtından Kapukulu Ocakları, I-II, Ankara 1984; keza bk. Özcan Abdulkadır, "Osmanlı Devleti'nin Askerî Yapısı", Türkler, X/107-114; Irına Ye. Petrosyan, "Osmanlı Devleti'nin Kuruluşu ve Yeniçerilerin Kökeni", Türkler, X/129-135

قوات سواري التيمار : تعتبر تشكيلات سواري التيمار هي أقوي حجر أساس للدولة العثمانية ، حيث كان لها الدور الرائد والخدمات جليلة في اتساع الدولة والوصول بها إلي مقام الإمبراطوريات العظمي في العالم . وتقوم تشكيلات سواري التيمار علي نظام اقطاعي عرف في التاريخ العثماني باسم " نظام التيمار " . والحقيقة أننا شاهدنا مثل هذا النظام لدي الدول الإسلامية والتركية قبل العثمانيين . وقد وصلت الدولة العثمانية بهذا النظام إلي درجة الكمال بتطبيقه في الفتوحات التي قامت بها والمناطق التي ضمتها في الشرق والغرب . فوفقاً لهذا النظام كانت الدولة تقوم بالتنازل عن العشور والرسوم التي كانت تحصّل من الأهالي في تلك المناطق المفتوحة وتركها لسباهية التيمار أو السواري مقابل خدماتهم العسكرية لدي الدولة .

وكانت مقاطعات التيمار هذه التي توجه إلي أمراء الدولة علي مختلف درجاتهم تنقسم إلي ثلاثة أقسام وفقاً للعشور والرسوم التي كانت تحصل منها . فكان " التيمار " يبدأ عشوره بألف أقچه ويصل إلي ١٩٩٩٩ أقچه . أما المقاطعة التي يبدأ خراجها من ٢٠ ألف أقچه ويصل إلي ١٠٠ ألف أقچه فيطلق عليها اسم " زعامت " ، والمقاطعة التي يزيد خراجها عن ذلك القدر فتعرف باسم " خاص " .

وكان هذه الرسوم والعشور السنوية التي كانت تحدد بمعرفة الدولة وتخصص سواء لسباهية التيمار أو لأصحاب المقاطعات من الأمراء ورجال الدولة ، لا تحول إلي خزينة الدولة ، وانما كانت تترك لأصحاب المقاطعات ، حيث كان هؤلاء يقومون بتحصيل تلك العشور الرسوم المتروكة لهم بالذات أو بواسطة وسيط مقابل قيامهم ببعض الوظائف العسكرية في الدولة وخروجهم إلي الحملات مع جندي سواري يطلق عليه اسم " جبه لي " أو عدة جنود مدربين ومجهزين بالأسلحة والزخائر ، وذلك وفقاً لحجم التيمار الموجه إليه . وقد حدد القانون أعداد جنود الـ " الجبه لي " التي يكلف كل سباهية تيمار أو امير بتجهيزهم للحرب وفقاً لمساحة مقاطعاتهم وخراج كل منها ، حيث كانت كافة مصاريف الجبه لي يؤديها صاحب المقاطعة . وكانت تسحب المقاطعة من السباهية الذي لا يخرج للحملات العسكرية دون عذر مقبول ، كما كانت تجري

علاوات علي من يقوم بالمهام الموكلة إليه . وكان علي السباهية أو صاحب الأرض أن يقيم في المنطقة الخاصة به . وعندما كان يتوفي صاحب التيمار ، كان يحول جزء من أراضي التيمار إلي إبنه الذكر ، وإلا يتم تعيين أكبر ضباط التيمار علي المقاطعة المنحلة .

وكان سباهية التيمار ينقسمون إلي عدة بلوكات في كل سنجق . وكان لكل بلوك رؤساء للعسكر يعرف كل منهم باسم " صوباشي " ، و" بايراقدار " و"حاوش" . وكان كل عشرة بلوكات تحت امرة " أميرألاي " . وكان أمراء الألاي هؤلاء يذهبون إلي الحملات عند وقوع حرب ما تحت إمرة أمراء السناجق الموجودين ضمن مناطقهم . وكان هؤلاء أيضاً يخرجون تحت قيادة أبناء السلاطين أو أمراء الأمراء . وفي أثناء الحملة كان عشر السباهية يقومون بالمناوبة في البلاد سواء لحماية مناطقهم وتأمين الاستقرار والأمن فيها أو تسوية وإتمام شئون اخوانهم الذين خروجوا إلي الحملات ، كما كانوا يقومون بمباشرة شئون أراضيهم .

وقد ضعف هذا الجيش منذ الربع الأخير من القرن ١٦م/١٠هـ ، وذلك عقب زيادة الحاجة لجند المشاة لحروبها في المجر ، وتحويل الكثير من مقاطعات التيمار إلي ملك خاص ، واشتعال حركات العصيان في مختلف مقاطعات الأناضول ، الأمر الذي أحدث اضطراباً عاماً في نظام التيمار ، ومن ثم في جيش التيمار .

جند العزبه : وهم جنود المشاة الخفيف في الجيش العثماني . وكانوا يختارون من الشباب التركماني الأعزب في مختلف مناطق الأناضول وممن كانت لديهم قوة وكفاءات قتالية مميزة . وكانت مصاريف هؤلاء تلقي علي عاتق المناطق التي جمعوا منها. أما أسلحتهم فكانت عبارة عن السهام والأقواس والسيوف العربضة . وكان يؤخذ جندي عزب واحد من بين عشرين أو ثلاثين مترل طبقاً لإحتياجات الدولة . وكان هؤلاء يقدر أعدادهم بنحو ١٥- ٢٠ ألف عزب تقريباً .

وكانت هذه الفرقة تتخذ موقعها في ميدان القتال أمام جيش المركز ، حيث كانوا يتعرضون للهجوم الأول ، وخلف هؤلاء كانت المدافع تتخذ مواقعها ، وخلف

المدافع كان جند الييي جري يحيطون بالسلطان في قلب الجيش . وعند بداية المعركة كان جند العزب هؤلاء يفتحون صفوفهم يميناً ويساراً ، حيث يتيحون لفرق المدفعية فـتح نيرانها علي العدو . وقد استحدثت بعد ذلك فرق عزب أخري للقيام بمهـام أمنيـة في قلاع الدولة وفي عرض البحار . وقد بلغ عـدد بلوكـات العـزب خـلال القـرن ١٦م/١٠هـ حوالي ٩٢ بلوك ، في كل بلوك حوالي ٧-٨ أفراد . وكانت هذه الفرقة يختلف مواقع عملها في كل ولاية بحسب طبيعة الولاية .

أقينجيلر / المهاجمون / الغزاة : وهم قوات من الفرسان الخفيـف ، تم تشكيلهم من الشبان التركمان أيضاً . وتحتل هذه الفرق مواقعها علي حـدود الدولـة بصفة دائمة . وكانت هذه القوات تقوم في البداية بالهجمات علي أراضي الأعـداء ، حيث كانوا يحصلون من الأسري الذين يقعون في أيديهم علي معلومات خاصة بلادهم. وكانت أهم الوظائف الموكلة إلي فرقة المهاجمين هذه ، استكشاف منـاطق العمليـات وكشفها للجيش العثماني ، وفتح الطريق للجيش بعد عملية كشف أراضي الأعـداء ، والحيلولة دون تشكيل واقامة العدو كمائن في طريق الجيش ، والمحافظة علي المحصولات الموجودة في الأماكن التي سيمر بها الجيش حتي لا يقوم العدو بتخريبها ، وأسر الأسري للحصول علي المعلومات اللازمة عن العدو ، واقامة الكباري والجسور بعد تعيين ممرات الأنهار . ولذلك ، كانت فرق المهاجمين تتقدم عن القسم الأعظم من الجيش بأربعـة أو خمسة أيام . وكان لهذه الفرق تأثير معنوي علي أهالي المناطق التي يُعد لفتحها ، نظـراً للدور الذي كانوا يقومون به في تمهيد معنويات أهالي المناطق الأصليين لإستقبال الجيوش العثمانية .

وكان الغزاة المهاجمون يأخذون مواقعهم في أماكن مختلفة من حدود الدولـة. وكانت كل مجموعة منهم تقع تحت قيادة " آقينجي " ، وكل ألف فرد تحـت قيـادة "بكباشي" وكل مائة تحت قيادة " يوزباشي " ، وكل عشرة تحت قيادة " أون باشي " ؛ وكان يقود كل هؤلاء رئيس أعلي هو " آقينجي قوماندانى " أو " آقينجي بكـي " أو "آقينجي سنجق بكي" . وكانت جماعات المهاجمين هذه تتمركز في مناطق الروميلـي

المختلفة علي شكل أوجاقات مستقلة ، وكان كل أوجاق يعرف باسم قائده ، حيث اشتهر من هؤلاء اسم أورانوس بك ، وميخال اوغللري ، وطوراخان بك وغيرهم . وقد لعبت هذه الفرق دور عظيم في الفتوحات العثمانية في البلقان ووسط أوروبا حتي أواخر القرن ١٦ .

وعلاوة علي هذه الفرقة ، كان هناك فرقة أخري تشبهها في الوظائف الموكلة إليها ، هي فرقة " دليلر " . وهي كانت تتشكل من الفرسان الخفيف ، يشتهر أفرادها الذين يعينون من التركمان بالشجاعة منقطعة النظير ، وكانوا يقومون بالمهام الموكلة إليهم تحت قيادة امراء الأمراء وأمراء السناجق التابعين لهم . وتعتبر هذه الفرقة من قوات الحدود التي ظهرت في أوائل القرن ١٦م/١٠هـ[٣٨٩] .

ثالثاً – القوات البحرية العثمانية :

لقد بدأ النشاط البحري العثماني عقب ضم نواحي إزميت وإمارة قراسي خلال عصر أورخان غازي ، حيث استفاد العثمانيون من سفن إمارة قراسي التي كانت تمتلك اسطولاً متكاملاً . وبعد عبور العثمانيين إلي الروميلي ، وفي أواخر القرن ١٤م/٨هـ ، وبعد أن تمكنوا من ضم إمارات صاروخان وأيدين ومنتشه البحرية ومصادرة العثمانيين لأساطيلها ، وراحوا ينشئون أول ترسانة لهم في خليج شبه جزيرة غاليبولي ، أصبح للدولة العثمانية اسطولاً بحرياً . ولكن هذا الأسطول الناشئ لم يكن يقارن باساطيل البندقية القوية بحال . إلا أنه بعد العديد من التجارب البحرية القاسية مع البنادقة ، بدأت البحرية العثمانية تكتسب الخبر والدارية تدريجياً . وهكذا ، استطاع الأسطول العثماني يمثل تهديداً فعلياً لأمبراطورية طرابزون علي البحر الأسود في عهد مراد الثاني ، حتي

---

[389] فيما يتعلق بقوات الولايات ، أنظر: Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/566-575; keza bk. Özcan Abdulkadır, " Osmanlı Devleti'nin Askerî Yapısı", Türkler , X/114-117; Seyyid Muhammed Es-Seyyid, "Osmanlı Askeriyesinde ve Askerî Tarihinde Mısır'ın Yeri", Türkler, X/159-171

وصل عدد القطع البحرية التي شاركت في محاصرة القسطنطينية في عهد محمد الفاتح نحو ثلاثمائة قطعة من مختلف الأحجام .

ومهما يكن من أمر ، فإن الأسطول العثماني خلال عهد الفاتح تمكن من اكتساب الخبرة باحتكاكه المستمر بالبنادقة ، حيث بدأت البحرية العثمانية تشهد مرحلة جديدة في عهد بايزيد الثاني علي أثر رغبة الدولة في أداء واجبها في انقاذ مسلمي الأندلس . وخلال عهد سليم الأول ، وعلي اثر ضم أملاك المماليك في الشام ومصر ، حرص السلطان العثماني علي إعداد الأساطيل القوية لمواجهة تعديات البرتغال في البحر الأحمر والأسبان في البحر المتوسط . غير أن سليمان القانوني ، استطاع خلال عهدة من السيطرة علي البحار المتوسط والأحمر والأسود سيطرة مطلقة بتشكيل قبطانية البحر تحت قيادة بربروس خير الدين باشا لأول مرة عام ١٥٣٤م/٩٤١هـ ، حيث انشأت ترسانات جديدة في البحر المتوسط وبحر مرمرة وخليج السويس .

والحقيقة أن العثمانيون لم يعانوا من صعوبات تتعلق بتوفير لوازم بناء السفن . وكان الأسطول العثماني يعتمد علي السفن نصف الشراعية المعروفة باسم " قادرغه " ، وكان هذا النوع أكثر أنواع السفن الحربية ضخامة في هذه الفترة . وكان يعمل علي كل سفينة قادرغة نحو مائة محارب علاوة علي عمال الشراع وغيرهم ، بحيث كان مجموعهم يبلغ ٣٠٠فرد . كما كان هناك أنواع أخري من السفن الأكبر حجماً كسفن الماونه ، بحيث كان بمجدافها الواحد يحركة سبعة رجال ، وتحمل ٢٥٠ محارب و٢٤ مدفع . وكان القبطان باشا يستعمل سفينة أكبر من ذلك بكثير تعرف باسم "باشطارده" تحمل علي ظهرها نحو ٨٠٠ رجل علاوة علي المدافع وجنود المدفعية . وكان العثمانيون يعتمدون خلال هذه المرحلة علي جند اللوند والعزب والبحارة التركمان في إدارة شئون الأسطول ، كما كانت بقية الفرق العسكرية تشارك في المعارك البحرية التي تخوضها الدولة[390] .

---

[390] فيما يتعلق بتطور تشكيلات الدولة العثمانية البحرية ، أنظر : Uzunçarşılı, Merkez ve Bahriye Teşkilâtı, s.389-340; keza bk. Gencer Ali İhsan,

وهكذا ، يكون السلاطين العثمانيين قد نجحوا في تأسيس دولتهم والدفع بها إلي الرقي والإزدهار بمساعدة تشكيلات إدارية ومالية وقضائية وعسكرية فذة وعديدة ومن خلال مؤسسات كانت الأكثر تطوراً ونظاماً ودقة خلال مرحلتي التأسيس والإزدهار . وكان يقف خلف هذا الصرح العظيم قاعدة دينية وعلمية واجتماعية ، كان لها أبلغ الأثر في تحقيق حالة من الإستقرار والرقي في المجتمع العثماني علي اختلاف أجناسه وأديانه ولغاته ، واتساع جغرافيته ، وقوة التحديات التي واجهها خلال مرحلتي التأسيس والإزدهار .

"Osmanlı Türklerinde Denizcilik", Türkler, c.X/569-589; İdris Bostan, "Beylikten İmparatorluğa Osmanlı Denizciliği", Osmanlı, c.VI./122-128 ، كذا بخصوص الجيش العثماني في عصر الإزهار ، أنظر : Cemalettin Taşkıran, "Yükselme Döneminde Osmanlı Ordusu", Osmanlı, c.VI./561-568



المؤسسات العلمية في الدولة العثمانية

لم تكن الأراضي العثمانية بعيدة عن التأثير الحضاري الإسلامي ومؤسساته العلمية والإجتماعية وحركته الفكرية بحال . فقد كانت إمارة آل عثمان جزء لا يتجزأ من أراضي الدولة السلجوقية السنية ، حيث ورثت هذا الموروث الحضاري للدول الإسلامية السابقة عليها . ولما كانت المؤسسات العلمية في مصر وسوريا وإيران ووسط أسيا خلال القرنين ١٤-١٥م/ ٨-٩هـ أكثر رقياً وازدهاراً من مدارس الأناضول ، فقد كان طلبة العلم في مناطق الأناضول يتوجهون إلي تلك البلدان للتخصص في العلوم المختلفة . ونذكر من هؤلاء داوود القيصري الذي تلقي تعليمه في القاهرة ، ومحسن القيصري في الشام وقارا خواجه علاء الدين في إيران ، وقاضي زادهء رومي موسي في خرسان وما وراء النهر ، وفناري محمد حمزه وصماونه لي بدر الدين محمود في القاهرة ، وعلاء الدين الرومي في سمرقند .. وغيرهم .

والحقيقة أن منطقة الأناضول والإمارات التركمانية بها زخرت بالكثير من العلماء والأدباء الذين ساهموا في ظهور معالم اللغة التركية العثمانية خلال القرن ١٤م . وعلي أثر ظهور الخطر التيموري في شرق ووسط الأناضول في مطلع القرن ١٥م/٩هـ، فرّ الكثير من علماء ومشايخ الإمارات التركمانية المختلفة إلي الطرف الأوروبي ، حيث راح سليمان چلبي الذي كان قد أعلن سلطنته في أدرنه يستقبل هؤلاء العلماء ويعين لهم الرواتب الدورية ، مما نشّط الحركة الأدبية والثقافية في الدولة خلال هذه المرحلة .

وعقب فتح استانبول عام ١٤٥٣م/٨٥٧هـ ، حرص السلطان محمد الفاتح علي جعل هذه المدينة الإستراتيجية تأخذ مكانها اللائق كواحدة من المراكز الثقافية الهامة في العالم الإسلامي . وهكذا ، راحت حركة النشاط العلمي والثقافي تعلن عن نفسها خلال عهد الفاتح بعد أن عاد الدارسون والعلماء من كافة أنحاء العالم الإسلامي ليتخذوا من عاصمة الإسلام في اسلامبول مركزاً لهم . ومن بين هؤلاء العلماء الذين عادوا للأراضي العثمانية الشيخ محمد الجذري والشيخ أحمد الجذري ، وإبن عربشاه ،

وهيئتجي عبد الواحد ، وفخر الدين العجمي ، وفتح الله الرياضي . وقد راح يتزايد نزوح العلماء إلي الأراضي العثمانية في النصف الأول من القرن ١٦م/١٠هـ . وبعد تأسيس الدولة الصفوية في إيران عام ١٥٠٢م/٩٠٨هـ راح الكثير من علماء وصناع إيران المهرة يهاجرون إلي الدولة العثمانية هرباً من الدولة الشيعية . وعلي أثر ضم أملاك دولة المماليك في الشام ومصر والعراق بما فيها مركز الخلافة الأموية والخلافة الفاطمية والخلافة العباسية ، وأصبحت استانبول حاضرة الخلافة الإسلامية ، صارت ملاذ كل ملهوف وملجأ كل مظلوم ومأوى كل طالب حكم ومال ، ومقر العلماء والفقهاء في العالم الإسلامي .

لم يكتف العثمانيون بضم الحواضر والمراكز الإسلامية ، وفتح الممالك الأوروبية فحسب ، بل حرصوا علي نقل العشائر التركمانية والراغبين من العلماء والفقهاء وأرباب الطرق الصوفية من الأناضول إلي المناطق التي فتحت حديثاً وفقاً لبرنامج محدد ، حيث تمكن هؤلاء من اكساب تلك المناطق المفتوحة الطابع الإسلامي التركي بوضع الأساس فيها للمؤسسات العلمية والإجتماعية المختلفة .

المؤسسات العلمية في الدولة العثمانية : لقد اهتم أورخان غازي الذي وضع الأساس الأول للدولة العثمانية بوضع النواة الأولي للمؤسسات العلمية والاجتماعية اهتمامه بالمؤسسات الإدارية والعسكرية والقضائية المختلفة في الدولة . فخطي الخطوة الأولي في هذا الخصوص باقامته مدرسة بجوار العمارة والجامع الكبير الذي أمر ببنائه في إزنيق . وقد أقيمت هذه المدرسة في عام ١٣٣١م/٧٣١هـ أي عقب فتح المدينة التي اتخذها مركزاً له ، حيث عين عليها داود القيصري بيومية قدرها ٣٠ أقچه . وبعد مدرسة إزنيق ، أسست مدرسة أخري في بورصة عام ١٣٣٥م/٧٣٥هـ ، وذلك بعد أن حولت كنيسة بورصة الكبيرة إلي جامع ، وأقيم حولها حجرات للطلاب ، وأوقف عليها الأوقاف .

وخلال عهود مراد الأول وييلدرم بايزيد ومحمد جلبي ثم مراد الثاني ، شهدت الحركة العلمية في الدولة ازدهاراً تدريجياً ، حيث راح كل سلطان يقيم مؤسسات علمية

في كل الأراضي المفتوحة ، وأخذ رجال الدولة وامرائها يقلدون السلاطين في ذلـــك ، حيث كانت هذه المؤسسات التعليمية عاملاً هاماً لإنتشار الثقافة الإسلامية في منـــاطق الروميلي خلال فترة قصيرة . ومن ناحية أخري ، فقد حافظ العثمانيون علي المؤسسات التي كانت الإمارات التركمانية قد أقامتها من قبل ، فأوقفت علي الأوقـــاف ، وعـــين عليها العلماء . وخلال النصف الأول من القرن ١٥م/٩هـــ ، أصبحت أدرنة مركـــزاً حصيناً للدولة العثمانية ، حيث حلّت مدارسها محل مدارس بورصة ، حيث قام مـــراد الثاني اقام فيها المدارس ودار الحديث والجوامع والعمارات والمعلمخانـــة والمســـافرخانه والمولويخانه . وقد استمرت مدارس أدرنة تحافظ علي مكانتها المتصدرة بـــين مـــدارس الدولة حتي افتتاح مدارس "صحن ثمان" في استانبول خلال عهد محمد الفـــاتح . وقـــد قسمت هذه المدارس إلي مدارس عالية ومدارس متوسطة ومدارس ابتدائية . وكانـــت المواد الدراسية في هذه المدارس تنحصر في العلوم الدينية والفلسفية والرياضية والأدبية .

وخلال عهد سليمان القانوني ، وعلي أثر شعور الدولة بالحاجة لتدريس العلوم الرياضية الطبية ، أقام السلطان أربع مدارس لتدريس علوم الرياضيات ، وذلك عـــلاوة علي مدرسة دار الحديث ومدرسة الطب ، حيث أطلق عليها جميعـــاً اســـم "مـــدارس السليمانية " عام ١٥٥٦م/ ٩٦٣هـــ في حجرات جامع السليمانية .

وقد قسمت هذه المدارس لعدة أقسام نظراً للدروس التي كانت تلقـــي بهـــا : مدارس التلويح ، ومدارس المفتاح ، ومدارس حاشية التجريـــد ، ومـــدارس الـــداخل والخارج ، وذلك علاوة علي مدارس الصبيان التي كانت تقوم بتعليم مبـــادئ القـــراءة والكتابة والنحو والصرف للصبية الصغار .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان الغرض الأساسي من تأسيس مثل هذه المدارس خلال مرحلة تأسيس الدولة العثمانية ، هو توفير فئة من الإداريين المهرة من ناحية ، وفئة أخري من المدرسين الذين يمكنهم أن يضطلعوا بالعملية التعليمية مستقبلاً ، وفئة ثالثـــة لتخريج القضاة والحكام في الولايات المختلفة . والحقيقة أن هذه المـــدارس نجحـــت في القيام بهذه المهمة خلال هذه المرحلة .

تطور الأوضاع الأدبية في الدولة العثمانية خلال مرحلة التأسيس :

لقد أرتبطت الأوضاع الأدبية في الممالك العثمانية خلال هذه المرحلة بالأحوال التي كانت موجودة في الأناضول بصفة عامة خلال القرن ١٤م/٨هـ . فكما صادفنا اهتمام أمراء الأناضول باللغة التركية وتحويلها إلي لغة كتابة ، لعب العثمانيون منذ وقت مبكر دور هام لجعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية للدولة العثمانية ، فظهرت بوادر الآثار الأدبية نثراً وشعراً محررة باللغة التركية خلال هذه الفترة . فلما ضم العثمانيون الكثير من إمارات الأناضول ، انتقلت المؤسسات العلمية والاجتماعية التي كانت موجودة بهذا الإمارات إلي العثمانيين ، كما دخل العديد من العلماء والأدباء في تلك المناطق في خدمة السراي العثماني ، فلعبوا دوراً بارزاً في تطور اللغة التركية ونشاط الحركة الفكرية في تلك المناطق . وهكذا ، يكون العثمانيون قد حرصوا علي توحيد التيار الثقافي والأدبي في الأناضول كما سعوا علي توحيد الأناضول سياسياً من قبل ، لتكون القوة الدافعة لنقل الثقافة الإسلامية – التركية إلي المناطق المفتوحة شرقي أوروبا .

الحركة الصوفية في الأناضول : لقد عاشت طرق الآخيان والبابائية والمولوية في الأناضول أزهي عصورها في الأناضول خلال مرحلة تأسيس الدولة العثمانية، حتي أننا نصادف التأثير الواضح لهذه الطرق الصوفية علي كافة إمارات الأناضول التركمانية دون استثناء . فقد نشت طريقة الآخيان والبابائية (الآلب) في المحيط العثماني منذ البداية ، حيث أصبح لها نفوذ كبير في مختلف أنحاء الممالك العثمانية . وهكذا ، وجدنا العديد من الآثار الصوفية المنظومة والمنثورة تنتشر في الأناضول بغرض الدعوة إلي مثل هذه الطرق فشاهدنا دواوين عاشق باشا ويونس إمرة وسلطان ولد وغيرهم .

والحقيقة أن الإمارة العثمانية قد استفادت خلال مرحلة تشكيلها الأولي من نفوذ رؤساء طريقة الآخيان ، فمثلما كان الشيخ أدب عالي واحد من علماء هذه الطريقة ، كان القادة الغزاة آخي حيدر وآخي محمود رفاق عثمان غازي في الجهاد ، وجاندرلي قره خليل كانوا ينتمون لهذه الطريقة . وقد استمر نفوذ الآخيان علي إمارة

آل عثمان حتي النصف الأول من القرن ١٥م . ومن ناحية أخري ، كان للطريقة التي عرفت باسم ببائي تأثير عظيم في الأناضول أيضاً خلال القرن ١٤م ، حيث اهتمت الإمارة العثمانية بالغزاة المنتسبين لهذه الطريقة ، فكانت تقيم لهم الزوايا وتعين لهم الرواتب . وخلال عصر مراد الأول دخل المنتسبين لهذا الطريقة من الآلب إلي فرقة الييني چري التي كانت قد شكلت حديثاً . وقد انتشرت البابائية في مختلف مناطق الأناضول ، حيث شوهد لها أتباع كثيرون في ولايات سيواس وچوروم ويوزگات وإزمير وباليكسير وقونية ونواحيها .

حماية العلماء والمفكرين في الدولة العثمانية : لقد كانت حماية السلاطين العثمانيين للعلماء في الدولة ، سبباً لجذب الكثير من رجال الفكر والفن من مختلف المراكز الثقافية في العالم الإسلامي إلي مركز الدولة العثمانية . ومن ثم قام هؤلاء العلماء والفنانون بمساهمات عظيمة في تطور اللغة التركية من خلال ما كانوا يؤلفونه من آثار باسم الأمراء والسلاطين العثمانيين ، مما أدي إلي سرعة تقدم وازدهار الحياة الثقافية في الأناضول . فمثلما حرص سليمان باشا إبن أورخان ، ومراد الأول وييلدرم بايزيد وجاندارلي خليل خير الدين ، وإبنه علي باشا علي حماية وتشجيع العلماء في القرن ١٤م/ ٨هـ، كان لسليمان چلبي ومحمد چلبي ومراد الثاني وتيمورطاش باشا وأومور بك وغيرهم في القرن ١٥م/٩هـ ، دور بارز في الاهتمام بالعلماء وتعيين الرواتب الدورية والعينية لهم . فكان لهذه الحماية أثر ايجابي في حركة التأليف والترجمة بالتركية للعديد من الكتب والآثار في مختلف فروع العلم .

والحقيقة أن حماية العلماء في الدولة العثمانية ازداد باطراد مع ازدهار الدولة العثمانية خلال عهود محمد الفاتح وبايزيد الثاني وسليم الأول وسليمان القانوني ، حيث كان لذلك عظيم الأثر علي تطور الحركة العلمية في الدولة العثمانية مواكبة بذلك حركة الفتوح في الشرق والغرب والشمال والجنوب .



المؤسسات الإجتماعية لدى العثمانيين :

كما شاهدنا العثمانيين يقومون بتأسيس العديد من المؤسسات التعليمية في المناطق التي فتحت أو ضمت حديثاً إلي أراضيهم ، نصادف أن المؤسسات الاجتماعية قد شهدت رواجاً يوافق الاتساع المطرد في حدود الدولة . وقد تعددت هذه المؤسسات في الدولة العثمانية ، فشملت الجوامع والعمارات والمستشفيات ومنازل القوافل والكباري والخانات والحمامات وسواقي السبيل والزوايا وغيرها ، حيث أوقفت الأوقاف علي هذه المؤسسات لصيانتها والصرف عليها وعلي القائمين علي شئونها حتى تستمر تمارس خدماتها الاجتماعية بدون تقصير، كما كانت الدولة تخصص قسم من الضرائب التي يتم تحصيلها من الرعايا للمحافظة علي هذه المؤسسات حتى تستمر تلعب دورها المميز في المجتمع العثماني .

الجوامع : كانت الجوامع تأتي علي رأس المؤسسات الاجتماعية في الدولة ، حيث كان المسجد منذ صدر الإسلام يقوم بدوره كمسجد للعبادة ومنتدى لاجتماع المسلمين ينظرون فيه شئونهم ويأخذون فيه قراراتهم ويفصلون فيه في مشكلاتهم ، ويتلقون فيه تعليمهم . ولذلك لعب الجامع هذا الدور الرائد في الدولة العثمانية خلال مرحلة التأسيس . وعلي الرغم من ذلك ، فقد كانت الجوامع التي أنشأها أورخان غازي ومراد الأول وييلدرم بايزيد وچلبي محمد ومراد الثاني من الأمراء والسلاطين العثمانيين ، والموجودة في بورصة وأدرنه وإزنيق ، وذلك علاوة علي جوامع ياشيل جامع الذي أقامه جاندارلي خليل خير الدين والجامع الذي انشأه بايزيد باشا في أماسيا وغيرها من الجوامع الكثيرة التي أنشأها السلاطين والأمراء العثمانيين في مختلف أنحاء الدولة ، كانت تمثل نماذج معمارية فريدة وعالية القيمة.

وقد اتسع نشاط بناء الجوامع والمساجد خلال مرحلة ازدهار الدولة فشمل كافة المدن المفتوحة والتابعة للدولة ، فشهدنا جوامع الفاتح وبايزيد والسلطان سليم والشهزاده ومهرماه والسليمانية ومحمود باشا ومراد باشا ونيشانجي وجاندارلي زاده إبراهيم باشا وصقوللي محمد باشا في استانبول ، كما شهدنا آثار سلاطين عصر

الإزدهار ووزرائهم وولاتهم في مختلف ولايات الدولة لا تقل عظمة ولا قيمة عن تلك التي أقيمت في مركز ا لدولة .

العمارات : وهي أحدي المؤسسات الاجتماعية التي امتد أثرها وعمّت فائدتها إلي عصرنا الحديث . وكانت هذه العمارات عبارة عن أماكن يأوي إليها كل ذي كبد رطب من الإنسان والحيوان ، تقية الحر والبرد يوفر له فيها الماء والطعام ، وكافة احتياجات المحتاجين والأيتام وطلاب العلم وإبن السبيل . فقد أنشأ أورخان غازي أول عمارة مع مدرسة إزنيق ، كما أنشأت أسرة جاندارلي في إزنيق أيضاً ثلاث عمارات حتي صارت العمارات الموجودة هناك سبع عمارات . أما في بورصه ، فكان هناك أربعة وعشرين عمارة أقامها الوزراء والأمراء علاوة علي العمارات الكبري التي أمر بإنشائها كل من مراد الأول ويلدرم بايزيد ومحمد چلبي ومراد الثاني خلال مرحلة تأسيس الدولة ، وأوقفوا عليها الأوقاف . وقد قام أمراء الدولة بالإسهام في انشاء مثل هذه العمارات في كافة ولايات الدولة . وقد زادت اسهامات السلاطين والأمراء في عهد الإزدهار ، حيث شملت كافة انحاء الدولة العثمانية خلال عهود محمد الفاتح وبايزيد الثاني وسليم الأول وسليمان القانوني .

المستشفيات : وتعد المستشفي التي أمر يلدرم بايزيد بإنشائها في عام ١٣٩٩م/ ٨٠١هـ في شرق مدينة بورصة وبجوار المسجد عند أولوداغ، أول مستشفي يقيمها العثمانيون . وقد حررت لهذه المستشفي وقفية عام ١٤٠٠م/٨٠٣هـ ، حيث تبين الوقفية أن السلطان بايزيد طلب من السلطان المملوكي الظاهر برقوق أن يرسل إليه طبيب متفقه في الطب للعمل في هذه المستشفي ، فأرسل إليه طبيب يدعي شمس الدين الصغير . وكان في هذه المستشفي ثلاثة اطباء وفردين من الصيادلة ، وفردين من ملاحظي المرضي وطباخ وخباز وغيرهم من الخدمة . ولما ضم العثمانيون ولايات سيواس وأماسيا وتوقات وچانقري وقسطموني وقونية ، أقروا شروط الأوقاف التي اوقفت علي مختلف المؤسسات ومنها المستشفيات ، حيث استمر العمل فيها وفقاً لشروط الوقف .

وقد أنشأ محمد الفاتح مستشفي عقب اقامته مدارس صحن ثمان عام ١٤٧٠م/٨٧٥هـ ، وأوقف عليها الأوقاف . وفي عهد بايزيد الثاني قام أقام السلطان مستشفي في أدرنه ، وإلي جوارها مدرسة للطب عام ١٤٨٥م/٨٩٠هـ . وفي عام ٩٤٦/١٥٣٩هـ ، أمرت خرم سلطان زوجة سليمان القانوني ببناء مستشفي إلي جوار جامع خاصكي سلطان في استانبول . كما أمر السلطان سليمان القانوني بانشاء مستشفي إلي جوار كلية السليمانية عام ١٥٥٥م/٩٦٣هـ . ولم يتردد وزراء الدولة وأمرائها في المساهمة في اقامة المتسشفيات في كافة أنحاء الدولة والإهتمام بما كان موجود منها وتدعيمة ووقف الأوقاف عليه.

منازل القوافل والخانات : وهي تلك المنازل التي كانت تقام علي الطرق في المدن والضواحي . وكانت هذه المنازل تختلف عن بعضها البعض ، فكان يطلق علي المترل الذي توجد في صحنه فسقية وفناء واسع اسم " كره وت " ، أما المترل الذي له حدود معلومة فكان يعرف باسم " كروانسراي " . ولم يكن بهذه المنازل حجرات ، بل كان الأفراد يجلسون علي الكروت ويتكئون عليها . وما يميز هذه المنازل عن الخانات التي كانت موجودة علي الطرق أيضاً ، هو أن تلك الخانات كان بها حجرات تشبه حجرات الفنادق اليوم إلي حد كبير . وكان الكروانسراي عبارة عن مترل استضافة عام يرد إليه المسافرون ، حيث كان أي شخص يمكن أن يترل في هذه المنازل بصرف النظر عن ملته أو دينه أو مذهبه ، فكان له حق الأكل والشرب والنوم ثلاثة أيام . وكانت الدولة تضع علي مثل هذه الأماكن أفراد مناوبة لحماية قوافل المسافرين والتجار من أي هجوم يمكن أن يتعرضوا له عند مرورهم من الأماكن الخطيرة والوديان السحيقة . وكان هؤلاء المناوبون يقيمون بجوار طرق السفر .

الزوايا : لقد لعبت هذه الزوايا دوراً هاماً في تأسيس الدولة العثمانية ، حيث كانت هذه الزوايا تُمنح لأفراد طرق الأخيان والآلب كوقف . وكانت تقع عموماً في أطراف المدن والضواحي وفي القري وعلي الطرق . أما أصحاب هذه الزوايا الذين كان يطلق عليهم إسم زاويه دار ، فكانوا يقومون بزراعة الأراضي التي تمنح لهم حول الزاوية

كوقف ، حيث كان يصرف دخل هذه الأراضي علي الزاوية . وكان لكل مسافر يمـــر علي الزاوية مكان للطعام والشراب والنوم[٣٩١] .

[391] بخصوص اسهامات الدولة العثمانية العلمية والإجتماعية وتفاعلهم مع الحركة الحضارية في العالم الإسلامي خلال عصري التأسيس والإزدهار ، أنظر : Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/583-590, 637- 646



المصادر والمراجع

أولاً – المصادر :

- بنجيك قانوني ، مكتبة عارف أفندي ، رقم ١٧٣٤
- خضر إلياس ، تاريخ أندرون ، استانبول ١٢٧٦
- عارف محمد ، قانون نامه آل عثمان ، تاريخ عثماني أنجماني مجموعه سـي ، العلاوة ، استانبول ١٣٣٠
- عاشق باشا زاده ، تواريخ آل عثماني ، نشر علي بك ، استانبول ١٣٣٢
- عبد الرحمن باشا قانوننامه سي ، ٣ جزء ، استانبول ١٣٣١
- عبد الرحمن وفيق ، تكاليف قواعدي ، استانبول ١٣٢٨
- فنديقلي محمد أغا ، سلاحدار تاريخي ، ج ١ ، استانبول ١٣٣٤
- قوانين يكيجريان ، مكتبة السليمانية ، أسعد أفندي رقم ٢٠٦٨
- قوجي بك ، رساله ، نشر أحمد كمالي أقسوت ، أستانبول ١٩٣٩
- كاتب جلبي ، دستور العمل في اصلاح الخلل ، استانبول ١٢٨٠
- كتاب مستطاب ، نشر يشار يوجل ، انقره ١٩٧٤

ثانياً – المراجع

- Acun Fatma, "Klasik Dönem Eyalet İdare Tarzı Olarak Timar Sistemi ve Uygulaması" (نظام التيمار كطرز لإدارة الإيالة خـلال العصر العثماني الأول), Türkler, c. X/899-908
- Akgündüz Ahmed, Osmanlı Kanunnameleri ve Hukukî Tehlîlleri (القوانين العثمانيـة وتحليلاتهـا الشـرعية), c.I., İstanbul 1990, s.204-207
- Aydın Taneri, Osmanlı İmparatorluğu'nun Kuruluş Döneminde Vezir-i A'zamlık (الـوزارة العظمـي في عصـر تأسـيس الإمبراطورية العثمانية), Ankara 1974

- Bostan İdris, "Beylikten İmparatorluğa Osmanlı Denizciliği"(البحرية العثمانية من الإمارة وحتى الإمبراطورية), Osmanlı, c.VI./122-128
- Dursun Davut, "Osmanlı Devleti'nde Din-Devlet İlişkileri Üzerine Bazı Notlar" (بعض الملاحظات حول علاقة الدين والدولة في الدولة العثمانية), Osmanlı, VI/67-74
- Gencer Ali İhsan, "Osmanlı Türklerinde Denizcilik" (البحرية عند الأتراك العثمانيين), Türkler, c.X/569-589
- Göyünç Nejat, "Kuruluş Devrinde Askerî Teşkilât ve Devşirme Düzeni" (التشكيلات العسكرية في عصر التأسيس ، ونظام الديوشيرمه), Osmanlı, c.VI/558-560
- Göyünç Nejat, "Osmanlı Devleti'nde Taşra Teşkilâtı"(تشكيلات الولايات في الدولة العثمانية), Osmanlı, c.VI/77-88
- Halacoğlu Yusuf, XVI-XVII. Yüzyıllarda Osmanlılarda Devlet Teşkilâtı ve Sosyal Yapı (تشكيلات الدولة لدى العثمانيين خلال القرنين ١٦-١٧م والبناء الإجتماعي), Ankara1996
- Irına Ye. Petrosyan, "Osmanlı Devleti'nin Kuruluşu ve Yeniçerilerin Kökeni"(تأسيس الدولة العثمانية ، وأصول اليكيجري), Türkler, X/129-135
- Kapatepe Şürü, " Osmanlı'da Din-Devlet İlişkisi" (علاقة الدين والدولة لدى العثمانيين), Osmanlı , Ankara 1999, I/56-66
- Kılıç Orhan, "Klasik Dönem Osmanlı Taşra Teşkilâtı : Beylerbeyiler / Eyaletler, Kaptanlıklar, Voyvodalıklar, Melikler (1362-1799)" (تشكيلات الولايات العثمانية في العهد الأول ، إمارة الأمراء / الأيالة ، القبطانية ، الويودا ، الملكية (١٣٦٢-١٧٩٩), Türkler, c. X/887-898
- Köprülü M.F, Bizans Müesseselerinin Osmanlı Müesseselerine Te'siri Hakkında bazı mülahazalar (بعض الملاحظات حول تأثير المؤسسات البيزنطية على المؤسسات العثمانية), THITM, sy.I

- Kunt Metin, Sancaktan Eyalete : 1550-1650 Arasında Osmanlı Ümerası ve İl İdaresi-١٥٥٠ (الأمراء العثمانيين في الفترة ما بين ١٥٥٠ ، ١٦٥٠ وإدارة الولاية), İstanbul 1978
- Mumcu Ahmed, Osmanlı Devleti'nde Siyaseten Katl (القتل سياسة في الدولة العثمانية) Ankara 1985
- Mumcu Ahmed, Hukuksal ve Siyasal Karar Organı Olarak Divan-i Hümayûn (الديوان الهمايوني كجهاز صاحب قرار تشريعي وسياسي), Ankara 1976
- Özcan Abdulkadır, "Osmanlı Devleti'nin Askerî Yapısı" (البناء العسكري للدولة العثمانية), Türkler, X/107-117
- Özcan Abdulkardır, " Fatih'in Teşkilât Kanunnamesi ve Nizâm-i Alem için Kardeş Katli Meselesi" (قانون تشكيلات الفاتح ومشكلة قتل الأخوة من أجل نظام العالم)، , İÜ. EF. Derih Dergisi, İstanbul 1982, sy. 33, s.7-57
- Seyyid Muhammed Es-Seyyid, "Osmanlı Askeriyesinde ve Askerî Tarihinde Mısır'ın Yeri" (مكانة مصر في العسكرية العثمانية وفي تاريخها العسكري), Türkler, X/159-171
- Taşkıran Cemalettin, "Yükselme Döneminde Osmanlı Ordusu"(الجيش العثماني في عصر الإزدهار), Osmanlı, c.VI./561-568
- Uzunçarşılı I.H., Osmanlı Devleti Teşkilâtına Medhal(المدخل لتشكيلات الدولة العثمانية), Ankara 1941,IX-XIV, 1vd.
- ________, Osmanlı Devletinin Saray Teşkilâti, Ankara 1984
- ________, Osmanlı Devleti Merkez ve Bahriye Teşkilati (التشكيلات المركزية والبحرية في الدولة العثمانية), Ankara 1943
- ________., Osmanlı Tarihine ait yeni bir vesikanın ehemmiyeti ve izahı ve bu münasebetle Osmanlılarda İlk vezirlere dâir mütala'a" (أهمية وثيقة جديدة تتعلق بالتاريخ العثماني،

(وإيضاحاتها ، ومطالعة حول الوزراء الأوائل لـدي العثمـانيين), Belleten, III/9, Ankara 1939, s. 99-133

- ___________, Osmanlı Devletinin İlmiye Teşkilâtı (التشكيلات العلمية في الدولة العثمانية), Ankara 1984
- Uzunçarşılı, Osmanlı Devleti Teşkilâtından Kapukulu Ocakları (اوجاقات القابو قولي من تشكيلات الدولة العثمانيـة), I-II, Ankara 1984
- Ünal Mehmet Ali, Osmanlı Devleti'nde Merkezî Otorite ve Taşra Teşkilâtı" (السلطة المركزية لدي الدولة العثمانية ، والتشكيلات المحلية), Osmanlı, c.VI/111-122

الخـــاتمة

مما تقدم يتأكد لنا أن قبائل الترك الرحّل الذين خرجوا من أعماق آسيا وانتشروا في أنحاء مختلفة من العالم ، راحوا يعتنقون الإسلام ويشاركون في صياغة الحياة السياسية في الدولة الإسلامية مشاركة فعّالة ، ويؤسسون دولاً عظيمة كان لها دور بارز في ضخ دماء جديدة في شرايين دولة الإسلام ومواجهة التحديات المتجدّدة وتنشيط حركة الفتوح في الشرق وفي الغرب .

فقد أعلن بركه خان بدخوله الإسلام وتأسيس دولة القره خانيين في بلاد ما وراء النهر ميلاد عنصر جديد في بناء الدولة الإسلامية أخذ على عاتقه رفع راية الإسلام ونشر حضارته في ربوع بلاد الترك ، ولم يألو جهداً في ذلك حتى صارت بلاد ما وراء النهر النبع الصافي الذي راح يمد العالم الإسلامي بعشائر الترك المتمسكين بأهداب الدين الإسلامي حتى وصلت إلي وسط أوروبا غرباً والمحيط الهندي جنوباً وبلاد سيبيريا شمالاً وبلاد الصين شرقاً . ولم يكد نجم القرخانيين في الخفوت حتى ظهر في الأفق نجم جديد سطع لامعاً في سماء العالم الإسلامي ، لم يفرط في الإتجاه في الفتوح الإسلامية نحو الجنوب لأول مرة . ذلك هو نجم الغزنويين الذين حملوا النور والهدي إلي بلاد الهند ، ولم يتأخروا عن البذل والعطاء حتى انتشر الإسلام في ربوعها يقدم رسالته الخالدة للحضارة البشرية في تلك المنطقة .

وبينما كان الغزنويون يضعون نواة الحضارة الإسلامية في بلاد الهند والسند والأفغان ، ظهر كوكب منير في سماء الدولة الإسلامية أخذ على عاتقه عبئ التصدي للتحديات التي واجهت الدولة الإسلامية ، وراح يمحو بنوره الوضّاء كل أثر للحركة الشيعية المتطرفة التى نالت من نفوذ الخلافة العباسية وشقت صف العالم الإسلامي ، ويفتح الباب أمام إشراق شمس الإسلام علي ربوع بلاد الروم . كان السلاجقة هم ذلك الأمل الجديد الذي قضي علي البؤر الشيعية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، ووضع جداً لتعديات الروم علي حدود الدولة الإسلامية ، وفتح الطريق أمام العشائر التركمانية

لتسيح في آسيا الصغري ويتجدّد الأمل في فتح حاضرة الدولة البيزنطية في القسطنطينية من جديد .

وفي الوقت الذي كان فيه نور هذا الكوكب يركن إلى الزوال ، أشرقت في أقصى الحدود الغربية للدولة الإسلامية وفي شمال غربي شبه جزيرة آسيا الصغري (الأناضول) شمس كان ضياؤها أكثر شمولاً وأعمّ أثراً وأبعد مدى . وكان هذا الأمل قد انتقل في رحلة عسيرة من أقصى بلاد الترك غرباً حتى وصل إلى تلك المناطق الحدودية ليشارك في الدفاع عن الثغور الإسلامية وغزو بلاد الروم . ولم يكد يمر قرن من الزمان حتى أعلن عن شروق شمس جديدة في غربي الأناضول وشرقي أوروبا ، هي شمس الدولة العثمانية .

والحقيقة أن الدولة العثمانية خلال عمرها المديد مرت بمراحل طويلة من التأسيس والإزدهار قبل الوصول إلي مراحل الضعف والإنهيار التي كانت أكثر ثقلاً وأطول زمناً . فمع أفول شمس القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري كان قد أعلن عن ميلاد الدولة العثمانية . والحقيقة أن هذا المولود الجديد للدولة الإسلامية راح ينشأ علي الغزو الجهاد منذ أول يوم حتى اشتد ساعده وقوي بنيانه واحتل مكانته في الدولة الإسلامية نتيجة النجاحات المتتالية التي حققها في أوروبا . وإذا كان هذا العضو الجديد في أسرة العالم الإسلامي راح يتعرض لأزمة كبري أطاحت بقسم كبير من انجازاته في الشرق والغرب علي يد سفاح الشرق تيمورلنك ، إلا أنه تمكن بعزم من حديد من تجاوز المحنة ، وعاد أقوى قبضة وأشد شكيمة وأمضى سيفاً عن ذي قبل خلال نصف قرن من الزمان .

لم يكد يمضي على اعلان قيامها قرن حتى حاصرت الدولة العثمانية القسطنطينية لأول مرة . ولم يثنيها ما مرت به من ملمات خلال مرحلة الفتور عن تجديد العزم لفتح حاضرة الدولة البيزنطية ، بشرى رسول الله صلي الله عليه وسليم . ولذلك ، كان فتحها علي يد " نعم الأمير " سمي رسول الله وبسيوف " نعم الجيوش " ،

اعلاناً لميلاد الإمبراطورية العثمانية ، وبداية عصر السطوة والإزدهار الذي امتد لما يقرب من قرن ونصف من الزمان .

لقد كان سقوط بيزنطة ، القسطنطينية ، استانبول ، في يد العثمانيين بداية لسقوط بقية معاقل دولة الروم الشرقية . وكان دحر التحالفات الصليبية الأوروبية أكثر من مرة وفي أكثر من ميدان بداية لميلاد قوة دولية جديدة في مطلع العصر الحديث ، وكان اتخاذ القسطنطينية عاصمة دائمة للدولة العثمانية والسعي لجعلها تأخذ مكانها اللائق بين حواضر العام الإسلامي اعلاناً عن ميلاد قيادة اسلامية جديدة تضع احدى قدميها في الشرق والقدم الأخرى في الغرب . فخلال عصور محمد الفاتح ، وسليم الأول وسليمان القانوني أمكن للدولة العثمانية تحقيق طموحاتها في العالم الإسلامي باعلانها كقيادة جديدة أعادت الجمع بين السلطتين المدنية والدينية وقادت العالم الإسلامي لتحقيق السطوة المطلقة في العالم لمدة تربو علي قرن من الزمان . فلم تزعزع مكانتها تحالفات الدول الأوربية واتفاقيات الشرق والغرب ، فأمكن لها دحر الهابسبورج في البر والبحر حتى حاصرت فيينا وفرضت سلطتها المطلقة في بلاد المجر وانتزعت شمال أفريقيا من أيديهم ، وبسطت نفوذها علي البحر المتوسط ، وتمكنت من تأديب الشيعة واستعادة العراق وشرق الأناضول من أيديهم وانتزعت العاصمة الصفوية في تبريز غير مرة وأحبطت محاولاتهم للتربص بالشام ومصر واعادة المذهب الشيعي إليهما والإتفاق مع الحلف الصليبي الغربي ، وتصدت لتعديات البرتغال في البحار الشرقية والبحر الأحمر وأفسدت مساعيهم للتعدي علي الحرمين الشريفين وتحويل التجارة الشرقية وقطع الشريان الإقتصادي الحيوي عن العالم الإسلامي ، ودعّمت المقاومة القرمية للتصدي للروس الذين حاولوا الإستيلاء علي ميراث دولة ألتون أوردو في بلاد القفقاس والقرم حتى حدّت من الخطر الروسي لأكثر من قرنين من الزمان .

والحقيقة أن حياة الدولة كحياة الشعوب تقاس بانجازاتها السياسية والحضارية الباقية . ولم يكن هذا الإنجاز العثماني الكبير يتجاوز هذه الحقيقة بحال . فلابد أن يكون علي رأس هذا الإنجاز الضخم رجال علي نفس المقدرة والقوة والسمو . فلا يمكن

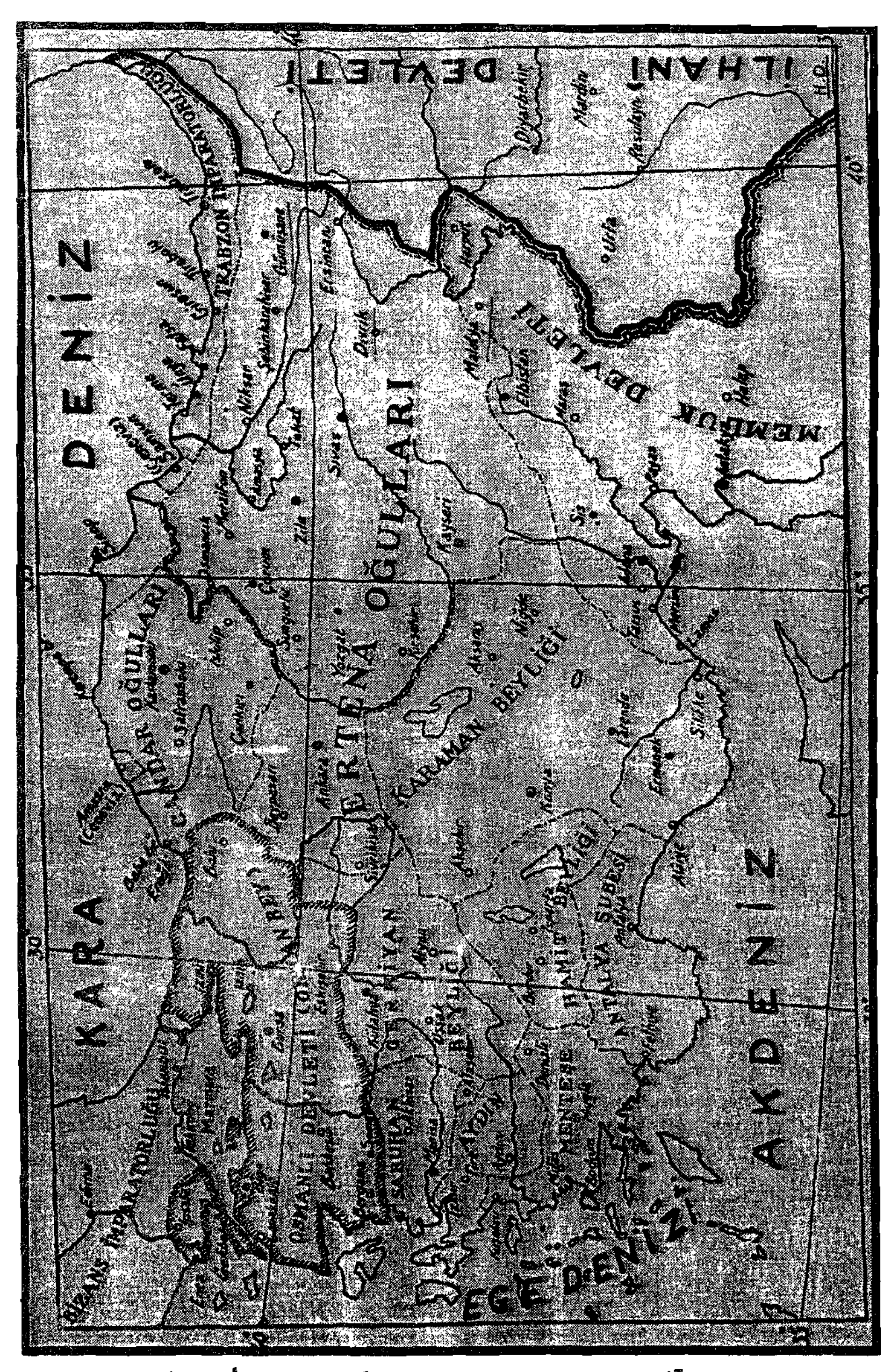
لعناصر ضعيفة وأرواح خاوية غير مؤمنة بما تبذل من أجله النفس والنفيس ، لا يمكن لها أن تقيم صرح عظيم يقاوم عوامل الخلل لأكثر من ثلاثة قرون من الزمان . فقد قام علي هذا الصرح مؤسسات إدارية وعسكرية ومالية وقضائية واجتماعية راسخة البنيان ، وتشكيلات عملت في هذه المؤسسات دون تمييز في الجنس والدين واللغة ، وكان فيها مبدأ المساواة والبقاء للأصلح والأنفع للدين وللدولة . حتى إذا بدأ الفساد يدب في هذه المؤسسات وتلك التشكيلات ، راحت عوامل المقاومة الذاتية تفعل فعلها ، وبدفع مظاهر الفساد بكل قوة لما يقرب من قرن من الزمان ، ولم تؤثر في هذا البنيان العظيم إلا بعد أن نالت عوامل الخلل من الأسس التي قامت عليها الدولة لأول مرة .

ومهما يكن من أمر ، فإن الدولة العثمانية لم تفرط خلال رحلتها من النشأة والنمو إلي الإزدهار والفتوة في حماية العالم الإسلامي من الحملات الصليبية في الشمال والجنوب ، ولم تتواني عن مواجهة الزحف الشيعي من الشرق ، ونجحت إلي حدّ كبير خلال القرن ١٦م/١٠هـ من الخروج بالعالم الإسلامي آمناً علي أراضيه ودينه وثرواته فضلاً عن أنها مدّت فتوحاته ، وأعلنت سطوته المطلقة علي العالم لأكثر من قرن من الزمان .

الخـــرائط

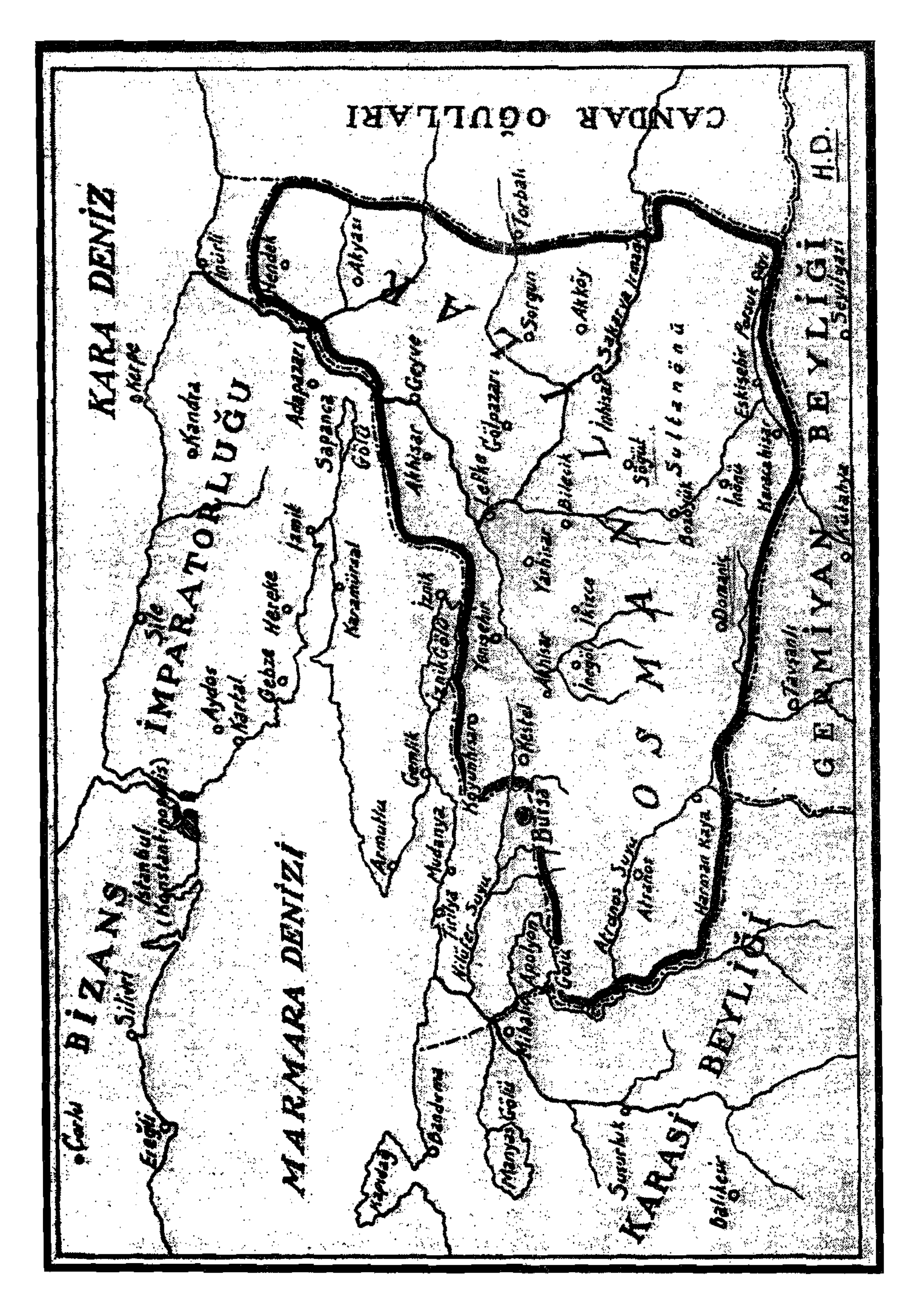


مواطن الترك الأولي (نقلاً عن موسوعة " توركلر ")

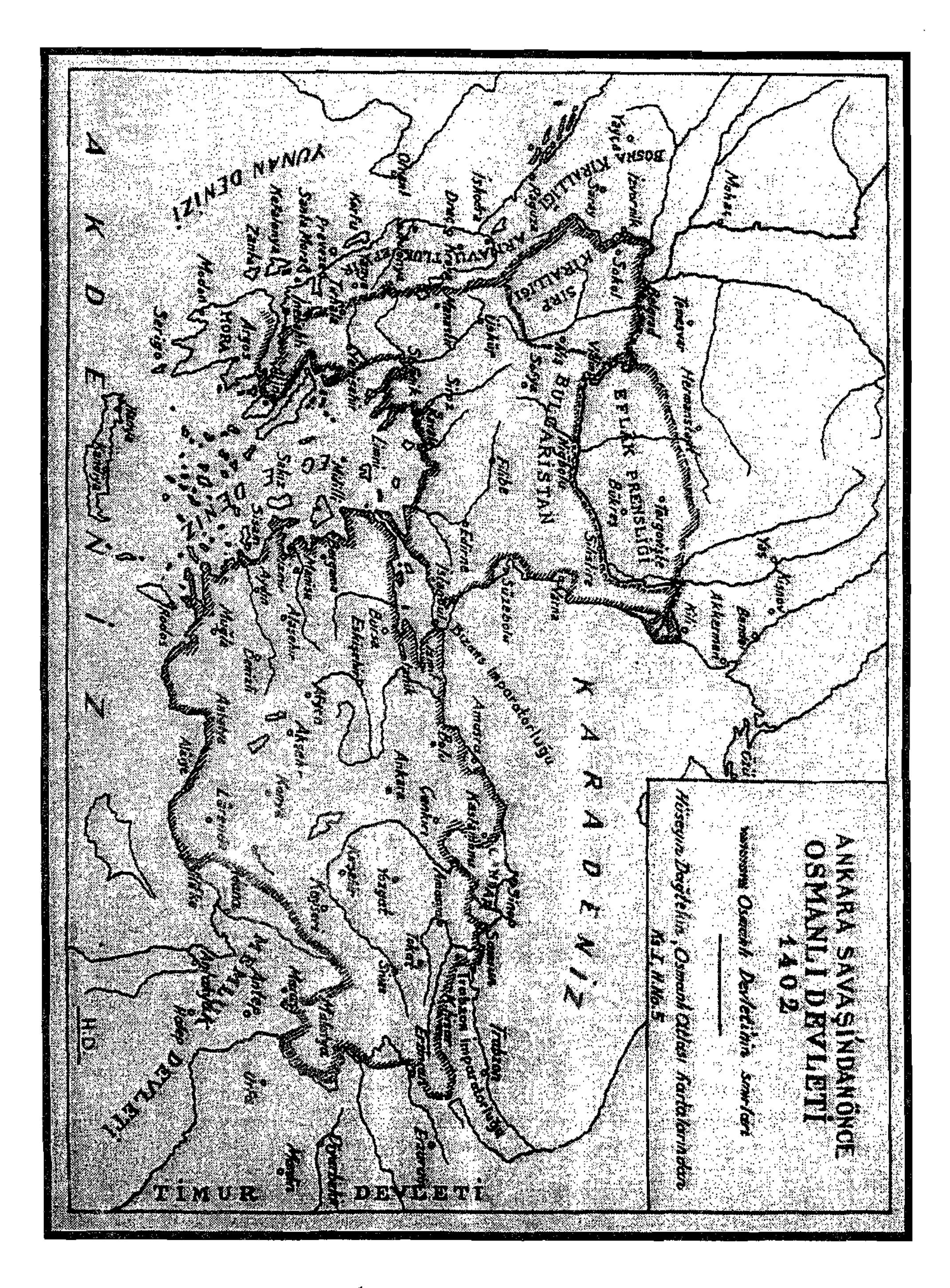


إمارة آل عثمان ضمن الإمارات التركمانية في الأناضول

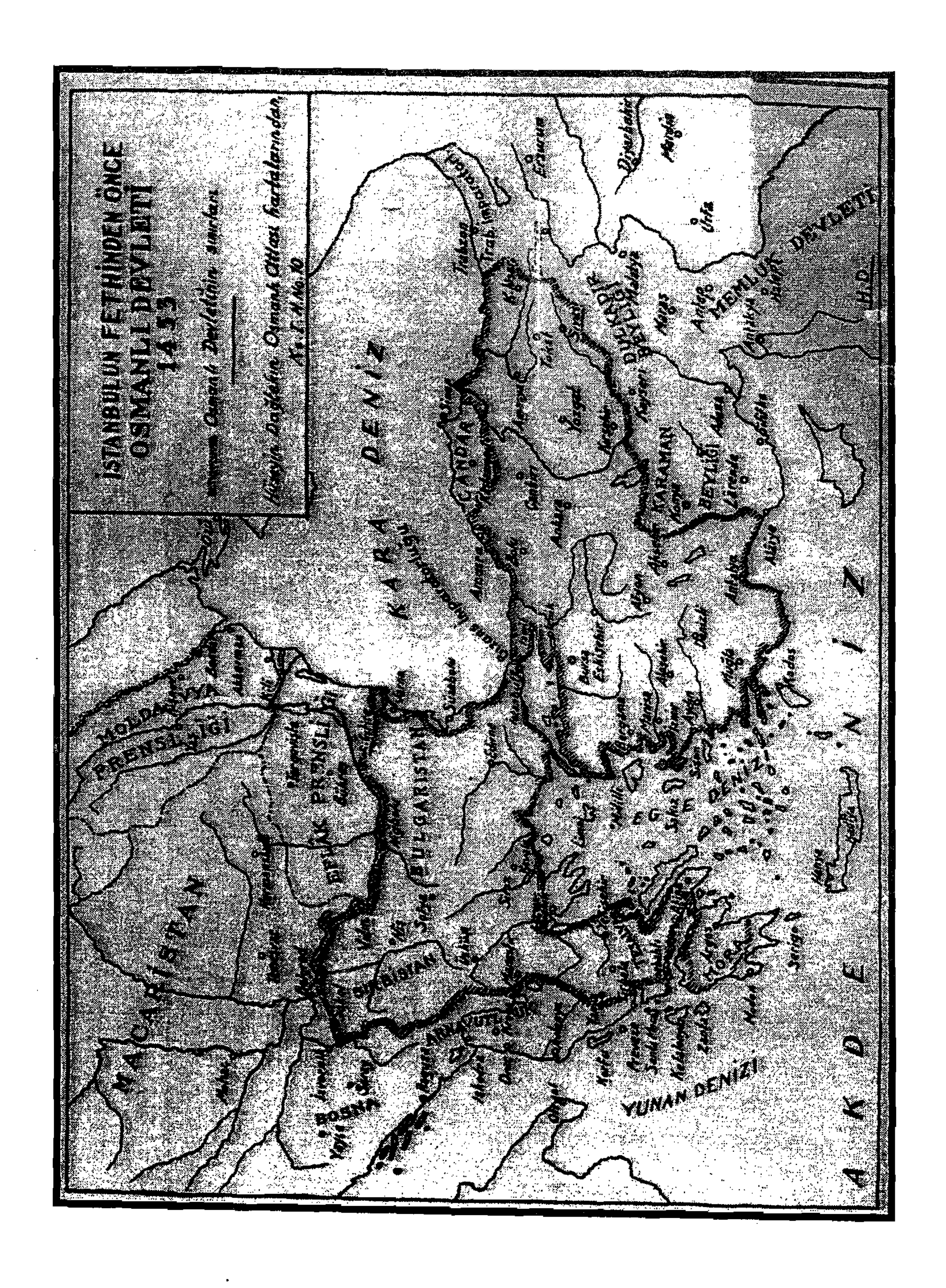
خلال النصف الأول من القرن ١٤م (نقلاً عن أوزون جارشلي ج ١)



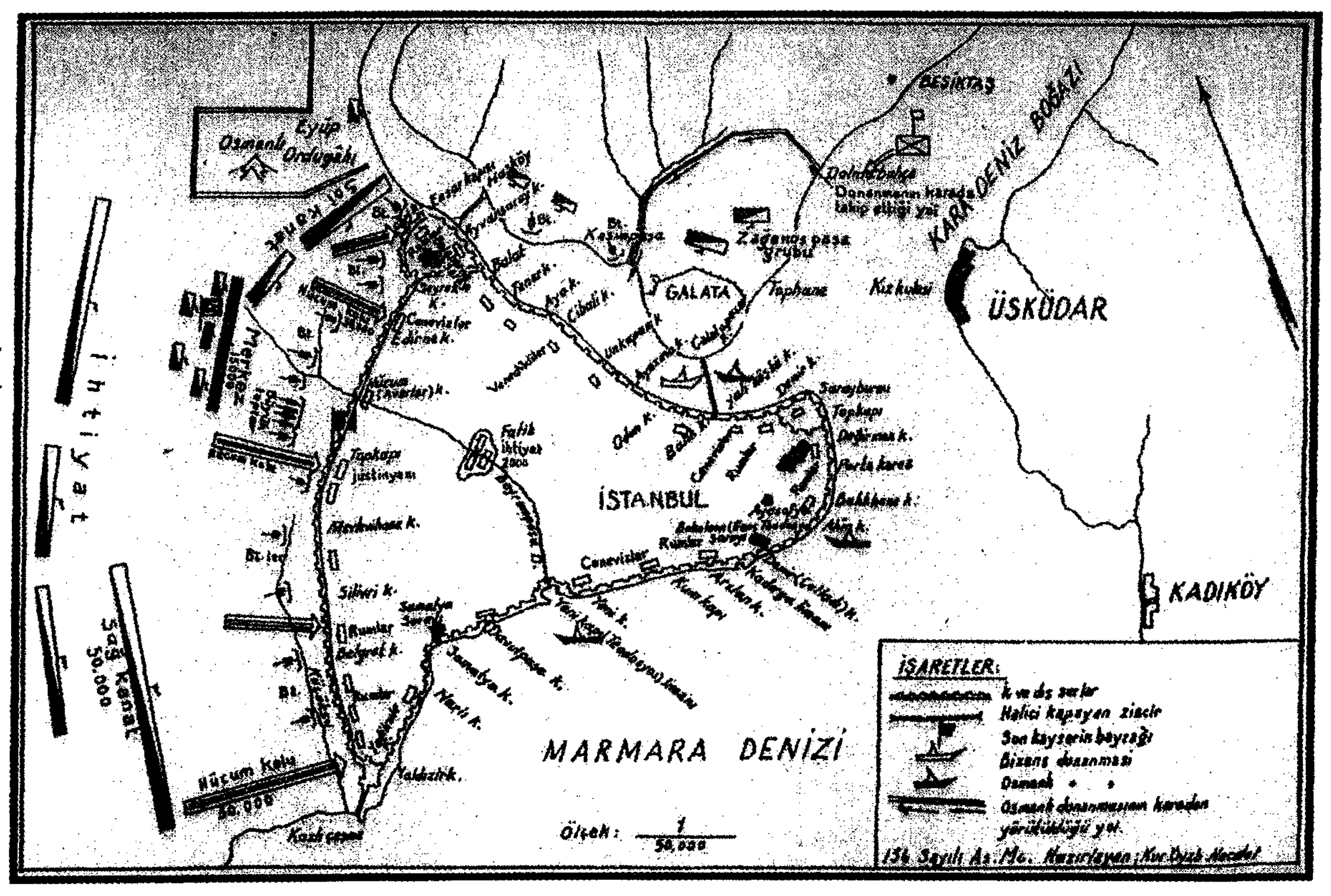
إمارة آل عثمان في بداية مرحلة النشأة (نقلاً عن أوزون جارشلي ج١)



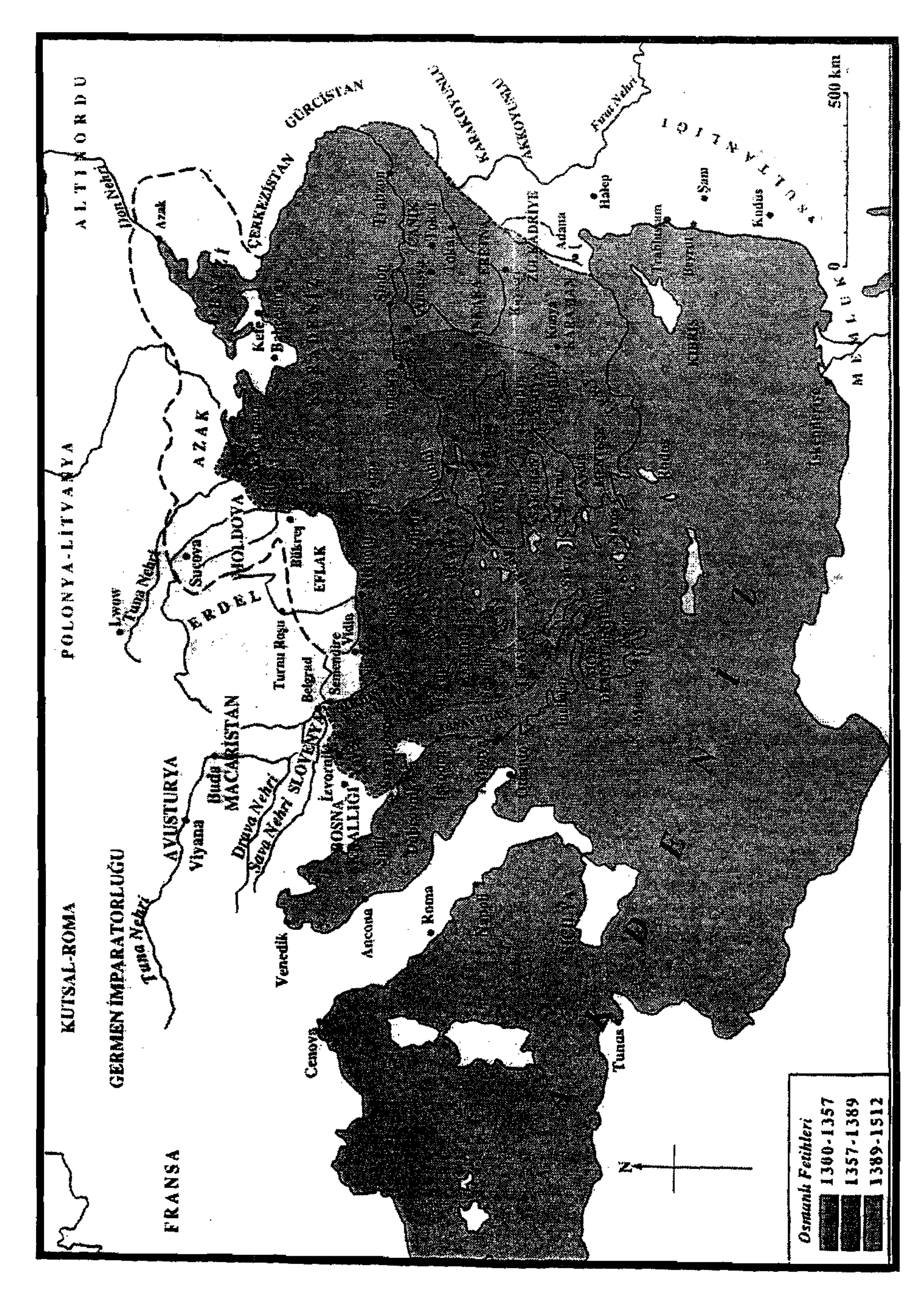
الدولة العثمانية في نهاية مرحلة التأسيس الأولي (نقلاً عن أوزون جارشلي ج١)



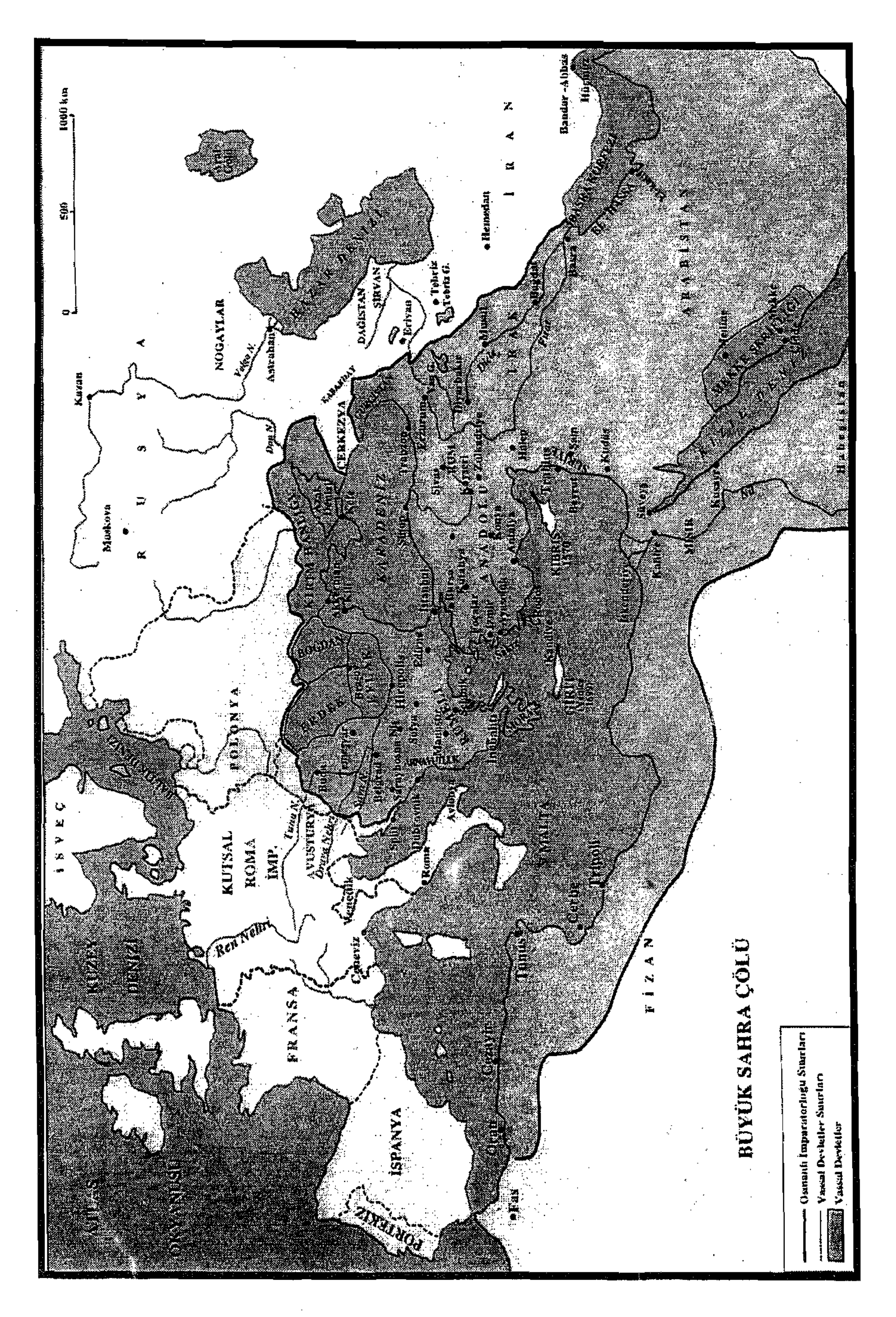
الدولة العثمانية قبيل فتح القسطنطينية (نقلاً عن أوزون جارشلي ج١)



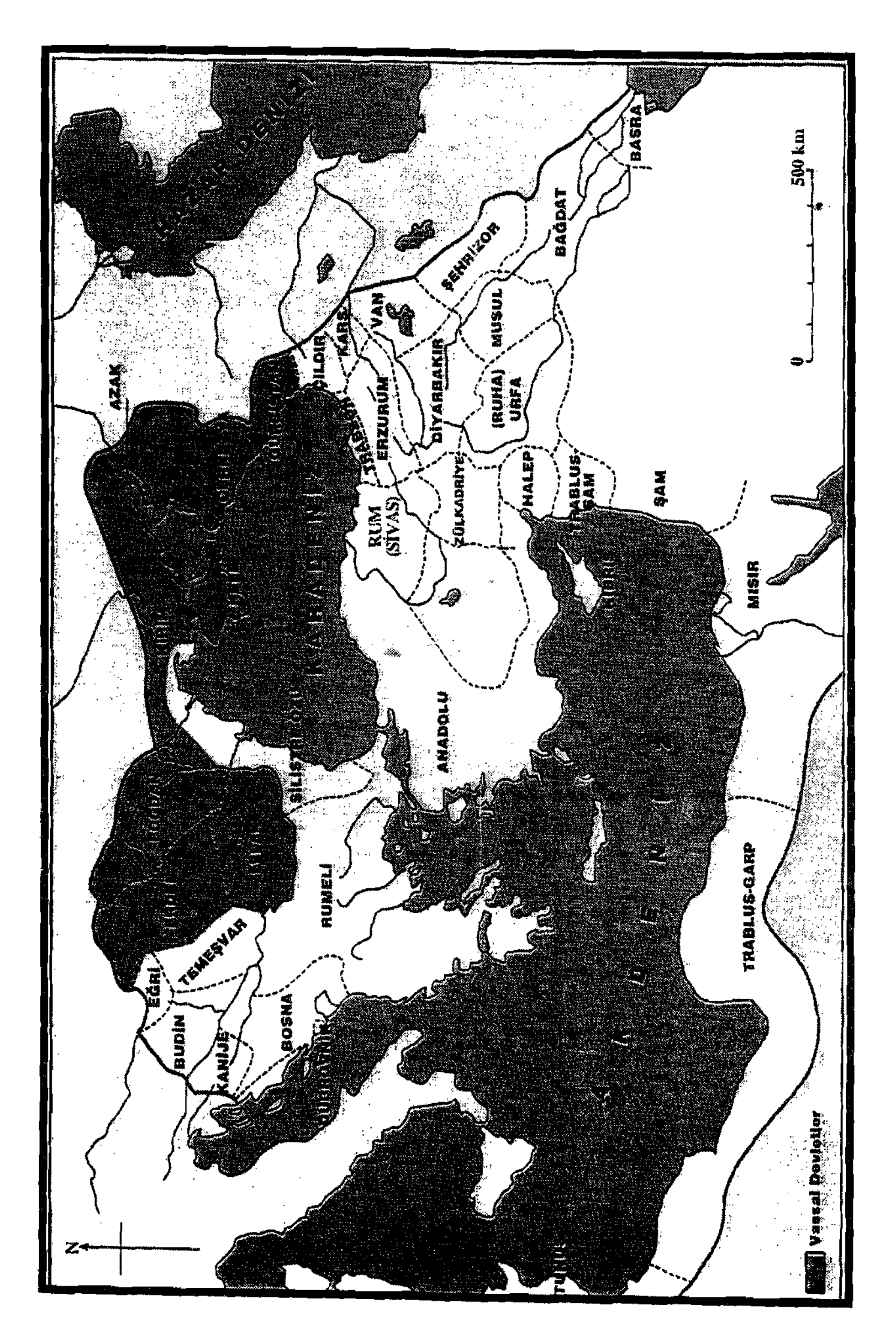
حصار القسطنطينية



الدولة العثمانية في الفترة ما بين ١٣٠٠-١٥١٢م (نقلاً عن موسوعة توركلر)



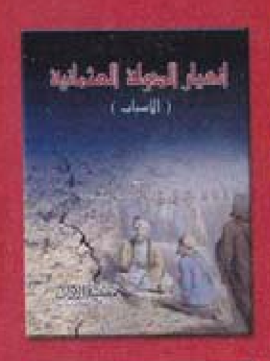
الإمبراطورية العثمانية خلال أواسط القرن ١٦م (نقلاً عن موسوعة توركلر)



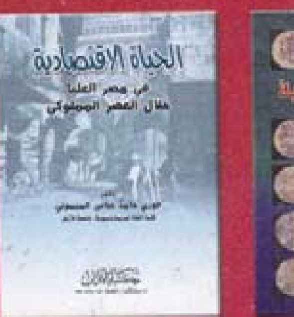
الولايات العثمانية والدول التابعة لها خلال أوائل القرن ١٧م

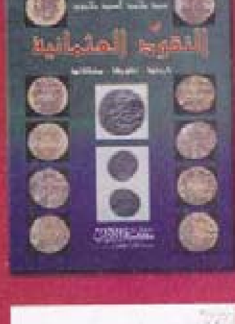
(نقلاً عن موسوعة توركلر)

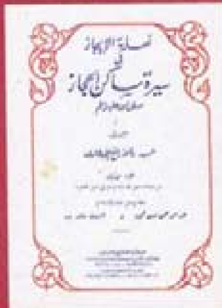
من إصدارات مكتبة الآداب

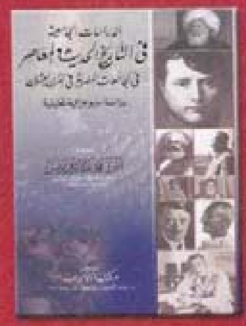


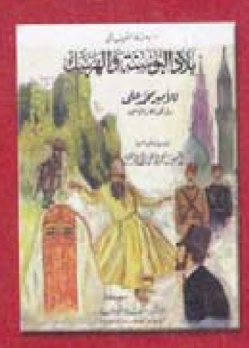


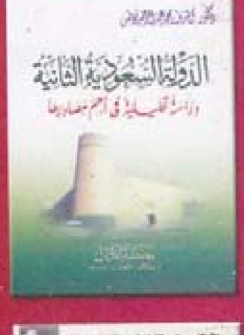














دولة المأمونيين في خوارزم

(دراسة سياسية وحضارية)

